الكتاب: الثقافة الروحية في إنجيل برنابا
المؤلف: محمود علي قراعة
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: مصادر عقائد أهل الكتاب وردودها
تحقيق:
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة:
الناشر:
ردمك:
ملاحظات:

سلسلة الروح الجامعية:
الثقافة الروحية
في إنجيل برنابا
خلاصة بحث للأستاذ محمود علي قراعة

الإهداء:

بسم الله الرحمن الرحيم

" الحمد لله غير مقنوط من رحمته، ولا مخلو من نعمته، ولا مأيوس من مغفرته، ولا مستنكف من عبادته، الذي لا تبرح منه رحمة، ولا تفقد له نعمة (١) "!

" الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور، ودلت عليه أعلام الظهور (٢) "، وامتنع على عين البصير، فلا عين من لم يره تنكره، ولا قلب من أثبته يبصره (٣)، سبق في العلو فلا شئ أعلى منه، وقرب في الدنو فلا شئ أقرب منه، فلا استعلاؤه باعده من شئ من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان به، لم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته، فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود، تعالى الله عما يقول المشبهون به والجاحدون له علوا كبيرا (٤).

" الحمد لله الذي علا بحوله، ودنا بطوله، مانح كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عظيمة وأزل، أحمده على عواطف كرمه وسوابغ نعمه، وأومن به أولا باديا، وأستهديه قريبا هاديا، وأستعينه قادرا قاهرا، وأتوكل عليه كافيا ناصرا (٥) "!

" الحمد لله الناشر في الخلق فضله، والباسط فيهم بالجود يده، نحمده في جميع

---

(١) راجع ص ١٠٤ ج ١ من نهج البلاغة للشريف الرضي من كلام علي بن أبي طالب.
(٢) أعلام الظهور: الأدلة الظاهرة التي بظهورها تظهر غيرها.
(٣) وفي رواية: فلا قلب من لم يره ينكره، ولا عين من أثبته تبصره.
(٤) راجع ص ١٠٧ و ١٠٨ ج ١ من نهج البلاغة.
(٥) راجع ص ١٤٣ من نهج البلاغة.

أموره، ونستعينه على رعاية حقوقه، ونشهد أن لا إله غيره، وأن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله، أرسله لإنفاذ أمره وإنهاء عذره وتقديم نذره! أرسله بأمره صادعا وبذكره ناطقا، فأدى أمينا ومضى رشيدا وخلف فينا راية الحق، من تقدمها مرق ومن تخلف عنها زهق، ومن لزمها لحق (١) "

وبعد، فإني أهدي هذا الكتاب إلى:

١ - روح أستاذنا الشيخ أحمد إبراهيم، الذي كان يهدي مؤلفاته الثمينة " إلى ولده العزيز الأديب النابه.. مع تقديم خالص المحبة ووافر التحية ".

٢ - روح أستاذنا محمد لطفي جمعة الذي كان يهدي مؤلفاته " إلى عالم الشباب ومحيي عهد العلوم والآداب، فرع الدوحة القراعية، وثمرة أحلى شجرة أزهرية، الجامع بين القديم والحديث، والمتشبع بروح القرآن والحديث "!

٣ - روح أستاذنا العميد الدكتور محمد حامد فهمي الذي كان يهدي مؤلفاته " تلميذه العزيز... "

٤ - روح أستاذنا العميد الدكتور أحمد أمين الذي كان يهدي مؤلفاته " للأديب الباحث المجد... "!

٥ - روح أستاذنا الشيخ عبد الجليل عشوب الذي كان يهدي مؤلفاته " لولده المفضال... ".

٦ - روح الأخ العميد الدكتور زكي محمد حسن الذي كان يهدي مؤلفاته " للأخ العزيز، مع وافر الإخلاص والتقدير.. ".

٧ - الأخ الأستاذ رياض محمد عسكر الذي أهدى مؤلفاته " لصديق الصبا والشباب.. ".

٨ - الأخ الدكتور عطية مصطفى مشرفة الذي أهدى مؤلفاته " للصديق الوفي.. ".

---

(١) راجع ص ٢٠٩ من نهج البلاغة ج ١

٩ – الأخ الأستاذ محمد عبد الغني حسن الذي أهدى مؤلفاته " لأخيه المسلم الكامل، آية حب وود قديم... ".!
١٠ – الأخ الأستاذ عبدة حسن الزيات الذي أهدى مؤلفاته " للصديق العزيز والزميل القديم والكاتب المثابر الوفي... "!
١١ – الأخ الأستاذ محمود المنجوري الذي أهدى مؤلفاته " لأخيه الحبيب الوفي، المثال النادر للصديق في الوفاء والخلق والإيمان... "!
١٢ – الأخ العميد الدكتور يحيى الخشاب الذي أهدى مؤلفاته " لأخيه مع أطيب التحية وأصدق الود... ".
١٣ – الأخ الأستاذ يحيى نامق الذي أهدى مؤلفاته " لأخيه، رمز حب وإخلاص... ".
١٤ – الإخوة الأساتذة: أمر الله محمد وجميل داود المسلمي ومحمود الغزاوي و (سيد) فتحي رضوان وتوفيق حامد المرعشلي وأحمد أبي الخضر منسي وسامي الكيال وميشيل سليم يمين ومحمد سليمان وفرج جبران، الذين أهدى كل منهم مؤلفاته " لأخيه ".
١٥ – تلك الفتاة المجهولة التي لا أعرف اسمها ولا رسمها وكتبت تقول لي " إنها كلما اشتدت بها الآلام، عادت لكتبي تجد فيها بلسما لجراحها ودافعا على الصبر في هذه الحياة، وإنها تجد فيها عزاء لروحها الهائمة وسلوى لقلبها الكليم، لأنها تناجي الله وجمال الآخرة... "!
١٦ – روح الأخ الأمير الاى حسنين لطفي الذي كان أول من لفت نظري لإنجيل برنابا!.
– وأرجو أن يكون كتابي " الثقافة الروحية في إنجيل برنابا " خير هدية تهدى للأحياء وللأموات الأحياء عند ربهم يرزقون، والسلام؟
منشية البكري في ٢٨ يونية سنة ١٩٥٨
محمود علي قراعة
رضي الله عنه

مقدمة

الحمد لله ربي الواحد الأحد، رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله " شهادة يوافق فيها السر الإعلان، والقلب اللسان (١) " والصلاة والسلام على عبديه ورسوليه " محمد ابن عبد الله، رسول الله " و " عيسى بن مريم المؤيد بروح الله "!

وبعد، فقد أزمعت الكتابة عن " الثقافة الروحية في إنجيل برنابا "، لأنه الإنجيل الذي يفيض روحانية بالحديث عن خدمة الله سبحانه وتعالى وتمجيده وحبه وتوحيده، والتوحيد كما يقول علي بن أبي طالب " أن لا تتوهمه والعدل أن لا تتهمه (٢) "، وهو ينفق مع الإسلام في هذا وفي التبشير بنبوة محمد عليه السلام، وفي استنكار السيد المسيح دعوى المدعين أنه أكبر من رسول لله أرسله نجما هاديا، ليدل الناس على الله وليعرفهم به وليوصلهم إليه! وإني لسعيد أن أتحدث عن كلمة التوحيد في هذا الإنجيل وعن ثقافة الروح فيه، من الفناء في الله وحسن العبودية له وحبه، والبعد عن الخطايا ليدعو ذلك إلى قربه، لأن التوحيد نور ولأن الحديث عنه شفاء لما في الصدور، ولأن فيه الدليل كل الدليل على التقارب الروحي لدعوة الأخوين الحبيبين محمد ويسوع عليهما صلوات الله ورضوانه وسلامه.

ولا ريب في أن هذا الكتاب هو ثمرة كلمة " اقرأ " القرآنية التي تدعو المسلم إلى أخذ الحكمة أني وجدت ونصر الحق أين كان، وهو دعوة للتوسع في القراءة اتباعا لروح القرآن الكريم، وسنتحدث فيه عن التوحيد في هذا الإنجيل وتطهير النفس للقرب من الله والبشارة بمحمد رسول الله، وسنمهد

---

(١) راجع ص ٢٦٨ من نهج البلاغة ج ١ للشريف الرضي من كلام علي بن أبي طالب.

(٢) راجع ص ٢٥١ من نهج البلاغة ج ١.

لهذا بالحديث عن تاريخ التوحيد، ونختمه ببحث عن هل وحدة الأديان ممكنة وما هو دين السلام العام والحب العام؟

ولا يظن القارئ أن الحديث عن إنجيل برنابا سهل، لأني كي ألم بما أريده منه، قرأته عدة مرات، فالقراءة الأولى لكي أستوعب ما جاء فيه، والثانية لكي أحصر أغراضي منه، والثالثة لكي أترك ما لا يتصل ببحثي من الأمور التاريخية المعروفة للجميع، والرابعة لكي أجمع حبات العقد، وهكذا.. وكذلك كان الأمر في نقل النصوص، فقد نقلتها عدة مرات، مرة بالترتيب الذي وردت فيه مع حذف ما لا ضرورة في الاستشهاد به، ومرة بترك هذا الترتيب، ونقل كل نص في موضعه الجديد الذي أريده له، وهكذا، حتى استطعت أن أحصل منه على ما أريد الحصول عليه في البحث.

على أني يجب أن ألفت نظر القارئ إلى أن أغراضي الثلاثة في الحديث عن إنجيل برنابا مبثوثة كلها فيه، وهي كما قلت كلمة التوحيد بشطريها وتطهير النفس!

وللتعريف بهذا الإنجيل أذكر أن النسخة التي اطلعت عليها، هي نسخة عربية ترجمة الأسناد خليل سعادة عن نسخة انكليزية ترجمها لونسدال راغ نائب مطران الكنيسة في فنيس ولورا راغ عقيلته عن نسخة خطية في المكتبة الإمبراطورية بفينا، كتبت بالإيطالية القديمة منذ عدة قرون، ونشرها سنة ١٩٠٨ المرحوم السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار، وقال عنه المترجم في مقدمته: " إنه إنجيل تضاربت فيه آراء الباحثين، وتشعبت بخصوصه مذاهب المؤرخين (١) " وقال إن مكتشف النسخة الإيطالية راهب لاتيني يسمى فرامرينو، وكان مقربا من البابا اسكتس الخامس، فحدث يوما أنهما دخلا معا مكتبة البابا، فران الكرى على أجفانه، فأحب فرامرينو أن يقتل الوقت بالمطالعة إلى أن يفيق البابا، فكان الكتاب الأول الذي وضع يده عليه هو هذا الإنجيل نفسه، فكاد يطير فرحا من هذا الاكتشاف، فخبأ هذه الذخيرة الثمينة في أحد ردنيه، ولبث إلى أن استفاق البابا، فاستأذنه

---

(١) راجع ص ١ من مقدمة المترجم الأستاذ خليل سعادة.

بالانصراف، حاملا ذلك الكنز معه، فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم، فاعتنق على أثر ذلك الدين الإسلامي (١).

وذكر المترجم أن التاريخ يذكر أمرا أصدره البابا جلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ يعدد فيه أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها وفي عدادها كتاب يسمى إنجيل برنابا! فإذا صح ذلك، كان هذا الإنجيل موجودا قبل وجود نبي المسلمين بزمن طويل (٢).

وسأزيد القارئ تعريفا بهذا الإنجيل عند الحديث عن المراجع في آخر الكتاب، إن شاء الله تعالى.

وسيراني القارئ كما عهد في مسلما مؤمنا حقا، كما أنه سيراني غير متعصب إلا للحق، متجردا إلا من حب الحق وخدمته!

وأذكر كدليل على عدم تعصبي كمسلم، أنه أثناء الاعتداء الثلاثي على مصر، وبينما كانت القنابل ترمى فوق رؤوسنا صباح مساء، رأيت وكنت أجتاز أحد الشوارع رجلا فرنسيا أعمى يريد أن يعبر الطريق الآخر، فنسيت كل شئ إلا أنني إنسان ومسلم، توجب علي إنسانيتي أن أساعد كل من أستطيع لمساعدته سبيلا، ويوجب علي إسلامي أن تسمو إنسانيتي على كل الاعتبارات، فحاولت أن آخذ بيده، وقلت له وأنا أتأبط ذراعه بالعربية " تفضل "، وسرت معه إلى منتصف الطريق، وإذا به يثور بالفرنسية ويقول " أنت مسلم (٣) "!؟.. لا..! وحاول أن يترك ذراعي! مع أنه كان في حالة نفسية من سماع القنابل يرثى لها - ولكن مع ذلك رفضت أن أتركه إلا بعد أن اطمأننت على وصوله بعيدا عن أخطار الطريق!!...

---

(١) راجع ص ج، د من مقدمة المترجم الأستاذ خليل سعادة.

(٢) راجع ص م من مقدمة المترجم الأستاذ خليل سعادة، وتراه يرجح في ص ر من مقدمته أن الكاتب يهودي أندلسي اعتنق الدين الإسلامي بعد تنصره واطلاعه على أناجيل النصارى، ولكننا نرى أن ترجيحه هذا لم يبن على أساس علمي صحيح، بل بنى على مجرد التخمين!

(٣) لأنهم يسمون كل عربي مسلما.

وسيرى القارئ على ذلك أني في الحديث عن إنجيل برنابا، أكثر حبا لتعاليم المسيح الصحيحة، أدعو للتوحيد الذي دعا إليه واستنكر ما استنكره من الكفر والإثم، داعيا كما دعا إلى العمل على التقرب إلى الله، وإلى الإخاء العام والسلام العام بالبشارة بمحمد رسول الله، متحدثا عن دعوة الأخوين يسوع ومحمد إلى إله واحد لا إله غيره، إلى توحيد يطهر النفوس ويزكي القلوب ويسمو بالأرواح!

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

منشية البكري في أول يوليو سنة ١٩٥٨

محمود علي قراعة

رضي الله عنه

تمهيد: تاريخ التوحيد
وتبشير المسيح به في إنجيل برنابا

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره، وأن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله

" الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالا، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا، كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وكل عزيز غيره ذليل، وكل قوي غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غيره متعلم، وكل قادر غيره يقدر ويعجز، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ويصمه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها، وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام، وكل ظاهر غيره باطن، وكل باطن غيره غير ظاهر، لم يخلق خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان ولا استعانة على ند مثاور ولا شريك مكاثر ولا ضد منافر، ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون (١)، لم يحلل الأشياء فيقال هو فيها كائن ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن، لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما زرأ، ولا وقف به عجز عما خلق، ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر، بل قضاء متقن وعلم محكم وأمر مبرم، المأمول مع النقم والمرجو من النعم (٢).

" ما وحده من كيفه، ولا حقيقته أصاب من مثله، ولا إياه عنى من شبهه، ولا صمده (٣) من أشار إليه وتوهمه، كل معروف بنفسه مصنوع، وكل قائم في سواه معلول، فاعل لا باضطراب آلة، مقدر لا بجول فكرة، غني

---

(١) داخرون أذلاء من دخر ذل وصغر.
(٢) راجع ص ١٢١ - ١٢٣ من نهج البلاغة ج ١.
(٣) قصده.

لا باستفادة، لا تصحبه الأوقات ولا ترفده الأدوات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أزله، بتشعيره المشاعر، عرف ألا مشعر له، وبمضادته بين الأمور عرف ألا ضد له، وبمقارنته بين الأشياء، عرف أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة والوضوح بالبهمة والجمود بالبلل والحرور بالصرد، مؤلف بين متعادياتها، مقارن بين متبايناتها، مقرب بين متباعداتها، مفرق بين متدانياتها، لا يشمل بحد ولا يحسب بعد، وإنما تحد الأدوات أنفسها وتسير إلى نظائرها، بها تجلى صانعها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون لا يجري عليه السكون والحركة، وكيف يجري عليه ما هو أجراه، ويعود فيه ما هو أبداه، ويحدث فيه ما هو أحدثه؟! إذا، لتفاوتت ذاته ولتجزأ كنهه ولامتنع من الأزل معناه، ولكان له وراء إذا وجد له أمام، ولالتمس التمام إذا لزمه النقصان، وإذا لقامت آية المصنوع فيه ولتحول دليلا بعد أن كان مدلولا عليه، وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره، الذي لا يحول ولا يزول ولا يجوز عليه الأفول! ولم يلد فيكون مولودا، ولم يولد، فيصير محدودا، جل عن اتخاذ الأبناء وطهر عن ملامسة النساء، لا تناله الأوهام فتقدره ولا تتوهمه الفطن فتصوره، ولا تدركه الحواس فتحسه، ولا تلمسه الأيدي فتمسه، ولا يتغير بحال ولا يتبدل بالأحوال ولا تبليه الليالي والأيام، ولا يغيره الضياء والظلام، ولا يوصف بشئ من الأجزاء ولا بالجوارح والأعضاء، ولا بعرض من الأعراض، ولا بالغيرية والأبعاض ولا يقال له حد ولا نهاية ولا انقطاع ولا غاية، ولا أن الأشياء تحويه، فتقله أو تهويه أو أن شيئا يحمله فيميله أو يعدله، وليس في الأشياء بوالج، ولا عنها بخارج، يخبر لا بلسان ولهوات، ويسمع لا بخروق وأدوات، يقول ولا يلفظ، ويحفظ ولا يتحفظ، ويريد ولا يضمر، يحب ويرضى من غير رقة، ويبغض ويغضب من غير مشقة، يقول لمن أراد كونه كن فيكون، لا بصوت يقرع ولا بنداء يسمع، وإنما كلامه سبحانه فعل منه، أنشأه ومثله، لم يكن من قبل ذلك، ولو كان قديما، لكان إلها ثانيا!

" لا يقال كان بعد أن لم يكن، فتجري عليه الصفات المحدثات، ولا يكون

بينها وبينه فصل، ولا له عليها فضل، فيستوي الصانع والمصنوع ويتكافأ المبتدع والبديع، خلق الخلائق على غير مثال خلا من غيره، ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه، وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال، وأرساها على غير قرار، وأقامها بغير قوائم، ورفعها بغير دعائم، وحصنها من الأود والاعوجاج، ومنعها من التهافت والانفراج، أرسى أوتادها، وضرب أسدادها، واستفاض عيونها وخد أوديتها، فلم يهن ما بناه، ولا ضعف ما قواه، هو الظاهر عليها بسلطانه وعظمته، وهو الباطن لها بعلمه ومعرفته، والعالي على كل شئ منها بحلاله وعزته، ولا يعجزه شئ منها طلبه، ولا يمتنع عليه فيغلبه، ولا يفوته السريع منها فيسبقه، ولا يحتاج إلى ذي مال فيرزقه، خضعت الأشياء له وذلت مستكينة لعظمته، لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه وضره، ولا كفؤ له فيكافيه، ولا نظير له فيساويه، هو المفني لها بعد وجودها حتى يصير موجودها كمفقودها، وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها، وكيف لو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها وما كان من مراحها وسائمها وأصناف أسناخها وأجناسها، ومتبلدة أممها وأكياسها، على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها، ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها، ولتحيرت عقولها في علم ذلك وتاهت، وعجزت قواها وتناهت، ورجعت خاسئة حسيرة، عارفة بأنها مقهورة، مقرة بالعجز عن إنشائها، ومذعنة بالضعف عن إفنائها!

" وإن الله سبحانه، يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شئ معه، كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها، بلا وقت ولا مكان، ولا حين ولا زمان، عدمت عند الآجال والأوقات والسنون والساعات، فلا شئ إلا الواحد القهار، الذي إليه مصير جميع الأمور، بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فناؤها، ولو قدرت على الامتناع دام بقاؤها، لم يتكاءده صنع شئ منها إذ صنعه، ولم يؤده منها خلق ما خلقه وبرأه! ولا لو حشة كانت منه فأراد أن يستأنس إليها، ثم هو يفنيها بعد تكوينها،

لا لسأم دخل عليه في تصريفها وتدبيرها، ولا لراحة واصلة إليه ولا لثقل شئ منها عليه، لم يمله طول بقائها، فيدعوه إلى سرعة إفنائها، لكنه سبحانه دبرها بلطفه، وأمسكها بأمره، وأتقنها بقدرته، ثم يعبدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها، ولا استعانة بشئ منها عليها، ولا لانصراف من حال وحشة إلى حال استئناس، ولا من حال جهل وعمى إلى حال علم والتماس، ولا من فقر وحاجة إلى غنى وكثرة، ولا من ذل وضعة إلى عز وقدرة (١) "!

(١) أذكر أن لي قريبا دفعه حقده إلى أن يأمر أولاده بعدم تحيتي، فأساء بذلك تربيتهم وهدم بذلك ركنا ركينا من تأديبهم، ولكن له طفلة أسعد بتحيتها في الصباح كلما توجهت إلى عملي، بابتسامة بريئة عذبة، هي ابتسامة وبراءة الفطرة! وكنت في صغرى أسكن بجواز مخزن للخمور لمسيحي، فتوهمت أني أكون خيرا لو أفسدت على صاحب المخزن بضاعته، فكنت أجمع الصبية من جيراني ونلقي من فوق السطح بالقاذورات والأتربة على براميل الخمور المعتقة لكي نفسدها، فلما كبرت وتثقفت، فهمت أن تحريم الخمر على المسلم، لا يبيح له التعدي على ملك الغير بهذه الطريقة الهمجية، وأن النصح يكون بإتيان البيوت من أبوابها، لا بالاعتداء على مال متقوم بالنسبة لصاحبه المسيحي، أمرنا أن نرعى عهده ونحفظ وده!

وبذا نرى أن فطرة الطفلة في الأولى، دعتها إلى إهمال دعاية والدها الفاسدة في عداء لقريبها لا تفهمه ولا تفهم له معنى، وبراءتها دفعتها إلى ابتسامتها الحلوة، كما أن جهلي في صغرى حاد بي عن فهم ما يجب أن يكون في معاملة الغير، وصور لي الباطل حقا!

ووجدت يوما وأنا كبير في مجتمع مسيحي، فسمعت الأذان وكان يجب علي كمسلم أن أردده مع المؤذن - ولو في سري -، ولكن ظننت خطأ أن المجاملة لهؤلاء المجتمعين هي في السكوت وفي عدم الرد على المؤذن، فشعر قلبي في الحال بكبر إثم هذا الإغفال، ووخزني قلبي وطعنني ضميري

---

(١) راجع ص ٣٧٦ - ٣٨٣ من نهج البلاغة ج ١.

بوخزات مؤلمة، ثم تدفق العرق غزيرا، لأني جاملت في الحق آدميين، وكان يجب علي نصر الحق، ولو أغفلت هذه المجاملة لهؤلاء الفانين، ولكن في الوقت نفسه اغتبطت وطرب قلبي، لأني بهذا التألم برهنت لي نفسي على أني من المؤمنين الصادقين!

ولقد اهتدى الأعرابي بفطرته السليمة للتوحيد فقال: " البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، كيف لا تدلان على اللطيف الخبير؟! "

فالبعد عن مقتضى الفطرة السليمة، والجهل، هما اللذان يدفعان غير المسلم إلى الكفر والإشراك بالله، ولقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان الأول وألقى في غريزته عبادته، حتى إذا ما ابتعد الناس عن منشأهم وكثرت أكاذيب الرواة، فسد الاعتقاد بالله على قدر فساد المدارك، فأصبحوا يعبدون ما ظهر لأعينهم، ونحتوا الأصنام بأيديهم وكانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، فنشأت عن ذلك الوثنية، وابتعد بها الإنسان عن عبادة الخالق الواحد الأحد،

فأرسل سبحانه وتعالى للناس رسله لهدايتهم وإنارتهم وإخراجهم من الضلال!

(٢) ولوحظ أنه حتى في عهود الوثنية، كانت تأتي للناس فكر توحيدية، وكان بهم حنين حتى وهم غارقون في ضلالهم، لبصيص من نور الهدى!!

فنجد مثلا (أمين حوتب الرابع) أو (أمينوفيس) المعروف باسم (خوان اتن) الضوء الموجود في قرص الشمس، تولى عرش الفراعنة سنة ١٣٧٥ قبل الميلاد يقول وهو في الثامنة عشرة من عمره " إن الله واحد لا شريك له في ملكه، وجميع خلقه إخوة "، وأنكر تعدد الآلهة وأزال أسماءها من على الآثار، وأقام مكانها إلهه الواحد (اتن)!

هجر طيبة وابتنى مدينة الأفق (تل العمارنة) واتخذها كرسي ملكه وجعل من هيكلها مشرعا لدينه الجديد، ولم يضع فيه صورة ولا تمثالا، لأن الله في عرفه أجل من أن يصور أو يمثل بشئ، وإن يكن قد وضع في هيكله صورة قرص الشمس تمتد منها أشعة تنتهي بأيد بشرية مشيرة إلى أنها القوة التي تبعث

الحياة إلى جميع ما في الوجود من جماد ونبات وحيوان وإنسان، إلا أنه قال: " إن هذا لم يكن سوى رمز يقرب للناس فهم ما استقر في نفسه من أن الله هو القوة التي تنير الشمس، وأنه القادر الفعال لما يريد، خالق الخلق وبارئهم ورازقهم، محييهم ومميتهم، واحد لا شريك له في ملكه، وهو إله سلام يبغض الشر والأشرار ويعاقب من يضمر سوءا لأخيه أو يحمل له ضغنا أو يرفع في وجهه سيفا "!

ومن كلامه: "... إعلم أن الله أراد بنا خيرا، فوفقنا إلى معرفة وحدانيته الأزلية الأبدية، فضربنا عرض الحائط بتلك التعاليم الفاسدة، تعاليم الآلهة المتعددة، ونحن اليوم نعلم للعالم أجمع باسم ذلك الإله العظيم وحدة الإنسانية تحت سماء الإخاء العام! فلتمت البغضاء ولتحطم السيوف وليجتمع العالم تحت لواء واحد هو لواء الإنسانية! هذه تعاليمنا الاجتماعية، أما الدينية فلا صور ولا تماثيل، لأن الله أجل من أن يمثل، إن هو إلا القوة الكامنة في كل جزء من أجزاء الطبيعة، وهو علة العلل ومصدر الحياة، لم نجد رمزا يقر به إلى الأذهان سوى هذا القرص بأشعته المحيية.. وأنا على يقين أنه يؤيد رغائبنا ويكتب لنا هنا وفي الدار الأخرى، حياة طيبة خالدة "!

ومنه قوله: ".. الزهور تنمو وتورق وتزهر وتزهى بجمالها وبديع ألوانها، وإنها لم تكن في شئ من ذلك لولا ما يبعثه قرص الشمس من أشعته التي تمنحها حياة ونموا، أو تعلم أن الذي أودع هذه الزهور الحياة هو الذي أودع قرص الشمس تلك الأشعة المحيية، وهو هو ذلك الإله القدير... أو تعلم أن كل ما في الطبيعة من كواكب وجبال ونبات وحيوان وإنسان، إنما يتماسك ويعيش بفضل تلك القوة العظيمة التي تتمثل في قرص الشمس أحسن تمثيل... "!

ويقول: " ذلك الإله الذي وجب علينا تكريمه لا بالذبائح والمحرقات، كما كان يفعل آباؤنا، ولا بالخصام والحروب كما يفعل المتوحشون، إنما نحن

نكرم إلهنا بالتأمل في الطبيعة وفحص الضمائر والقلوب بعيدة بالمحبة والسلام "!
ويقول: " أعظم ما تتجلى فيه قدرة الإله هو الإنسان بما وهبه من عقل وقلب... (١) ".
ويقول عن صورة أشعة قرص الشمس وانتهائها إلى أيد بشرية إن تلك الصورة تمثل الشمس كأنها مصدر الحياة وتلك الأيدي الآخذة بالأشعة كأنها تستمدها منها، وليس الغرض من ذلك أن الإنسان وحده هو الذي يستمد منها حياته، وإنما في قبض تلك الأيدي عليها، ما يفيد أن كل ما هو حي يستلم حياته منها، وأن الطبيعة كلها مدينة للشمس بما فيها من قوة وحركة، والحقيقة التي لا ريب فيها أن الشمس أيضا مدينة لتلك القوة المحركة لها... ".
وتقول مارتياتون ابنة فرعون تفسيرا لذلك بقولها لهورا محب: " اعتمد على اتون الإله الواحد الأحد الذي يطلع الشمس في الصباح، فتهرع الناس من بيوتهم والأسد من مغاورها والطيور من أوكارها، يسعى كل من فضل ربه إلى رزقه، وهو الذي بقدرته يرجع الشمس إلى مقرها، فيسرع كل إلى مخبأه ويسود على الكون سكون أشبه بسكون الموت (١) ".

---

(١) راجع ص ٦ – ١١ من مقدمة نبي الفراعنة للأستاذ ميخائيل بشارة داود وص ١٦ – ٢٣ و ٩٦ حيث تقول ماريتاتون ابنة أمين حوتب الرابع (خوناتون) – زوج نفرتيتي – لهورامحب: إذا كنت لم تستطع أن تشعر قلبك معاني السلام، فاذهب إلى النيل – وانظر كيف تتهادى مياهه في هدوء وسلام. تأمل سنابل القمح كيف تتعانق جماعات تتمايل طربا تحت نسمات الرياح في أمان وسلام. تأمل أسراب الغزلان كيف تمرح برعاية الله في أمان وسلام. تأمل الزهرة كيف تتضام أوراقها متآخية يفوح عنها شذى الروائح الزكية، تهدي الناس نفحات السلام. تأمل الطير كيف يتوادد ويتسامر ويزقزق أناشيد المحبة والسلام. تأمل القمر تحيط به النجوم اللوامع يقول ضياؤها للعالم لا تخش الظلمة ونم بسلام. تأمل الشمس كيف تطلع في الأفق وتملأ الدنيا نورا تقول للعالم اعملوا للحياة في حب وسلام!
(٢) راجع ص ٣٦ من نبي الفراعنة للأستاذ ميخائيل بشارة داود.

(٣) وفي عام ٥٥١ قبل الميلاد، أنجبت الصين فيلسوفها كونفوشيوس kung (السيد كونج)، وبدأ حياته العملية مدرسا، لقن الشباب مبادئ الحكومة الرشيدة والأخلاق الحميدة، وفتح معهده - الأكاديمية - لهذا الغرض، ثم تولى منصب حاكم المدينة (شونج فو)، ثم عين وزيرا للعدل، فتوقف سيل الجرائم، وكان من مبادئه أن كل حكم ينبغي أن ينطوي على الخير، وإذا كان الحكم صالحا، فلا بد أن يصبح المحكومون كذلك، وكان يؤمن بالقدوة الحسنة والسيئة، وكان شعاره " لا تفعل بالآخرين ما لا تحب أن يفعلوه بك "، ولم يكن رجل دين، إنما كان يؤمن بكائن أعلى موجود يصدر الأوامر ويقدر المقادير!

وبعد وفاته، أضحى موضع الإعجاب القريب من التقديس وكرم جثمانه، فدفن في قبر مهبب تتصدره بوابة فخمة ويؤدي إليه طريق عريض تحف به أشجار السرو، وحرصت كل أسرة من الأباطرة على أن تضع باسمها لوحة لتكريمه (١)!

والمقصود من ذكر هذا الحكيم هنا أنه كان على عدم فطنته الدينية، يؤمن بقوة عليا تصير الكون!

وأن تشييد القبور من مظاهر الوثنية حتى عند الموحدين، وإن من شاهد المتمرغين عند قبور الأولياء والقديسين، ليستنكر هذا العمل ويرجو منعه لأنه إفساد لمعنى التوحيد (٢)!

(٤) ونحو سنة ٥٠٠ قبل المسيح، عاش بوذا في الهند ويتراوح أتباع

---

(١) راجع ص ١٨٨ - ١٩٢ لكتابي، الكتاب السبعون السنة الخامسة يناير سنة ١٨٥٨ وص ٨ - ١٥ من عدد فبراير للأستاذ حلمي مراد.

(٢) وأذكر قصة رواها لي المرحوم الأخ الأستاذ جميل داود المسلمي سكرتير السفارة السعودية الثقافي، أنه وجد في الحجاز قبل هدم القبور المعلاة فيه، رجل ذكي رأى أن الناس يتبولون بجوار كومة تراب بجوار منزله فبنى ضريحا على هذه الكومة وسماه الشيخ (مشخ) وبذا حول الناس من إيذائه بالتبول إلى تقديم النذور له! فالولي إكرامه في الاقتداء به، لا في التمسح في أعتابه!

البوذية اليوم بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مليون، وبوذا لقب معناه المستنير، هو جو تاما وكان أميرا في مملكة صغيرة في التاسعة والعشرين من عمره، متزوجا ووالدا لطفل رضيع، خرج في منتصف الليل، وصحبه خمسة رفاق!

وذات يوم بعد ست سنين من التعذيب النفسي الصارم، وبعد أن أحال نفسه إلى هيكل عظمي حتى سقط في غشية، ولما أفاق قرر أنه لكي يفتح الإنسان أسرار الكون، يجب أن يتبع طريقا وسطا بين إنكار النفس في نسك وتقشف، وبين الانغماس في الملاذ الحسية، وكان قراره هذا يعد ثورة على التعاليم الدينية، فنبذه أصدقاؤه الخمسة كمرتد مارق!

وقد جلس (جوتاما) تحت شجرة معينة عرفت فيما بعد باسم شجرة المعرفة وباللغة السنغالية باسم شجرة (بو)، وقد صمم على ألا ينهض من جلسته حتى ينال الاستنارة، وفي الساعات الأخيرة من الليل، راح في غيبوبة شاهد فيها بجلاء متأجج بالنور والحرارة كل السلاسل المتشابكة المعقدة للأسباب والمسببات التي تنظم هذه التعاسة المسماة بالحياة، وشاهد بنفس الوضوح طريق الخلاص المؤدي إلى النعمة، ولم يتردد في إعلان نفسه (بوذا) ومعناه الشخص المستنير، وعاد مباشرة إلى الرهبان الخمسة الذين تخلوا عنه، ولكنه حين اقترب منهم، هرعوا للقائه داعين إياه بالأخ!

ويرى بوذا أن سبب تعاسة الإنسان وعنائه هو الجهل، فنحن دائما نطمع إلى إشباع شئ فينا ندعوه النفس، ولكن النفس عنده لا وجود لها، فما نحن إلا تكوينات متنقلة يبلورها التتابع العام للحوادث ومجريات الأمور، فعلينا أن نهجر ذلك الوهم الخادع عن النفس، والاشتهاءات الجاهلة التي تسير معها جنبا إلى جنب، علينا أن نتعلم عن طريق تحرير عقولنا من الخرافة وتنظيم إرادتنا بصرامة وممارسة المحبة، وأن نلائم بين أنفسنا وبين الدنيا، وأن نكون متواضعين وألا نشتهي أي جزء فيها، ففي هذا يكمن السلام والسعادة الكاملة!

ومات في سن الثمانين، فكان يتجول في وادي نهر الكنج مستيقظا عند الفجر ليسير من ١٥ إلى ٢٠ ميلا واعظا دون مكافأة ودون تفرقة بين الطبقات

وكان الناس ينشرون الزهور في طريقه، وكان قصده أن يصف بدقة، وأن يعلم الناس طريقا نبيلا سعيدا للحياة والموت في هذه الدنيا!

ومع أن بوذا لم يتحدث عن الله، فقد كان يؤمن بنظام أخلاقي لا يمكن. إلا لإله عادل قادر على كل شئ، أن يأمر به، وقد آمن بأن كل عمل صالح له جزاؤه، وكل عمل شرير له عقوبته، وبصرف النظر عما تفعله بعقلك أو جسمك لكي تستطيع التخلص من تبعات القانون الأخلاقي، وعلاوة على ذلك فقد أحل الاستغراق في التأمل في الحقيقة محل تلك الطقوس الكهنوتية وتقديم الذبائح التي نبذها، وكان يرى التسامح إلى أقصى حد، وكان يقول " لا تؤمن بأي شئ، لأن حكيما قديما كتبه، لا تؤمن بأي شئ لمجرد أن أيده أو قال به المعلمون أو الكهنة، كل ما يتلاءم مع خبرتك الخاصة، وبعد استقصاء كامل يتمشى مع عقلك ويؤدي إلى سعادتك وسعادة كل الكائنات الحية من حولك، اقبله كحقيقة وعش على أساسه... (١) "

(٥) غاندي الهندوكي، الذي نعجب به كسياسي كبير، حرره بلاده بعدم العنف، كان هو وأجداده من عبيد فيشنو الإله الأعظم عند الهندوس، إلا أنه كان يؤمن بإله واحد، ويقول إن هناك قوة خفية لا سبيل إلى تعريفها تسير كل شئ وإن كنا لا نراها، لأنها لا تشبه أية قوة سواها، ندركها بحواسنا!

ويقول إنه هندوكي:

(١) لأنه يؤمن بالقداس والأوبانيشادس والبوراتاس وغيرها من الكتب الهندوكية، ويؤمن بما جاء في هذه الكتب من أن روح الإنسان ستتقمص جسد سواه حين يموت!

(٢) هو يؤمن بنظام الطبقات الذي تضعه الهندوكية، وهي البراهمة

---

(١) راجع ص ٧٨ – ٨٢ من المختار من ريدرز ديجست في أكتوبر سنة ١٩٥٧ لمكس استيمان.

(أهل الحكمة والمعرفة ورجال الدين والفقه)، والأشتريا وهم رجال الدفاع والإدارة، والفشيا الذين يحرثون الأرض ويهيئون للناس ثرواتهم، والشادورا وهم العمال، وهو تحديد لمركز الإنسان وواجب كل طبقة منها، ولكنه لا يمنح الفرد ميزة على الآخر، ويقول إن الهندوكية غير مسؤولة عن عذاب المنبوذين وعن هبة البنات لكهنة المعابد وعن زواج الأطفال!

(٣) وهو يؤمن بحماية البقرة التي نخطئ إذ نسميها عندهم عبادة البقرة، وهي ليست إلا رمزا من رموز الهندوكية، ومن أمثلة الحب الذي تدعو إليه، إذ الإنسان الذي يألف البقر ويحبه ويرحم ضعفه ومرضه، يحب الحيوانات جميعا، ومن أشفق على الحيوان، كان أكثر برا بالإنسان، ولذا يقول لأتباعه إن حماية البقرة لا تفهم وهم يعذبون إخوانهم المنبوذين، وإن إنسانا يذبح البقرة لخير في نظر الله من إنسان لا يذبحها ولا يخشى الله ويسيء إلى عباده!

(٤) وهو ليس من أعداء الوثنية، ولا ينكر الرموز والصور والتهاويل والأوثان التي يصطنعها الناس، ليعبروا بها عن عقائدهم أو تصوراتهم الدينية ويرى أنها جزء من طبيعة الإنسان، لا يستطيع أن ينزعه ولا يخلص منه، ويقول إنه لا يوجد هندوكي واحد يعتبر الوثن إلها، وإن هذا الوثن لا يثير في نفسه أي إحساس بالاحترام أمامه، وإنه يكره المادية ويحاول هدم جسمه وقتل شهواته، لتقوى روحه ويرى ربه (١)!

والغريب أنه كانت له في وثنيته هذه اجتماعات سياسية مع أنصاره المسلمين والهندوكيين يبدأها بصلاة قصيرة بالسورة الكريمة " قل هو الله أحد الله الصمد، لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد "، وهي سورة الإخلاص والتوحيد، وأكبر ظني أنه كان يموه على أنصاره باعتقاداته، لأنه كان لا يجرأ

---

(١) راجع ص ٦٥ – ٧٥ من المهاتما غاندي حياته وجهاده للأخ الأستاذ فتحي رضوان. وراجع ص ٤٦ للأخ الأستاذ محمود المنجوري في كتابه رابندرانات تاجور حيث يقول إنهم يسمون القوة التي تصل الكائنات من إنسان وحيوان وجماد، بالله الخالق، (براهما)!

أن يجابههم بإعلان رأيه في سخفها، فجاراهم، واكتفى بإعلان معارضته لها بهذا الشكل الذي اختاره!
(٦) ولقد أهداني الأخ العميد الدكتور يحيى الخشاب كتابا عن إيران في عهد الساسانيين عربه لوزارة التربية والتعليم من الفرنسية عن كريستنسن، نذكر لك صفوته فيما يتصل بموضوعنا:
(ا) فلقد بنى دين الآريين القديم على عبادة قوى الطبيعة والعناصر والأجرام السماوية، وأضيف إليها آلهة تمثل قوى أخلاقية وآراء معنوية مجسمة!
ويتفق معظم العلماء على أن مزدا (الحكيم) عند الإيرانيين - الأهورا الأكبر - كان على رأس الأهورات يتميز بالدعوة إلى الأخلاق والعمران بعكس الشياطين التي تعبدها القبائل الرحل والمحاربون واللصوص!
والمزدية أقدم عهدا من الزردشتية، ومزدا عندهم إله العالم والناس جميعا، وعلى هذا كانت الصلات بين الناس والقوى السماوية أكثر صفاء في الديانة المزدية منها في ديانات آسيا الوسطى الأخرى، ويبدو باعث الأخلاق بصفائه التام في هذا الدين!
والظاهر أن زردشت ادعى النبوة نبيا لمذهب مزدي معدل في الشرق وربما كان في الإقليم الذي تسكنه قبائل زراعية مستقرة أو شبه رحل، الذي به أفغانستان الحديثة وذلك في القرن السابع ق. م.
فعند زردشت تعتبر الديوات شياطين مؤذية، ولما بين الفريقين من الآلهة من تفاوت، نمت عنده فكرة الصراع بين الروحين اللذين وجدا منذ خلق العالم، ألا وهما روح الخير وهي نوع من تجلى مزدا، وروح الشر أونرامينو، ودين زردشت توحيد ناقص، فهناك جماعة من الكائنات المقدسة، ولكنها كلها تجليات لذات مزدا، وهي في الوقت نفسه منفذة لإرادته التي هي الإرادة الإلهية الوحيدة، فالثنائية ليست إلا في الظاهر، لأن المعركة بين الأصلين العالميين ستنتهي بالنصر الإلهي لروح الخير، وفي هذه المعركة الكبرى يجد الإنسان رسالة عليه أداؤها، فإنه بالإيمان الخالص وبالجهاد في سبيل

الحقيقة الدينية والأخلاق، وأخيرا بالجد في الأعمال التي تؤدي إلى غلبة قوى الحياة على قوى الموت، وبالمساعي المؤدية إلى الحضارة، وخاصة زرع الأرض، يقف في صف روح الخير " الفكر الطيب، القول الطيب، والعمل الطيب " وهي الأسس الثلاثة التي تنطوي عليها مبادئ الأخلاق عند زردشت! والجزاء هو الجنة والعافية والخلود في مساكن العليين، بينما العذاب الطويل في " نادي الكذب " سيكون عقاب الأشرار، ولكن بجانب المحاكمة التي يقتضيها الفرد بعد موته مباشرة، نجد في كاتات الأوستا وهي العظات المنظومة، التي تحوي أو تعبر عن وعظ زردشت إشارات إلى حساب عالمي عال، يجريه الروح والنار، روح مزدا وبلاء النار، بلاء المعدن المذاب في آخر الزمان، حين تنتهي المعركة الأخيرة بين قوى الروحين الخير والشر بانتصار مزدا!

(ب) وقد أتاح اختلاف الشعوب والأجناس، أرضا صالحة لمزج المدنيات والديانات، وقد رأينا أن الفلسفة الإغريقية قد توحدت مع الأديان الشرقية، ونتج عن ذلك تشابك كثير ومتنوع، فالديانات الغامضة – ديانات شعوب آسيا الصغرى – قد أدخلت هناك عنصرا جديدا، والآراء الفلسفية اليونانية، قد سرت إلى هذا المزيج، الذي أضيفت إليه نظريات كيماوية وسحرية والأمور المعنوية والقوى الطبيعية – التي كانت تعد آلهة – قد ظهرت في أسماء إغريقية!

وفي القرن الثاني الميلادي تطورت فكرة الجنوستيكية في الإمبراطورية الرومانية والعقائد المتعلقة بمعرفة الله! فأخذ أهل المذهب يبحثون عن أسانيد لنظرياتهم في الكتابات المسيحية المقدسة!

وهناك فرق عظيم بين الثنائية عند المزديين والثنائية عند الجنوستيكيين. ففي المزدية كل من العالمين روحي ومادي في الوقت نفسه، أما الجنوستيك ففي عكس ذلك تقرن دنيا النور بالروح ودنيا الظلمات بالمادة!

ووراء العالم المرئي وخلف العالم المعقول أيضا يوجد الله، وقد خرج العالم من ذات الله هنا عندهم بواسطة إشراقات دائمة أو تجليات، كل منها أقل درجة من سابقتها، حتى نصل إلى العالم المادي الذي هو آخر الإشراقات وأقلها نقاء، ولكن فيه الرغبة للرجوع إلى الأصل الإلهي! والمادة دنيا الجسد هي مستقر البشر، ولكن بارقة إلهية كانت في طبيعة الإنسان تريه الطريق إلى النجاة وتهديه إلى الصعود في أفلاك الإراكين إلى أن يبلغ دنيا النور!

وقد تغلغلت البوذية في إيران في إبان العهد الإغريقي.

(ج) وإذا تقصينا المصادر النصرانية، فإن أمرا خاصا يلفت نظرنا وهو الحرمة العظيمة التي كانت للشمس في الديانة المزدية الساسانية (المجوسية)، فيزدجرد الثاني يقسم بالشمس ويقول (الإله الأعلى الذي يغير الدنيا بأشعته والذي يدفئ بحرارته المخلوقات جميعا)!

والحقيقة أن الشمس التي كان يعبدها مجوس العهد الساساني ليست خور ولكن ميهر ميترا اليشتات (جمع يشت) وميترا هذا هو إله العقد ونور الصباح الذي عرفه البابليون بشمس إلههم إله الشمس الذي جعل منه الميتريون " الشمس التي لا تقهر "!

وهناك نصوص من الأوستا لا عد لها تبين أن تقديس عناصر الطبيعة قد استمرت على أنه خاصة أصيلة في الدين الزردشتي، وإنا نعرف كيف عمل الزردشتيون على المحافظة على الماء والنار من النجاسة!

فيقول أجاثياس " إن الفرس يقدسون الماء قبل كل شئ إلى حد أنهم لا يغسلون وجوههم ولا يلمسونه، إلا أن يكون ذلك للشرب أو ري الزرع "، وقد عرفنا من الدنديداد كيفية استخدام الماء للطهارة، وكان بول الثيران وحده أبعد في هذا أثرا من الماء "، ومع هذا فإن مكانة النار أعظم شأنا في الدين الزردشتي!

(ء) وكان مانى إيرانيا من أسرة عريقة، وتقول الروايات إن أمه كانت

من العائلة المالكة الاشكانية، وقد هاجر أبوه فاتك من بلدة همدان إلى بابل حيث أقام في قرية في وسط ولاية ميسين، وفي هذه القرية ولد ماني سنة ٢١٥ أو ٢١٦، وقد تعمق في درس أديان زمانه الزردشتية والمسيحية والمذاهب الجنستيكية، وزعم أنه (الفارقليط) الذي بشر به عيسى عليه السلام!

وقال ماني في أغنية بهلوية سائدة في شمال إيران " إني جئت من بلاد بابل لأبلغ دعوتي للناس كافة "!

ويرى مانى أنه كان في مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة، لأن الأول هو " العظيم الأول " (سروشا ويشار إليه أحيانا باسم زوران) وهو يتجلى في خمسة أشياء وهي بمنزلة الوسائط بين الخالق والخلق: الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة، وفي رواية شائعة بين بلاد ما بين النهرين أن العناصر الشريرة الخمسة قد كونت العوالم الخمسة لإله الظلمات وهي الضباب والحريق والسموم والسم والظلمة!

وقد أثرت الآراء المسيحية تأثيرا عظيما في مذهب ماني، والظاهر أن ماني قد أخذ نظريته في التناسخ عن المذاهب الهندية، ومن المحتمل أن يكون عن البوذية!

ويرى وسندونك أن الشخص نفسه لا يقع عليه التناسخ، وإنما يكون هذا على الأجزاء النورانية فيه، فهي التي تبعث ثم تبعث إلى أن تفنى في مملكة النور! وكذلك تمشي المذهب المانوي حين دعى إليه بعد ذلك في آسيا الوسطى مع البوذية التي كانت منتشرة هناك!

ولم يكن المانوية يعطون الماء والخبز إلى الكفار، لأن ذلك اعتداء على ذرات النور في الماء والخبز، ولكنهم كانوا يعطونهم الملابس والنقود وغيرهما من الأشياء التي لا نور فيها (١)!

----

(١) والغريب أنهم كانوا يحرمون على طبقة الصديقين طبخ الخضر، لأن فيه إغضابا لذرات النور التي فيها، وكان على السماعين وهم سواد الناس أن يطبخوا لهم الخضر التي يتغذى بها هؤلاء، وعليهم أن يكفروا عنهم بصلاتهم ما ارتكبوه من وزر في طبخ النبات!

والمحقق أن بهرام الأول أخا هرمز الأول، ترك ماني تحت رحمة رجال الدين، وحكم على ماني بالكفر فأدخل السجن حيث عذابا مبينا مات على أثره، وكان ذلك عام ٢٧٦، وفي رواية أنه صلب وسلخ حيا، ثم قطعت رأسه وحشى جلده وظل معلقا على أحد أبواب مدينة جنديسابور في الأهواز ((سوريان).

ويلخص تيودور بركونائى رأيه في أتباع ماني الكافر، فيقول: إن جميع أتباع المانوية هم من الأشرار الذين يقتلون الناس بطرق خفية شيطانية، وهم يرتكبون الفاحشة فيما بينهم بلا حياء، وقد تجردوا من الرحمة، وليس فيهم فضيلة!

(٥) وقد أخذ رجال الدين الزردشتيون يفقدون نفوذهم يوما بعد يوم، وخفت حدة التعصب وأصبح المستنيرون يؤثرون قواعد الأخلاق على عقائد الدين، وكثرت الشكوك حتى اتسع الأفق وكثر المفكرون وأصبحت الخرافات الدينية الكثيرة المزدية تضايق رجال الدين أنفسهم واخترعت الشروح العقلية، وقال أحد الموابذة تضايق رجال الدين أنفسهم واخترعت الشروح العقلية، وقال أحد الموابذة في مناظرة مع جورجيوس المسيحي " نحن لا نعتبر النار إلها، ولكنا نعبد الله بواسطتها "! وسرعة انتشار الإسلام في إيران يرجع إلى أسباب عدة من بينها سبب نفساني نراه في ثنايا كتب الحكمة، وبشكل أوضح في آراء برزويه وهو من أكبر الرجال ثقافة.

وفي الوقت الذي أدى فيه الفتح الإسلامي إلى أن فقدت الزردشتية عون السلطان وأدرك رجال هذا الدين، أن لا بد من مجهود عظيم لمنع هذا التحلل الكامل، فنزعت فكرة زوران مع كل الخرافات الدينية الصبيانية التي تتصل بها، وهكذا تغيرت الفكرة في خلق الدنيا وقضى على فكرة عبادة الشمس لتقوية فكرة التوحيد في ديانة أوهر مزد (١)!

----

(١) راجع ص ١٩ - ٢١ و ٢٦ - ٣٠ و ١٣٢ - ١٣٦ و ١٦٩ - ١٩٠ و ٤١٨ - ٤٢٤ من إيران في عهد الساسانيين لكرستنسن تعريب الأخ الدكتور يحيى الخشاب ومراجعة أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام.

(٧) أما الأنبياء الذين هدى الله الناس بهم فكثيرون، فهم آدم وشيث وغيرهما، ثم جاء إبراهيم الخليل وكان في بادية سوريا أو بين النهرين، وظهر بعده كثير من الأنبياء، ثم ظهر موسى في مصر، وهرب بقومه منها، وأقام بهم بين مصر وسوريا في التيه أربعين عاما على التوالي، ثم تولى قيادة اليهود يشوع بن نون فسار إلى بيت المقدس وحارب الكنعانيين وغيرهم، وهكذا نشأت مملكة إسرائيل التي نمت على عهد داود وسليمان!

والذي كان يمتاز به اليهود عن غيرهم هو معرفة الإله الواحد وعبادته المجردة عن الشرك والكفر والطغيان، إلا أن شريعتهم كانت صارمة تجعل الخاضع لها عبدا مأسورا في كل حركاته وسكناته في لباسه ومأكله وعمله، على أنهم كانوا لا يسعون لتعميم دينهم، راغبين في حفظ عصبيتهم رافضين أن يدخل بيتهم دخيل، فكان الأجنبي عنهم بمنزلة الحيوان الأعجم، يحتقرونه حتى ولو تدين بدينهم، وكانوا لا يعترفون بمساواتهم إلا لأحفاده، وكان احتقارهم لغيرهم وميلهم الغريزي إلى الاستئثار بالمنافع، هو الذي نفر الناس منهم وبغضهم فيهم، فكان المجاورون لهم يسلبونهم أموالهم ويسبون أعراضهم ويخضعونهم لأحكامهم، فسباهم البابليون واستولى عليهم الإسكندر المقدوني واحتلهم هيرودوس الروماني!

وهذا على حفظ الحاخامات الدين في صدورهم لا يبوحون به إلا لمن انضم إلى زمرتهم، وجعلهم الدين وسيلة للسيطرة على عقول الشعب والانتفاع بما في أيديهم (١).

---

(١) ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى فلاسفة اليونان، الذين كانوا يجلسون على قارعة الطريق ويعرضون فلسفتهم على العامة! ولما نهضت المملكة الرومانية نهضتها الأخيرة، جعل علماؤها وفلاسفتها ينشرون علموهم وآدابهم للجميع، وكذلك كان كهنة المصريين على جانب عظيم من الحكمة والمعرفة، ولكنهم جعلوا فلسفتهم ككل معارفهم، سرا دينيا لا يجوز أن يباح للعامة، حفظا لكرامة رجال الكهنوت أو توصلا لاستعباد الناس والسطو على ما في أيديهم! راجع ص ٣٤ وص ٤٢ من خواطر في الإسلام ج ١ للمرحوم عطا بك حسني.

فكان يتعذر الاختلاط مع اليهود لشدتهم وقسوة قلوبهم وغلاظة أكبادهم (على ما يقول الإنجيل) ونفورهم من كل غريب عن دينهم واحتقارهم له لنجاسته في رأيهم (على ما جاء في التوراة)، وفي هذه البيئة وفي اليهودية المضطربة، ولد عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، ولما بلغ ثلاثين عاما، ابتدأت رسالته عليه السلام، وأخذ يعلم ويبشر ويعظ ويأتي بالخوارق والمعجزات (١)!

(٨) ا – ولقد جاء في الفصل السادس والعشرين من إنجيل برنابا كيف يجب على الإنسان، أن يحب الله وما تضمن من النزاع العجيب بين إبراهيم وأبيه:

"... ثم قال يسوع: كان رجل على سفر، وبينما كان سائرا، وجد كنزا في حقل معروض للبيع بخمس قطع من النقود، فلما علم الرجل ذلك، ذهب توا وباع رداءه ليشتري ذلك الحقل، فهل يصدق ذلك؟ "

فأجاب التلاميذ " إن من لا يصدق هذا فهو مجنون "!

فقال عندئذ يسوع: إنكم تكونون مجانين إذا كنتم لا تعطون حواسكم لله، لتشتروا نفسكم حيث يستقر كنز المحبة، لأن المحبة كنز لا نظير له، لأن من يحب الله، كان الله له، ومن كان الله له، كان له كل شئ! أجاب بطرس " قل لنا يا معلم، كيف يحب على الإنسان أن يحب الله محبة خالصة؟ "!

فأجاب يسوع " الحق أقول لكم إن من لا يبغض أباه وأمه وحياته وأولاده وامرأته، لأجل محبة الله، فمثل هذا ليس أهلا أن يحبه الله "!

أجاب بطرس " يا معلم! لقد كتب في ناموس الله في كتاب موسى (أكرم أباك، لتعيش طويلا على الأرض)، ثم يقول أيضا: (ليكن ملعونا الابن الذي لا يطيع أباه وأمه)، ولذلك أمر الله بأن يرجم مثل هذا الابن العقوق أمام باب المدينة وجوبا بغضب الشعب، فكيف تأمرنا أن نبغض أبانا وأمنا!؟.

----

(١) راجع ص ١٩ – ٢٦ من خواطر في الإسلام ج ١ للمرحوم الأستاذ عطا حسني.

أجاب يسوع " كل كلمة من كلماتي صادقة، لأنها ليست مني، بل من الله الذي أرسلني إلى بيت إسرائيل، لذلك أقول لكم، إن كل ما عندكم، قد أنعم الله به عليكم، فأي الأمرين أعظم قيمة! العطية أم المعطي؟ فمتى كان أبوك أو أمك أو غيرهما، عثرة لك في خدمة الله، فانبذهم كأنهم أعداء، ألم يقل الله لإبراهيم " اخرج من بيت أبيك وأهلك " وتعال أسكن في الأرض التي أعطيها لك ولنسلك، لماذا قال الله ذلك؟ أليس لأن أبا إبراهيم كان صانع تماثيل يصنع ويعبد آلهة كاذبة، لذلك بلغ العداء بينهما حدا أراد معه الأب أن يحرق ابنه "؟!

أجاب بطرس " إن كلماتك صادقة، إني أضرع إليك أن تقص علينا كيف سخر إبراهيم من أبيه " أجاب يسوع " كان إبراهيم ابن سبع سنين، لما ابتدأ أن يطلب الله، فقال يوما لأبيه " يا أبتاه من صنع الإنسان "؟

أجاب الوالد الغبي " الإنسان، لأني أنا صنعتك، وأبي صنعني " فأجاب إبراهيم: " يا أبي، ليس الأمر كذلك، لأني سمعت شيخا ينتحب ويقول: يا إلهي، لماذا لم تعطني أولادا؟ أجاب أبوه: " حقا يا بني، الله يساعد الإنسان ليصنع إنسانا، ولكنه لا يضع يده فيه، فلا يلزم الإنسان إلا أن يتقدم ويتضرع إلى إلهه " ويقدم له حملانا وغنما، يساعده إلهه " أجاب إبراهيم: " وكم إلها هنالك يا أبي "؟ أجاب الشيخ: " لا عدد لهم يا بني "، فحينئذ أجاب إبراهيم: " ماذا أفعل يا أبي، إذا خدمت إلها، وأراد بي الآخر شرا، لأني لا أخدمه، ومهما يكن من الأمر، فإنه يحصل بينهما شقاق، ويقع الخصام بين الآلهة، ولكن إذا قتل الإله الذي يريد بي شرا، إلهي، فماذا أفعل؟ من المؤكد أنه يقتلني أنا أيضا "؟ فأجاب الشيخ ضاحكا " لا تخف يا بني، لأنه لا يخاصم إله إلها، كلا فإن في الهيكل الكبير، ألوفا من الآلهة مع الإله الكبير بعل، وقد بلغت الآن سبعين سنة من العمر، ومع ذلك فإني لم أر قط إلها ضرب إلها آخر، ومن المؤكد أن الناس كلهم لا يعبدون إلها واحدا، بل يعبد واحد إلها وآخر آخر " أجاب إبراهيم " فإذا يوجد وفاق بينهم "؟ أجاب أبوه " نعم يوجده

فقال حينئذ إبراهيم " يا أبي أي شئ تشبه الآلهة، أجاب الشيخ " يا غبي إني كل يوم أصنع إلها أبيعه لآخرين، لأشتري خبزا، وأنت لا تعلم كيف تكون الآلهة؟ " وكان في تلك الدقيقة يصنع تمثالا، فقال هذا من خشب النخل، وذاك من الزيتون، وذلك التمثال الصغير من العاج، انظر ما أجمله، ألا يظهر كأنه حي حقا لا يعوزه إلا النفس " أجاب إبراهيم " إذا يا أبي، ليس للآلهة نفس، فكيف يهبون الأنفاس؟ ولما لم تكن لهم حياة، فكيف يعطون إذا الحياة؟ فمن المؤكد يا أبي أن هؤلاء. ليسوا هم الله "، فحنق الشيخ لهذا الكلام قائلا " لو كنت بالغا من العمر ما تتمكن معه من الادراك، لشججت رأسك بهذه الفأس، ولكن اصمت، إذ ليس لك إدراك " أجاب إبراهيم " يا أبي، إن كانت الآلهة تساعد على صنع الإنسان، فكيف يتأنى للإنسان أن يصنع آلهة! وإذا كانت الآلهة مصنوعة من خشب، فإن إحراق الخشب خطيئة كبرى، ولكن قل لي يا أبي كيف وأنت قد صنعت آلهة هذا عديدها، لم تساعدك الآلهة لتصنع أولادا كثيرين، فتصير أقوى رجل في العالم؟ "، فحنق الأب لما سمع ابنه يتكلم هكذا! فأكمل الابن قائلا: " يا أبي، هل وجد العالم حينا من الدهر بدون بشر؟ "، أجاب الشيخ " نعم، ولماذا؟ " قال إبراهيم " لأني أحب أن أعرف من صنع الإله الأول؟ "، فقال الشيخ انصرف الآن من بيتي، ودعني أصنع هذا الإله سريعا، ولا تكلمني كلاما، فمتى كنت جائعا، فإنك تشتهي خبزا لا كلاما! "، فقال إبراهيم " إنه لإله عظيم، فإنك تقطعه كما تريد، وهو لا يدافع عن نفسه! " فغضب الشيخ وقال " إن العالم بأسره يقول إنه إله، وأنت أيها الغلام الغبي تقول كلا، فوآلهتي، لو كنت رجلا لقتلتك "، ولما قال هذا ضرب إبراهيم ورفسه، وطرده من البيت " (١)!

(ب) وجاء في الفصل السابع والعشرين من إنجيل برنابا عن عدم لياقة

---

(١) راجع ص ٣٦ – ٤٠ من إنجيل برنابا.

الضحك بالناس وفطنة إبراهيم! " فضحك التلاميذ من حمق الشيخ، ووقفوا منذهلين من فطنة إبراهيم، ولن يسوع وبخهم قائلا: لقد نسيتم كلام النبي القائل " الضحك العاجل، نذير البكاء الآجل " وأيضا " لا تذهب إلى حيث الضحك، بل اجلس حيث ينوحون، لأن هذه الحياة تنقضي في الشقاء "، ثم قال يسوع: ألا تعلمون أن الله في زمن مسخ ناسا كثيرين في مصر حيوانات مخوفة، لأنهم ضحكوا واستهزأوا بالآخرين؟ احذروا أن تضحكوا من أحد، لأنكم بكاء تبكون بسببه!

أجاب التلاميذ " إننا نضحك من حماقة الشيخ "!

فأجاب حينئذ يسوع " الحق أقول لكم كل نظير يحب نظيره، فيجد في ذلك مسرة، ولذلك لو لم تكونوا أغبياء، لما ضحكتم من الغباوة " أجابوا " ليرحمنا الله "، قال يسوع " ليكن كذلك "!

حينئذ قال فيليبس: يا معلم! كيف حدث أن أبا إبراهيم أحب أن يحرق ابنه؟

أجاب يسوع، لما بلغ إبراهيم اثنتي عشرة سنة من العمر، قال له أبوه يوما " غدا عيد كل الآلهة، فلذلك سنذهب إلى الهيكل الكبير، ونحمل هدية لإلهي بعل العظيم، وأنت تنتخب لنفسك إلها، لأنك بلغت سنا يحق لك معه اتخاذ إله "، فأجاب إبراهيم بمكر " سمعا وطاعة يا أبي "، فبكرا في الصباح إلى الهيكل قبل كل أحد، ولكن إبراهيم كان يحمل تحت صدرته فأسا مستورة، فلما دخل الهيكل، وزاد الجمع، خبأ إبراهيم نفسه وراء صنم في ناحية مظلمة في الهيكل، فلما انصرف أبوه، سبقه إلى البيت، ولذلك لم يمكث ليفتش عليه!

" ولما انصرف كل أحد من الهيكل، أقفل الكهنة الهيكل وانصرفوا، فأخذ إبراهيم إذ ذاك الفأس وقطع قوائم جميع الأصنام إلا الإله الكبير بعلا، فوضع الفأس عند قوائمه بين جذاذ التماثيل التي تساقط قطعا، لأنها

كانت قديمة العهد، مؤلفة من أجزاء! ولما كان إبراهيم خارجا من الهيكل، رآه جماعة من الناس، فظنوا أنه دخل ليسرق من الهيكل، فأمسكوه، ولما بلغوا به الهيكل ورأوا آلهتهم محطمة قطعا، صرخوا منتحبين " أسرعوا يا قوم، ولنقتل الذي قتل آلهتنا " فهرع إلى هناك نحو عشرة آلاف رجل مع الكهنة، وسألوا إبراهيم عن السبب الذي لأجله حطم آلهتهم! أجاب إبراهيم " إنكم لأغبياء، أيقتل الإنسان الله، إن الذي قتلها إنما هو الإله الكبير، ألا ترون الفأس التي له عند قدميه، إنه لا يبتغي له أندادا "!

فوصل حينئذ أبو إبراهيم، الذي ذكر أحاديث إبراهيم في آلهتهم، وعرف الفأس التي حطم بها إبراهيم الأصنام، فصرخ " إنما قتل آلهتنا ابني الخائن هذا، لأن هذه الفأس فأسي "، وقص عليهم كل ما جرى بينه وبين ابنه، فجمع القوم مقدارا كبيرا من الحطب، وربطوا يدي إبراهيم ورجليه، ووضعوه على الحطب، ووضعوا نارا تحته، فإذا الله، قد أمر النار بواسطة ملاكه جبريل، أن لا تحرق عبده إبراهيم، فاضطربت النار باحتدام، وحرقت نحو ألفي رجل من الذين حكموا على إبراهيم بالموت، أما إبراهيم فقد وجد نفسه مطلق السراح، إذ حمله ملاك الله إلى مقربة من بيت أبيه دون أن يرى من حمله، وهكذا نجا إبراهيم من الموت (١) "!

(ج) وجاء في الفصل التاسع والعشرين من إنجيل برنابا كيف توصل إبراهيم إلى معرفة الله:

" حينئذ قال فيليبس " ما أعظم رحمة الله للذين يحبونه، قل لنا يا معلم، كيف وصل إلى معرفة الله "؟ أجاب يسوع، لما بلغ إبراهيم جدار بيت أبيه، خاف أن يدخل البيت، فانتقل إلى بعد عن البيت، وجلس تحت شجرة نخل، حيث لبث منفردا وقال: لا بد من وجود إله ذي حياة وقوة أكثر من الإنسان، لأنه يصنع الإنسان، والإنسان بدون الله لا يقدر أن يصنع الإنسان "، حينئذ التفت حوله وأجال نظره في النجوم والقمر والشمس، فظن أنها هي الله، ولكن بعد التبصر في تغيراتها وحركاتها، قال " يجب أن

----

(١) راجع ص ٤٠ - ٤٢ من إنجيل برنابا.

لا تطرأ على الله الحركة، ولا تحجبه الغيوم، وإلا فني الناس "!
وبينما هو متحير، سمع اسمه ينادى (يا إبراهيم)، فلما التفت ولم ير أحدا في جهته، قال " إني سمعت! يا إبراهيم "، ثم سمع كذلك اسمه ينادى مرتين أخريين " يا إبراهيم " فأجاب " من يناديني؟ "، حينئذ سمع قائلا يقول " إنه أنا ملاك الله جبريل " فارتاع إبراهيم، ولكن الملاك سكن روعه قائلا " لا تخف يا إبراهيم، لأنك خليل الله، فإنك لما حطمت آلهة الناس تحطيما، اصطفاك إله الملائكة والأنبياء، حتى أنك كتبت في سفر الحياة " حينئذ قال إبراهيم " ماذا يجب على أن أفعل، لأعبد إله الملائكة والأنبياء الأطهار؟ " فأجاب الملاك " اذهب إلى ذلك الينبوع واغتسل، لأن الله يريد أن يكلمك " أجاب إبراهيم " كيف ينبغي أن أغتسل "؟ فتبدى له حينئذ الملاك يافعا جميلا، واغتسل في الينبوع، قائلا " أفعل كذلك بنفسك يا إبراهيم "، فلما اغتسل إبراهيم، قال الملاك " ارتق ذلك الجبل، لأن الله يريد أن يكلمك هناك، فارتقى إبراهيم الجبل كما قال له الملاك، ولما جثا على ركبتيه، قال لنفسه " متى يا ترى يكلمني إله الملائكة "؟ فسمع صوتا لطيفا يناديه " يا إبراهيم "، فأجابه إبراهيم " من يناديني "؟ فأجاب الصوت " أنا إلهك يا إبراهيم " أما إبراهيم فارتاع وعفر بوجهه الأرض، قائلا " كيف يصغي عبدك إليك، وهو تراب ورماد "؟ حينئذ قال الله " لا تخف بل انهض، لأني قد اصطفيتك عبدا لي، وإني أريد أن أباركك وأجعلك شعبا عظيما، فاخرج إذا من بيت أبيك وأهلك، وتعال أسكن في الأرض التي أعطيكها أنت ونسلك "، فأجاب إبراهيم " إني لفاعل كل ذلك يا رب، ولكن احرسني لكيلا يضرني إله آخر "، فتكلم الله قائلا " أنا الله أحد ولا إله غيري أضرب وأشفى، أميت وأحيي، أنزل إلى الجحيم وأخرج منه، ولا يقدر أحد أن ينقذ نفسه من يدي، ثم أعطاه الله عهد الختان، وهكذا عرف الله، أبونا إبراهيم، ولما قال يسوع هذا، رفع يديه، قائلا " الكرامة والمجد لك يا الله، ليكن كذلك (١)!

---

(١) راجع ص ٤٣ - ٤٥ من إنجيل برنابا.

(ء) وجاء في الفصلين الثاني والثلاثين والثالث والثلاثين من إنجيل برنابا عن الشرور التي يدخلها الشيوخ، وأن الأصنام قد تكون أجسادا:
" ودعا أحد المتضلعين من الشريعة يسوع للعشاء ليجربه... فجلس التلاميذ إلى المائدة دون أن يغسلوا أيديهم، فدعا الكتبة يسوع قائلين " لماذا لا يحفظ تلاميذك تقاليد شيوخنا، بعدم غسل أيديهم قبل أن يأكلوا خبزا؟! "،
أجاب يسوع " أنا أسألكم لأي سبب أبطلتم شريعة الله، لتحفظوا تقاليدكم؟ تقولون لأولاد الآباء الفقراء (قدموا واندروا نذورا للهيكل)، وهم إنما يجعلون نذورا من النزر الذي يجب أن يعولوا به آباءهم، وإذا أحب آباؤهم أن يأخذوا نقودا، يصرخ الأبناء (إن هذه النقود نذر لله)، فيصيب الآباء بسبب ذلك ضيق، أيها الكتبة الكذابون! أيستعمل الله هذه النقود؟ كلا ثم كلا، لأن الله لا يأكل كما يقول بواسطة عبده داود النبي " هل آكل لحم الثيران وأشرب دم الغنم، أعطني ذبيحة الحمد، وقدم لي نذرك... " أيها المراءون إنكم إنما تفعلون ذلك لتملأوا كيسكم... ما أشقاكم، لأنكم تظهرون للآخرين أشد الطرق وضوحا، ولا تسيرون فيها! أيها الكتبة الفقهاء! إنكم تضعون على عواتق الآخرين أحمالا لا يطاق حملها، ولكنكم أنفسكم لا تحركونها بإحدى أصابعكم... الحق أقول لكم، إن كل شر إنما دخل العالم بوسيلة الشيوخ، قولوا لي، من أدخل عبادة الأصنام في العالم إلا طريقة الشيوخ، إنه كان ملك أحب أباه كثيرا، وكان اسمه بعلا، فلما مات الأب، أمر ابنه بصنع تمثال شبه أبيه، تعزية لنفسه! ونصبه في سوق المدينة، وأمر بأن يكون كل من اقترب من ذلك التمثال إلى مسافة خمسة عشر ذراعا في مأمن لا يلحق أحد به أذى على الإطلاق، وعليه أخذ الأشرار بسبب الفوائد التي جنوها من التمثال، يقدمون له وردا وزهورا، ثم تحولت هذه الهدايا في زمن قصير إلى نقود وطعام، حتى سموه إلها، تكريما له! وهذا الشئ تحول من عادة إلى شريعة حتى أن الصنم بعلا انتشر في العالم كله، وقد ندب الله على هذا بواسطة أشعيا قائلا " حقا، إن هذا الشعب يعبدني باطلا، لأنهم أبطلوا شريعتي، التي أعطاهم إياها
(٣ – برنابا)

عبدي موسى، ويتبعون تقاليد شيوخهم "، الحق أقول لكم إن أكل الخبز بأيد غير نظيفة، لا ينجس إنسانا، لأن ما يدخل الإنسان، لا ينجس الإنسان، بل الذي يخرج من الإنسان، ينجس الإنسان "!
فقال حينئذ أحد الكتبة " إن أكلت لحم الخنزير أو لحوما أخرى نجسة، فلا تنجس هذه ضميري "؟ أجاب يسوع " إن العصيان لا يدخل الإنسان، بل يخرج من الإنسان من قلبه، ولذلك يكون نجسا متى أكل طعاما محرما "!
حينئذ قال أحد الفقهاء " يا معلم لقد تكلمت كثيرا في عبادة الأصنام، كأن عند شعب إسرائيل أصناما، فقد أسأت إلينا "، أجاب يسوع ".. أعلم جيدا لأنه لا يوجد اليوم تماثيل من خشب في إسرائيل، ولكن توجد تماثيل من جسد "، فأجاب حينئذ جمع الكتبة بحنق " أنحن إذا عبده أصنام "؟، أجاب يسوع " الحق أقول لكم، لا تقول الشريعة اعبد بل أحب الرب إلهك بكل نفسك وبكل قلبك وبكل عقلك "، ثم قال يسوع أصحيح هذا؟ فأجاب كل واحد " إنه لصحيح ".
ثم قال يسوع " حقا إن كل ما يحبه الإنسان، ويترك لأجله كل شئ سواه، فهو إلهه، وهكذا فإن صنم الزاني هو الزانية، وصنم النهم والسكير جسده، وصنم الطماع الفضة والذهب، وقس عليه كل خاطئ آخر ".
فقال حينئذ الذي دعاه " يا معلم ما هي أعظم خطيئة "؟ أجاب يسوع " أي الخراب أعظم في البيت "؟ فسكت كل أحد، ثم أشار يسوع بإصبعه إلى الأساس، وقال " إذا تزعزع الأساس، سقط البيت خرابا، فيلزم إذ ذاك أن يبنى جديدا، ولكن إذا تداعى أي جزء سواه، يمكن ترميمه، ولذلك أقول لكم إن عبادة الأصنام هي أعظم خطيئة، لأنها تجرد الإنسان بالمرة من الإيمان، فتجرده من الله، بحيث لا تكون له محبة روحية، ولكن كل خطيئة أخرى تترك للإنسان أمل نيل الرحمة، ولذلك أقول أن عبادة الأصنام أعظم خطيئة ".
فوقف الجميع مبهوتين من حديث يسوع " لأنهم علموا أنه لا يمكن الرد

عليه مطلقا، ثم أتم يسوع " تذكروا ما تكلم الله به، وما كتبه موسى ويشوع في الناموس، فتعلموا ما أعظم هذه الخطيئة، قال الله مخاطبا إسرائيل " لا تصنع لك تمثالا في السماء، ولا مما تحت السماء، ولا تصنعه مما فوق الأرض ولا مما تحت الأرض ولا مما فوق الماء ولا مما تحت الماء، إني أنا إلهك قوي وغيور، ينتقم لهذه الخطيئة من الآباء وأبنائهم حتى الجيل الرابع " فاذكروا كيف لما صنع آباؤنا العجل وعبدوه أخذ يشوع وسبط لاوي السيف بأمر الله وقتلوا مائة ألف وعشرين ألفا من أولئك الذين لم يطلبوا رحمة من الله، ما أشد دينونة الله على عبدة الأوثان (١) "!

(٥) وجاء في الفصل الثاني والخمسين بعد المائة من إنجيل برنابا عن التوحيد عندما حاج الجنود الرومان المسيح في ربه:

" فلما جاء يسوع إلى أورشليم ودخل الهيكل يوم سبت، اقترب الجنود ليجربوه ويأخذوه، وقالوا " يا معلم! أيجوز إصلاء الحرب؟ "، أجاب يسوع " إن ديننا يخبرنا أن حياتنا حرب عوان على الأرض "، قال الجنود " أفتريد إذا أن تحولنا إلى دينك أو تريد أن نترك جم الآلهة - وكان لرومية وحدها ثمانية وعشرين ألف إله منظور - وأن نتبع إلهك الأحد، ولما كان لا يرى فهو لا يعلم أين مقره، وقد لا يكون سوى باطل "، أجاب يسوع " لو كنت خلقتكم كما خلقكم إلهنا، لحاولت تغييركم، أجابوا " إذا كان لا يعلم أين إلهك، فكيف خلقنا؟ أرنا إلهك، نكن يهودا "، فقال حينئذ يسوع " لو كان لكم عيون، لأريتكم إياه، ولكن لما كنتم عميانا، فلست بقادر على أن أريكم إياه "، أجاب الجنود " حقا لا بد أن الإكرام الذي يقدمه لك الشعب، قد سلبك عقلك، لأن لكل منا عينين في رأسه، وأنت تقول إننا عميان "، أجاب يسوع " إن العيون الجسدية لا تبصر إلا الكثيف والخارجي، فلا تقدرون من ثم إلا على رؤية آلهتكم الخشبية والفضية والذهبية التي لا تقدر أن تفعل شيئا، أما نحن أهل يهوذا، فلنا عيون روحية هي خوف إلهنا ودينه، ولذلك لا يمكن

---

(١) راجع ص ٤٨ - ٥٢ من إنجيل برنابا.

لنا رؤية إلهنا في كل مكان "، أجاب الجنود " احذر كيف تتكلم، لأنك إذا صببت احتقارا على آلهتنا، أسلمناك إلى يد هيرودس الذي ينتقم لآلهتنا القادرة على كل شئ "، أجاب يسوع " إن كانت قادرة على كل شئ كما تقولون، فعفوا لأني سأعبدها "، ففرح الجنود لما سمعوا هذا وأخذوا يمجدون أصنامهم، فقال حينئذ يسوع " لا حاجة بنا إلى هذا الكلام، بل إلى الأعمال، فاطلبوا لذلك من آلهتكم أن نخلق ذبابة واحدة، فأعبدها " فراع الجنود سماع هذا ولم يدروا ما يقولون، فقال من ثم يسوع " إذا كانت لا تقدر أن تصنع ذبابة واحدة جديدة، فإني لا أترك لأجلها، ذلك الإله الذي خلق كل شئ بكلمة واحدة، الذي مجرد اسمه يروع جيوشا (١)... ".

(٩) ولقد نشأت النصرانية في أورشليم المقدسة (بيت المقدس)، ثم امتدت إلى أنطاكية في سوريا، فمصر ورومية عاصمة الإمبراطورية الرومانية. وكان النصارى قد جعلوا دينهم سرا مصونا، لا يوقفون غيرهم على عباداتهم واعتقاداتهم، وكانوا يتعارفون بإشارة الصليب بيمناهم، تنقل بين الوجه والصرة والكتفين، فكان تكتمهم يثير الشكوك في النفوس فرموهم بذبح الأطفال وباللصوصية وعداء القياصرة امبراطرة رومية، فاضطهدوهم وقتلوا الكثير منهم واستحلوا أموالهم، فكانوا يقبلون على الاستشهاد راضين، وكانوا في مدى الثلاثمائة سنة الأولى لتاريخهم معتكفين على العبادة متجردين عن العالميات، وكان أكثرهم من العامة، حتى كان الوثنيون يسمون النصرانية دين الفقراء، وكان الأغنياء منهم، يتقشفون ويهبون أموالهم للفقراء والمساكين!

ثم أتيح للمسيحيين الفرج بعد الضيق على يد قسطنطين الذي ظهر في أوائل

---

(١) راجع ص ٢٣٥ و ٢٣٦ من إنجيل برنابا، ثم أجاب الجنود لنرى هذا، لأننا نريد أن نأخذك، وأرادوا أن يمدوا أيديهم إلى يسوع، فذكر اسم الله، ففي الحال تدحرجت الجنود من الهيكل كما يدحرج المرء براميل من خشب لتملأ ثانية... فكانوا يلتطمون بالأرض تارة برأسهم وطورا بأرجلهم، وذلك دون أن يمسهم أحد، فارتاعوا وأسرعوا إلى الهرب، ولم يعودوا يروا في اليهودية قط!.

القرن الرابع المسيحي، إذ رأى المسيحية قد انتشرت وتجاوزت الطبقات الدنيا إلى الطبقات العليا، وأن مظالم أسلافه قد نفرت الشعب، وأن أمراء رومية قد استبدوا بالأمر، حتى صار الإمبراطور لعبة في أيديهم، فرأى لسلامة الدولة إنصاف المسيحيين، فترك رومية وسار إلى بيزنطة على البوسفور وسماها باسم رومية الجديدة، وأصدر أمرا بإعطاء الحرية لكل المذاهب، فشاد المسيحيون الكنائس وواصلوا بعضهم بعضا، وطمعت كنيسة بيزانطة أن تسود كل الكنائس، فانتقلت النصرانية إلى مقاومة بعضها البعض، وكانت الفئة الملكية المتحدة مع كنيسة القسطنطينية، تضطهد كل من يخالفها بحرمانه من الكنيسة وسفك دمه وإضاعة ماله!

ولم يكد قسطنطين ينزح عن رومية، حتى تناول الحكم أشرافها، وظهر أسقفها الذي يسمونه البابا بشدة قبضه على القلوب والعقول، فخضع الجميع له، وما زال يستبد بهم حتى أصبح ملكا زمانيا حارب العلم والعلماء واضطهد حرية الفكر ومنع المسيحيين من تلاوة الكتب الراقية حتى حظر عليهم تلاوة الإنجيل نفسه بدعوى أن الرهبان والقسيسين وحدهم هم الذين يقوون على فهمه دون سواهم!

هذا في الغرب، أما في الشرق، فكانت الحروب الدينية قائمة، وكثر فيهم أصحاب المذاهب والنحل، وكانت كل فئة تعمل على نكاية غيرها (١)!

ولقد أجمع مؤرخو الثلاثة قرون الأولى المسيحية، على أن النصارى كانوا يبذلون كل ما في وسعهم لمحو آثار الوثنية بتكسير ما كان يصل إلى أيديهم من الأنصاب والأصنام وحرق وتمزيق كل ما يصل إلى أيديهم من كتب، وغالوا حتى حرقوا كل كتاب يصل إليهم مهما كان غرضه!

---

(١) ولقد اختلف المؤرخون في تاريخ بدء سلطة البابوات، فالكاثوليك يقولون إنها بدأت منذ الأجيال الأولى المسيحية، والبروتستانت يقولون إنها ابتدأت منذ الجيل الرابع المسيحي، أي منذ ترك الإمبراطور قسطنطين رومية واستعمر بيزنطية على البوسفور! وسلطة البابوات الدينية هي عبارة عن أنهم خلفاء شرعيون للقديس بطرس الرسول ورؤساء الكنيسة المنظورون على الأرض!.

والغريب في هذا العهد أن القسس والرهبان، قد ضيقوا على المدارك والأفهام بمنتهى الشدة، فكانت النصرانية في هذه الفترة التي هي بين حرية النصرانية وظهور الإسلام، واقعة تحت سيطرة رجال الدين، يصادرونها في عقول رجالها ويسيطرون على كل شئ لهم حتى على قلوبهم، وزادت الخصومات بينهم بالاجتماعات الدينية ضد فلان وفلان من القسس والتحزب والأحقاد، فأدى هذا الحجر إلى إجماع النصارى على جعل عيسى إلها، وقاموا على شيعة آريوس الذي قال إن عيسى عليه السلام روح الله وليس بإله، فشتتوهم وقتلوا الكثير منهم، وأضاعوا مؤلفات جهابذتهم!

في هذا الوقت الحرج الذي كادت تتلاشى فيه آثار المدنية وتمحى العدالة من الوجود، بل في الوقت الذي كان فيه الخراب يهدد العالم بأجمعه على أثر استبداد أولئك المستبدين بعد اتفاقهم مع خونة الكهنة والقسيسين، ظهر نبينا العربي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم، معلنا التوحيد، عاملا على استئصال شأفة الاشراك، هاديا الناس إلى الصراط السوي (١)!

(١٠) والتوحيد في الأصل قبل الاصطلاح هو اعتقاد وحدانية الله بلا شريك، وقد طالب الله الخلائق بتوحيده على لسان رسله من لدن آدم، كما في القرآن والكتب السماوية الأخرى، قال تعالى " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "، ولكن كثيرا من تلك الأمم كان يبتعد من برهان العقل ويقف في الغالب عند ظاهر الكتب السماوية، ويزعم أن بين الدين والعقل تنافرا، وفي زمن الفترة وصل قوم إلى توحيد الله بالعقل واستدلوا بما عن لهم من صنع الله، كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو وغيرهما.

ثم ظهر الإسلام وأنزل الله القرآن، فبين حقوق الله وصفاته وأدحض بالبراهين حجج المبطلين وأيد محمدا صلى الله عليه وسلم، وطالب بالتدبر والتفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، وغير ذلك.

---

(١) راجع ص ٥٦ - ٥٨ و ٦٨ - ٧١ من خواطر في الإسلام ج ١ للمرحوم عطا حسني بك.

من هنا اتفق العقل والدين كما أمر الله في كتابه، ومن ذلك عرف المسلمون أن من الدين ما لا يفهم إلا بواسطة العقل، كالعلم بوجود الله وقدرته على إرسال الرسل، وغير ذلك.
وصف الله نفسه في القرآن بأوصاف كالقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والاستواء على العرش، وأثبت أن له وجها ويدا، وأعطى الإنسان شيئا من نحو هذا الجنس، ولله المثل الأعلى، فكان ذلك سببا في بحث العقل، فأخذ الناس يفهمون ويتفكرون، وكانوا يرجعون في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إليه، ثم رجعوا من بعده إلى أبي بكر وعمر، وكانوا ينزهون الله كما يفهمون من الكتاب، ويفوضون العلم إليه فيما يوهم التشبيه.
ثم حدثت الفتنة التي فيها قتل عثمان، وكان من أهل الفتنة رجل يهودي يقال له عبد الله بن سبأ، أسلم وتشيع لعلي حتى زعم أن الله حل فيه، وطعن على عثمان، ودعا الناس إلى مبايعة علي، وقال إنه أحق بالخلافة، وأظهر الرفض عند حكم الحكمين في صفين، فكان ذلك منشأ لعقائد السوء في زمنه وبعد زمنه (١).
حتى قال علي " يهلك في رجلان: محب مفرط، وباهت مفتر " وقال " سيهلك في صنفان: محب مفرط، يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط، يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس في حالا النمط الأوسط، فالزموه، والزموا السواد الأعظم، فإن يد الله مع الجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشاذ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب، ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه، ولو كان تحت عمامتي هذه (٢) "!
والغريب أن هذا الحب الفاجر، كان لرجل قانت شديد الخشية لله والتواضع لعبيده! انظر ماذا قال علي لرجل من أصحابه أكثر الثناء عليه وذكر

---

(١) راجع ص ٥ - ٧ من كلمة التوحيد للمرحوم الشيخ حسين والي.
(٢) راجع ص ٢٦١ من نهج البلاغة ج ١. وقال في ص ٢٥٢ ج ٢ " هلك في رجلان: محب غال، ومبغض قال "!.

سمعه وطاعته " إن من حق من عظم جلال الله في نفسه، وجل موضعه من قلبه، أن يصغر عنده لعظم ذلك، كل ما سواه، وإن أحق من كان كذلك، لمن عظمت نعمة الله عليه ولطف إحسانه إليه، فإنه لم تعظم نعمة الله على أحد، إلا ازداد حق الله عليه عظما، وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر، وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك ولو كنت أحب أن يقال ذلك، لتركته انحطاطا لله سبحانه، عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء، وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء، فلا تثنوا على بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من التقية في حقوق لم أفرغ من أدائها، وفرائض لا بد من إمضائها، فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي، فإن من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإني لست بفوق أن أخطئ ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي، ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى (١) "!

(١١) ويقول المرحوم الشيخ حسين والي إنه لما قتل عثمان، صار المسلمون أحزابا وتفرقت الكلمة، ثم انتهى الأمر بعد ما كان من أمر علي لبني أمية.

ولما تفرق المسلمون شيعا، تمكن اليهود من وضع الأحاديث المكذوبة على النبي صلى الله عليه وسلم وبثها في المسلمين، يريدون بذلك هدم الإسلام لأنه انتزع منهم الرياسة.

وكذلك وضع بعض المسلمين أحاديث يروجون بها أمر أحزابهم، وبدأ

----

(١) راجع ص ٤٦١ - ٤٦٣ من نهج البلاغة ج ١.

التأويل في كتاب الله وسنة نبيه، وظهر التغالي في الدين، وافترق الناس، فطائفة شيعة وطائفة خوارج وطائفة معتدلة، وقال الخوارج بكفر غيرهم، وقال الشيعة في علي ما يقال في الإله!

كل ذلك تفرع عنه خلاف كثير في العقائد، وما كفى ذلك حتى دخل في الإسلام طوائف كثيرة، وكل طائفة ترغب أن توفق بين ما كان عندها وبين ما في الدين الإسلامي، فزادت الشبه واختلط الحق!

ثم ظهر الإمام الحسن البصري المتوفى سنة ١١٦ للهجرة، وكان له مجلس في البصرة لتعليم العلوم، وكان من تلاميذه واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١، فاختلف معه في مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية ومسألة مرتكب الكبيرة ولم يتب منها، فأمره الحسن البصري أن يعتزل مجلسه فلما اعتزله صار يعلم الناس أشياء من نزغاته وترهاته!

الجبرية يقولون الإنسان كأغصان الشجرة في حركاتها الاضطرارية،

وأكثر السلف يقولون العبد مختار في أعماله الصادرة عن علمه وإرادته،

والخلاف كل يوم يتزايد حتى وصل إلى صفات المعاني، فبعضهم قال بها وبعضهم نفاها.

ولكن قال رجل في زمن بني أمية بخلق القرآن، فقتل، وابتدع معبد الجهني الكلام في القدر بالبصرة، فقتله عبد الملك بن مروان.

والجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار آخر ملوك بني أمية، قال إن الله لا يتكلم وإنه مخلوق على العرش (١).

ورضي الله عن عمر بن عبد العزيز، فإنه وضع حدا للحديث، بقيت مصلحته إلى اليوم، ثم إن أتباع واصل بن عطاء كثروا وأخذوا من كتب اليونان ما ناسب عقولهم وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، وكان كثير منهم من فارس،

---

(١) هذا الرجل أخذ مذهبه من مذهب لبيد بن أعصم اليهودي، القائل بخلق التوراة!.

ولرجال فارس الحظوة عند خلفاء بني العباس كالبرامكة وأشياعهم، فعضدتهم الدولة العباسية، فصار رأيهم ظاهرا غالبا، وألفوا الكتب الكثيرة، وفيها ما فيها!
فانساق المتمسكون بطريقة السلف إلى الرد عليهم بقوة الدين، لا قوة الخلفاء!
ثم عظمت فتنة القول بخلق القرآن، فقال بذلك جماعة من الخلفاء، وتمسك جماعة بظاهر الكتاب وقالوا إنه قديم، وأمسك جماعة عن الخوض في هذا الكلام، يرون أن ذلك من مجاراة البدعة، وكانت هذه الفتنة سببا في إهانة أئمة الدين وكثير من رجال العلم!
وكان في تلك الأزمنة طائفة الدهريين وأهل الحلول ويسمون بالباطنية والإسماعيلية، أولوا في القرآن تأويلا، لم يأذن به الله حتى ضلوا وأضلوا،
ثم جاء أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٣٠ أو ونيف، فكتب في علم التوحيد وتوسط بين السلف ومخالفيهم، وأثبت العقائد على قواعد النظر، فارتاب فريق في أمر الرجل وقال بكفره جماعة، ونصرته طائفة وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة، فضعفت الطائفة المتمسكة بالظاهر والطائفة المبالغة، حتى لم يبق منهم بعد نحو قرنين إلا قليل يسكنون أطراف البلاد الإسلامية.
إن الذين نصروا مذهب الأشعري، أوجبوا الإيمان بما قاله من المقدمات والنتائج، ومنعوا الناس من الاستدلال بغير ما قال، وقالوا عدم الدليل يؤدي إلى عدم المدلول، ولم يتفكروا فيما وراء ذلك.
فلما جاء الغزالي والرازي وأتباعهما، قالوا ما معنى هذا الحجر وما سببه، إن الدليل الذي دون قد يكون ضعيفا عند جمهور العقلاء، وقد يكون باطلا، وليس هذا كلاما سماويا، فلا بد من الاستدلال بغيره كما أمر الله والعقل الصحيح، فهم في هذا كله يوفقون بين الدين والعقل (١)!
(١٢) " فاعلم أنه لو كان لربك شريك، لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضاده في ملكه أحد، ولا يزول أبدا ولم يزل، أول قبل الأشياء بلا أولية،

---

(١) راجع ص ٧ – ١٢ من كلمة التوحيد للمرحوم الشيخ حسين والي.

وأخير بعد الأشياء بلا نهاية، عظم عن أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر، فإذا عرفت ذلك، فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغر خطره وقلة مقدرته وكثرة عجزه وعظيم حاجاته إلى ربه، في طلب طاعته والخشية من عقوبته والشفقة من سخطه، فإنه لم يأمرك إلا بحسن ولم ينهك إلا عن قبيح (١).

" ما شككت في الحق مذ أريته، لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه، أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال، اليوم توافقنا على سبيل الحق والباطل، ومن وثق بماء لم يظمأ (٢) "!

----

(١) راجع ص ٤٥ و ٤٦ من نهج البلاغة ج ١.

(٢) راجع ص ٤٤ من نهج البلاغة ج ١.

الفصل الأول
تطهير النفس في إنجيل برنابا

" أحمده استتماما لنعمته واستسلاما لعزته واستعصاما من معصيته، وأستعينه فاقة إلى كفايته، إنه لا يضل من هداه، ولا يئل (١) من عاداه، ولا يفترق من كفاه، فإنه أرجح ما وزن، وأفضل ما خزن، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة ممتحنا إخلاصها، معتقدا مصاصها (٢) نتمسك بها أبدا ما أبقانا، وندخرها لأهاويل ما يلقانا، فإنها عزيمة الإيمان وفاتحة الإحسان ومرضاة الرحمن ومدحرة الشيطان، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور والكتاب المسطور والنور الساطع والضياء اللامع والأمر الصادع، إزاحة للشبهات واحتجاجا بالبينات وتحذيرا بالآيات وتخويفا بالمثلات، والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين وتزعزعت سواري اليقين وتشتت الأمر وضاق المخرج وعمي المصدر، فالهدى خامل والعمى شامل، عصى الرحمن ونصر الشيطان وخذل الإيمان، فانهارت دعائمه وتنكرت معالمه ودرست سبله وعفت شركه، أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله (٣) "!

وبعد فسنحدثك في هذا الفصل عن تطهير النفس في إنجيل برنابا، فنحدثك عن حديث يسوع عليه السلام فيه عن حياة الإنسان بالحس والنفس، وكيف يعمل الحس في الفجار، وما علاجه، وما هي سبل إغراء الشيطان للإنسان، وعن أن سبب الخطيئة هو الفكر السيئ وكيف يجب امتحان هذا الفكر،

---

(١) وأل يئل خلص.
(٢) مصاص كل شئ خالصه.
(٣) راجع ص ٣١ و ٣٢ من نهج البلاغة ج ١.

وعن أن الإنسان حر في عمله، وعن الخطيئة وسبق الاصطفاء، وعن العثرات وعن بعض أمثلة للخطيئة كالكبر والرياء والسرقة والشهوة والبخل، وعن طريق تحول الخاطئ إلى التوبة، وعن الطريقة التي يجب إظهار التوبة، وعن موت نفس الخاطئ بخطئه وحياته بتوبته، وعن حب الخاطئ التائب لله، وحب الله له! وبذا نجد أن المسيح عليه السلام، تتبع النفس الإنسانية في ضعفها وذكر لها بنور النبوة دواءها!

(١) النفس ودواؤها:

النفس رأس الحياة، وحياتها بالعلم والحب، بسهرها ترى الله في كل شئ وفي كل مكان، إذ يجود الله على الإنسان بالطهارة إذا اشتهاها، وذكر الله يطهره ويزكيه ولقد جاء في الفصول من السادس بعد المائة إلى الحادي عشر بعد المائة من إنجيل برنابا عن حياة الإنسان بالحس والنفس وكيف يعمل الحس في الفجار وعلاجه بالصوم والسهر والذكر " فلما فرغ يسوع من صلاة الفجر جلس تحت شجرة نخل، فاقترب تلاميذه إليه هناك، حينئذ قال يسوع:

لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن كثيرين مخدوعون في شأن حياتنا، لأن النفس والحس مرتبطان معا ارتباطا محكما، حتى أن أكثر الناس يثبتون أن النفس والحس إنما هما شئ واحد، فارقين بينهما بالعمل لا بالجوهر، ويسمونها بالنفس الحاسة والنباتية والعقلية، ولكن الحق أقول لكم إن النفس هي شئ حي مفكر، ما أشد غباوتهم! فأين يجدون النفس العقلية بدون حياة؟ لن يجدوها أبدا، ولكن يسهل وجود الحياة بدون حس، كما يشاهد في من وقع في غيبوبة متى فارقه الحس ".

أجاب تداوس " يا معلم متى فارق الحس الحياة، فلا يكون للإنسان حياة "!

أجاب يسوع " إن هذا ليس بصحيح، لأن الإنسان إنما يفقد الحياة متى فارقته النفس، لأن النفس لا ترجع إلى الجسد إلا بآية، ولكن الحس يذهب بسبب الخوف الذي يعرض له أو بسبب الغم الشديد الذي يعرض للنفس، لأن الله خلق الحس لأجل اللذة، ولا يعيش إلا بها، كما أن الجسد يعيش بالطعام، والنفس تعيش بالعلم والحب، فهذا الحس يخالف النفس بسبب الغيظ الذي

يلم به لحرمانه من لذة الجنة بسبب الخطيئة، لذلك وجب أشد الوجوب وآكده على من لا يريد تغذيته باللذة الجسدية، أن يغذيه باللذة الروحية! أتفهمون؟...
والآن قولوا لي كيف يعمل الحس في الفجار؟: لأنهم يتبعون الحس، معرضين عن العقل وعن شريعة الله، فيصيرون مكروهين لا يعملون صالحا، وهكذا فإن أول شئ يتبع الحزن على الخطيئة، الصوم، لأن من يرى أن نوعا من الطعام أمرضه، حتى خشي الموت، فإنه بعد أن يحزن على أكله، يعرض عنه حتى لا يمرض، فهكذا يجب على الخاطئ أن يفعل، فمتى رأى أن اللذة جعلته يخطئ إلى الله خالقه باتباعه الحس في طيبات العالم هذه، فليحزن لأنه فعل هكذا، لأن هذا يحرمه من الله حياته، ويعطيه موت الجحيم الأبدي، ولكن لما كان الإنسان محتاجا وهو عائش إلى مناولة طيبات العالم هذه، وجب عليه هنا الصوم، فليأخذ إذا في إعانة الحس، وأن يعرف الله سيدا له، ومتى رأى أن الحس يمقت الصوم، فليضع قبالته حال الجحيم، حيث لا لذة على الإطلاق، بل الوقوع في حزن غير متناه، ليضع قبالته مسرات الجنة التي هي عظيمة، بحيث أن حبة من ملاذ الجنة لأعظم من ملاذ العالم بأسرها، فبهذا يسهل تسكينه، لأن القناعة بالقليل لنيل الكثير، لخير من إطلاق العنان في القليل مع الحرمان من كل شئ والمقام في العذاب... ".
" ولكن ليكن التائب متيقظا، لأن الشيطان يحاول أن يبطل كل عمل صالح، ويخص عمل التائب أكثر مما سواه، لأن التائب قد عصاه وانقلب عليه عدوا عنيدا، بعد أن كان عبدا أمينا، فلذلك يحاول الشيطان أن يحمله على عدم الصوم في حال من الأحوال، بشبهة المرض، فإذا لم يغن هذا أغراه بالغلو في الصوم حتى ينتابه مرض فيعيش بعد ذلك متنعما، فإذا لم يفلح في هذا حاول أن يجعله يقصر صومه على ترك الطعام الجسدي، حتى يكون مثله لا يأكل شيئا ولكنه يرتكب الخطيئة على الدوام! لعمر الله إنه لممقوت أن يحرم المرء الجسد من الطعام ويملأ النفس كبرياء، محتقرا الذين لا يصومون وحاسبا نفسه أفضل منهم، قولوا لي أيفاخر المريض بطعام الحمية الذي فرضه عليه الطبيب، ويدعو الذين

لا يقتصرون على طعام الحمية مجانين؟ لا البتة، بل يحزن للمرض الذي اضطر بسببه إلى الاقتصار على طعام الحمية. إنني أقول لكم إنه لا يجب على التائب أن يفاخر بصومه ويحتقر الذين لا يصومون، بل يجب عليه أن يحزن للخطيئة التي يصوم لأجلها، ولا يجب على التائب الذي يصوم أن يتناول طعاما شهيا، بل يقتصر على الطعام الخشن، أفيعطي الإنسان طعاما شهيا للكلب الذي يعض وللفرس الذي يرفس؟ لا! البتة، بل الأمر بالعكس!

" أصيخوا السمع إذا لما سأقوله لكم بشأن السهر، إنه لما كان قسمين، أي نوم الجسد ونوم النفس، وجب عليكم أن تحذروا في السهر، كي لا تنام النفس والجسد ساهر، إن هذا يكون خطأ فاحشا جدا... فإني أقول لكم حقا إن من يسهر بالجسد وينام بالنفس لمصاب بالجنون، وكما أن المرض الروحي أشد خطرا من الجسدي، فشفاؤه أشد صعوبة، أفيفاخر إذا تعيس كهذا بعد النوم بالجسد الذي هو رجل الحياة، بينما هو لا يرى شقاءه في أنه ينام بالنفس التي هي رأس الحياة، إن نوم النفس هو نسيان الله ودينونته الرهيبة، فالنفس التي تسهر إنما هي التي ترى الله في كل شئ وفي كل مكان، وتشكر جلاله في كل شئ وعلى كل شئ وفوق كل شئ، عالمة أنها دائما في كل دقيقة تنال نعمة ورحمة من الله، فمن ثم يرن دائما في أذنها خشية من جلاله ذلك القول الملكي " تعالى أيتها المخلوقات للدينونة، لأن إلهك يريد أن يدينك "، فإنها تلبث على الدام في خدمة الله.. وصحيح كل الصحة أنه يجب تجنب الرقاد الجسدي جهد الطاقة، إلا أن منعه البتة محال، لأن الحس والجسد مثقلان بالطعام، والعقل بالمشاغل، لذلك يجب على من يريد أن يرقد قليلا، أن يتجنب فرط المشاغل وكثرة الطعام، لعمر الله الذي في حضرته تقف نفسي، إنه يجوز الرقاد قليلا كل ليلة، إلا أنه لا يجوز أبدا الغفلة عن الله ودينونة الرهبية، وما رقاد النفس، إلا هذه الغفلة "!

حينئذ أجاب من يكتب " يا معلم كيف يمكن لنا أن نتذكر الله على الدوام؟ إنه ليلوح لنا أن هذا محال "، فقال يسوع متنهدا " إن هذا لأعظم شقاء يكابده

الإنسان يا برنابا، لأن الإنسان لا يقدر هنا على الأرض أن يذكر الله خالقه على الدوام، إلا الأطهار، فإنهم يذكرون الله على الدوام، فإن فيهم نور نعمة الله، حتى لا يقدرون أن ينسوا الله، ولكن قولوا لي أرأيتم الذين يشتغلون بالحجارة المستخرجة من المقالع، كيف تعودوا بالتمرن المستمر أن يضربوا، حتى أنهم يتكالمون، وهم طول الوقت يضربون بالآلة الحديدية في الحجر دون أن ينظروا إليها، ومع ذلك لا يصيبون أيديهم؟ فافعلوا إذا أنتم كذلك، ارغبوا أن تكونوا أطهارا إذا أحببتم أن تتغلبوا دائما على شقاء الغفلة، ومن المؤكد أن الماء يشق أقوى الصخور بقطرة واحدة يتكرر وقوعها عليها زمنا طويلا! أتعلمون لماذا لم تتغلبوا على هذا الشقاء؟ لأنكم لم تدركوا أنه خطيئة ... هكذا يخطئ الذين يغفلون عن الله، لأن الإنسان ينال كل حين هبات ونعمة من الله.

ألا فقولوا ألا ينعم الله عليكم كل حين، بل حقا فإنه يجود عليكم دوما بالنفس الذي به تحيون، الحق الحق أقول لكم إنه يجب على قلبكم أن يقول كلما تنفس جسدكم " الحمد لله " حينئذ قال يوحنا " إن ما تقوله لهو الحق كل الحق: يا معلم! فعلمنا الطريق لبلوغ هذه الحال السعيدة "، أجاب يسوع " الحق أقول لك إنه لا يتاح لأحد بلوغ هذه الحال بقوى بشرية، بل برحمة الله ربنا، ومن المؤكد أنه يجب على الإنسان أن يشتهي الصالح ليهبه الله إياه، قولوا لي، أتأخذون وأنتم على المائدة الأطعمة التي تأنفون من النظر إليها لا البتة، كذلك أقول لكم إنكم لا تنالون ما لا تشتهون، إن الله لقادر إذا اشتهيتم الطهارة أن يجعلكم طاهرين، في أقل من طرفة عين، لكن الهنا يريد أن ننتظر ونطلب، لكي يشعر الإنسان بالهبة والواهب! أرأيتم الذين يتمرنون على رمي الهدف؟ حقا إنهم ليرمون مرات متعددة عبثا، وكيفما كانت الحال فهم، لا يرغبون مطلقا أن يرموا عبثا، ولكن يؤملون دوما أن يصيبوا الهدف، فافعلوا هكذا أنتم الذين تشتهون دائما أن تذكروا الله، ومتى غفلتم فنوحوا، لأن الله سيهبكم نعمة، لتبلغوا كل ما قد قلته.

إن الصوم والسهر الروحي متلازمان، حتى إذا أبطل أحد السهر، بطل الصوم توا، لأن الإنسان بارتكاب الخطيئة يبطل صوم النفس ويغفل عن الله، وهكذا فإن السهر والصوم من حيث النفس لازمان دوما لنا ولسائر الناس، لأنه لا يجوز لأحد أن يخطئ، أما صوم الجسد وسهره، فصدقوني أنهما غير ممكنين في حل حين ولا لكل شخص، لأنه يوجد مرضى وشيوخ وحبالى وقوم مقصورون على طعام الحمية وأطفال وغيرهم من أصحاب البنية الضعيفة، وكما أن كل أحد يلبس قياسه الخاص، هكذا يجب عليه أن يختار صومه، لأنه كما أن أثواب الطفل لا تصلح لرجل ابن ثلاثين سنة، هكذا لا يصلح صوم أحد وسهره لآخر، ولكن احذروا من الشيطان أن يوجه كل قوته لأن تسهروا في أثناء الليل ثم تناموا بعد ذلك، على حين يجب عليكم بوصية الله أن تصلوا وتصغوا إلى كلمة الله.. لأن من يسهر بالجسد أكثر مما يلزم، وهو نائم أو مثقل رأسه بالنعاس، على حين يجب عليه أن يصلي أو يصغي إلى كلام الله، فمثل هذا التعيس حقا، يستهزئ بالله خالقه، ويكون مرتكبا لهذه الخطيئة! وعلاوة على ذلك فهو لص لأنه يسرق الوقت الذي يجب أن يعطيه لله ويصرفه عندما وبقدر ما يريد!

... فماذا يفعل الله إذا بالرجل الذي يصرف أفضل وقته في المشاغل وأرذأه في الصلاة ومطالعة الشريعة؟ ويل للعالم، لأن قلبه مثقل بهذه الخطيئة، وبما هو أعظم منها! لذلك كما قلت لكم إنه يجب أن ينقلب الضحك بكاء والولائم صوما والرقاد سهرا، جمعت في كلمات ثلاث كل ما قد سمعتموه، وهو أنه يجب على المرء هنا على الأرض أن يبكي دواما، وأن البكاء يجب أن يكون من القلب، لأن الله تعالى خالقنا مستاء، وأنه يجب عليكم أن تصوموا لكي تكون لكم سلطة على الحس، وأن تسهروا لكي لا تخطئوا، وأن البكاء الجسدي والصوم والسهر الجسديان، يجب أن تكون بحسب بنية الأفراد (١) "!

----

(١) راجع ص ١٦٠ - ١٧١ من إنجيل برنابا.

(٢) سبل إغراء الشيطان:

آدم وحواء أزلهما الشيطان (١) فأخرجهما من الجنة، فإغراؤه مؤذ للإنسان الذي إذا خاف الله، انتصر على كل شئ وحرسته ملائكته، وما عليه إلا أن يبعد عن نفسه الفكر السيئ وأن يمتحن هذا الفكر، إذ لا يكفي للهرب من الشر أن يعرفه الإنسان، بل يجب عمل الخير للتغلب عليه، وسينصره الله نصرا عزيزا مؤزرا، " واعلموا أن ليس من شئ إلا ويكاد صاحبه أن يشبع منه ويمله إلا الحياة، فإنه لا يجد في الموت راحة، وإنما ذلك بمنزلة الحكمة التي هي حياة للقلب الميت وبصر للعين وسمع للأذن الصماء، وري للظمآن، فيها الغنى كله والسلامة، كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله (٢) "!

(ا) فلقد جاء في الفصل الثالث والسبعين من إنجيل برنابا عن سبل إغراء الشيطان لإسقاط الإنسان " الحق أقول لكم إنه إذا حاول الشيطان أن يعرف هل أنتم أخلاء الله، وتمكن من بلوغ مأربه منكم، فإنه يسمح لكم أن تسيروا بحسب أهوائكم، إذ لا يهاجم أحد مدنه، ولكن لما كان يعلم أنكم أعداؤه، فسيعمل كل عنف ليهلككم، ولكن لا تخافوا فإنه سيقاومكم ككلب مربوط، لأن الله قد سمع صلاتي "!

أجاب يوحنا " يا معلم! أخبرنا كيف يقف المجرب القديم بالمرصاد للإنسان، ليس لأجلنا نحن فقط، بل لأجل الذين سيؤمنون بالإنجيل أيضا ".

أجاب يسوع " إن ذلك الشرير يجرب بأربع طرق، الأولى عندما يجرب هو نفسه بالأفكار، الثانية عندما يجرب بالكلام والأعمال بواسطة خدمه،

---

(١) استزلهما واستجرهما حتى أوقعهما في الزلة أي الخطيئة. راجع ص ٣ من غريب القرآن للسجستاني.

(٢) راجع ص ٢٧١ من نهج البلاغة ج ١.

الثالثة عندما يجرب بالتعليم الكاذب، الرابعة عندما يجرب بالتخييل الكاذب!
إذا يجب على البشر أن يحاذروا كثيرا، ولا سيما لأن له عونا من جسد الإنسان، الذي يحب الخطيئة كما يحب المحموم الماء، الحق أقول لكم إذا خاف الإنسان الله انتصر على كل شئ كما يقول داود نبيه " سيسلمك الله إلى عناية ملائكته الذين يحفظون طرقك، لكيلا يعثرك الشيطان، يسقط ألف عن شمالك وعشرة آلاف عن يمينك، لكيلا يقربوك "، ووعد أيضا إلهنا بمحبة عظيمة على لسان داود المذكور، أن يحفظنا قائلا " إني أمنحك فهما يثقفك، وكيفما سلكت في طرقك، أجعل عيني تقع عليك، ولكن ماذا أقول، لقد قال على لسان أشعيا " أتنسى الأم طفل رحمها، ولكن أقول لك إن هي نسيت، فإني لا أنساك "، إذا قولوا لي من يخاف الشيطان إذا كانت الملائكة حراسه، والله الحي حاميه؟ ومع ذلك فمن الضروري كما يقول النبي سليمان أن " تستعد أنت يا بني الذي صرت تخاف الله، للتجارب "، الحق أقول لكم إنه على الإنسان أن يحتذي مثال الصيرفي الذي يتحرى النقود، ممتحنا أفكاره لكيلا يخطئ إلى خالقه (١) "!
(ب) وجاء في الفصل الرابع والسبعين من إنجيل برنابا عن أن سبب الخطيئة هو الفكر السئ:
" كان ولا يزال في العالم قوم لا يبالون بالخطيئة، وإنما هم لعلى أعظم ضلال، قولوا لي كيف أخطأ الشيطان؟ إنه أخطأ لمجرد الفكر بأنه أعظم شأنا من الإنسان، وأخطأ سليمان، لأنه فكر في أن يدعو كل خلائق الله لوليمة، فأصلحت خطأه سمكة، إذ أكلت كل ما كان قد هيأ، لذلك لم يكن بلا باعث ما يقول داود أبونا " استعلاء الإنسان في نفسه، يهبط به في وادي الدموع "، لذلك ينادي الله على لسان أشعيا نبيه، قائلا " أبعدوا أفكاركم الشريرة عن عيني "، ولأي غاية يرمي سليمان، إذ يقول " احفظ قلبك كل الحفظ "، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته يقال كل شئ في الأفكار الشريرة

---

(١) راجع ص ١١٣ - ١١٥ من إنجيل برنابا.

التي تكون باعثا على ارتكاب الخطيئة، لأنه لا يمكن ارتكاب الخطيئة بدون فكر، ألا قولوا لي متى غرس الزراع الكرم، ألا يزرع النبات على عمق غائر؟ بلى! وهكذا يفعل الشيطان الذي إذا زرع الخطيئة لا يقف عند العين أو الأذن، بل يتعدى إلى القلب الذي هو مستقر الله، كما تكلم على لسان موسى عبده قائلا " إني أسكن فيهم، ليسيروا في شريعتي ".

فبالحري يجب عليكم ألا تبيحوا للشيطان أن يدخل قلوبكم أو يضع أفكاره فيها، لأن الله أعطاكم قلبكم لتحفظوه، وهو مسكنه... (١) "!

(ج) وجاء في الفصلين الخامس والسبعين والسادس والسبعين من إنجيل برنابا عن كيفية امتحان الفكر:

" حينئذ قال يعقوب: يا معلم! كيف يكون امتحان الفكر شبيها بامتحان قطعة نقود؟ أجاب يسوع " إن الفضة الجيدة في الفكر، إنما هي التقوى، لأن كل فكر عار من التقوى يأتي من الشيطان، والصورة (٢) الصحيحة إنما هي قدوة الأطهار والأنبياء التي يجب علينا اتباعها، وزنة الفكر إنما هي محبة الله التي يجب أن يعمل بموجبها كل شئ، ولذلك يأتي العدو إلى هناك بأفكار تنافي التقوى في جيرانكم، مطابقة للعالم، ليفسد الجسد، وللمحبة العالمية، ليفسد محبة الله ".

أجاب برتولوماوس " يا معلم! كيف نفكر قليلا، حتى لا نقع في التجربة؟ " أجاب يسوع " يلزمكم شيئان: الأول أن تتمرنوا كثيرا، والثاني أن تتكلموا قليلا، لأن الكسل مرحاض يتجمع فيه كل منكر نجس، والإكثار من التكلم إسفنجة تلتقط الآثام، فيلزم أن لا يكون عملكم قاصرا على تشغيل الجسد فقط، بل يجب أن تكون النفس أيضا مشتغلة بالصلاة، لأنه يجب أن لا تنقطع عن الصلاة أبدا... ولا يكفي للهرب من الشر، أن يعرفه الإنسان لينجو منه، بل يجب فعل الصالحات للتغلب عليه (٣) "!

----

(١) راجع ص ١١٥ و ١١٦ من إنجيل برنابا.
(٢) أي ما يكون على قطعة النقد.
(٣) راجع ص ١١٦ - ١١٩ من إنجيل برنابا.

(٣) الإنسان مخير:
خلق الله الإنسان حرا ليعلم جود ربه وفضله، وليكون أشد حباله، ولكنه تركه حرا على طريقة تمكنه من فعل الخير ومقاومة الشر، وقد قال تعالى " ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك "، ويقول السجستاني إن معناه " ما أصابك من نعمة فمن الله، فضلا منه عليك ورحمة، وما أصابك من سيئة أي من أمر يسوءك، فمن نفسك، أي من ذنب أذنبته، فعوقبت (١) "!

ولقد جاء في الفصل الخامس والخمسين من إنجيل برنابا عن حرية الإنسان في العمل: "... دعا رئيس الكهنة سرا كاهنين شيخين، وأرسلهما إلى يسوع... فاقترب الكاهنان من يسوع وقالا " لماذا أكل الإنسان حنطة وثمرا؟ هل أراد الله أن يأكلهما، أم لا؟ " وإنما قالا ليجرباه، لأنه لو قال " إن الله أراد ذلك "، لأجابا " لماذا نهى عنها؟ "، وإذا قال " إن الله لم يرد ذلك "، يقولان " إن للإنسان قوة أعظم من الله، لأنه يعمل ضد إرادة الله "، فأجاب يسوع " إن سؤالكما (كطريق في جبل) ذو جرف عن اليمين وعن اليسار، ولكن أسير في الوسط "، فلما سمع الكاهنان ذلك تحيرا، لأنهما أدركا أن يسوع قد فهم قلبيهما. ثم قال يسوع " لما كان الإنسان محتاجا، كان يعمل كل شئ لأجل منفعته، ولكن الله الذي لا يحتاج إلى شئ، عمل بحسب مشيئته، لذلك لما خلق الإنسان، خلقه حرا، ليعلم أن ليس لله حاجة إليه... إذا قد خلق الله الإنسان حرا: لكي يكون أشد حبا لخالقه، وليعرف جوده، لأن الله وهو قادر على كل شئ، غير محتاج إلى الإنسان، فإنه إذ خلقه بقدرته على كل شئ، تركه حرا بجوده، على طريقة يمكنه معها مقاومة الشر وفعل الخير، وإن الله على قدرته على منع الخطيئة، لم يرد أن يضاد جوده - إذ ليس عند الله تضاد - فلما عملت قدرته على كل شئ وجوده عملهما في الإنسان، لم يقاوم الخطيئة في الإنسان، لكي تعمل في

---

(١) راجع ص ١٥٥ من غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب للإمام السجستاني.

الإنسان رحمة الله وبره، آية صدقي هي أن أقول لكما، إن رئيس الكهنة قد أرسلكما لتجرباني، وهذا هو ثمر كهنوته (١)... ".

(٤) الخطيئة وسبق الاصطفاء:

الخطيئة لا يمكن أن تنشأ في الإنسان إلا مضادة لله، إذ هي ما لا يريد الله، وقد يحدث العمل الواحد نتيجتين متضادتين، فموسى قتل لإبادة عبادة الأصنام، فالقتل منه ضحية، ولكن أخاب قتل ليبقى عليها، فالقتل منه تدنيس، ويمكن مداواة الكذب بقول الصدق، والبلايا حسنة إما لأنها تطهر الشر الذي فعلناه، أو لأنها تمنعنا من ارتكابه، أو لأنها تعرفنا قيمة هذه الحياة لنتوق للأخرى، وسبق الاصطفاء بمعنى تقدير الخير للخيرين والشر للمنبوذين - لا يكون شريعة الله إذا استلزم سلب حرية إرادة الإنسان التي وهبها الله له، ولذا يستطيع المذنب بالتوبة أن يكون صالحا بفضل الله، وتوفيقه، والبار قد تسلبه خطيئته بره، إذا اعتمد على بره ونسي الله، فيجب فهم أن أساس القدر هو إرادة الله في شريعته بحرية الإرادة البشرية!

ولقد جاء في الفصول من الثامن والخمسين بعد المائة إلى الفصل السابع والستين بعد المائة من إنجيل برنابا، عن الخطيئة وسبق الاصطفاء:

" ذهب الرجل الذي ولد أعمى، ليجد يسوع، فعزاه قائلا.. إنك لم تبارك في زمن كما أنت، لأنك مبارك من إلهنا الذي تكلم على لسان داود أبينا ونبيه في أخلاء العالم قائلا " هم يلعنون، وأنا أبارك " وقال على لسان ميخا النبي " إني ألعن بركتك "، لأن التراب لا يضاد الهواء، ولا الماء النار، ولا النور الظلام، ولا البرد الحرارة، ولا المحبة البغضاء، كما تضاد إرادة الله إرادة العالم، فسأله لذلك التلاميذ قائلين " ما أعظم كلامك أيها السيد، فقل لنا المعنى، لأننا حتى الآن لم نفهم "، أجاب يسوع " متى عرفتم العالم، ترون أني قلت الحق، وهكذا ستعرفون الحق في كل نبي، فاعلموا إذا أن

---

(١) راجع ص ٢٤٠ - ٢٤٢ من إنجيل برنابا.

هناك ثلاثة أنواع من العوالم متضمنة في اسم واحد، الأول يشير إلى السماوات والأرض مع الماء والهواء والنار وكل الأشياء التي هي دون الإنسان، فيتبع هذا العالم في كل شئ إرادة الله، كما يقول داود " لقد أعطاها الله أمرا لا تتعداه "! الثاني يشير إلى كل البشر، كما أن بيت فلان، لا يشير إلى الجدران، بل إلى الأسرة، فهذا العالم يحب الله أيضا، لأنهم بالطبيعة يتوقون إلى الله قدر ما يستطيع كل أحد أن يتوق بحسب الطبيعة إلى الله، وإن ضلوا في طلب الله، أفتعلمون لماذا يتوق الجميع إلى الله؟ لأنهم يتوقون جميعا إلى صلاح غير متناه بدون أدنى شر، وهذا هو الله وحده، لذلك أرسل الله الرحيم أنبياءه إلى هذا العالم لخلاصه! وأما الثالث فهو سقوط الإنسان في الخطيئة التي تحولت إلى شريعة مضادة لله خالق العالم، فهذا يصير الإنسان نظير الشياطين أعداء الله!

... الحق الحق أقول لكم إن الخطيئة لا يمكن أن تنشأ في إنسان إلا مضادة لله، إذ ليست الخطيئة إلا ما لا يريده الله، فإن كل ما يريده أجنبي من الخطيئة، فلو اضطهدني رؤساء الكهنة والكهنة مع الفريسيين لأن شعب إسرائيل دعاني إلها، لفعلوا شيئا يرضى به الله ولكافأهم الله، ولكن الله مقتهم لأنهم يضطهدونني لسبب مضاد، وهو أنهم لا يريدون أن أقول الحق، وكم قد أفسدوا بتقليدهم كتاب موسى وكتاب داود نبيي الله وخليليه، وإنهم لهذا يكرهونني ويودون موتى! إن موسى قتل ناسا، وأخاب قتل ناسا، قولوا لي أيعد هذا قتلا من كليهما؟ لا البتة، لأن موسى قتل الناس ليبيد عبادة الأصنام، وليبقى على عبادة الإله الحقيقي، ولكن أخاب قتل ناسا ليبيد عبادة الإله الحقيقي وليبقى على عبادة الأصنام، لذلك تحول قتل موسى للناس ضحية، على حين تحول قتل أخاب تدنيسا، فإن ذات العمل الواحد، أحدث نتيجتين متضادتين، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، لو كلم الشيطان الملائكة ليرى كيف أحبوا الله، لما رذله الله، ولكنه منبوذ لأنه حاول أن يبعدهم عن الله... "، فقال يسوع " أسمعتم كل شئ " أجاب التلاميذ " نعم يا سيد "، فقال من ثم

يسوع " إن الكذب خطيئة، ولكن القتل خطيئة أعظم، لأن الكذب خطيئة تختص بالذي يتكلم، ولكن القتل على كونه يختص بالذي يرتكبه هو، يهلك أيضا أعز شئ لله هنا على الأرض أي الإنسان، ويمكن مداواة الكذب بقول ضد ما قيل، على حين لا دواء للقتل، لأنه ليس بممكن منح الميت حياة، قولوا لي إذا هل أخطأ موسى عبد الله بقتل كل الذين قتلهم؟ "،
أجاب التلاميذ " حاش الله حاش لله! أن يكون موسى قد أخطأ بطاعته لله الذي أمره " فقال حينئذ يسوع " وأنا أقول حاشا لله أن يكون قد أخطأ ذلك الملاك الذي خدع أنبياء أخاب الكذبة بالكذب، لأنه كما أن الله يقبل قتل الناس ذبيحة، فهكذا قبل الكذب حمدا! الحق أقول لكم، كما يغلط الطفل الذي يصنع حذاءه بقياس رجل جبار، هكذا يغلط من يجعل الله خاضعا للشريعة، كما أنه هو نفسه خاضع لها من حيث هو إنسان، فمتى اعتقدتم أن الخطيئة إنما هي ما لا يريده الله، تجدون حينئذ الحق كما قلت لكم، وعليه لما كان الله غير مركب وغير متغير، فهو أيضا لا يريد ويريد الشئ الواحد، أنه بذلك يصير تضاد في نفسه!.. "
أجاب فيليبس " ولكن يجب فهم قول عاموس إنه لا يوجد شر في المدينة لم يصنعه الله؟ "، أجاب يسوع " انظر الآن يا فيليبس! ما أشد خطر الاعتماد على الحرف كما يفعل الفريسيون الذين قد انتحلوا لأنفسهم اصطفاء الله للمختارين.. لذلك أقول إن عاموس نبي الله يتكلم هنا عن الشر الذي يسميه العالم شرا، لأنه لو استعمل لغة الأبرار لما فهمه العالم، لأن كل البلايا حسنة، إما حسنة لأنها تطهر الشر الذي فعلناه، وإما حسنة لأنها تمنعنا من ارتكاب الشر، وإما حسنة لأنها تعرف الإنسان حال هذه الحياة لكي نحب ونتوق إلى الحياة الأبدية، فلو قال النبي عاموس " ليس في المدينة من خير إلا كان الله صانعه "، لكان ذلك وسيلة لقنوط المصابين متى رأوا أنفسهم في المحن، والخطاة في سعة من العيش، وأنكى من ذلك أنه متى صدق كثيرون أن للشيطان سلطة على الإنسان، خافوا الشيطان وخدموه تخلصا من البلايا، فلذلك فعل

عاموس ما يفعله الترجمان الروماني الذي لا ينظر في كلامه كأنه يتكلم في حضرة رئيس الكهنة، بل ينظر إلى إرادة ومصلحة اليهودي الذي لا يعرف التكلم باللسان العبراني! لو قال عاموس ليس في المدينة من خير إلا كان الله صانعه، فكان لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، قد ارتكب خطأ فاحشا، لأن العالم لا يرى خيرا سوى الظلم والخطايا التي تصنع في سبيل الباطل، وعليه يكون الناس أشد توغلا في الإثم لأنهم يعتقدون أنه لا توجد خطيئة أو شر لم يصنعه الله، وهذا أمر تتزلزل لسماعه الأرض "!

وبعد أن قال يسوع هذا، حصل توا زلزال عظيم إلى حد سقط معه كل أحد كأنه ميت، فأنهضهم يسوع قائلا " انظروا الآن إذا كنت قلت لكم الحق! فليكفكم هذا إذا أنه لما قال عاموس إن الله صنع شرا في المدينة، مكلما العالم، فهو إنما تكلم عن البلايا التي لا يسميها شرا إلا الخطاة... "!

" إني أشرح لكم الآن ذلك النزر القليل الذي وهبني الله معرفته بشأن سبق الاصطفاء: يزعم الفريسيون أن كل شئ قدر على طريقة لا يمكن معها لمن كان مختارا أن يصير منبوذا، ومن كان منبوذا لا يتسنى له بأية وسيلة كانت، أن يصير مختارا، وأنه كما أن الله قدر أن يكون عمل الصلاح هو الصراط الذي يسير فيه المختارون إلى الخلاص، هكذا قدر أن تكون الخطيئة هي الطريق الذي يسير فيه المنبوذون إلى الهلاك! لعن اللسان الذي نطق بهذا واليد التي سطرته، لأن هذا إنما هو اعتقاد الشيطان...، فماذا يكن أن يكون معنى سبق الاصطفاء سوى أنه إرادة مطلقة تجعل للشئ غاية، وسيلة الوصول إليها في يد المرء، فإنه بدون وسيلة، لا يمكن لأحد تعيين غاية، فكيف يتسنى لأحد تقدير بناء بيت وهو لا يعوزه الحجر والنقود ليصرفها فقط، بل يعوزه موطئ القدم من الأرض، لا أحد البتة! فسبق الاصطفاء لا يكون شريعة الله بالأولى إذا استلزم سلب حرية الإرادة التي وهبها الله للإنسان بمحض جوده، فمن المؤكد أننا نكون إذ ذاك آخذين في إثبات مكرهة لا سبق اصطفاء!

أما كون الإنسان حرا، فواضح من كتاب موسى، لأن إلهنا عندما أعطى الشريعة على جبل سينا، قال هكذا " ليست وصيتي في السماء لكي تتخذ عذرا لك قائلا من يذهب ليحضر لنا وصية الله؟ ومن يا ترى يعطينا قوة لنحفظها؟ ولا هي وراء البحر، لكي نعد نفسك كما تقدم، بل وصيتي قريبة من قلبك، حتى أنك تحفظها متى شئت ".. حينئذ تنهد يسوع وقال " أيها الإخوة! ما هذه إلا ثمار التقاليد البشرية، لأنه بقولهما إن الله قدر فقضى على المنبوذ بطريقة لا يمكنه معها أن يصير مختارا، يجدفون على الله.. لأنه يأمر الخاطئ أن لا يخطئ وإذا أخطأ أن يتوب، على أن هذا القدر ينزع من الخاطئ القدرة على ترك الخطيئة، فيسلبه التوبة بالمرة! ولكن اسمعوا ما يقول الله على لسان يوئيل النبي " لعمري يقول إلهكم: لا أريد موت الخاطئ، بل أود أن يتحول إلى التوبة "، أيقدر الله إذا ما لا يريده؟.. يقول الله أيضا على لسان النبي أشعيا " دعوت فلم تصغوا إلي " وما أكثر ما دعا الله، اسمعوا ما يقول على لسان هذا النبي نفسه " بسطت يدي طول النهار إلى شعب لا يصدقني بل يناقضني "! فإذا قال الفريسيون إن المنبوذ لا يقدر أن يصير مختارا، فهل يقولون سوى أن الله يستهزئ بالبشر، كما لو استهزأ بأعمى يريه شيئا أبيض، وكما لو استهزأ بأصم يكلم في أذنيه " أما كون المختار يمكن أن ينبذ، فتأملوا ما يقول إلهنا على لسان حزقيال النبي " يقول الله لعمري إذا رجع البار عن بره وارتكب الفواحش، فإنه يهلك، ولا أذكر فيما بعد شيئا عن بره فإن بره سيخذله أمامي، فلا ينجيه وهو متكل عليه "! أما نداء المنبوذين، فماذا يقول الله فيه على لسان هوشع سوى هذا " إني أدعو شعبا غير مختار، فأدعوهم مختارين " إن الله صادق... وهو الحق يقول الحق... ولكن كيف يجب أن يفهم ما قال الله لموسى من أنه يرحم من يرحم ويقسي من يقسي؟.

أجاب يسوع " إنما يقول الله هذا، لكيلا يعتقد الإنسان أنه خلق بفضيلته، بل ليدرك أن الحياة ورحمة الله، قد منحهما له الله من جوده،

ويقوله ليتجنب البشر الذهاب إلى أنه يوجد آلهة أخرى سواه، فإذا هو قسى فرعون، فإنما فعله لأنه نكل بشعبنا وحاول أن يبغي عليه بإبادة الأطفال الذكور من إسرائيل، حتى كاد موسى يخسر حياته! وعليه أقول لكم حقا إن أساس القدر إنما هو شريعة الله وحرية الإرادة البشرية، بل لو قدر الله أن يخلص العالم كله حتى لا يهلك أحد، لما أراد أن يفعل ذلك، لكيلا يجرد الإنسان من الحرية التي يحفظها له ليكيد الشيطان، حتى يكون لهذه الطينة.. وإن أخطأت قدرة على التوبة.. إن إلهنا يريد أن يتبع برحمته حرية إرادة الإنسان، ولا يريد أن يترك بقدرته غير المتناهية المخلوق، وهكذا لا يقدر أحد في يوم الدين أن يعتذر عن خطاياه، لأنه يتضح حينئذ كم فعل الله لتجديده، وكم قد دعاه إلى التوبة!.

وعليه فإذا كانت أفكاركم لا تطمئن لهذا، ووددتم أن تقولوا أيضا " لماذا هكذا " فإني أوضح لكم لماذا، وهو هذا: قولوا لي لماذا لا يمكن الحجر أن يستقر على سطح الماء، مع أن الأرض برمتها مستقرة على سطح الماء؟ قولوا لي لماذا كان التراب والهواء والماء والنار متحدة بالإنسان ومحفوظة على وفاق؟ مع أن الماء يطفئ النار، والتراب يهرب من الهواء، حتى أنه لا يقدر أحد أن يؤلف بينها! فإذا كنتم لا تفقهون هذا، بل إن كل البشر من حيث هم بشر لا يقدرون أن يفقهوه - فكيف يفقهون أن الله خلق الكون من لا شئ بكلمة واحدة؟ كيف يفقهون أزلية الله؟ حقا لا يتاح لهم أبدا أن يفقهوا هذا، لأنه لما كان الإنسان محدودا ويدخل في تركيبه الجسد الذي هو كما يقول النبي سليمان قابل للفساد يضغط النفس - ولما كانت أعمال الله مناسبة لله، فكيف يمكن للإنسان إدراكها؟ فلما رأى أشعيا نبي الله هذا، صرخ قائلا: " حقا إنك لإله محتجب " ويقول عن رسول الله كيف خلقه الله " أما جيله فمن يصفه "! ويقول عن عمل الله " من كان مشيره فيه " لذلك يقول الله للطبيعة البشرية " كما تعلو السماء عن الأرض، هكذا تعلو طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم "! لذلك أقول لكم إن كيفية القدر غير واضحة للإنسان

وإن كان ثبوته حقيقيا، كما قلت لكم، فيجب إذا على الإنسان أن ينكر الواقع لأنه لا يقدر أن يعرف كيفيته؟ حقا إني لم أجد أحدا يرفض الصحة وإن لم يمكن إدراك كيفيتها، لأني لا أدري حتى الآن كيف يشفي الله المرض بواسطة لمسي (١) "!

٥ - العثرات:

إن العالم يقيم في الإثم، ولكن يجب على الإنسان أن يطرح عنه كل ما يمنعه من خدمة الله، ويمكن إصلاح الإنسان بالحلم والرحمة، ولذا يجب أن يمهل الخاطئ ليتوب لأنه هكذا يمهله الله " وإنما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة، أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية، ويكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم عنهم، فكيف بالعائب الذي عاب أخا وعيره ببلواه أما ذكر ستر الله عليه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذي عاب به، وكيف يذمه بذنب قد ركب مثله، فإن لم يكن ركب ذلك الذنب بعينه، فقد عصى الله فيما سواه مما هو أعظم منه، وأيم الله لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير، لجرأته على عيب الناس أكبر! يا عبد الله! لا تعجل في عيب أحد بذنبه، فلعله مغفور له، ولا تأمن على نفسك صغير معصية، فلعلك معذب عليه، فليكفف من علم منكم عيب غيره، لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكر شاغلا له، على معافاته مما ابتلى به غيره " (٢)!

ولقد جاء في الفصول من السابع والثمانين إلى التاسع والثمانين من إنجيل برنابا عن العثرات: " ويل للعالم من العثرات، لا بد أن تأتي العثرات، لأن العالم يقيم في الإثم، ولكن ويل لذلك الإنسان الذي به تأتي العثرة، خير للإنسان أن يعلق في عنقه حجر الرحى، ويغرق في لجة البحر، من أن يعثر جاره، إذا كانت عينك عثرة لك فاقلعها، لأنه خير لك أن تدخل الجنة أعور من أن

---

(١) راجع ص ٢٤٦ - ٢٥٩ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٢٧٧ من نهج البلاغة ج ١.

تدخل الجحيم ولك عينان، إن أعثرتك يدك أو رجلك، فافعل بهما كذلك،
لأنه خير لك أن تدخل ملكوت السماء أعرج أو أقطع من أن تدخل الجحيم
ولك يدان ورجلان " فقال سمعان المسمى بطرس " يا سيد كيف يجب أن
أفعل هذا؟ حقا إن أصير أبتر في زمن وجيز " أجاب يسوع " يا بطرس!
اخلع الحكمة الجسدية، تجد الحق توا، لأن من يعلمك هو عينك، ومن
يساعدك للعمل هو رجلك، ومن يخدمك في شئ ما هو يدك، فمتى كانت أمثال
هذه باعثا على الخطيئة فاتركها، لأنه خير لك أن تدخل الجنة جاهلا فقيرا
ذا أعمال قليلة، من أن تدخل الجحيم بأعمال عظيمة وأنت حكيم غني، فاطرح
عنك كل ما يمنعك من خدمة الله، كما يطرح الإنسان كل ما يعيق بصره "!
ولما قال يسوع هذا، دعا بطرس إلى جانبه وقال له " إذا أخطأ أخوك إليك،
فاذهب وأصلحه، فإذا هو اصطلح فتهلل، لأنك قد ربحت أخاك، وإن لم
يصطلح فاذهب وادع شاهدين وأصلحه أيضا: فإن لم يصطلح... فاحسبه
كافرا، ولذلك لا تسكن تحت سقف البيت الذي يسكنه، ولا تأكل على المائدة
التي يجلس إليها، ولا تكلمه، حتى أنك إذا علمت أين يضع قدمه أثناء المشي،
فلا تضع قدمك هناك. ولكن احذر من أن تحسب نفسك أفضل منه،
بل يجب أن تقول هكذا: بطرس! بطرس! إنك لو لم يساعدك الله، لكنت
شرا منه "، أجاب بطرس " كيف يجب على أن أصلحه! " فأجاب يسوع
" بالطريقة التي تحب أنت نفسك أن تصلح بها، فكما تريد أن تعامل بالحلم،
هكذا عامل الآخرين، صدقني يا بطرس لأني أقول لك الحق، إنك كل مرة
تصلح أخاك بالرحمة، تنال رحمة من الله وتثمر كلماتك بعض الثمر، ولكن إذا
فعلت ذلك بالقسوة، يقاصك عدل الله بقسوة ولا تأتي بثمر، قل لي يا بطرس
أيغسل الفقراء مثلا هذه القدور الفخارية التي يطبخون فيها طعامهم بالحجارة
والمطارق الحديدية؟ كلا ثم كلا! بل بماء سخن، فالقدور تحطم بالحديد، والأشياء
الخشبية تحرقها النار، أما الإنسان فإنه يصلح بالرحمة، فمتى أصلحت أخاك، فقل
لنفسك " إذا لم يعضدني الله، فإني فاعل غدا شرا من كل ما فعل هو اليوم "!

أجاب بطرس " كم مرة أغفر لأخي يا معلم؟ "، أجاب يسوع " بعدد ما تريد أن يغفر لك "، فقال بطرس " أسبع مرات في اليوم؟ "، أجاب يسوع " لا أقول سبعا فقط، بل تغفر له كل يوم سبعين سبع مرات، لأن من يغفر يغفر له ومن يدن يدن "، حينئذ قال من يكتب هذا " ويل للرؤساء، لأنهم سيذهبون إلى الجحيم "، فوبخه يسوع قائلا " لقد صرت غبيا يا برنابا، إذ تكلمت هكذا، الحق أقول لكم إن الحمام ليس بضروري للجسم، ولا اللجام للفرس، ولا يد الدفة للسفينة، كضرورة الرئيس للبلاد، ولأي سبب أذن الله لموسى ويشوع وصموئيل وداود وسليمان ولكثيرين آخرين أن يصدروا أحكاما، إنما أعطى الله السيف لمثل هؤلاء لاستئصال الإثم " فقال حينئذ من يكتب هذا " كيف يجب إصدار الحكم بالقصاص والعقوبة؟ "، أجاب يسوع " ليس كل أحد قاضيا يا برنابا، لأن القاضي وحده أن يدين الآخرين، وعلى القاضي أن يقتض من المجرم، كما يأمر الأب بقطع عضو فاسد من ابنه، لكيلا يفسد الجسد كله "!

قال يسوع " لو كان عندكم إدراك صحيح، وعرفتم أنكم أنتم أنفسكم خطاة، لما خطر في بالكم مطلقا أن تنزعوا من قلوبكم الرحمة بالخاطئ، ولذلك أقول لكم صريحا، إنه يجب أن يمهل الخاطئ ليتوب، ما دام له نفس تتنفس من وراء أسنانه، لأنه هكذا يمهله إلهنا القدير الرحيم، إن الله لم يقل إني أغفر للخاطئ في الساعة التي يصوم ويتصدق ويصلي ويحج فيها، وهو ما قام به كثيرون وهم ملعونون لعنة أبدية ة، ولكنه قال " في الساعة التي يندب فيها الخاطئ خطاياه، أنسى إثمه فلا أذكره بعد "... الحق أقول لكم إن المرأتين والأمم يصلون ويتصدقون ويصومون أكثر من أخلاء الله، ولكن لما لم يكن لهم إيمان، لم يتمكنوا من التوبة، ولهذا كانوا ملعونين (١)... "!

---

(١) راجع ص ١٣٥ – ١٣٨ من إنجيل برنابا.

(٦) ذم الكبرياء في الإنسان:
الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء (١)، واختارهما لنفسه دون خلقه وجعلهما حمى وحرما على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده، ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين، ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه، وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب " إني خالق بشرا من طين، فإذا سويته، ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس "، اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه وتعصب عليه لأصله، فعدو الله إمام المتعصبين وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل!
ألا ترون كيف صغره الله بتكبيره، ووضعه الله بترفعه، فجعله في الدنيا مدحورا، وأعد له في الآخرة سعيرا، ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه، ويبهر العقول دواؤه، وطيب يأخذ الإنسان عرفه، لفعل، ولو فعل، لظلت له الأعناق خاضعة، ولخفت البلوى فيه على الملائكة، ولكن الله سبحانه، ابتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزا بالاختبار لهم، ونفيا للاستكبار عنهم، وإبعادا للخيلاء منهم، فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف

---

(١) من خطبة لعلي بن أبي طالب عليه السلام تسمى القاصعة، من قصع فلان فلانا أي حقره، لأنه حقر فيها حال المتكبرين، أو من قصع الماء عطشه إذا أزاله، لأن سامعها لو كان متكبرا، ذهب تأثيرها بكبره كما يذهب الماء بالعطش! وقال وقد لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار (زعماء فلاحي العجم في العراق)، فترجلوا له واشتدوا بين يديه " ما هذا الذي صنعتموه؟ "، فقالوا " خلق منا، نعظم به أمراءنا "، فقال " والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقون على أنفسكم في دنياكم، وتشقون به في آخرتكم، وما أخسر المشقة وراءها العقاب وأربح الدعة معها الأمان من النار ". راجع ص ١٥٢ من نهج البلاغة ج ٢.

سنة، لا يدرى أمن سني الدنيا أم سني الآخرة، عن كبر ساعة واحدة، فمن بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته، كلا ما كان الله سبحانه، ليدخل الجنة بشرا بأمر أخرج به منها ملكا، إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرمه على العالمين، فاحذروا عباد الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، وأغرق لكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب، وقال رب " بما أغويتني، لأزينن لهم في الأرض، ولأغوينهم أجمعين "، قذفا بغيب بعيد ورجما بظن مصيب!

فاطفئوا ما كان في قلوبكم من نيران العصبية وأحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزغاته ونفثاته، واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده، فإن له من كل أمة جنودا وأعوانا ورجالا وفرسانا، ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من غير ما فضل جعله الله فيه، سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد، وقدحت الحمية في قلبه من نار الغضب، ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذي أعقبه الله به الندامة وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة!

فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته، واتعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم واستعيذوا بالله من لواقح الكبر، كما تستعيذون من طوارق الدهر، فلو رخص الله في الكبر لأحد من عباده، لرخص فيه لخاصة أنبيائه وأوليائه، ولكنه سبحانه، كره إليهم التكابر ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم وعفروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين، وكانوا قوما مستضعفين، وقد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة وامتحنهم بالمخارف ومخضهم بالمكاره، فلا تعتبروا

الرضا والسخط بالمال والولد (١)، جهلا بمواقع الفتنة والاختبار في مواضع

---

(١) أي كما قال الإمام محمد عبدة " لا تجعلوا كثرة الأولاد ووفرة الأموال، دليلا على رضاء الله، والنقص فيهما دليلا على سخطه، فقد يكون الأول فتنة واستدراجا، والثاني محنة وابتلاء! ".

الغنى والاقتدار، وقد قال سبحانه وتعالى: " أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين، نسارع لهم في الخيرات، بل لا يشعرون "، فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ولقد دخل موسى بن عمران، ومعه أخوه هارون عليهما السلام، على فرعون، وعليهما مدارع الصوف، وبأيديهما العصي، فشرطا له إن أسلم، بقاء ملكه ودوام عزه، فقال (ألا تعجبون من هذين! يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذل)، فهلا ألقي عليهما (أساور من ذهب)، إعظاما للذهب وجمعه، واحتقارا للصوف ولبسه، ولو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طير السماء ووحوش الأرض، لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحلت الأنباء، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزمت الأسماء معانيها، ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى، ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام وعزة لا تضام وملك تمتد نحوه أعناق الرجال وتشد إليه عقد الرحال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة والحسنات مقتسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته، أمورا له خاصة لا يشوبها من غيرها شائبة، وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل!

ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه، إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، فجعل بيته الحرام الذي جعله للناس قياما، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا وأضيق بطون الأودية قطرا بين جبال خشنة ورمال دمثة، ثم أمر آدم

وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغاية لملقى رحالهم، تهوى إليه ثمار الأفئدة، من مفاوز قفار سحيقة ومهاوي فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللا، يهلون لله حوله، ويرملون على أقدامهم، شعثا غبرا له، قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاء عظيما وامتحانا شديدا واختبارا مبينا وتمحيصا بليغا، جعله الله سببا لرحمته ووصلة إلى جنته، ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار، جم الأشجار، داني الثمار، بين برة سمراء وروضة خضراء ورياض ناضرة وطرق عامرة، لكان قد صغر الجزاء على حسب ضعف البلاء، ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء، لخفف ذلك مسارعة الشك في الصدور ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس، ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجا للتكبر من قلوبهم وإسكانا للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبوابا فتحا إلى فضله وأسبابا ذللا لعفوه!.

فالله الله في عاجل البغي وآجل وخامة الظلم وسوء عاقبة الكبر، فإنها مصيدة إبليس العظمى ومكيدته الكبرى التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة، فما تكدي أبدا ولا تشوي أحدا، لا عالما لعلمه ولا مقلا في طمره، وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات، تسكينا لأطرافهم وتخشيعا لأبصارهم وتذليلا لنفوسهم، وتخفيضا لقلوبهم، وإذهابا للخيلاء عنهم، لما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعا، والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغرا، ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللا، مع ما في الزكاة من صرف ثمرات الأرض وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر!

فإن كان لا بد من العصبية، فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الفعال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء بالأخلاق الرغيبة

والأحلام العظيمة والأفكار الجليلة والآثار المحمودة، فتعصبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام والطاعة للبر والمعصية للكبر والأخذ بالفضل والكف عن البغي والإعظام للقتل والانصاف للخلق والكظم للغيظ واجتناب الفساد في الأرض واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات، بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم، فإذا تفكرتم في تفاوت حاليهم، فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، وزاحت الأعداء عنهم ومدت العافية فيه عليهم وانقادت النعمة له معهم ووصلت الكرامة عليه حبلهم من الاجتناب للفرقة واللزوم للألفة والتحاض عليها والتواصي بها، واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم وأوهن منتهم، من تضاعن القلوب وتشاخص الصدور وتدابر النفوس وتخاذل الأيدي، وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم، كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء، ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء وأجهد العباد بلاء وأضيق أهل الدنيا حالا، اتخذتهم الفراعنة عبيدا، فساموهم سوء العذاب وجرعوهم المرار، فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة، لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلا إلى دفاع، حتى إذا رأى الله جد الصير منهم على الأذى في محبته والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضايق البلاء فرجا، فأبدلهم العز مكان الذل، والأمن مكان الخوف، فصاروا حكاما وأئمة أعلاما، وبلغت الكرامة من الله لهم ما لم تبلغ الآمال إليه بهم (١) ".

(ا) ولقد جاء في الفصلين الرابع والثلاثين والخامس والثلاثين من إنجيل برنابا عن الكبر:

" حينئذ ابتدأوا يأكلون بخوف الله، وبعد أن أكلوا قليلا، قال يسوع أيضا: " الحق أقول لكم إن إحراق مدينة، لأفضل من أن يترك فيها عادة ردية، لأنه لأجل مثل هذا بغضب الله على رؤساء وملوك الأرض الذين أعطاهم الله سيفا، ليقفوا الآثام "، ثم قال بعد ذلك يسوع: " متى دعيت فاذكر أن لا تضع نفسك في المواضع الأعلى، حتى إذا جاء صديق لصاحب البيت أعظم منك،

---

(١) راجع ص ٣٩٦ - ٤١٩ من نهج البلاغة ج ١.

لا يقول لك صاحب البيت " قم واجلس أسفل "، فيكون باعثا لك على الخجل، واجلس في أحقر موضع، ليجئ الذي دعاك ويقول " قم يا صديق واجلس هنا في الأعلى " فيكون لك حينئذ فخر عظيم، لأن من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع، الحق أقول لكم إن الشيطان لم يخذل إلا بخطيئة الكبرياء كما يقول أشعيا موبخا إياه بهذه الكلمات " كيف سقطت من السماء يا كوكب الصبح، يا من كنت جمال الملائكة وأشرقت كالفجر، حقا إن كبرياءك قد سقطت للأرض "، الحق أقول لكم إذا عرف الإنسان شقاءه، فإنه يبكي هنا على الأرض، ويحسب نفسه أحقر من كل شئ آخر، ولا سبب وراء هذا لبكاء الإنسان الأول وامرأته مائة سنة بدون انقطاع، طالبين رحمة من الله، لأنهما علما يقينا أين سقطا بكبريائهما "، ولما قال يسوع هذا شكر... فشكر الشعب الله مباركين اسمه القدوس ".

وانصرف يسوع من أورشليم، وذهب إلى البرية وراء الأردن، فقال تلاميذه الذين كانوا جالسين حوله " يا معلم قل لنا كيف سقط الشيطان بكبريائه، لأننا نعلم أنه سقط بسبب العصيان، ولأنه كان دائما يفتن الإنسان ليفعل شرا (١) "!

أجاب يسوع " لما خلق الله كتلة من التراب، وتركها خمسا وعشرين ألف سنة بدون أن يفعل شيئا آخر، علم الشيطان الذي كان بمثابة كاهن ورئيس للملائكة، لما كان عليه من الإدراك العظيم، أن الله سيأخذ من تلك الكتلة مائة وأربعة وأربعين ألفا، موسمين بسمة النبوة، ورسول الله الذي خلق الله روحه قبل كل شئ بستين ألف سنة، ولذلك غضب الشيطان، فأغرى الملائكة قائلا " انظروا، سيريد الله يوما أن نسجد لهذا التراب، وعليه فتبصروا في أننا روح وأنه لا يليق أن نفعل ذلك "... من ثم قال الله يوما لما التأمت الملائكة

---

(١) انظر سقوط إبليس في السورتين الثانية والسابعة وغيرهما من القرآن الكريم. وإبليس إفعيل من أبلس أي يئس، ويقال هو اسم أعجمي لا ينصرف. راجع ص ٢٧ من غريب القرآن للسجستاني.

كلهم، " ليسجد تواكل من اتخذن ربا، لهذا التراب "، فسجد له الذين أحبوا الله،... ولما رفع الملائكة الأطهار رؤسهم، رأوا شدة قبح الهولة التي تحول الشيطان إليها (١)... ".

(ب) وجاء في الفصول من التاسع والثلاثين إلى الحادي والأربعين من إنجيل برنابا عن كيف أخطأ الإنسان بسبب الكبرياء:

" حينئذ قال يوحنا: حسنا تكلمت يا معلم! ولكن ينقصنا أن نعرف كيف أخطأ الإنسان بسبب الكبرياء! أجاب يسوع " لما طرد الله الشيطان... خلق الله كل شئ حي من الحيوانات التي تطير ومن التي تدب وتسبح، وزين العالم بكل ما فيه، فاقترب الشيطان يوما من أبواب الجنة، فلما رأى الخيل تأكل العشب، أخبرها أنه إذا تأتي لتلك الكتلة من التراب أن يصير لها نفس، أصابها ضنك، ولذلك كان من مصلحتها أن تدوس تلك القطعة من التراب على طريقة لا تكون بعدها صالحة لشئ، فثارت الخيل وأخذت تعدو بشدة على تلك القطعة من التراب التي كانت بين الزنابق والورود، فأعطى الله من ثم روحا لذلك النجس من التراب الذي وقع عليه بصاق الشيطان الذي أخذه جبريل من الكتلة، وأنشأ الكلب فأخذ ينبح، فروع الخيل فهربت، ثم أعطى الله نفسه للإنسان، وكانت الملائكة كلها ترنم " اللهم ربنا تبارك اسمك القدوس "، فلما انتصب آدم على قدميه، رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصها " لا إله إلا الله، محمد رسول الله "، ففتح حينئذ آدم فاه وقال " أشكرك أيها الرب إلهي، لأنك تفضلت فخلقتني... فلما رأى الله الإنسان وحده، قال " ليس حسنا أن يكون وحده "، فلذلك نومه وأخذ ضلعا من جهة القلب وملأ الموضع لحما، فخلق من تلك الضلع حواء وجعلها امرأة لآدم، وأقام الزوجين سيدي الجنة، وقال لهما " انظرا، إني أعطيكما كل ثمر تأكلانه، خلا التفاح والحنطة "، ثم قال " احذرا أن تأكلا شيئا من هذه الأثمار، لأنكما تصيران نجسين،

---

(١) راجع ص ٥٢ – ٥٥ من إنجيل برنابا.

فلا أسمح لكما بالبقاء هنا، بل أطردكما ويحل بكما شقاء عظيم "، " فلما علم الشيطان
بذلك، تميز غيظا، فاقترب إلى باب الجنة، حيث كان الحارس حية مخوفة لها قوائم كحمل، وأظافر أقدامها محددة من كل جانب كموسى، فقال لها العدو " اسمحي لي بأن أدخل الجنة "، أجابت الحية " وكيف أسمح لك بالدخول، وقد أمرني الله بأن أطردك "؟، أجاب الشيطان " ألا ترين كم يحبك الله، إذ أقامك خارج الجنة لتحرسي كتلة من الطين، وهي الإنسان؟، فإذا أدخلتني الجنة، أجعلك رهيبة، حتى أن كل أحد يهرب منك، فتذهبين وتقيمين حسب إرادتك "، فقالت الحية " وكيف أدخلك "؟ أجاب الشيطان " إنك كبيرة، فافتحي فاك، أدخل بطنك، فمتى دخلت الجنة، ضعيني بجانب هاتين الكتلتين من الطين اللتين تمشيان حديثا على الأرض "، ففعلت عندئذ الحية ذلك ووضعت الشيطان بجانب حواء، لأن آدم زوجها كان نائما، فتمثل الشيطان للمرأة ملاكا جميلا وقال لها: " لماذا لا تأكلان من هذا التفاح وهذه الحنطة "؟ أجابت حواء " قال لنا إلهنا إذا أكلنا منها، صرنا نجسين، ولذلك يطردنا من الجنة " فأجاب الشيطان "... إذا كنت وعشيرتك تعملان بنصيحتي، فإنكما تأكلان من هذه الأثمار كما تأكلان من غيرها، ولا تلبثا خاضعين لآخرين، بل تعرفان الخير والشر كالله (١) "، وتفعلان ما تريدان، لأنكما تصيران ندين لله (٢) "، فأخذت حينئذ حواء وأكلت من هذه الأثمار، ولما استيقظ زوجها أخبرته بكل ما قال الشيطان، فتناول منها ما قدمته له وأكل، وبينما كان الطعام نازلا، ذكر كلام الله، فلذلك أراد أن يوقف الطعام، فوضع يده في حلقه، حيث كل إنسان له علامة ".
" حينئذ علم كلاهما أنهما كانا عريانين، فلذلك استحيا وأخذا أوراق التين، وصنعا ثوبا لسوأتيهما، فلما مالت الظهيرة، وإذا بالله قد ظهر لهما، ونادى آدم قائلا " آدم! أين أنت " فأجاب " يا رب! تخبأت من حضرتك، لأني وامرأتي عريانان، فلذلك نستحي أن نتقدم أمامك "، فقال الله " ومن اغتصب منكما

---

(١) سبحان الله.
(٢) سبحان الله.

براءتكما، إلا أن تكونا أكلتما الثمر، فصرتما بسببه نجسين، ولا يمكنكما أن تمكثا بعد في الجنة "، أجاب آدم " يا رب! إن الزوجة التي أعطتني، طلبت مني أن آكل، فأكلت منه "، حينئذ قال الله للمرأة " لماذا أعطيت طعاما كهذا لزوجك "؟ أجابت حواء " إن الشيطان خدعني فأكلت "، قال الله " كيف دخل ذلك الرجيم إلى هنا "؟ أجابت حواء " إن الحية التي تقف على الباب الشمالي من الجنة، أحضرته إلى جانبي "، فقال الله لآدم " لتكن الأرض ملعونة بعملك، لأنك أصغيت لصوت امرأتك وأكلت الثمر لتنبت لك حسكا وشوكا، لتأكل الخبز بعرق وجهك، واذكر أنك تراب وإلى التراب تعود "، وكلم حواء قائلا " وأنت التي أصغيت للشيطان، وأعطيت زوجك الطعام، تلبثين تحت تسلط الرجل الذي يعاملك كأمة، وتحملين الأولاد بالألم ".

ولما دعا الحية، دعا الملاك ميخائيل الذي يحمل سيف الله، وقال " اطرد أولا من الجنة هذه الحية الخبيثة، ومتى صارت خارجا، اقطع قوائمها " فإذا أرادت أن تمشي، يجب أن تزحف "، ثم نادى الله بعد ذلك الشيطان، فأتى ضاحكا، فقال له " لأنك أيها الرجيم، خدعت هذين، وصيرتهما نجسين، أريد أن تدخل في فمك كل نجاسة فيهما وفي كل أولادهما، متى تابوا عنها وعبدوني حقا، فخرجت منهم، فتصير مكتظا بالنجاسة "، فجأر الشيطان حينئذ جأرا مخوفا، وقال " لما كنت تريد أن تصيرني أردأ مما أنا عليه، فإني سأجعل نفسي، كما أقدر أن أكون " حينئذ قال الله " انصرف أيها اللعين من حضرتي "، فانصرف الشيطان، ثم قال الله لآدم وحواء اللذين كانا ينتجعان " أخرجا من الجنة وجاهدا أبدانكما، ولا يضعف رجاؤكما... "! قال يسوع " هكذا أخطأ الشيطان وآدم بسبب الكبرياء، أما أحدهما فلأنه احتقر الإنسان، وأما الآخر، فلأنه أراد أن يجعل نفسه ندا لله (١) ".

(ج) وجاء في الفصول من التاسع والعشرين بعد المائة إلى الرابع والثلاثين بعد المائة من إنجيل برنابا عن غرور الإنسان وكبريائه وخطيئته: " أتفتخر الفأس

---

(١) راجع ص ٦٠ – ٦٥ من إنجيل برنابا.

مثلا، لأنها قطعت حرجة، حيث صنع إنسان بستانا؟ لا البتة! لأن الإنسان صنع كل شئ بيديه حتى الفأس، وأنت أيها الإنسان أتفتخر أنك فعلت شيئا حسنا، وأنت قد خلقك إلهنا من طين، ويعمل فيك كل ما تأتيه من صلاح ولماذا تحتقر قريبك؟ ألا تعلم أنه لولا حفظ الله إياك من الشيطان، لكنت شرا من الشيطان (١)! ألا تعلم أن خطيئة واحدة مسخت أجمل ملاك، شر شيطان مكروه، وأنها حولت أكمل إنسان جاء إلى العالم وهو آدم، مخلوقا شقيا، وجعلته عرضة لما نكابد نحن وسائر ذريته؟ فأي إذن يخولك حق المعيشة بحسب هواك دون أدنى خوف! ويل لك أيتها الطينة لأنك بتغطرسك على الله الذي خلقك، ستحقرين تحت قدمي الشيطان، الذي هو واقف لك بالمرصاد! "

"... فدعا يسوع ليأكل خبزا سمعان الذي كان أبرص، فشفاه يسوع...

ولما دخل يسوع بيت سمعان، جلس إلى المائدة، وبينما كان يأكل إذا بامرأة اسمها مريم وهي مومسة، دخلت البيت وطرحت نفسها على الأرض وراء قدمي يسوع وغسلتهما بدموعها ودهنتما بالطيب ومسحتهما بشعر رأسها، فثلم سمعان وكل الذين كانوا على الطعام وقالوا في قلوبهم " لو كان هذا الرجل نبيا، لعرف من هذه المرأة ومن أي طبقة هي، ولما سمح لها أن تمسه "، فقال حينئذ يسوع " يا سمعان! إن عندي شيئا أقوله لك "، أجاب سمعان " تكلم يا معلم! لأني أحب كلمتك "، قال يسوع " كان لرجل مدينان، أحدهما مدين لدائنه بخمسين فلسا والآخر بخمسمائة، فلما لم يكن عند أحد منهما ما يدفعه تحنن

---

(١) جاء في الفصل الحادي والخمسين من إنجيل برنابا ص ٨٠ – ٨٣ مدى كبرياء الشيطان وسوء عاقبته: أن الله قال ليسوع الذي طلب منه أن يرحمه، إنه يصفح عنه إذا قال " أيها الرب إلهي قد أخطأت، فارحمني "، فقال الشيطان " إني بمسرة أقبل هذه المصالحة إذا قال الله هاتين الكلمتين لي " فقال يسوع " انصرف عني أيها اللعين لأنك الأثيم المنشئ لكل ظلم وخطيئة، ولكن الله عادل منزه عن الخطايا "، فانصرف الشيطان مولولا!

الدائن وعفا عن دين كليهما، فأيهما يحب دائنه أكثر؟ "، أجاب سمعان " صاحب الدين الذي عفا عنه " فقال يسوع " لقد قلت صوابا، إني أقول لك إذا انظر هذه المرأة ونفسك، لأنكما كنتما كلا كما مدينتين لله، أحدكما ببرص الجسم، والآخر ببرص النفس الذي هو الخطيئة فتحنن الله ربنا بسبب صلواتي وأراد شفاء جسدك ونفسها، فأنت إذا تحبني قليلا، لأنك نلت هبة صغيرة، وهكذا لما دخلت بيتك لم تقبلني ولم تدهن رأسي، أما هذه المرأة فلما دخلت بيتك، جاءت توا ووضعت نفسها عند قدمي اللتين غسلتهما بدموعها ودهنتما بالطيب، لذلك أقول لك الحق إنه قد غفرت لها خطايا كثيرة، لأنها أحبت كثيرا "، ثم التفت إلى المرأة وقال " اذهبي في طريقك، لأن الرب إلهنا قد غفر لك خطاياك، ولكن انظري أن لا تخطئي فيما بعد، إيمانك خلصك "!

وبعد صلاة الليل، اقترب التلاميذ من يسوع وقالوا " يا معلم ماذا يجب أن نفعل لكي نتخلص من الكبرياء؟ "، فأجاب يسوع "... إني أخشى أن يطرحنا الله في الهاوية لكبريائنا كأبيرام " فارتعد التلاميذ خوفا من كلام يسوع، فعاد وقال " لنخش الله لكي لا يطرحنا في الهاوية لكبريائنا... ويل للبشر الذين أتوا إلى العالم، لأنهم كما يعيشون في الكبرياء، سيموتون في المهانة، وسيذهبون إلى الاضطراب، فإن هذا العالم بيت يؤلم الله فيه للبشر حيث أكل كل الأطهار وأنبياء الله، والحق أقول لكم إن كل ما ينال الإنسان إنما يناله من الله، لذلك يجب على الإنسان أن يتصرف بأعظم ضعة، عارفا حقارته وعظمة الله، مع كرمه العظيم الذي يغنينا به، لذلك لا يجوز للمرء أن يقول لماذا فعل هذا أو قيل هذا في العالم! بل يجب عليه أن يحسب نفسه، كما هو في الحقيقة غير أهل أن يقف في العالم على مائدة الله، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إنه مهما كان الشئ الذي يناله الإنسان من الله في العالم صغيرا، فإنه يجب عليه في مقابلته أن يصرف حياته حبا في الله... "!

ولما كان يسوع ماشيا على شاطئ بحر الجليل، أحاط به جمهور غفير من الناس، فركب سفينة صغيرة منفردة، كانت على بعد قليل من الشاطئ، فرست

على مقربة من البر، بحيث يمكن سماع صوت يسوع، فاقتربوا جميعا من البحر وجلسوا ينتظرون كلمته، ففتح حينئذ فاه وقال " ها هو ذا قد خرج الزارع ليزرع، فبينما كان يزرع سقط بعض البذور على الطريق فداسته أقدام الناس وأكلته الطيور، وسقط بعض على الحجارة، فلما نبت أحرقته الشمس، إذ لم يكن فيه رطوبة وسقط بعض على السياج، فلما طلع الشوك، خنق البذور، وسقط بعض على الأرض الجيدة فأثمر ثلاثين وستين ومائة ضعف... " وهكذا كلم يسوع الجمع في ذلك اليوم بالأمثال، وبعد أن صرفهم، ذهب مع تلاميذه إلى نايين حيث أقام ابن الأرملة الذي قبله وأمه إلى بيته وخدمه، فاقترب تلاميذ يسوع منه وسألوه قائلين " يا معلم! قل لنا معنى الأمثال التي كلمت بها الشعب "، أجاب يسوع " اقتربت ساعة الصلاة، فمتى انتهت صلاة المساء، أفيدكم معنى الأمثال "، فلما انتهت الصلاة، اقترب التلاميذ من يسوع، فقال لهم " إن الرجل الذي يزرع البذور على الطريق أو على الحجارة أو على الشوك أو على الأرض الجيدة، هو من يعلم كلمة الله التي تسقط على عدد غفير من الناس! تقع على الطريق، متى جاءت إلى آذان البحارة والتجار الذين أزال الشيطان كلمة الله من ذاكرتهم بسبب الأسفار الشاسعة التي يزمعونها وتعدد الأمم التي يتجرون معها، وتقع على الحجارة، متى جاءت إلى رجال آذان رجال البلاط، لأنه بسبب شغفهم بخدمة شخص حاكم، لا تنفذ إليهم كلمة الله، على أنهم وإن كان لهم شئ من تذكرها، فحالما تصيبهم شدة، تخرج كلمة الله من ذاكرتهم، لأنهم وهم لم يخدموا الله، لا يقدرون أن يرجوا معونة من الله! وتقع على الشوك متى جاءت إلى آذان الذين يحبون حياتهم، لأنهم – وإن نمت كلمة الله فيهم – إذا نمت الأهواء الجسدية، خنقت البذور الجيدة من كلمة الله، لأن رغد العيش الجسدي يبعث على هجران كلمة الله! أما الذي يقع على الأرض الجيدة، فهو ما جاء من كلمة الله إلى أذني من يخاف الله حيث تثمر الحياة الأبدية، الحق أقول لكم إن كلمة الله تثمر في كل حال، متى خاف الإنسان الله! أما ما يختص بأبي الأسرة، فالحق أقول لكم إنه الله ربنا رب كل الأشياء، لأنه خلق الأشياء

كلها، ولكنه ليس أبا على طريقة الطبيعة (١)... فهو إذا إلهنا الذي يخصه هذا العالم، والحقل الذي يزرع فيه هو الجنس البشري، والبذار هو كلمة الله، فمتى أهمل المعلمون التبشير بكلمة الله لانشغالهم بتشاغل العالم، زرع الشيطان ضلالا في قلب البشر، ينشأ عنه شيع لا تحصى من التعليم الشرى، فيصرخ الأطهار والأنبياء " يا سيد ألم تعط تعليما صالحا للبشر؟ فمن أين إذا هذه الأضاليل الكثيرة؟ "، فيجيب الله " إني أعطيت البشر تعليما صالحا، ولكن بينما كان البشر منقطعين إلى الباطل، زرع الشيطان ضلالا، يبطل شريعتي "، فيقول الأطهار " يا سيد! إننا نبدد هذه الأضاليل بإهلاك البشر "، فيجيب الله " لا تفعلوا هذا، لأن المؤمنين متحدون بالكافرين اتحادا شديدا بالقرابة، حتى أن المؤمنين يهلكون مع الكافرين ولكن تمهلوا إلى الدينونة، لأنه في ذلك الوقت ستجمع ملائكتي الكفار، فيقعون مع الشيطان في الجحيم،

---

(١) قرأت في إحدى الصحف أن بعضهم قال إن كل إنسان في نظر المسيح وفي تعاليمه هو ابن الله، والناس كلهم أبناؤه، فأي نسب أعز من هذا النسب وأكرم "!، ثم ردد آخر هذا الكلام وحبذه، فلما قرأته تألمت، وحاولت النوم فلم أستطع إلا بعد أن أرسلت له برقية أقول فيها " أحبكما لفصاحتكما، ولكني أحب الحق أكثر منكما، فالخلق جميعا عباد الله، كما تقول تعاليم جميع الأنبياء، ولن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله، ولا الملائكة المقربون ".
ويقول الأستاذ المرحوم أحمد نجيب برادة إنه لا محل لقولهم إن تسمية الخالق بالأب إشعار برأفته وعطفه، لأن ما في اسم الرب من معاني التربية والرعاية والعطف – كما يقول الإمام محمد عبدة – أعلى وأبلغ، إذ أن معنى الأب يتضمن للولد بمقتضى شهوته لا لمجرد محبته، على أن التعبير بالرب فيه التعميم، بينما الأب تخصيص للولد وإيثار للفرد، وهذا زيادة على ما فيه من تحديد للمعبود وجعله متعلقا بالمادة، فيشترك مع ما هو من خلقه، أو يشترك ما هو من خلقه معه " هو الله، لا إله إلا هو، تعالى الله عما يشركون "، راجع ص ٨١ من وحي الآيات الأولى في تنزيل القرآن للمرحوم الأستاذ أحمد نجيب برادة. وهنا ذكرت لفظة الأب عند التمثيل برياسة الأسرة، فظنوها اللفظة التي يفهمونها، مع أنه شبه العالم بأسرة، ولله المثل الأعلى!

والمؤمنون يأتون إلى مملكتي "، ومما لا ريب فيه أن كثيرين من الآباء الكفار، يلدون مؤمنين، فلأجلهم أمهل الله العالم ليتوب!

وأما الذين يثمرون تينا حسنا، فهم المعلمون الحقيقيون الذين يبشرون بالتعليم الصالح، ولكن العالم الذي يسير بالكذب، يطلب من المعلمين أوراقا من الكلام والمداهنة المزوقين، فمتى رأى الشيطان ذلك، أضاف نفسه مع الجسد والحس، وأتى بمقدار وافر من الأوراق، أي مقدار من الأشياء الأرضية التي يعطى بها الخطيئة، فمتى أخذها الإنسان اعتل وأمسى على وشك الموت الأبدي! أما أحد الأهالي الذي عنده ماء ويعطي ماءه للآخرين ليغسلوا وسخهم، ويترك ثيابه تنتن، فهو المعلم الذي يبشر الآخرين بالتوبة، أما هو نفسه فيلبث في الخطيئة!

.. أما الرجلان بائعا التفاح، فأحدهما من يبشر لأجل محبة الله، فهو لذلك لا يداهن أحدا، بل يبشر بالحق طالبا معيشة فقير فقط! لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، أن العالم لا يقبل رجلا كهذا، بل هو حري بأن يحتقره، ولكن من يبيع القشر بزنته ذهبا ويهب التفاحة، فإنما هو من يبشر ليرضى الناس، وهكذا متى داهن العالم، أتلف النفس التي تتبع مداهنته! آه وكم من أناس هلكوا لهذا السبب؟ ".

حينئذ أجاب الكاتب وقال " كيف يجب على الإنسان أن يصغي إلى كلمة الله، وكيف يمكن لأحد أن يبشر لأجل محبة الله؟ "، أجاب يسوع " إنه يجب أن يصغي إلى من يبشر متى بشر بتعليم صالح، كان المتكلم هو الله، لكنه يتكلم بفمه، ولكن من يترك التوبيخ على الخطايا، محابيا بالوجوه ومداهنا أناسا خصوصيين، فيجب تجنبه كأفعى مخوفة، لأنه بالحقيقة يسم القلب، البشري! أتفهمون؟ الحق أقول لكم إنه كما لا حاجة بالجريح إلى عصائب جميلة ليعصب جراحه، بل يحتاج بالحري إلى مرهم جيد، هكذا لا حاجة بالخاطئ إلى كلام مزوق، بل بالحري إلى توبيخات صالحة، لكي ينقطع عن الخطيئة (١) ".

---

(١) راجع ص ١٩٧ - ٢٠٧ من إنجيل برنابا.

(٧) الرياء:
المرائي هو من يعمل حسنا لكي يراه الناس، فهو بذلك يعبد الله بلسانه ويعبد الناس بقلبه، فهو صالح في ظاهره، دنس في باطنه، غير مؤمن بقلبه!
فأهل النفاق هم " الضالون المضلون والزالون المزلون، يتلونون ألوانا، ويفتنون افتتانا، قلوبهم دوية وصفاحهم نقية، يمشون الخفاء ويدبون الضراء، وصفهم دواء وقولهم شفاء وفعلهم الداء العياء، حسدة الرخاء ومؤكدو البلاء ومقنطو الرجاء، لهم بكل طريق صريع، وإلى كل قلب شفيع، ولكل شجون دموع، يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء، إن سألوا ألحفوا، وإن عذلوا كشفوا وإن حكموا أسرفوا، قد أعدوا لكل حق باطلا ولكل قائم مائلا ولكل حي قائلا، ولكل باب مفتاحا، ولكل ليل مصباحا، يتوصلون إلى الطمع بالبأس، ليقيموا به أسواقهم، وينفقوا به أعلاقهم، يقولون فيشبهون، ويضعون فيموهون، قد هونوا الطريق وأضلعوا المضيق، فهم لمة الشيطان وحمة النيران " أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون (١) ".
" فاللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي، وتقبح فيما أبطن لك سريرتي، محافظا على رئاء الناس من نفسي بجميع ما أنت مطلع عليه مني، فأبدى للناس حسن ظاهري، وأفضى إليك بسوء عملي، تقربا إلى عبادك وتباعدا من مرضاتك (٢) "!
ولقد جاء في الفصلين الخامس والأربعين والسادس والأربعين من إنجيل برنابا عن الرياء والمرائين، إذ صعد يسوع إلى أورشليم ودخل يوم السبت الهيكل وقال للكهنة:
"... الحق أقول لكم، إن كل من يفعل حسنا لكي يراه الناس فهو مراء،

---

(١) راجع ص ٤٢٥ و ٤٢٦ من نهج البلاغة ج ١.
(٢) راجع ص ٢١١ من نهج البلاغة ج ٢.

لأن عمله لا ينفذ إلى القلب الذي لا يراه الناس، فيترك فيه كل فكر نجس وكل شهوة قذرة، أتعلمون من هو المرائي؟! هو الذي يعبد بلسانه الله ويعبد بقلبه الناس، إنه بغي لأنه متى مات يخسر كل جزاء، لأن في هذا الموضوع يقول النبي داود " لا تثقوا بالرؤساء ولا بأبناء الناس الذين ليس بهم خلاص، لأنه عند الموت تهلك أفكارهم " بل قبل الموت يرون أنفسهم محرومين من الجزاء، لأن الإنسان كما قال أيوب نبي الله " غير ثابت فلا يستقر على حال " فإذا مدحك اليوم، ذمك غدا، وإذا أراد أن يجزيك اليوم، سلبك غدا،
ويل إذا للمرائين، لأن جزاءهم باطل، لعمر الله الذي أقف في حضرته، إن المرائي لص ويرتكب التجديف، لأنه يتذرع بالشريعة ليظهر صالحا، ويختلس مجد الله الذي له وحده الحمد والمجد إلى الأبد، ثم أقول لكم أيضا إنه ليس للمرائي إيمان، لأنه لو آمن بأن الله يرى كل شئ وأنه يقاص الإثم بدينونة مخيفة، لكان ينقى قلبه الذي يبقيه ممتلئا بالإثم، لأنه لا إيمان له، الحق أقول لكم إن المرائي كقبر أبيض من الخارج ولكنه مملوء فسادا وديدانا،
فإذا كنتم أيها الكهنة تعبدون الله، لأن الله خلقكم ويطلب ذلك منكم، فلا أندد بكم، لأنكم خدمة الله، ولكن إذا كنتم تفعلون كل شئ لأجل الربح، وتبيعون وتشترون في الهيكل، كما في السوق، غير حاسبين أن هيكل الله بيت للصلاة لا للتجارة، وأنتم تحولونه مغارة لصوص، وإذا كنتم تفعلون كل شئ، لترضوا الناس، وأخرجتم الله من عقلكم، فإني أصيح بكم أنكم أبناء الشيطان لا أبناء إبراهيم الذي ترك بيت أبيه، حبا في الله، وكان راضيا أن يذبح ابنه، ويل لكم أيها الكهنة والفقهاء إذا كنتم هكذا، لأن الله يأخذ منكم الكهنوت...
ويل لكم، لأن الله غاضب عليكم، لأنكم بقرتم كثيرين من أنبياء الله، حتى أنه لم يوجد في زمن أخاب واحد يدفن قد يسئ الله "!
ولما قال هذا أراد رؤساء الكهنة أن يمسكوه، ولكنهم خافوا العامة الذين عظموه.
ثم رأى يسوع امرأة كان رأسها منحنيا نحو الأرض منذ ولادتها، فقال

" ارفعي رأسك أيتها المرأة باسم إلهنا... فاستقامت حينئذ المرأة صحيحة، معظمة لله.

فصرخ رؤساء الكهنة قائلين: " ليس هذا الإنسان مرسلا من الله، لأنه لا يحفظ السبت، إذ قد أبرأ اليوم مريضا "، أجاب يسوع " ألا فقولوا لي: ألا يحل التكلم في يوم السبت وتقديم الصلاة لخلاص الآخرين، ومن منكم إذا سقط حماره يوم السبت في حفرة، لا يتناشه يوم السبت؟ لا أحد مطلقا، فهل أكون قد كسرت يوم السبت بإبراء ابنة من إسرائيل؟ حقا إنه قد علم هنا رياؤكم، كم من حاضر هنا ممن يحذرون أن يصيب عين غيرهم قذى، والجذع يوشك أن يشج رؤسهم، ما أكثر الذين يخشون النملة ولكنهم لا يبالون بالفيل؟

ولما قال هذا خرج من الهيكل، ولكن الكهنة احتدموا غيظا فيما بينهم (١). "

(٨) السرقة:

من يسرق المال والحياة والشرف، فهو لص، والسرقة لا تغفر إلا إذا رد ما أخذ ظلما، وكثيرون يسرقون ولا يدرون ما يفعلون، وهم أشد إثما، ومن يقول إنه وحده يعرف الحق يكون قد سرق مجد الله، وكل شئ ملك الله ويجب صرفه كما يريده الله، ومن خالف هذا فقد سرق، وكذلك من قال سأفعل أو سأقول من غير أن يقول " إن شاء الله " أو عمل على إرضاء نفسه أو غيره دون إرضاء الله، وكل مرتكب الخطيئة فهو لص أضاع نفسه وحياته التي يجب أن يخدم بها الله!

ولقد جاء في الفصلين الثالث والخمسين بعد المائة والرابع والخمسين بعد المائة من إنجيل برنابا عن السرقة:

"... ففتح يسوع فاه وقال: " لقد أمر إلهنا أن لا نسرق قريبنا، ولكن قد انتهكت حرمة هذه الوصية حتى امتلأ العالم خطيئة لا تغفر كما تغفر الخطايا الأخرى، لأنه إذا ندب المرء الخطايا الأخرى ولم يعد إلى ارتكابها فيما بعد

---

(١) راجع ص ٧٢ – ٧٥ من إنجيل برنابا.

وصام مع الصلاة وتصدق، صفح إلهنا القدير الرحيم! ولكن هذه الخطيئة من نوع لا يمكن غفر أنه إلا إذا رد ما أخذ ظلما "، فقال حينئذ أحد الكتبة " كيف ملأت السرقة العالم كله خطيئة؟ حقا إنه لا يوجد الآن بنعمة الله سوى النزر القليل من اللصوص، وهم لا يجرؤون على الظهور، لأن الجنود تشنقهم حالا " أجاب يسوع " من لا يعرف الأموال لا يقدرون أن يعرفوا اللصوص بل أقول لكم الحق إن كثيرين يسرقون وهم لا يدرون ما يفعلون، ولذلك كانوا أعظم خطيئة من الآخرين، لأن المرض الذي لا يعرف، لا يشفى "، فدنا حينئذ الفريسيون من يسوع وقالوا " يا معلم إذا كنت أنت وحدك في إسرائيل تعرف الحق، فعلمنا "، أجاب يسوع " إني لا أقول أنا وحدي في إسرائيل أعرف الحق، لأن هذه اللفظة وحدك تختص بالله وحده لا بغيره، لأنه هو الحق الذي وحده يعرف الحق، فإذا قلت هكذا، صرت لصا أعظم، لأني أكون قد سرقت مجد الله، وإن قلت إني وحدي عرفت الله، وقعت في جهل أعظم من الجميع، وعليه، فإنكم قد ارتكبتم خطيئة فظيعة بقولكم إني وحدي أعرف الحق، ثم أقول لكم إنكم إذا قلتم هذا لتجربوني، فخطيئتكم أعظم مرتين " فلما رأى يسوع أن الجميع صمتوا، عاد " ومع أني لست الوحيد في إسرائيل الذي يعرف الحق، فإني وحدي أتكلم، فأصيخوا السمع لي، لأنكم قد سألتموني! إن كل المخلوقات خاصة بالخالق، حتى أنه لا يحق لشئ أن يدعى شيئا، وعليه فإن النفس والحس والجسد والوقت والمال والمجدد جميعها ملك الله، فإذا لم يقبلها الإنسان كما يريد الله أصبح لصا، وكذلك إذا صرفها مخالفا لما يريده الله، فهو أيضا لص، لذلك أقول لكم لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته إنكم عندما تسوفون قائلين سأفعل غدا كذا، سأقول كذا، سأذهب إلى الموضع الفلاني، دون أن تقولوا " إن شاء الله " فأنتم لصوص، وتكونون أعظم لصوصية إذا صرفتم أفضل وقتكم في مرضاة أنفسكم دون مرضاة الله بل تصرفون اردأه في خدمة الله لأنتم إذا بالحق لصوص! كل من يرتكب الخطيئة مهما كان زيه فهو لص، لأنه يسرق النفس والوقت وحياته

التي يجب أن تخدم الله، ويعطيها للشيطان، عدو الله! فالرجل الذي له شرف وحياة ومال، إذا سرقت أمواله... وإذا أخذت حياته، قطع رأس القاتل، وهو عدل لأن الله أمر بذلك، ولكن متى أخذ شرف قريب فلماذا لا يصلب السارق؟ المال أفضل من الشرف؟ أأمر الله مثلا أن يقاص من يأخذ المال ومن يأخذ الحياة مع المال يقاص، ولكن من يأخذ الشرف يسرح؟ لا لا البتة! لأن آباءنا بسبب تذمرهم لم يدخلوا أرض الموعد، بل أبناؤهم، ولهذه الخطيئة قتلت الأفاعي نحو سبعين ألفا من شعبنا! لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن من يسرق الشرف، يستحق عقوبة أعظم ممن يسرق رجلا ماله وحياته، ومن يصغى إلى المتذمر فهو مذنب أيضا، لأن أحدهما يقبل الشيطان لسانه والآخر من أذنيه "، فلما سمع الفريسيون هذا، احتدموا غيظا لأنهم لم يقدروا أن يخطئوا خطابه، فدنا حينئذ أحد العلماء من يسوع " أيها المعلم الصالح، قل لي لماذا لم يهب الله أبوينا حنطة وثمرا، فإنه إذا كان يعلم أنه لا بد من سقوطهما، فمن المؤكد أنه كان يجب أن يسمح لهما بالحنطة أو أن لا يرياها "، أجاب يسوع " إنك أيها الرجل تدعوني صالحا، ولكنك تخطئ، لأن الله وحده هو الصالح، وإنك لأكثر خطأ في سؤالك لماذا لا يفعل الله حسب دماغك، ولكن أجيبك عن كل شئ، فأفيدك إذا أن الله خالقنا لا يوفق في عمله نفسه لنا، لذلك لا يجوز للمخلوق أن يطلب طريقه وراحته، بل بالحري مجد الله، خالقه، ليعتمد المخلوق على الخالق لا الخالق على المخلوق، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، لو وهب الله كل شئ، لما عرف الإنسان نفسه أنه عبد الله، ولكان حسب نفسه سيد الفردوس، لذلك نهاه الله المبارك إلى الأبد! الحق أقول لكم إن من كان نور عينيه جليا، يرى كل شئ جليا، ويستخرج من الظلمة نفسها نورا، ولكن الأعمى لا يفعل هذا، لذلك أقول لو لم يخطئ الإنسان لما علمت أنا ولا أنت رحمة الله وبره، ولو خلق الله الإنسان غير قادر على الخطيئة، لكان ندا لله في ذلك الأمر، لذلك خلق الله المبارك الإنسان صالحا وبارا، ولكنه حر أن يفعل ما يريد

من حيث حياته، وخلاصه لنفسه أو لعنته "! فلما سمع العالم هذا، اندهش وانصرف مرتكبا (١) ".

(٩) الشهوة:

الشهوة! يصير الإنسان بها شبيا بالحيوان، وهي عشق غير مكبوح الجماع، سببها حب الإنسان ما يجب عليه بغضه، فيجب عليه دفع كل إغراء خارجي من الخطيئة، وأول دفاع هو بكبح جماع العين، لأن كل من يجد لذة في مخلوق أيا كان، فقد صنع صنما في قلبه، فيجب عليه ببصره وبصيرته أن يعمل على معرفة الله، وألا يجعل غرضه المخلوقات بل ربها، وأن يعرف لماذا خلق الله المرأة، ويفهم أنها نعمة لأجل النسل، فلا ينظر إليها إذا ذاكرا ربه لكي لا يشتهي مالا حق له فيه، وبذا يسلم من الشهوة ويكون جسده تحت حكم الروح!.

ولقد جاء في الفصول من الخامس عشر بعد المائة إلى التاسع عشر بعد المائة من إنجيل برنابا عن الشهوة:

" ليقل لي الإنسان بماذا أتى إلى العالم الذي بسببه يعيش بالكسل، فمن المؤكد أنه ولد عريانا وغير قادر على شئ، فهو ليس صاحب كل ما وجد، بل المنصرف به، وعليه أن يقدم حسابا عنه في ذلك اليوم الرهيب، ويجب أن يخشى كثيرا من الشهوة الممقوتة التي تصير الإنسان شبيها بالحيوانات غير الناطقة، لأن عدو المرء بين أهل بيته، حتى أنه لا يمكن الذهاب إلى محل لا يطرقه العدو، وما أكثر الذين هلكوا بسبب الشهوة، فبسبب الشهوة أتى الطوفان، حتى أن العالم هلك أمام رحمة الله ولم ينج إلا نوح وثلاثة وثمانون شخصا بشريا فقط! بسبب الشهوة أهلك الله ثلاث مدن شريرة لم ينج منها سوى لوط وولديه، بسبب الشهوة كاد سبط بنيامين يفنى، وإني أقول لكم الحق إني لو عددت لكم الذين هلكوا بسبب الشهوة، لما كفتني مدة خمسة أيام "، أجاب يعقوب " يا سيد ما معنى الشهوة؟ "، فأجاب يسوع " إن شهوة

---

(١) راجع ص ٢٣٧ - ٢٤٠ من إنجيل برنابا.

هي عشق غير مكبوح الجماع، إذا لم يرشده العقل تجاوز حدود البصيرة والعواطف، حتى أن الإنسان لما لم يكن يعرف نفسه، أحب ما يجب عليه بغضه، صدقوني متى أحب الإنسان شيئا، لا من حيث أن الله أعطاه هذا الشئ، فهو زان، لأنه جعل النفس متحدة بالمخلوق، وهي التي يجب أن تبقى متحدة بالله خالقها. ولهذا قال الله نادبا على لسان أشعيا النبي " إنك قد زنيت بعشاق كثيرين، ولكن ارجعي إلي أقبلك "، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، لو لم تكن في قلب الإنسان شهوة داخلية، لما سقط في الخارجية، لأنه إذا اقتلع الجذور ماتت الشجرة سريعا، فليقنع الرجل إذا بالمرأة التي أعطاه إياها خالقه، ولينس كل امرأة أخرى "!

أجاب أندرواس " كيف ينسى الإنسان النساء، إذا عاش في المدينة حيث يوجد كثيرات منهن فيها؟ "، أجاب يسوع " يا أندرواس! حقا إن السكنى في المدينة تضر، لأن المدينة كالإسفنجة تمتص كل إثم! يجب على الإنسان أن يعيش في المدينة كما يعيش الجندي إذا كان حوله أعداء يحيطون الحصن، دافعا عن نفسه كل هجوم، خائفا على الدوام خيانة الأهلين، أقول هكذا يجب عليه أن يدفع كل إغراء خارجي من الخطيئة وأن يخشى الحس، لأن له شغفا مفرطا بالأشياء الدنسة، ولكن كيف يدافع عن نفسه إذا لم يكبح جماح العين التي هي أصل كل خطيئة جسدية؟! لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن من ليست له عينان جسديتان يأمن من العقاب، إلا ما كان في الدركة الثالثة، على أن من له عينان يحل به القصاص، حتى الدركة السابعة.

حدث في زمن إيليا النبي، أن إيليا رأى رجلا ضريرا حسن السيرة يبكي، فسأله قائلا لماذا تبكي أيها الأخ! أجاب الضرير " ألا فقل لي أرؤية نبي الله الذي يقيم الموتى وينزل نارا من السماء خطيئة؟ "، أجاب إيليا " إنك لا تقول الصدق، لأن إيليا لا يقدر أن يأتي شيئا مما قلت على الإطلاق
، فإنه رجل
نظيرك، لأن أهل العالم بأسرهم لا يقدرون أن يخلقوا ذبابة واحدة "، فقال الضرير " إنك تقول هذا أيها الرجل، لأنه لا بد أن يكون قد وبخك إيليا على

بعض خطاياك، فلذلك تكرهه "، أجاب إيليا " عسى أن تكون قد نطقت بالحق، لأني لو أبغضت إيليا أيها الأخ، لأحببت الله، وكلما زدت بغضا لإيليا، زدت حبا في الله "، فاغتاظ الضرير لذلك غيظا شديدا وقال " لعمر الله إنك لفاجر، أيمكن لأحد أن يحب الله وهو يكره نبي الله؟! انصرف من هنا، لأني لست بمصغ إليك فيما بعد "، أجاب إيليا " أيها الأخ! إنك لترى الآن بعقلك شدة شر البصر الجسدي، لأنك تتمنى بصرا لتبصر إيليا، وأنت تبغض إيليا بنفسك "، فأجاب الضرير " ألا فانصرف، لأنك أنت الشيطان الذي يريد أن يجعلني أخطئ إلى قدوس الله "، فتنهد حينئذ إيليا وقال بدموع " إنك لقد قلت الصدق أيها الأخ، لأن جسدي الذي تود أن تراه، يفصلني عن الله "، فقال الضرير " إني لا أود أن أراك، بل لو كان لي عينان لأغمضتها لكي لا أراك "، حينئذ قال إيليا " اعلم أيها الأخ، أني أنا إيليا "، أجاب الضرير " إنك لا تقول الصدق "، حينئذ قال تلاميذ إيليا " أيها الأخ! إنه إيليا نبي الله بعينه "، فقال الضرير " إذا كان النبي فليقل لي من أي ذرية أنا وكيف صرت ضريرا؟ "، أجاب إيليا " إنك من سبط لاوي، ولأنك نظرت وأنت داخل هيكل الله إلى امرأة بشهوة على مقربة من المقدس، أزال إلهنا بصرك "، فقال حينئذ الضرير باكيا " اغفر لي يا نبي الله الطاهر، لأني قد أخطأت إليك في الكلام، وإني لو أبصرتك، لما كنت أخطأت "، فأجاب إيليا " ليغفر لك إلهنا أيها الأخ، لأني أعلم أنك فيما يخصني قد قلت الصدق، لأني كلما ازددت بغضا لنفسي، ازددت محبة لله، ولو رأيتني لخمدت رغبتك التي ليست مرضية لله، لأن إيليا ليس هو خالقك، بل الله، ثم قال إيليا باكيا " إني أنا الشيطان فيما يختص بك، لأني أحولك عن خالقك، فابك إذا أيها الأخ إذا لم يكن لك نور يريك الحق من الباطل، لأنه لو كان لك ذلك لما احتقرت تعليمي، لذلك أقول إن كثيرين يتمنون أن يروني، ويأتون من بعيد ليروني وهم يحتقرون كلامي، لذلك كان خيرا لهم لخلاصهم أن لا تكون لهم عيون، لأن كل من يجد لذة في المخلوق أيا كان ولا يطلب أن يجد لذة في الله، فقد صنع صنما في قلبه وترك الله "... فإذا لم تحفظ العين يا اندراوس، فإني أقول لك إن عدم

الانغماس في الشهوة حينئذ من المحال، لذلك قال أرميا النبي باكيا بشدة " عين لص يسرق نفسي "، ولذلك صلى داود أبونا بأعظم شوق لله... أن يحول عينيه لكي لا يرى الباطل، لأن كل ماله نهاية، إنما هو باطل قطعا، قل لي إذا إذا كان لأحد فلسان يشتري بهما خبزا، أفيصرفهما مشتريا دخانا (١)؟ لا البتة! لأن الدخان يضر العينين ولا يقيت الجسم، فعلى الإنسان أن يفعل هكذا، لأنه يجب عليه ببصر عينيه الخارجي وبصر عقله الداخلي أن يطلب ليعرف الله خالقه ومرضاة مشيئته، وأن لا يجعل غرضه المخلوق الذي يجعله يخسر الخالق! لأنه حقا كلما نظر الإنسان شيئا، ونسي الله الذي خلقه للإنسان، فقد أخطأ، إذ لو وهبك صديق شيئا، تحفظه ذكرى له، فبعته ونسيت صديقك، فقد أغظت صديقك، فهذا ما يفعل الإنسان، لأنه عندما ينظر إلى المخلوق ولا يذكر الخالق الذي خلقه إكراما للإنسان، يخطئ إلى الله خالقه بالكفران بالنعمة، فمن ينظر إلى النساء، وينسى الله الذي خلق المرأة لأجل الإنسان، يكون قد أحبها واشتهاها، وتبلغ منه شهوته هذه مبلغا يحب معه كل شئ شبيه بالشئ المحبوب، فتنشأ عن ذلك الخطيئة التي يخجل من ذكرها، فإذا وضع الإنسان لجاما لعينه، يصير سعيد الحس الذي لا يشتهي ما لا يقدم له، وهكذا يكون الجسد تحت حكم الروح، فكما السفينة لا تتحرك بدون ريح، لا يقدر الجسد أن يخطئ بدون الحس (١)... ".

(١٠) البخل وتحول الخاطئ إلى التوبة:

البخل هو عطش الحس، فإذا أنار الله قلب الإنسان تاب، وتحول بخله إلى صدقة حبا في الله، " وليس لواضع المعروف في غير حقه وعند غير أهله من الحظ، إلا محمدة اللئام وثناء الأشرار ومقالة الجهال، ما دام منعما عليهم! فما أجود يده وهو عن ذات الله بخيل! فمن آتاه الله ما لا، فليصل به القرابة

---

(١) يريد الدخان الحقيقي، لأن التبغ لم يكن قد عرف بعد.
(٢) راجع ص ١٧٦ - ١٨٢ من إنجيل برنابا.

وليحسن منه الضيافة وليفك به الأسير والعاني، وليعط منه الفقير والغارم، وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب، ابتغاء الثواب، فإن فوزا بهذه الخصال، شرف مكارم الدنيا ودرك فضل الآخرة، إن شاء الله " (١)!

" وإن الله يبتلي عباده عن الأعمال السيئة، بنقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب، ويقلع مقلع، ويتذكر متذكر، ويزدجر مزدجر، وقد جعل له الاستغفار سببا لدرور الرزق ورحمة الخلق، فقال " استغفروا ربكم، إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين "، فرحم الله امرأ استقبل توبته، واستقال خطيئته، وبادر منيته " (٢)!

ولقد جاء في الفصول من الثاني والعشرين بعد المائة إلى الخامس والعشرين بعد المائة من إنجيل برنابا عن البخل وتحول الخاطئ إلى التوبة: " أما البخل فيجب تحويله إلى تصدق، الحق أقول لكم إن الجحيم غاية البخيل، لأنه من المحال أن ينال البخيل خيرا في الجنة، أتعلمون لماذا؟ إني أخبركم، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن البخيل... يصرف كل ماله على ملذته الخاصة، غير ناظر إلى بدايته أو نهايته، فإنه ولد عريانا، ومتى مات ترك كل شئ!.

... يجعل البخيل نفسه إلها على الثروة التي وهبها إياه الله! البخل هو عطش الحس، الذي لما فقد الله بالخطيئة لأنه يعيش باللذة، ولما لم بعد قادرا على الابتهاج بالله المحتجب عنه، أحاط نفسه بالأشياء العالمية التي يحسبها خيره، وكلما رأى نفسه محروما من الله، ازداد قوة، وهكذا، فإن تجدد الخاطئ إنما هو من الله الذي ينعم عليه فيتوب، كما قال أبونا داود " هذا التغير يأتي من يمين الله "!

---

(١) راجع ص ٢٧٨ من نهج البلاغة ج ١.

(٢) راجع ص ٢٧٩ من نهج البلاغة ج ١.

ومن الضروري أن أفيدكم من أي نوع هو الإنسان، إذا كنتم تريدون أن تعلموا كيف يجب فعل التوبة، ولنشكر اليوم الله الذي وهبنا نعمة، لأبلغ إرادته بكلمتي... "

فلما جلسوا، عاد يسوع فقال " إن إلهنا لأجل أن يظهر لخلائقه جوده ورحمته وقدرته على كل شئ، مع كرمه وعدله، صنع مركبا من أربعة أشياء متضاربة، ووحدها في شبح واحد نهائي هو الإنسان، وهي التراب والهواء والماء والنار، ليعدل كل منها ضده، وصنع من هذه الأشياء الأربعة إناء، وهو جسد الإنسان من لحم وعظام ودم ونخاع وجلد مع أعصابه وأوردة وسائر أجزائه الباطنية، ووضع الله فيه النفس والحس بمثابة يدين لهذه الحياة، وجعل مثوى الحس في كل جزء من الجسد، لأنه انتشر هناك كالزيت، وجعل مثوى النفس القلب حيث يتحد مع الحس، فتتسلط على الحياة كلها! فبعد أن خلق الله الإنسان هكذا، وضع فيه نورا يسمى العقل، ليوحد الجسد والحس والنفس، لمقصد واحد وهو العمل لخدمة الله! فلما وضع هذه الصنيعة في الجنة، وأغرى الحس العقل بعمل الشيطان، فقد الجسد راحته، وفقد الحس المسرة التي يحيا بها، وفقدت النفس جمالها، فلما وقع الإنسان في هذه الورطة، وكان الحس الذي لا يطمئن في العمل، بل يطلب المسرة غير مكبوحة الجماح بالعقل، اتبع النور الذي تظهره له العينان، ولما كانت العينان لا تبصران شيئا غير الباطل، خدع نفسه واختار الأشياء الأرضية، فأخطأ! لذلك وجب برحمة الله أن ينور عقل الإنسان من جديد، ليعرف الخير من الشر، والمسرة الحقيقية، فمتى عرف الخاطئ ذلك، تحول إلى التوبة، لذلك أقول لكم حقا إنه إذا لم ينور الله ربنا قلب الإنسان، فإن تعقل البشر لا يجدي ".

أجاب يوحنا " إذا ما هي الجدوى من كلام الإنسان؟ "، فأجاب يسوع " الإنسان من حيث هو إنسان، لا يفلح في تحويل إنسان إلى التوبة، أما الإنسان من حيث هو وسيلة يستعملها الله، فهو يجدد الإنسان، ولما كان

الله يعمل في الإنسان، بطريقة خفية لخلاص البشر، وجب على المرء أن يصغي لكل إنسان، حتى يقبل من بين الجميع، ذلك الذي يكلمنا به الله... "
يذهب رجل ليصطاد بشبكة، فيمسك فيها سمكا كثيرا، والردئ منه يطرحه! ذهب رجل ليزرع، وإنما الحبة التي تقع على أرض صالحة هي التي تحمل بذورا! فهكذا يجب عليكم أن تفعلوا مصغين إلى الجميع، وقابلين الحق فقط، لأن الحق وحده يحمل ثمرا للحياة الأبدية!..

... متى أراد الحس الحصول على شئ أو الحرص عليه، يجب أن يقول العقل لا بد من نهاية لهذا الشئ، ومن المؤكد أنه إذا كان له نهاية، فمن الجنون أن يحب، لذلك وجب على الإنسان أن يحب ويحفظ ما لا نهاية له، فليتحول بخل الإنسان إذا إلى صدقة موزعا بالعدل ما قاله بالظلم، وليكن على انتباه حتى لا تعرف اليد اليسرى ما تفعله اليد اليمنى، لأن المرائين إذا تصدقوا يحبون أن ينظرهم ويمدحهم العالم، ولكن الحق أنهم مغرورون، لأن من يشتغل بالإنسان فمنه يأخذ أجره، فإذا نال إنسان شيئا من الله، وجب عليه أن يخدم الله، وتوخوا متى تصدقتم أن تحسبوا أنكم تعطون الله كل شئ حبا في الله، فلا تبطئوا في العطاء، وأعطوا خير ما عندكم، حبا في الله.

قولوا لي! أتريدون أن تنالوا شيئا رديئا من الله؟ لا البتة! أيها التراب والرماد! فكيف يكون عندكم إيمان إذا أعطيتم شيئا رديئا حبا في الله؟
ألا تعطوا شيئا خيرا من أن تعطوا شيئا رديئا، لأن لكم في عدم العطاء شيئا من المعذرة في عرف العالم، ولكن ما تكون معذرتكم في إعطاء شئ لا قيمة له وإبقاء الأفضل لأنفسكم؟...

يجب على الإنسان ما دام في حال الخطيئة أن يتوب ويجاهد نفسه، فكما أن الحياة البشرية تخطئ على الدوام، وجب عليها أن تقوم بجهاد النفس على الدوام، إلا إذا كنتم تحسبون أحذيتكم أكرم من نفسكم، لأنه كلما انفتق حذاؤكم أصلحتموه (١) "!

---

(١) راجع ص ١٨٦ – ١٩٢ من إنجيل برنابا.

(١١) التوبة والعمل:
إن الله يمهل الإنسان ليتوب، ويجب عليه أن يعمل ليسعد الناس أجمعين ولقد جاء في الفصلين الثالث عشر بعد المائة والرابع عشر بعد المائة من إنجيل برنابا عن التبشير بالتوبة والعمل:
"... لتبشروا بالتوبة ليرحم الله خطيئة إسرائيل، وليحذر كل أحد الكسل وخصوصا من يستعمل العقوبة البدنية، لأن كل شجرة لا تثمر ثمرا صالحا، تقطع وتلقى في النار!
... الحق أقول لكم إن صاحب الملك هو الله، والكرام شريعته، فكان عند الله إذا في الجنة النخل والبلسان، لأن الشيطان هو النخل، والإنسان الأول هو البلسان، فطردهما كليهما، لأنهما لم يحملا ثمرا من الأعمال الصالحة، بل فاها بألفاظ غير صالحة، كانت قضاء على ملائكة وأناس كثيرين، ولما كان الله قد وضع الإنسان في وسط خلائقه التي تعبده كلها بحسب أمره، فإذا كان كما قلت لا يحمل ثمرا، فإن الله يقطعه ويدفعه إلى الجحيم، لأنه لم يعف عن الملاك والإنسان الأول، فنكل بالملاك تنكيلا أبديا وبالإنسان إلى حين، فتقول من ثم شريعة الله إن للإنسان طيبات أكثر مما يجب في هذه الحياة، فوجب عليه إذا أن يحتمل الضيق ويحرم من الطيبات العالمية ليعمل أعمالا صالحة، وعليه فإن الله يمهل الإنسان ليتوب، الحق أقول لكم إن إلهنا قضى على الإنسان بالعمل للغرض الذي قاله أيوب خليل الله ونبيه " كما أن الطير مولودة للطيران، والسمك للسباحة، هكذا الإنسان مولود للعمل "، وهكذا يقول أيضا داود أبونا نبي الله " لأننا إذا أكلنا تعب أيدينا، تبارك ويكون خيرا لنا "، لذلك يجب على كل أحد أن يعمل بحسب صنعته، ألا فقولوا لي إذا كان أبونا داود وابنه سليمان اشتغلا بأيديهما، فماذا يجب على الخاطئ أن يفعل؟ " فقال يوحنا " يا معلم! إن العمل شئ حسن، ولكن يجب على الفقراء أن يقوموا به " فأجاب يسوع " نعم، لأنهم لا يقدرون أن يفعلوا غير ذلك، ولكن ألا تعلم أنه يجب على الصالح ليكون صالحا، أن

يكون مجردا عن الضرورة، فالشمس والسيارات تتقوى بأوامر الله، حتى أنها لا تقدر أن تفعل غير ذلك، فليس لهن فضل، فقولوا لي أقال الله عندما أمر بالعمل " يعيش الفقير من عرق وجهه " أو قال أيوب " كما أن الطير مولودة للطيران، هكذا الفقير مولود للعمل "! بل قال الله للإنسان " بعرق وجهك، تأكل خبزك "، وقال أيوب " الإنسان مولود للعمل "، وعليه، فإن من ليس بإنسان معفى من هذا الأمر، حقا إنه لا سبب لغلاء الأشياء سوى أنه يوجد جمهور غفير من الكسالى، فلو اشتغل هؤلاء وعمل بعضهم في الأرض وآخرون في صيد الأسماك في الماء، لكان العالم في أعظم سعة، ويجب أن يؤدي الحساب على هذا النقص في يوم الدين الرهيب (١) "!

(١٢) توبة الخاطئين:

معنى الفردوس في لغة الكنعانيين " يطلب الله "، فمن أحب الله حرس مشاعره وقلبه، ومن أراد أن يعمل صالحا يجب أن يكون يلاحظ نفسه، وإذا أخطأ رجع إلى ربه، ويجب عليه أن يحاسبه نفسه قبل إن يحاسبه ربه، بأن يجاهدها!

ولقد جاء في الفصول من الرابع والأربعين بعد المائة إلى الحادي والخمسين بعد المائة من إنجيل برنابا عن توبة الخاطئين:

" لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن الله يرسل أنبياءه وخدامه إلى العالم ليتوب الخطأة، ولا يرسلهم لأجل الأبرار، لأنه ليس لهم حاجة إلى التوبة، كما أنه لا حاجة بمن كان نظيفا إلى الحمام، ولكن الحق أقول لكم لو كنتم فريسين حقيقيين، لسررتم بدخولي على الخطأة لخلاصهم، قولوا لي أتعرفون منشأكم، ولماذا ابتدأ العالم يقبل الفريسيين؟ إني لأقول لكم إنكم لا تعرفونه، فأصيخوا لاستعمال كلامي، إن أخنوخ خليل الله الذي سار مع الله بالحق، غير مكترث بالعالم، نقل إلى الفردوس، وهو مقيم هناك إلى الدينونة

---

(١) راجع ص ١٧٣ - ١٧٥ من إنجيل برنابا.

- لأنه متى اقتربت نهاية العالم، يرجع إلى العالم مع إيليا وآخر - فلما علم الناس بذلك، شرعوا يطلبون الله خالقهم، طمعا في الفردوس، لأن معنى الفردوس في الحرف في لغة الكنعانيين " يطلب الله "، لأن هناك ابتدأ هذا الاسم على سبيل الاستهزاء بالصالحين، وعليه كان الكنعانيون عندما يرون أحدا ممن كان منفصلا من شعبنا عن العالم ليخدم الله، قالوا سخرية فريسي، أي يطلب الله، كأنهم يقولون أيها المجنون ليس لك تماثيل من أصنام، فإنك تعبد الريح، فانظر إلى عقباك واعبد آلهتنا... الحق أقول لكم الحق إن كل قديسي الله وأنبيائه كانوا فريسين لا بالاسم مثلكم، بل بالفعل نفسه، لأنهم في كل أعمالهم، طلبوا الله خالقهم، وهجروا مدنهم ومقتنياتهم حبا في الله، فباعوها وأعطوها للفقراء، حبا في الله!

لعمر الله، لقد كان في زمن إيليا خليل الله ونبيه، اثنا عشر جبلا يقطنها سبعة عشر ألف فريسي، ولم يكن بين هذا العدد الغفير منبوذ واحد، بل كانوا جميعا مختاري الله، أما الآن وفي إسرائيل نيف ومائة ألف فريسي، فعسى إن شاء الله أن يوجد بين كل ألف، مختار واحد "، فأجاب الفريسيون بحنق " أنحن جميعا إذا منبوذون، وتجعل ديانتنا منبوذة؟ "، أجاب يسوع " إني لا أحسب ديانة الفريسيون الحقيقيين منبوذة، بل ممدوحة، وإني مستعد أن أموت لأجلها، ولكن تعالوا ننظر هل أنتم فريسيون! إن إيليا خليل الله كتب إجابة لتضرع تلميذه أليشع كتيبا أودع فيه الحكمة البشرية مع شريعة الله... "، فتحير الفريسيون لما سمعوا اسم كتاب إيليا، لأنهم عرفوا بتقليداتهم أن لا أحد حفظ هذا التعليم، لذلك أرادوا أن ينصرفوا بحجة أشغال يجب قضاؤها، حينئذ قال يسوع " لو كنتم فريسيين، لتركتم كل شئ ولاحظتم هذا، لأن الفريسي إنما يطلب الله وحده "، لذلك تأخروا بارتباك ليصغوا إلى يسوع الذي عاد فقال " إن إيليا عبد الله - لأنه هكذا يبتدئ الكتيب - يكتب هذا لجميع الذين يبتغون أن يسيروا مع الله خالقهم، إن من يحب أن يتعلم كثيرا، يخاف الله قليلا، لأن من يخاف الله، يقنع بأن يعرف ما يريده الله فقط!

إن من يطلب كلاما مزوقا، لا يطلب الله الذي لا يفعل إلا توبيخ خطايانا! على من يشتهون أن يطلبوا الله، أن يحكموا إقفال أبواب بيتهم وشبابيكه، لأن السيد لا يرضى أن يوجد خارج بيته، حيث لا يحب! فاحرسوا مشاعركم واحرسوا قلوبكم، لأن الله لا يوجد خارجنا في هذا العالم الذي يكرهه! على من يريدون أن يعلموا أعمالا صالحة، أن يلاحظوا أنفسهم، لأنه لا يجدي المرء نفعا أن يربح كل العالم ويخسر نفسه! على من يريدون تعليم الآخرين، أن يعيشوا أفضل من الآخرين، لأنه لا يستفاد شئ ممن يعرف أقل منا نحن فكيف إذا يصلح الخاطئ حياته، وهو يسمع من شر منه يعلمه! على من يطلبون الله، أن يهربوا من محادثة البشر، لأن موسى لما كان وحده على جبل سينا، وجد الله وكلمه كما يكلم الخليل خليله! على من يطلبون الله أن يخرجوا مرة كل ثلاثين يوما إلى حيث يكون أهل العالم، لأنه يمكن أن يعمل في يوم واحد أعمال سنتين من شغل الذي يطلب الله! عليه متى مشى أن لا ينظر إلا إلى قدميه! عليه متى تكلم أن لا يقول إلا ما كان ضروريا! عليهم متى أكلوا أن يقوموا عن المائدة وهم دون الشبع، مفكرين كل يوم أنهم لا يبلغون اليوم التالي، وصارفين وقتهم كما يتنفس المرء! ليكن ثوب واحد من جلد الحيوانات كافيا! على كتلة التراب أن تنام على الأديم، ليكف كل ليلة ساعتان من النوم! وعليه أن لا يبغض أحدا إلا نفسه! عليهم أن يكونوا واقفين أثناء الصلاة بخوف، كأنهم أمام الدينونة الآتية! فافعلوا إذا هذا في خدمة الله مع الشريعة التي أعطاكم إياها الله على يد موسى، لأنه بهذه الطريقة تجدون، إنكم ستشعرون في كل زمان ومكان أنكم في الله وأن الله فيكم!

هذا كتيب إيليا أيها الفريسيون، لذلك أعود فأقول لكم " لو كنتم فريسيين، لسررتم بدخولي هنا، لأن الله يرحم الخطأة "! قال حينئذ زكا " يا سيد انظر، فإني أعطي حبا في الله، أربعة أضعاف ما أخذت بالربا "، حينئذ قال يسوع " اليوم حصل خلاص لهذا البيت، حقا حقا، إن كثيرين من العشارين والزواني والخطاة سيمضون إلى ملكوت الله، وسيمضي الذين

يحسبون أنفسهم أبرارا، إلى اللهب الأبدية "، فلما سمع الفريسيون هذا، انصرفوا حانقين، ثم قال يسوع للذين تحولوا إلى التوبة ولتلاميذه... لعمر الله، هكذا يكون فرح بين ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب "، ولما أكلوا انصرف، لأنه يريد أن يذهب إلى اليهودية، فقال من ثم التلاميذ " يا معلم لا تذهب إلى اليهودية، لأننا نعلم أن الفريسيين ائتمروا مع رئيس الكهنة بك "، أجاب يسوع " إني علمت بذلك قبل أن فعلوه، ولكن لا أخاف، لأنهم لا يقدرون أن يفعلوا شيئا مضادا لمشيئة الله، فليفعلوا كل ما يرغبون، فإني لا أخافهم، بل أخاف الله!

ألا قولوا لي، هل فريسيو اليوم فريسيون؟ هل هم خدمة الله؟ لا البتة، بل الحق أقول لكم إنه لا يوجد هنا على الأرض شر من أن يستر الإنسان نفسه بالعلم ووشاح الدين ليخفى خبثه! إني أقص عليكم مثالا واحدا من فريسيي الزمان القديم لكي تعرفوا الحاضرين منهم. بعد سفر إيليا، تشتت شمل طائفة الفريسيين بسبب الاضطهاد العظيم من عبدة الأصنام، لأنه ذبح في زمن إيليا نفسه في سنة واحدة عشرة آلاف نبي ونيف من الفريسيين الحقيقيين! فذهب فريسيان إلى الجبال ليقطنا هناك، ولبث أحدهما خمس عشرة سنة لا يعرف شيئا عن جاره، مع أن أحدهما كان على بعد ساعة واحدة عن الآخر، فانظروا إذا كانا طفيليين! فحدث في هذه الجبال قيظ، فشرعا من ثم كلاهما، يفتشان على ماء، فالتقيا، فقال هنالك الأكبر منهما – لأنه كان من عادتهم أن يتكلم الأكبر قبل كل أحد غيره، وإذا تكلم شاب قبل شيخ، حسبوا ذلك خطيئة كبرى – " أين تسكن أيها الأخ! "، فأجاب مشيرا بإصبعه إلى المسكن " ههنا أسكن "، لأنهما كانا قريبين من مسكن الأصغر، فقال الأكبر " لعلك أتيت لما قتل أخاب أنبياء الله؟ "، أجاب الأصغر " إنه لكذلك "، قال الأكبر " أتعلم أيها الأخ من هو الملك على إسرائيل الآن؟ "، فأجاب الأصغر " إن الله هو ملك إسرائيل، لأن عبدة الأصنام ليسوا ملوكا، بل مضطهدين لإسرائيل "، قال الأكبر " إن هذا صحيح، ولكن أردت أن أقول من هو

الذي يضطهد إسرائيل الآن؟ "، أجاب الأصغر " إن خطايا إسرائيل تضطهد إسرائيل، لأنهم لو لم يخطئوا، لم يسلط الله على إسرائيل العظماء عبدة الأصنام "، فقال حينئذ الأكبر " من هو ذلك العظيم الكافر الذي أرسله الله لتأديب إسرائيل؟ " أجاب الأصغر " كيف يمكن أن أعرف، وأنا لم أر إنسانا مدة هذه الخمس عشرة سنة، وأجهل القراءة فلا ترسل إلى رسائل؟ "، قال الأكبر " ما أجد جلود الغنم التي عليك، فإذا كنت لم تر إنسانا، فمن أعطاك إياها! "، أجاب الأصغر " إن من حفظ ثياب شعب إسرائيل جديدة أربعين سنة في البرية، حفظ جلودي كما ترى "، حينئذ لاحظ الأكبر أن الأصغر كان أكبر منه، لأنه كان أكمل منه، لأنه كان كل سنة يختلط بالناس، ولذلك قال لكي يظفر بمحادثته " أيها الأخ إنك لا تعرف القراءة، وأنا أعرف القراءة، وعندي في بيتي مزامير داود، فتعال إذا لأعطيك كل يوم قراءة، وأوضح لك ما يقول داود ".

أجاب الأصغر " لنذهب الآن "، قال الأكبر " أيها الأخ إنني منذ يومين لم أشرب ماء، فلنفتش إذا على قليل من الماء "، قال الأصغر، " أيها الأخ إني منذ شهرين لم أشرب ماء، فلنذهب إذا ونرى ماذا يقول الله على لسان نبيه داود، إن الله لقادر على أن يعطينا ماء "، فغادرا من ثم إلى مسكن الأكبر، فوجدا على بابه ينبوعا من ماء عذب، قال الأكبر " إنك أيها الأخ قدوس الله، لأنه من أجلك قد أعطى هذا الينبوع "، أجاب الأصغر " إنك أيها الأخ تقول هذا تواضعا، ولكن من المؤكد أنه لو فعل الله هذا من أجلي، لكان صنع ينبوعا قريبا من مسكني، حتى لا أنصرف للتفتيش عليه، فإني أعترف لك بأني أخطأت إليك لما قلت إنك منذ يومين لم تشرب، وكنت تفتش على الماء، أما أنا فبقيت شهرين دون شرب، ولذلك شعرت بإعجاب في كأني أفضل منك "، فقال الأكبر " أيها الأخ إنك قلت الصحيح، ولذلك لم تخطئ "، قال الأصغر " إنك قد نسيت أيها الأخ ما قال أبونا إيليا " إن من يطلب الله، يجب أن يحكم على نفسه فقط "، ومن المؤكد أنه قال هذا، لا لنعرفه

بل لنعمل به "، وبعد أن لاحظ الأكبر سنا صدق وبراءة رفيقه، قال " إنه لصحيح، غفر لك إلهنا "، وبعد أن قال هذا أخذ المزامير وقرأ ما يقول أبونا داود " إني أضع حارسا لفمي حتى لا يميل قلبي إلى كلمات الإثم، منتحلا عذرا عن خطاياي "، وهنا ألقى الشيخ خطابا على اللسان وانصرف الأصغر، فلبث خمس عشرة سنة أخرى، حتى التقيا، لأن الأصغر غير مسكنه، لذلك عندما عاد الأكبر فلقيه قال " لماذا لم ترجع أيها الأخ إلى مسكني؟ "، أجاب الأصغر " لأني لم أتعلم جيدا حتى الآن ما قلته لي "، فقال الأكبر " كيف يمكن ذلك، وقد مرت الآن خمس عشرة سنة؟ "، أجاب الأصغر " أما الكلمات فقد تعلمتها في ساعة واحدة ولم أنسها قط، ولكني حتى الآن لم أحفظها، فما الفائدة من أن يتعلم المرء كثيرا جدا ولا يحفظه؟، إن الله لا يطلب أن تكون بصيرتنا جيدة، بل قلبنا، وهكذا لا يسألنا في يوم الدينونة عما تعلمنا، بل عن عملنا "، أجاب الأكبر " لا تقل هكذا أيها الأخ، لأنك إنما تحتقر المعرفة التي يريد الله أن تعتبر "، أجاب الأصغر " فكيف أتكلم إذا حتى لا أقع في الخطيئة، لأن كلمتك صادقة وكلمتي أيضا، أقول إذا إن من يعرف وصايا الله المكتوبة في الشريعة، يجب عليه العمل بهذه أولا إذا أحب أن يتعلم بعد ذلك أكثر، وليكن ما يتعلمه الإنسان للعمل لا لمجرد العلم به "، قال الأكبر " قل لي أيها الأخ " مع من تكلمت لتعلم أنك لم تتعلم كل ما قلته؟ "، أجاب الأصغر " إني أتكلم أيها الأخ مع نفسي، إني أضع كل يوم نفسي أمام دينونة الله، لأعطى حسابا عن نفسي، وأشعر على الدوام في داخلي بمن يوبخ ذنوبي "، قال الأكبر " ما هي ذنوبك أيها الأخ الذي هو كامل؟ "، أجاب الأصغر " لا تقل هذا، لأن واقف بين ذنبين كبيرين، الأول أني لا أعرف نفسي أني أعظم الخطأة، الثاني أني لا أرغب في مجاهدة النفس لذلك، أكثر من الآخرين "، أجاب الأكبر " كيف تعلم أنك أعظم الخطأة إذا كنت أكمل الناس؟ "، أجاب الأصغر " إن الكلمة الأولى التي قالها لي معلمي عندما لبست لباس الفريسيين هي أنه يجب أن أفكر في خير غيري وفي إثمي، فإذا فعلت

هذا عرفت أنني أعظم الخطأة "، قال الأكبر " في خير من وذنب من تفكر، وأنت على هذه الجبال، فإنه لا يوجد بشر هنا؟ "، أجاب الأصغر " يجب على أن أفكر في طاعة الشمس والسيارات، لأنها تعبد خالقها أفضل مني، ولكني أحكم عليها، إما لأنها لا تعطى نورا كما أرغب، أو لأن حرارتها أكثر مما ينبغي، أو لأنه يوجد مطر أقل أو أكثر مما تحتاج الأرض "، فلما سمع الأكبر هذا، قال " أيها الأخ أين تعلمت هذا التعليم؟ فأنا الآن ابن تسعين سنة، صرفت منها خمسة وسبعين سنة وأنا فريسيي "، أجاب الأصغر " أيها الأخ إنك تقول هذا تواضعا، لأنك قدوس الله (١)، ولكن أجيبك بأن الله خالقنا لا ينظر إلى الوقت، بل ينظر إلى القلب، لذلك لما كان داود ابن خمس عشرة سنة وهو أصغر إخوته السنة، انتخبه إسرائيل ملكا وصار نبي الله ربنا "!.
وقال يسوع لتلاميذه " لقد كان هذا الرجل فريسيا حقيقيا، وإن شاء الله أمكنا أن نأخذه يوم الدين صديقا لنا "، ثم دخل يسوع إلى سفينته، وأسف تلاميذه، لأنهم نسوا أن يحضروا خبزا، فانتهزهم يسوع قائلا " احذروا من خمير فريسيي يومنا لأن خميرة صغيرة تخمر كيلة من الدقيق "، حينئذ قال التلاميذ بعضهم لبعض " أي خمير معنا، إذ لم يكن معنا خبز "، فقال يسوع " يا قليلي الإيمان! أنسيتم إذا ما فعل الله في نايين حيث لم يكن أدنى دليل على الحنطة؟ وكم عدد الذين أكلوا وشبعوا من خمسة أرغفة وسمكتين؟ إن خمير الفريسي هو عدم الإيمان بالله، بل قد أفسد إسرائيل، لأن السذج لما كانوا أميين يفعلون ما يرون الفريسيون يفعلونه، لأنهم يحسبونهم أطهارا! أتعلمون ما هو الفريسي الحقيقي؟ هو زيت الطبيعة البشرية، لأن الزيت كما يطفو فوق كل سائل، هكذا تطفو جودة كل فريسي حقيقي فوق كل صلاح بشرى، هو كتاب حي يمنحه الله للعالم، كل ما يقوله أو يفعله إنما هو بحسب شريعة

----

(١) القدوس بالضم (وقد يفتح) اسم من أسماء الله تعالى، وهو فعول من القدس وهو الطهارة، ويراد هنا طاهر الله. راجع ص ٥٥ من مختار الصحاح للإمام الرازي.

الله، فمن يفعل كما يفعل، فهو يحفظ شريعة الله، إن الفريسي الحقيقي ملح لا يدع الجسد البشري ينتن بالخطيئة، لأن كل من يراه يتوب، إنه نور ينير طريق السائح، لأن كل من يتأمل فقره مع توبته، يرى أنه لا يجب علينا في هذا العالم أن نغلق قلوبنا! ولكن من يجعل الزيت زنخا ويفسد الكتاب ويجعل الملح منتنا ويطفئ النور، فهذا الرجل فريسي كاذب، فإذا كنتم لا تريدون أن تهلكوا، فاحذروا أن تفعلوا كما يفعل الفريسيون اليوم " (١)!

(١٣) طريقة التوبة:

التوبة أن تنقلب كل حاسة إلى عكس ما صنعت من شر، وأن يندم الإنسان الخاطئ ندما صادقا، " عباد الله إنكم وما تأملون من هذه الدنيا أثوياء مؤجلون ومدينون مقتضون، أجل منقوص وعمل محفوظ، فرب دائب مضيع، ورب كادح خاسر، وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا، والشر فيه إلا إقبالا، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعا، فهذا أوان قويت عدته وعمت مكيدته وأمكنت فريسته، اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، هل تبصر إلا فقيرا يكابد فقرا أو غنيا بدل نعمة الله كفرا، أو بخيلا اتخذ البخل بحق الله وفرا، أو متمردا كأن بأذنه عن سمع المواعظ وقرا، أين خياركم وصلحاؤكم وأحراركم وسمحاؤكم، وأين المتورعون في مكاسبهم والمتنزهون في مذاهبهم، أليس قد ظعنوا جميعا عن هذه الدنيا الدنية والعاجلة المنغصة؟!.. ظهر الفساد فلا منكر متغير، ولا زاجر مزدجر، أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه، وتكونوا أعز أوليائه عنده، هيهات! لا يخدع الله عن جنته، ولا تنال مرضاته إلا بطاعته! لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به (٢).

ولقد جاء في الفصول من المائة إلى الخامس بعد المائة من إنجيل برنابا عن طريقة التوبة:

----

(١) راجع ص ٢٢٢ - ٢٣٤ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٢٦٥ و ٢٦٦ من نهج البلاغة ج ١.

"... حينئذ قال من يكتب " يا معلم! إذا سئل تلاميذك عن الطريقة التي يجب بها إظهار التوبة، فماذا يجيبون؟ " أجاب يسوع " إذا أضاع رجل كيسا، أيدير عينيه ليراه أو يده ليأخذه أو لسانه ليسأل فقط؟ كلا ثم كلا! بل يلتفت بكل جسمه ويستعمل كل قوة في نفسه ليجده، أصحيح هذا؟ "، فأجاب الذي يكتب " إنه لصحيح كل الصحة "، ثم قال يسوع " إن التوبة عكس الحياة الشريرة، لأنه يجب أن تنقلب كل حاسة إلى عكس ما صنعت وهي ترتكب الخطيئة، فيجب النوح عوضا عن المسرة، والبكاء عوضا عن الضحك، والصوم عوضا عن البطر، والسهر عوضا عن النوم، والعمل عوضا عن البطالة، والعفة عوضا عن الشهوة، وليتحول الفضول إلى صلاة، والجشع إلى تصدق... فاعلم إذا أن التوبة يجب أن تفعل أكثر من كل شئ، لمجرد محبة الله، وإلا كانت عبثا، إني أكلمكم بالتمثيل، كل بناء إذا أزيل أساسه، تساقط خرابا، أصحيح هذا؟ "، فأجاب التلاميذ " إنه لصحيح "، فقال حينئذ يسوع " إن أساس خلاصنا هو الله الذي لا خلاص بدونه، فلما أخطأ الإنسان، خسرا أساس خلاصه، لذلك وجب الابتداء بالأساس!

.. إن الشيطان عدو كل صلاح، لنادم شديد الندم لأنه خسر الجنة وربح الجحيم، ومع ذلك لن يجد رحمة، فهل تعلمون لماذا؟ لأنه ليس عنده محبة لله، بل يبغض خالقه. الحق أقول لكم إن كل حيوان مفطور على الحزن لفقد ما يشتهي من الطيبات، لذلك وجب على الخاطئ النادم ندامة صادقة، أن يرغب كل الرغبة في أن يقتص من نفسه لما صنع، عاصيا لخالقه، حتى أنه متى صلى لا يجسر أن يرجو الجنة من الله، أو أن يعتقه من الجحيم، بل أن يسجد لله مضطرب الفكر ويقول في صلاته " انظر يا رب إلى الأثيم الذي أغضبك بدون أدنى سبب، في الوقت الذي كان يجب عليه أن يخدمك فيه، لذلك يطلب الآن أن تقتص منه لما فعله، بيدك لا بيد الشيطان عدوك، حتى لا يشمت الفجار بمخلوقاتك، أدب واقتص كما تريد يا رب، لأنك لا تعذبني كما يستحق هذا الأثيم، فإذا جرى الخاطئ على هذا الأسلوب، وجد أن رحمة الله تزيد

على نسبة العدل الذي يطلبه، حقا إن ضحك الخاطئ دنس مكروه، حتى أنه يصدق على هذا العالم ما قال أبونا داود من أنه وادي الدموع "... ثم بكى يسوع قائلا " ويل للعالم، لأنه سيحل به عذاب أبدي، ما أتعسك أيها الجنس البشري فإن الله قد اختارك... واهبا إياك الجنة، ولكنك أيها التعيس سقطت تحت غضب الله، بعمل الشيطان، وطردت من الجنة، وحكم عليك بالإقامة في العالم النجس، حيث تنال كل شئ بكدح، وكل عمل صالح لك يحبط بتوالي ارتكاب الخطايا، وإنما العالم يضحك، والذي هو شر من ذلك، أن الخاطئ الأكبر يضحك أكثر من غيره، فسيكون كما قلتم " إن الله يحكم بالموت الأبدي على الخاطئ الذي يضحك لخطاياه ولا يبكي عليها "، إن بكاء الخاطئ يجب أن يكون كبكاء أب على ابن مشرف على الموت، ما أعظم جنون الإنسان الذي يبكي على الجسد إذا فارقته النفس، ولا يبكي على النفس التي فارقتها رحمة الله بسبب الخطيئة. قولوا لي، إذا قدر النوتي الذي كسرت العاصفة سفينته، على أن يسترد بالبكاء كل ما خسر، فماذا يفعل؟ من المؤكد أنه يبكي بمرارة، ولكن أقول لكم حقا إن الإنسان يخطئ في البكاء على أي شئ إلا على خطيئته فقط، لأن كل شقاء يحل بالإنسان، إنما يحل به من الله لخلاصه، حتى أنه يجب عليه أن يتهلل له، ولكن الخطيئة إنما تأتي من الشيطان للعنة الإنسان، ولا يحزن الإنسان عليها، حقا إنكم لا تدركون أن الإنسان إنما يطلب خسارة لا ربحا "! قال برتولوماوس " يا سيد ماذا يجب أن يفعل من لا يقدر أن يبكي، لأن قلبه غريب من البكاء؟ "، أجاب يسوع " ليس كل من يسكب العبرات بباك يا برتولوماوس، لعمر الله يوجد قوم لم تسقط من عيونهم عبرة قط، بكوا أكثر من الذين يسكبون العبرات، إن بكاء الخاطئ هو احتراق هواه العالمي بشدة الأسى، وكما أن نور الشمس يقي ما هو موضوع في الأعلى من التعفن، هكذا يقي هذا الاحتراق النفس من الخطيئة، فلو وهب الله النادم الصادق دموعا قدر ما في البحر من ماء، لتمنى أكثر من ذلك بكثير، ويفنى هذا التمني تلك الفطرة الصغيرة التي يود أن يسكبها،

كما يفنى الأتون الملتهب قطرة من ماء، أما الذين يفيضون بكاء بسهولة فكالفرس الذي تزيد سرعة عدوه كلما خف حمله! إنه ليوجد قوم يجمعون بين الهوى الداخلي والعبرات الخارجية، ولكن من على هذه الشاكلة يكون كأرميا، ففي البكاء يزن الله الحزن أكثر مما يزن العبرات ".

فقال حينئذ يوحنا " يا معلم كيف يخسر الإنسان في البكاء على غير الخطيئة؟ "، أجاب يسوع " إذا أعطاك هيرودس رداء لتحفظه له ثم أخذه بعد ذلك منك، أيكون ذلك باعثا على البكاء؟ "، فقال يوحنا " لا "، فقال يسوع " إذا يكون باعث الإنسان على البكاء، أقل من هذا إذا خسر شيئا أو فاته ما يريد، لأن كل شئ يأتي من يد الله، أليس لله إذا قدرة على التصرف بأشيائه حسبما يريد، أيها الغبي؟ أما أنت فليس لك من ملك سوى الخطيئة فقط، فعليها يجب أن تبكي، لا على شئ آخر "... لأنه بالخطيئة يترك الإنسان خالقه، ولكن كيف يبكي من يحضر مجالس الطرب والولائم، إنه يبكي كما يعطي الثلج نارا! فعليكم أن يحولوا مجالس الطرب إلى صوم إذا أحببتم أن يكون لكم سلطة على حواسكم، لأن سلطة إلهنا هكذا... يتألف الإنسان من ثلاثة أشياء، أي النفس والحس والجسد، كل منها مستقل بذاته (١)... "

(١٤) موت الخاطئ:

إن النفس التي تخطئ تموت، ولكن بالتوبة يحيا صاحبها بمعرفة الله، لذا كان قاتلا من يقدر على تحويل الخاطئ للتوبة بتذكيره، ولم يفعل، وإن أكبر نذير للإنسان وواعظ هو الموت، وإن أكبر مكفر له عن خطاياه هو الندم، " فإنه والله الجد لا اللعب، والحق لا الكذب، وما هو إلا الموت قد أسمع داعيه وأعجل حاديه! أما رأيته الذين يأملون بعيدا، ويبنون مشيدا ويجمعون كثيرا، كيف أصبحت بيوتهم قبورا وما جمعوا بورا، وصارت أموالهم للوارثين وأزواجهم لقوم آخرين، لا في حسنة يزيدون، ولا في سيئة

----

(١) راجع ص ١٥٥ - ١٦٣ من إنجيل برنابا.

يستعتبون، فمن أشعر التقوى قلبه، برز مهله وفاز حمله، فاهتبلوا هبلها واعملوا للجنة عملها، فإن الدنيا لم تخلق لكم دار مقام، بل خلقت لكم مجازا، لتزودوا عملها منها الأعمال، إلى دار القرار (١) ".

ولقد جاء في الفصول من الرابع والتسعين بعد المائة إلى التاسع والتسعين بعد المائة من إنجيل برنابا عن موت الخاطئ:

"... لذلك أذكركم بكلام الله الذي كلم به حزقيال النبي، قائلا " لعمري أنا إلهكم الأبدي! إن النفس التي تخطئ تموت، ولكن إذا تاب الخاطئ لا يموت بل يحيا "، وعليه فإن الموت الحاضر ليس بموت، بل نهاية موت طويل، كما أن الجسد متى انفصل عن الحس في غيبوبة، فليس له ميزة على الميت والمدفون - وإن كانت فيه النفس - سوى أن المدفون ينتظر الله ليقيمه أيضا، والفاقد الشعور ينتظر عود الحس، فانظروا إذا الحياة الحاضرة التي هي موت إذ لا شعور لها بالله! من يؤمن بي لا يموت أبديا، لأنهم بواسطة كلمتي، يعرفون الله، ولذلك يتممون خلاصهم! ما الموت سوى عمل تعمله الطبيعة بأمر الله، كما لو كان أحد ممسكا عصفورا مربوطا وأمسك الخيط في يده، فإذا أراد الرأس انفلات العصفور، فماذا يفعل؟ من المؤكد أنه بالطبع يأمر اليد بالانفتاح، فينفلت العصفور توا، إن نفسنا ما لبث الإنسان تحت حماية الله، هي كما يقول النبي داود - " كعصفور أفلت من شرك الصياد " وحياتنا كخيط تربط فيه النفس إلى جسد الإنسان وحسه، فمتى أراد الله وأمر الطبيعة أن تنفتح، انتهت الحياة وانفلتت النفس إلى أيدي الملائكة الذين عينهم الله لقبض النفوس!.

لذلك لا يجب على الأصدقاء أن يبكوا متى مات صديق، لأن إلهنا أراد ذلك، بل ليبك بدون انقطاع متى أخطأ، لأن النفس تموت إذ تنفصل عن الله وهو الحياة الحقيقية، فإذا كان الجسد بدون اتحاده مع النفس هائلا،

راجع ص ٢٦٨ و ٢٦٩ من نهج البلاغة ج ١.

فإن النفس تكون أشد هولا بدون اتحادها مع الله الذي يحملها ويحييها بنعمته ورحمته "، ولما قال يسوع هذا شكر الله، فقال حينئذ لعازر " يا سيد هذا البيت لله خالقي مع كل ما أعطى لعهدتي لأجل خدمة الفقراء، فإذا كنت فقيرا وكان لك عدد كثير من التلاميذ، تعال واسكن هنا متى شئت وما شئت، فإن خادم الله يخدمك كما يجب، حبا في الله "! لما سمع يسوع هذا سر وقال: " انظروا الآن ما أطيب الموت! إن لعازر مات مرة فقط، وقد تعلم تعليما لا يعرفه أحكم البشر في العالم الذين شاخوا بين الكتب، يا ليت كل إنسان يموت مرة فقط، ويعود للعالم مثل لعازر، ليتعلموا كيف يحبون "، أجاب يوحنا " يا معلم! أيؤذن لي أن أتكلم كلمة؟ "، أجاب يسوع " قل ألفا، لأنه كما يجب على الإنسان أن يصرف أمواله في خدمة الله، هكذا يجب عليه أن يصرف التعليم، بل يكون هذا أشد وجوبا عليه، لأن للكلمة قوة على أن تحمل نفسا على التوبة، على حين أن الأموال لا تقدر أن ترد الحياة للميت، وعليه فإن من له قدرة على مساعدة فقير ثم لم يساعده حتى مات الفقير جوعا، فهو قاتل، ولكن القاتل الأكبر هو من يقدر بكلمة الله على تحويل الخاطئ للتوبة ولم يحوله، بل يقف كما يقول الله " ككلب أبكم "، ففي مثل هؤلاء يقول الله " أيها العبد الخائن، منك أطلب نفس الخاطئ الذي يهلك، لأنك كتمت كلمتي عنه "... تستأذنني يا يوحنا أن تتكلم كلمة وأنت قد أصغيت إلى مائة ألف كلمة من كلامي، الحق أقول لك إنه يجب علي أن أصغى لك عشرة أضعاف ما أصغيت إلي، وكل من لا يصغي إلى غيره فهو يخطئ كلما تكلم، لأنه يجب أن نعامل الآخرين بما نرغب فيه لأنفسنا، وأن لا نعمل للآخرين ما لا نود وصوله إلينا "، حينئذ قال يوحنا " يا معلم! لماذا لم ينعم الله على الناس بأن يموتوا مرة، ثم يرجعوا كما فعل لعازر، ليتعلموا أن يعرفوا أنفسهم وخالقهم! "، أجاب يسوع " ما قولك يا يوحنا في رب بيت أعطى أحد خدمه فأسا صحيحة، ليقطع غابة حجبت منظر بيته، ولكن الفاعل نسي الفأس وقال " لو أعطاني السيد فأسا قديمة، لقطعت الغابة بسهولة "، قل لي يا يوحنا، ماذا

قال السيد؟ حقا إنه حنق وأخذ الفأس القديمة وضربه على الرأس قائلا " أيها الغبي الخبيث! لقد أعطيتك فأسا تقطع بها الغابة بدون كد، أفتطلب الآن هذه الفأس التي يضطر معها المرء إلى كد عظيم، وكل ما يقطع بها يذهب سدى ولا ينفع لشئ؟ إني أريد أن تقطع الخشب على طريقة يكون معها عملك حسنا، أليس هذا بصحيح؟ "، أجاب يوحنا " إنه لصحيح كل الصحة "، حينئذ قال يسوع " يقول الله: لعمري أنا الأبدي، إني أعطيت فأسا جيدة لكل إنسان وهي منظر دفن الميت، فمن استعمل هذه الفأس جيدا، أزالوا غابة الخطيئة من قلوبهم بدون ألم، فهم لذلك ينالون نعمتي وأجزيهم الحياة الأبدية بأعمالهم الصالحة، ولكن من ينسى أنه فإن مع أنه يرى المرة بعد المرة غيره يموت، فيقول لو أتيح لي رؤية الحياة الأخرى، لعملت أعمالا صالحة! فإن غضبي يحل عليه، ولأضربنه بالموت، حتى لا ينال خيرا فيما بعد "، ثم قال يسوع " يا يوحنا! ما أعظم مزية من يتعلم من سقوط الآخرين، كيف يقف على رجليه! ".

حينئذ قال لعازر " يا معلم! الحق أقول لك إني لا أقدر أن أدرك العقوبة التي يستحقها من يرى المرة بعد المرة الموتى تحمل إلى القبر، ولا يخاف الله خالقنا، فإن مثل هذا لأجل الأشياء العالمية التي يجب عليه تركها بالمرة، يغضب خالقه الذي منحه كل شئ "، فقال حينئذ يسوع لتلاميذه " تدعونني معلما وتعملون حسنا، لأن الله يعلمكم بلساني، وكيف تدعون لعازر؟ حقا إنه هنا لمعلم كل المعلمين الذين يثون تعليما في هذا العالم، نعم وإنني علمتكم كيف يجب أن تعيشوا حسنا، وأما لعازر فيعلمكم كيف تموتون حسنا، لعمر الله إنه قد نال موهبة النبوة، فاصغوا إذا لكلامه الذي هو حق، ويجب أن تكونوا أشد إصغاء إليه بالأحرى، لأن العيشة الجيدة عبث إذا مات الإنسان ميتة رديئة "، قال لعازر " يا معلم أشكر لك أنك تجعل الحق يقدر قدره، لذلك يعطيك الله أجرا عظيما "، حينئذ قال الذي يكتب هذا " يا معلم كيف يقول لعازر الحق بقوله لك " ستنال أجرا " مع أنك قلت لنيقوديموس: إن الإنسان لا يستحق شيئا سوى العقوبة؟ أفيقاصك الله إذا؟ "، أجاب

يسوع " عساني أن أنال من الله قصاصا في هذا العالم، لأني لم أخدمه بإخلاص كما كان يجب علي أن أفعل، ولكن الله أحبني برحمته، حتى أن كل عقوبة رفعت عني، بحيث أني أعذب في شخص آخر (١)... لذلك أقول لك يا برنابا إنه متى تكلم إنسان عما سيهب الله لقريبه، فليقل إن قريبه يستأهله، ولكن لينظر متى تكلم عما سيعطيه الله إياه، أن يقول " إن الله سيهب لي "، ولينظر جيدا أن لا يقول " إني أستأهله " لأن الله يسر أن يمنح رحمة لعبيده، متى اعترفوا أنهم يستأهلون الجحيم، لأجل خطاياهم! إن الله لغني برحمته، حتى أن دمعة واحدة ممن ينوح لإغضابه الله، تطفئ الجحيم كله بالرحمة العظيمة التي يمده الله بها، على أن مياه ألف بحر لو وجدت، لا تكفي لإطفاء شرارة من لهب الجحيم، فلذلك يريد الله خذلا للشيطان، وإظهارا لجوده هو، أن يحسب في حضرة رحمته كل عمل صالح، أجرا لعبده المخلص، ويحب معه أن يعامل غيره هكذا، أما الإنسان في خاصة نفسه، فعليه أن يحذر من قول " لي أجر " لأنه يدان (٢) "!

(١٥) حب التائب لله:

يفرح ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب، لأن التائب يظهر رحمة الله،

" وإن من استنصح الله وفق، ومن اتخذ قوله دليلا هدي للتي هي أقوم، فإن جار الله آمن، وعدو الله خائف، وإنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعظم، فإن رفعة الذين يعرفون ما عظمته أن يتواضعوا له، وسلامة الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له، فلا تنفروا من الحق، واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد، حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله، فإنهم عيش العلم وموت الجهل هم الذين يخبركم حكمهم عن عملهم، وصمتهم

----

(١) يشير إلى ما سيلقى يهوذا الخائن.

(٢) راجع ص ٢٩٠ - ٢٩٥ من إنجيل برنابا.

عن منطقهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق (١) "!

ولقد جاء في الفصلين الواحد بعد المائتين والثاني بعد المائتين من إنجيل برنابا عن حب الخاطئ التائب لله:

" حينئذ اجتمع الكتبة والفريسيون، فقال لهم يسوع " قولوا لي! لو كان لأحدكم مائة خروف وأضاع واحدا منها، ألا ينشده تاركا التسعة والتسعين؟ ومتى وجدته، ألا تضعه على منكبيك؟ وبعد أن تدعو الجيران، تقول لهم " افرحوا معي، لأني وجدت الخروف الذي فقدته " حقا إنك تفعل هكذا ألا قولوا لي، أيحب الله الإنسان أقل من ذلك؟ وهو لأجله خلق العالم، لعمر الله هكذا يكون فرح في حضرة ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب، لأن الخطاة يظهرون رحمة الله! قولوا لي من هو أشد حبا للطبيب، الذين لم يمرضوا مطلقا، أم الذين شفاهم الطبيب من أمراض خطرة؟ " قال له الفريسيون " كيف يحب الصحيح الطبيب؟ حقا إنما يحبه لأنه ليس بمريض، ولما لم تكن له معرفة بالمرض، لا يحب الطبيب إلا قليلا "، حينئذ تكلم يسوع بحدة الروح قائلا " لعمر الله إن لسانكم يدين كبرياءكم، لأن الخاطئ التائب يحب إلهنا أكثر من البار، لأنه يعرف رحمة الله العظيمة له، لأنه ليس للبار معرفة برحمة الله ولذلك يكون الفرح عند ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب، أكثر من تسعة وتسعين بارا! أين الأبرار في زمننا؟ لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن عدد الأبرار غير الأبرار لعظيم، لأن حالهم شبيهة بحال الشيطان "، أجاب الكتبة والفريسيون " إننا خطاة، لذلك يرحمنا الله "، وهم إنما قالوا هذا ليجربوه، لأن الكتبة والفريسين يحسبون أكبر إهانة أن يدعوا خطاة، فقال حينئذ يسوع " إني أخشى أن تكونوا أبرارا غير أبرار، فإنكم إذا كنتم قد أخطأتم وتنكرون خطيئتكم، داعين أنفسكم أبرارا، فأنتم غير أبرار وإذا كنتم تحسبون أنفسكم في قلوبكم أبرارا وتقولون بلسانكم إنكم خطاة، فتكونون إذا أبرارا غير أبرار مرتين "، فلما سمع الكتبة والفريسيون هذا، تحيروا وانصرفوا تاركين يسوع وتلاميذه في سلام (٢)... "

---

(١) راجع ص ٢٨٥ و ٢٨٦ من نهج البلاغة ج ١.

(٢) راجع ص ٢٩٨ و ٢٩٩ من إنجيل برنابا.

الفصل الثاني
ما يجب فعله
للحصول على الحياة الأبدية
في إنجيل برنابا

" الحمد لله الواصل الحمد بالنعم، والنعم بالشكر، نحمده على آلائه، كما نحمده على بلائه، ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب، ووقف على المولود، إيمانا نفي إخلاصه الشرك ويقينه الشك، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وسلم، شهادتين تصعدان القول وترفعان العمل، لا يخف ميزان توضعان فيه، ولا يثقل ميزان ترفعان عنه (١) "

" رحم الله امرأ سمع حكما فوعى، ودعي إلى رشاد فدنى، وأخذ بحجزة هاد فنجا، راقب ربه وخاف ذنبه، قدم خالصا وعمل صالحا، اكتسب مذخورا واجتنب محذورا، رمى غرضا وأحرز عوضا، كابر هواه وكذب مناه، جعل الصبر مطية نجاته، والتقوى عدة وفاته، ركب الطريقة الغراء، ولزم المحجة البيضاء، اغتنم المهل، وبادر الأجل، وتزود من العمل (٢) "!

وبعد: فسنتحدث في هذا الفصل عن قول يسوع عليه السلام فيما يجب فعله للحصول على الحياة الأبدية، ووجوب أن يفرح الخاطئ بقادحيه وأن يهرب الإنسان من الولائم والتنعم، وأن يرتد عن الحياة الشريرة، وإذا حكم أن يحكم بالعدل، وأن يعمل بالحق إذا عرفه، وإذا عرف الخير أن يعمله، وأن يشجع من يعمل ويقول حسنا، لأن مآله إلى الموت وإلى الأبدية، فإما إلى جنة أو إلى نار!

---

(١) راجع ص ٢٤٠ و ٢٤١ من نهج البلاغة ج ١.
(٢) راجع ص ١٣٦ و ١٣٧ من نهج البلاغة ج ١.

" ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر، فالشرك بالله، قال الله " إن الله لا يغفر أن يشرك به "، وأما الظلم الذي يغفر، فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات (١) وأما الظلم الذي لا يترك، فظلم العباد بعضهم بعضا، القصاص هناك شديد، ليس هو جرحا بالمدي ولا ضربا بالسياط، ولكنه ما يستصغر ذلك معه، فإياكم والتلون في دين الله، فإن جماعة فيما تكرهون من الحق، خير من فرقة فيما تحبون من الباطل، وإن الله سبحانه لم يعط أحدا بفرقة خيرا ممن مضى ولا ممن بقي (٢) "!

ولقد جاء في الفصل الثلاثين من إنجيل برنابا ما يجب فعله للحصول على الحياة الأبدية:

" وذهب يسوع إلى أورشليم... جاء إليه فقيه قائلا: يا معلم! ماذا يجب أن أفعل لأحصل على الحياة الأبدية؟ "، أجاب يسوع " كيف كتب في الناموس؟ " أجاب قائلا " أحب الرب إلهك، وقريبك، أحب إلهك فوق كل شئ بقلبك وعقلك، وقريبك كنفسك "، أجاب يسوع " أجبت حسنا، وإني أقول لك، اذهب وافعل هكذا، تكن لك الحياة الأبدية (٣)... "

(١) امتهان الجسد:

يجب على الإنسان ليعيش في أمان، أن يحفظ جسده كفرس، ولا يجعله يعترض سبيله في خدمة الله، إذ أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة!

(ا) ولقد جاء في الفصل الخامس والعشرين من إنجيل برنابا كيف يجب على الإنسان أن يحتقر الجسد ويعيش في العالم:

---

(١) بفتح الهاء جمع هنة محركة: الشئ اليسير والعمل الحقير، والمراد صغائر الذنوب

(٢) راجع ص ٣٥١ و ٣٥٢ من نهج البلاغة ج ١.

(٣) راجع ص ٤٥ و ٤٦ من إنجيل برنابا. وبريد القريب الذي أظهر الرحمة كما يقول في آخر الفصل.

" قال الكاتب " يا معلم إن كلامك حق، ولذلك قد تركنا كل شئ لنتبعك، فقل لنا إذا كيف يجب علينا أن نبغض جسدنا! الانتحار غير جائز، ولما كنا أحياء وجب علينا أن نقيته! أجاب يسوع: احفظ جسدك كفرس، تعش في أمان، لأن القوت يعطى للفرس بالمكيال، والشغل بلا قياس، ويوضع اللجام في فمه ليسير بحسب إرادتك، ويربط لكيلا يزعج أحدا، ويحبس في مكان حقير، ويضرب إذا عصى، فهكذا أفعل إذا أنت يا برنابا، تعش دواما مع الله! ولا يغيظنك كلامي، لأن داود النبي (١) فعل هذا الشئ نفسه كما يعترف قائلا " إني كفرس عندك وإني دائما معك " ألا قل لي أيهما أفقر؟ الذي يقنع بالقليل، أم الذي يشتهي الكثير؟ الحق أقول لكم، لو كان للعالم عقل سليم لم يجمع أحد شيئا لنفسه، بل كان كل شئ شركة، ولكن بهذا يعلم جنونه، إنه كلما جمع، زاد رغبة، وإن ما يجمعه، فإنما يجمعه لراحة الآخرين الجسدية، فليكفكم إذا ثوب واحد، ارموا كيسكم، لا تحملوا مزودا ولا حذاء في أرجلكم، لا تفكروا قائلين ماذا يحدث لنا، بل فكروا أن تفعلوا إرادة الله، وهو يقدم لكم حاجتكم، حتى لا تكونوا في حاجة إلى شئ " الحق أقول لكم إن الجمع كثيرا في هذه الحياة، يكون شهادة أكيدة على عدم وجود شئ يؤخذ في الحياة الأخرى، لأن من كانت أورشليم وطنا له، لا يبني بيوتا في السامرة، لأنه توجد عداوة بين المدينتين (٢) "!

---

(١) كان سليمان عليه السلام أعظم فلاسفة اليهود، ولذا سموه بالحكيم، وكان ملكا نبيا، وكانت فلسفته قاصرة على الزهد والورع والتقوى، مع أقوال الحكمة التي نطق بها بعد أن اختبر بنفسه حلو الدهر ومره، ونال من دنياه ما ليس بعده مطمع لطامع، ثم رأى أن ذلك كله قد انقضى وزال، ولذلك افتتح كلامه الفلسفي بقوله " باطلة الأباطيل، وكل شئ على وجه الأرض باطل "، وقد ضم سفر سليمان إلى التوراة بعنوان نشيد الإنشاد، على أن أباه داود عليه السلام أقدر منه بالشر، ويجب الإيمان بزبور داود، وهو آية آيات البلاغة. راجع ص ٢٩ من خواطر في الإسلام ج ١ للمرحوم الأستاذ عطا حسني.
(٢) راجع ص ٣٥ و ٣٦ من إنجيل برنابا.

(ب) وجاء في الفصلين الثاني والعشرين والثالث والعشرين من إنجيل برنابا عن أصل الختان وعهد الله مع إبراهيم ولعنه الغلف، وفيه ذكر نشاط الروح في خدمة الله:

" قال التلاميذ: قل لنا يا معلم، لأي سبب، يجب على الإنسان الختان؟

فأجاب يسوع: يكفيكم أن الله أمر به إبراهيم قائلا يا إبراهيم! اقطع غرلتك وغرلة كل بيتك، لأن هذا عهد بيني وبينك إلى الأبد "!

" جلس يسوع قريبا من الجبل الذي كانوا يشرفون عليه، فجاء تلاميذه إلى جانبه، ليصغوا إلى كلامه، حينئذ قال يسوع: إنه لما أكل آدم الإنسان الأول، الطعام الذي نهاه الله عنه في الفردوس مخدوعا من الشيطان، عصى جسده الروح، فأقسم قائلا " بالله لأقطعنك "، فكسر شظية من صخر وأمسك جسده (١) ليقطعه بحد الشظية، فوبخه الملاك جبريل على ذلك، فأجاب " لقد أقسمت بالله أن أقطعه، فلا أكون حانثا "، حينئذ أراه الملاك زائدة جسده، فقطعها، فكما أن جسد كل إنسان من جسد آدم، وجب عليه أن يراعي كل عهد أقسم آدم ليقومن به، وحافظ آدم على فعل ذلك في أولاده، فتسلسلت سنة الختان من جيل إلى جيل، إلا أنه لم يكن في زمن إبراهيم سوى النزر القليل من المختونين على الأرض، وعليه فقد أخبر الله إبراهيم بحقيقة الختان وأثبت هذا العهد قائلا (النفس التي لا تختن جسدها، إياها أبدد من بين شعبي إلى الأبد)، فارتجف التلاميذ خوفا من كلمات يسوع لأنه تكلم باحتدام الروح، ثم قال يسوع " دعوا الخوف للذي لم يقطع غرلته، لأنه محروم من الفردوس "، وإذ قال هذا تكلم يسوع أيضا قائلا: إن الروح في كثيرين، نشيط في خدمة الله، أما الجسد فضعيف، فيجب على من يخاف الله أن يتأمل ما هو الجسد وأين كان أصله وأين مصيره؟! من طين الله خلق الله الجسد، وفيه نفخ نسمة الحياة بنفخة فيه، فمتى اعترض الجسد خدمة الله، يجب أن يمتهن ويداس كالطين، لأن من يبغض نفسه في هذا العالم، يجدها في الحياة الأبدية! أما ماهية الجسد الآن،

---

(١) الجسد هنا كناية عن الإحليل.

فواضح من رغائبه أنه العدو الألد لكل صلاح، فإنه وحده يتوق إلى الخطيئة! أيجب إذا على الإنسان مرضاة لأحد أعدائه أن يترك مرضاة الله خالقه؟! تأملوا هذا، إن كل القديسين والأنبياء، كانوا أعداء جسدهم لخدمة الله، لذلك جروا بطيب خاطر إلى حتفهم، لكيلا يتعدوا شريعة الله المعطاة لموسى عبده ويخدموا الآلهة الباطلة الكاذبة! اذكروا إيليا الذي هرب جائبا قفار الجبال، مقتاتا بالعشب ومرتديا جلد المعز! أواه، كم من يوم لم يأكل! أواه ما أشد البرد الذي احتمله! أواه كم من شؤبوب بلله! ولقد عانى مدة سبع سنين شظف اضطهاد تلك المرأة النجسة إيزابل! اذكروا أليشع الذي أكل خبز الشعير، ولبس أخشن الثياب! الحق أقول لكم إنهم إذ لم يخشوا أن يمتهنوا الجسد، روعوا الملوك والرؤساء، وكفى بهذا امتهانا للجسد! أيها القوم إذا نظرتم إلى القبور، تعلمون ما هو الجسد (١) "!

(ج) وجاء في الفصل الرابع والعشرين من إنجيل برنابا مثل جلي لكيف يجب على الإنسان أن يهرب من الولائم والتنعم:

" ولما قال يسوع ذلك، بكى، قائلا: الويل للذين هم خدمة أجسادهم، لأنهم حقا لا ينالون خيرا في الحياة الأخرى، بل عذابا لخطاياهم! أقول لكم إنه كان نهم غني لم يهمه سوى النهم، وكان يؤلم وليمة عظيمة كل يوم، وكان واقفا على بابه قصير يدعى لعازر وهو ممتلئ قروحا، ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة النهم، ولكنه لم يعطه أحد إياه، بل سخر به الجميع، ولم يتحنن عليه إلا الكلاب، لأنها كانت تلحس قروحه، وحدث أن مات الفقير واحتملته الملائكة إلى ذراعي إبراهيم أبينا، ومات الغني أيضا واحتملته الشياطين إلى ذراعي إبليس، حيث عانى أشد العذاب، فرفع عينيه ورأى لعازر من بعيد على ذراعي إبراهيم، فصرخ حينئذ الغني " يا أبتاه إبراهيم ارحمني! وابعث لعازر ليحمل على أطراف بنانه قطرة ماء تبرد لساني الذي يعذبه هذا اللهيب "، فأجاب إبراهيم " يا بني! أذكر أنك استوفيت طيباتك في حياتك، ولعازر

---

(١) راجع ص ٣٠ - ٣٣ من إنجيل برنابا.

البلايا، لذلك أنت الآن في الشقاء وهو في العزاء "، فصرخ الغني أيضا " يا أبتاه إبراهيم! إن لي في بيت أمي ثلاثة إخوة، فأرسل إذا لعازر ليخبرهم بما أعانيه لكي يتوبوا ولا يأتوا إلى هنا "، فأجاب إبراهيم " عندهم موسى والأنبياء، فليسمعوا منهم "، أجاب الغني " كلا يا أبتاه إبراهيم، بل إذا قام واحد من الأموات، يصدقون "، فأجاب إبراهيم " إن من لا يصدق موسى والأنبياء، لا يصدق الأموات، ولو قاموا "، وقال يسوع " انظروا أليس الفقراء الصابرون مباركين، الذين يشتهون ما هو ضروري فقط، كارهين الجسد، ما أشقى الذين يحملون الآخرين للدفن، ليعطوا أجسادهم طعاما للدود ولا يتعلمون الحق، بل هم بعيدون عن ذلك بعدا عظيما، حتى أنهم يعيشون هنا كأنهم خالدون، لأنهم يبنون بيوتا كبيرة، ويشترون أملاكا كثيرة، ويعيشون في الكبرياء (١) "

(٢) الارتداد عن الحياة الشريرة:

يستحيل على الناس أن يحبوا الله والعالم، أو أن يخدموا الله والعالم " آثروا عاجلا، وأخروا آجلا، وتركوا صافيا، وشربوا آجنا، فأني أنظر إلى فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه وبسئ به ووافقه، حتى شابت عليه مفارقه، وصبغت به خلائقه ثم أقبل مزبدا كالتيار، لا يبالي ما غرق أو كوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرق، أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى، والأبصار اللامحة إلى منار التقوى، التي وهبت لله وعوقدت على طاعة الله، ازدحموا على الحكام وتشاحنوا على الحرام، ورفع لهم علم الجنة والنار، فصرفوا عن الجنة وجوههم، وأقبلوا إلى النار بأعمالهم، ودعاهم ربهم فنفروا، ودعاهم الشيطان فاستجابوا وأقبلوا (٢) "!

ولقد جاء في الفصل السادس عشر من إنجيل برنابا التعاليم العجيبة التي علمها المسيح لتلاميذه بشأن الإرتداد عن الحياة الشريرة:

----

(١) راجع ص ٣٣ و ٣٤ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٢٨١ و ٢٨٢ من نهج البلاغة ج ١.

" جمع يسوع ذات يوم تلاميذه وصعدوا إلى الجبل، فلما جلس هناك،
دنا منه التلاميذ، ففتح فاه وعلمهم قائلا: عظيمة هي النعم التي أنعم بها الله علينا فترتب علينا من ثم أن نعبده بإخلاص قلب... الحق أقول لكم، كما أنه لا يتأنى للإنسان أن ينظر بعينه إلى السماء والأرض معا في وقت واحد، فكذلك يستحيل عليه أن يحب الله والعالم، لا يقدر رجل أبدا أن يخدم سيدين أحدهما عدو للآخر، لأنه إذا أحبك أحدهما، أبغضك الآخر، فكذلك أقول لكم حقا، إنكم لا تقدرون أن تخدموا الله والعالم، لأن العالم موضوع في النفاق والجشع والخبث، لذلك لا تجدون راحة في العالم، بل تجدون بدلا منها اضطهادا وخسارة، إذا فاعبدوا الله واحتقروا العالم، إذ متى تجدون راحة لنفوسكم،
أصيخوا السمع لكلامي لأني أكلمكم بالحق! طوبى للذين ينوحون على هذه الحياة، لأنهم يتعزون! طوبى للمساكين الذين يعرضون حقا عن ملاذ العالم، لأنهم سيتنعمون بملاذ ملكوت الله! طوبى للذين يأكلون على مائدة الله، لأن الملائكة ستقوم على خدمتهم! أنتم مسافرون كسياح، أيتخذ السائح لنفسه على الطريق قصورا وحقولا وغيرها من حطام العالم؟! كلا ثم كلا! ولكنه يحمل أشياء خفيفة ذات فائدة وجدوى في الطريق، فليكن هذا مثلا لكم، وإذا أحببتم مثلا آخر، فإني أضربه لكم، لكي تفعلوا كل ما أقول لكم!
لا تثقلوا قلوبكم بالرغائب العالمية قائلين من يكسونا أو من يطعمنا، بل انظروا الزهور والأشجار مع الطيور التي كساها وغذاها الله ربنا بمجد أعظم من مجد سليمان، والله الذي خلقكم ودعاكم إلى خدمته، هو قادر أن يغذيكم، الذي أنزل المن من السماء على شعبه إسرائيل، في البرية أربعين سنة، وحفظ أثوابهم من أن تعتق أو تبلى، أولئك الذين كانوا ستمائة وأربعين ألف رجل، خلا النساء والأطفال، الحق أقول لكم إن السماء والأرض تهنان، بيد أن رحمته لا تهن للذين يتقونه!
أغنياء العالم هم على رخائهم جياع، وسيهلكون! كان غني ازدادت ثروته، فقال ماذا أفعل يا نفسي، إني أهدم أهرائي لأنها صغيرة وأبني أخرى جديدة أكبر منها، فتظفرين بمناك يا نفسي!

إنه لخاسر، لأنه في تلك الليلة توفي، ولقد كان يجب عليه العطف على المسكين، وأن يجعل لنفسه أصدقاء من صدقات أموال الظلم في هذا العالم، لأنها تأتي بكنوز في عالم السماء، وقولوا لي من فضلكم إذا وضعتم دراهمكم في مصرف عشار، فأعطاكم عشرة أضعاف وعشرين ضعفا، أفلا تعطون رجلا كهذا كل ما لكم (١)، ولكن الحق أقول إنكم مهما أعطيتم وتركتم لأجل محبة الله، فستستردونه مائة ضعف مع الحياة الأبدية، فانظروا إذا كم يجب عليكم أن تكونوا مسرورين في خدمة الله (٢) "!

(٣) القضاء بالعدل:

يجب أن يحكم الإنسان على عمل غيره بالعدل، فلا يمدح إلا الخير ولا يذم إلا الشر، فإن الباطل هو رأس كل الخطايا، فمن نصره كان آثما سواء أكان قاضيا أم غير قاض، وهو إن كان قاضيا أشد إثما، ومن هؤلاء من يعرف الحق ويعمل عكسه، أو يعرف الخير ويعمل الشر، وكذلك من يحاول منع من يفعل حسنا أو يتكلم حسنا! " لا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشنك إلا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأحبوك، ولو قرضت منها لأمنوك (٣) "
" أما إنه ليس بين الباطل والحق إلا أربع أصابع، الباطل أن تقول سمعت والحق أن تقول رأيت (٤) "، " وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين، البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب

---

(١) هذا ليس تبريرا للربا، بل مجرد فرض للتمثيل بالتضعيف، لأنه كان يحارب العشارين والمرابين.
(٢) راجع ص ١٨ - ٢٠ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٢٦٦ من نهج البلاغة ج ١.
(٤) راجع ص ٢٧٨ من نهج البلاغة ج ١ وسئل علي بن أبي طالب عن معنى قوله أربع أصابع، فجمع بين أصابعه ووضع بين أذنه وعينه.

بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة، فيهلك الأمة (١).
" وإن أفضل الناس عند الله، من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه وكرثه، من الباطل، وإن جر إليه فائدة وزاده (٢) "، " ألا وإن شرائع الدين واحدة وسبله قاصدة، من أخذ بها لحق وغنم، ومن وقف عنها ضل وندم " (٣) " فإنما البصير من سمع فتفكر، ونظر فأبصر وانتفع بالعبر، ثم سلك جددا واضحا، يتجنب فيه الصرعة في المهاوي والضلال في المغاوي، ولا يعين على نفسه الغواة، بتعسف في حق أو تحريف في نطق أو تخوف من صدق (٤) "، وليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه " (٥)، " ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها، فأوردتهم الجنة، حق وباطل، ولكل أهل، فلئن أمر الباطل، لقديما فعل، ولئن قل الحق، فلربما ولعل، ولقلما أدبر شئ، فأقبل " (٦)!
(ا) ولقد جاء في الفصلين التاسع والأربعين والخمسين من إنجيل برنابا عن القضاء بالعدل:
" قرأ الكتبة في ذلك اليوم مزمور داود، حيث يقول " متى وجدت وقتا، أقضي بالعدل "، وبعد قراءة الأنبياء، انتصب يسوع وأومأ إيماء السكوت بيديه وفتح فاه، وتكلم هكذا: أيها الإخوة! لقد سمعتم الكلام الذي تكلم به النبي داود أبونا، أنه متى وجد وقتا، قضى بالعدل، إني أقول لكم حقا إن كثيرين يقضون فيخطئون، وإنما يخطئون فيما لا يوافق أهواءهم، وأما ما يوافقها فيقضون به قبل وقته، كذلك ينادينا إله آبائنا على لسان نبيه داود، قائلا:

---

(١) راجع ص ٢٦٧ من نهج البلاغة ج ١.
(٢) راجع ص ٢٥٩ من نهج البلاغة ج ١.
(٣) راجع ص ٢٥١ من نهج البلاغة ج ١.
(٤) راجع ص ٢٩١ من نهج البلاغة ج ١.
(٥) راجع ص ١١٧ من نهج البلاغة ج ١.
(٦) راجع ص ٤٤ من نهج البلاغة ج ١.

اقضوا بالعدل يا أبناء الناس، فما أشقى أولئك الذين يجلسون على منعطفات الشوارع، ولا عمل لهم إلا الحكم على المارة قائلين " ذلك جميل! وهذا قبيح! ذلك حسن " وهذا ردئ "، ويل لهم لأنهم يرفعون قضيب الدينونة من يد الله الذي يقول " إني شاهد وقاض، ولا أعطي مجدي لأحد "، الحق أقول لكم إن هؤلاء يشهدون بما لم يروا ولم يسمعوا قط، ويقضون دون أن ينصبوا قضاة، وإنهم لذلك مكروهون على الأرض أمام عين الله الذي سيدينهم دينونة رهيبة في اليوم الآخر، ويل لكم! ويل لكم أنتم الذين تمدحون الشر وتدعون الشر خيرا.. فتأملوا أي قصاص يحل بكم، وإن الوقوع في دينونة الله مخوف، وستحل حينئذ على أولئك الذين يبررون الأثيم لأجل النقود، ولا يقضون في دعوى اليتامى والأرامل، الحق أقول لكم إن الشياطين سيقشعرون من دينونة هؤلاء " لأنها ستكون رهيبة جدا، أيها الإنسان المنصوب قاضيا، لا تنظر إلى شئ آخر، لا إلى الأقرباء ولا إلى الأصدقاء ولا إلى الشرف ولا إلى الربح، بل انظر فقط بخوف الله إلى الحق الذي يجب عليك أن تطلبه باجتهاد عظيم، لأنه يقيك دينونة الله، ولكني أنذرك أن من يدين بدون رحمة، يدان بدون رحمة ".

" قل لي أيها الإنسان الذي تدين غيرك، ألا تعلم أن منشأ كل البشر من طينة واحدة، ألا تعلم أنه لا يوجد أحد صالح إلا الله وحده، لذلك كان كل إنسان كاذبا وخاطئا! صدقني أيها الإنسان أنك إذا كنت تدين غيرك على ذنب، فإن في قلبك منه ما تدان عليه، ما أشد القضاء خطرا، ما أكثر الذين هلكوا بقضائهم الجائر، فإن الشيطان حكم على الإنسان بأنه أنجس منه، لذلك عصى الله خالقه تلك المعصية التي لم يتب عنها... وقد حكم أبوانا الأولان بحسن حديث الشيطان، فطردا لذلك من الجنة، وقضيا على كل نسلهما، الحق أقول لكم، لعمر الله الذي أقف في حضرته، إن الحكم الباطل هو أبو كل الخطايا، لأنه لا أحد يخطئ بدون إرادة، ولا أحد يريد ما لا يعرف، وويل إذا للخاطئ الذي يحكم في قضائه بأن الخطيئة صالحة

والصلاح فساد، الذي يرفض لذلك السبب الصلاح ويختار الخطيئة، إنه سيحل به قصاص لا يطاق متى جاء الله ليدين العالم، ما أكثر الذين هلكوا بسبب القضاء الجائر، وما أكثر الذين أوشكوا أن يهلكوا، قضى فرعون على موسى وشعوب إسرائيل بالكفر، وقضى شاول على داود بأنه مستحق للموت، وقضى أخاب على إيليا ونبوخذنصر على الثلاثة الغلمان الذين لم يعبدوا آلهتهم الكاذبة، وقضى الشيخان على سوسنة، وقضى كل الرؤساء عبدة الأصنام على الأنبياء، ما أرهب قضاء الله! يهلك القاضي وينجو المقضى عليه، ولماذا هذا أيها الإنسان إن لم يكن لأنهم يحكمون على البرئ ظلما بالطيش، ما كان أشد قرب الصالحين من الهلاك لأنهم حكموا باطلا، يتبين ذلك من قصة إخوة يوسف الذين باعوه حكما على أخيهما، وثلاثة من أصدقاء أيوب، حكموا على خليل الله البرئ أيوب، وداود قضى على مغيبوشت وأوريا وقضى كورش بأن يكون دانيال طعاما للأسود، وكثيرون آخرون أشرفوا على الهلاك بسبب هذا، أقول لكم لا تدينوا فلا تدانوا "!

فلما أنجز يسوع كلامه، تاب كثيرون نائحين على خطاياهم وودوا لو يتركون كل شئ ويتبعونه، ولكن يسوع قال ابقوا في بيوتكم واتركوا الخطيئة واعبدوا الله بخوف، فبهذا تخلصون، لأني لم آت لأخدم بل لأخدم " ولما قال هذا خرج من المجمع والمدينة، وانفرد في الصحراء ليصلي، لأنه كان يحب العزلة كثيرا (١).

(ب) وجاء في الفصل الرابع والستين من إنجيل برنابا عن اضطهاد الخاطئ:

" لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن الخاطئ لمريض العقل، متى اضطهد إنسانا، فقولوا لي أيشج أحد رأسه لتمزيق رداء عدوه؟ فكيف يكون صحيح العقل من يفصل عن الله رأس نفسه، ليضر جسد عدوه! قل لي أيها الإنسان من هو عدوك؟ إنما هو جسدك وكل من يمدحك، فكذلك لو كنت صحيح العقل لقبلت يد الذين يعيرونك، وقدمت هدايا للذين

----

(١) راجع ص ٧٧ – ٨١ من إنجيل برنابا.

يضطهدونك ويوسعونك ضربا، ذلك أيها الإنسان، لأنك كلما عيرت
واضطهدت في هذه الحياة، لأجل خطاياك، قل لذلك عليك في يوم الدين،
ولكن قل لي أيها الإنسان إذا كان العالم قد اضطهد وثلم صيت القديسين
وأنبياء الله وهم أبرار، فماذا يفعل بك أيها الخاطئ؟ وإذا كانوا قد احتملوا
كل شئ بصبر مصلين لأجل مضطهديهم، فماذا تفعل أنت أيها الإنسان الذي
يستحق الجحيم! قولوا لي يا تلاميذي، ألا تعلمون أن شمعاي لعن عبد الله
داود النبي ورماه بالحجارة، فماذا قال داود للذين ودوا أن يقتلوا شمعاي؟
ماذا يعنيك يا أيوب حتى أنك تود أن تقتل شمعاي، دعه يلعني، لأن هذه
إرادة الله، الذي سيحول هذه اللعنة إلى بركة، وهكذا كان، لأن الله رأى
صبر داود وأنقذه من اضطهاد ابنه أبشالوم.
حقا لا تتحرك دوحة بدون إرادة الله، فإذا كنت في ضيق، فلا تفكر
في مقدار ما احتملت، ولا فيمن أصابك بمكروه، بل تأمل كم تستحق أن
يصيبك على يد الشياطين في الجحيم بسبب خطاياك، إنكم حانقون على هذه
المدينة، لأنها لم تقبلنا ولم تبع لنا خبزا، قولوا لي أهؤلاء القوم عبيدكم؟
أوهبتموهم هذه المدينة! أوهبتموهم حنطتهم؟ أو ساعدتموهم في حصادها؟
كلا ثم كلا، لأنكم غرباء في هذه البلاد وفقراء فما هو إذا هذا الشئ الذي
تقوله؟ " فأجاب التلميذان " يا سيد إننا أخطأنا، فليرحمنا الله "، فأجاب يسوع
" ليكن كذلك (١) "!

(ج) وجاء في الفصل السابع والسبعين من إنجيل برنابا عن جزاء من
يعرف الحق ويعمل عكسه:
" الحق أقول لكم إن كثيرين سيقولون لله يوم الدينونة " يا رب لقد
بشرنا وعلمنا بشريعتك "، ولكن الحجارة نفسها ستصرخ ضدهم قائلة " لما كنتم
قد بشرتم الآخرين، فبلسانكم قد أدنتم أنفسكم، يا فأعلى الإثم "!
قال يسوع " لعمر الله إن من يعرف الحق ويفعل عكسه يعاقب عقابا

---

(١) راجع ص ١٠٠ و ١٠١ من إنجيل برنابا.

أليما حتى تكاد الشياطين ترثى له، ألا قولوا أللعلم أم للعمل أعطانا الله الشريعة؟ الحق أقول لكم إن غاية كل علم، هي تلك الحكمة التي تفعل كل ما تعلم! قولوا لي إذا كان أحد جالسا على المائدة، ورأى بعينيه طعاما شهيا، ولكنه اختار بيديه أشياء قذرة فأكلها، ألا يكون مجنونا؟ "، فقال التلاميذ " بلى البتة "، حينئذ قال يسوع " إنك لأنت أشد جنونا من كل المجانين أيها الإنسان الذي تعرف السماء بإدراكك وتختار الأرض بيديك، الذي تعرف الله بإدراكك وتشتهي العالم بهواك، الذي تعرف ملذات الجنة بإدراكك، وتختار بأعمالك شقاء الجحيم، إنك لجندي باسل يا من تنبذ الحسام وتحمل الغمد لتحارب! ألا تعلمون أن من يسير في الظلام يشتهي النور، لا ليراه فقط، بل ليرى الصراط المستقيم، فيسير آمنا إلى الفندق، ما أشقاك أيها العالم الذي يجب أن يحتقر ويمقت ألف مرة، لأن إلهنا أراد دائما أن يمنحه معرفة الصراط بواسطة أنبيائه الأطهار، ليسير إلى وطنه وراحته، ولكنك أيها الشرير لم تمتنع عن الذهاب فقط، بل فعلت ما هو شر من ذلك، احتقرت النور، لقد صح مثل الجمل أنه لا يرغب أن يشرب من الماء الصافي، لأنه لا يريد أن ينظر وجهه القبيح، هكذا يفعل الصالح الذي يفعل الشر، لأنه يكره النور لئلا تعرف أعماله، أما من يؤتى حكمة ولا يكتفي بأن يفعل حسنا، بل يفعل شرا من ذلك، بأن يستخدمها للشر فإنما ليشبه من يستعمل الهبات أدوات لقتل الواهب (١) "!

(ء) وجاء في الفصل الثامن والسبعين من إنجيل برنابا عن سوء حال من يعرف الخير ويفعل الشر:

" الحق أقول لكم، إن الله لم يشفق على سقوط الشيطان، ومع ذلك فقد أشفق على سقوط آدم، وكفاكم أن تعرفوا سوء حال من يعرف الخير ويفعل الشر "، فقال حينئذ اندرواس " يا معلم! يحسن أن ينبذ العلم، خوفا من السقوط في مثل هذه الحال "، أجاب يسوع " إذا كان العالم حسنا بدون الشمس،

---

(١) راجع ص ١٩٩ - ١٢١ من إنجيل برنابا.

والإنسان بدون عينين، والنفس بدون إدراك، يكون عدم المعرفة إذا حسنا، الحق أقول لكم إن الخبز لا يفيد الحياة الزمنية، كما يفيد العلم الحياة الأبدية، ألا تعلمون أن الله أمر بالعلم، لأنه هكذا يقول الله " اسأل شيوخك، يعلموك "، ويقول الله عن الشريعة " اجعل وصيتي أمام عينيك والهج بها، حين تجلس وحين تمشي، وفي كل حين "، فيمكنكم الآن أن تعلموا إذا كان عدم العلم حسنا، إن من يحتقر الحكمة لشقي، لأنه لا بد يخسر الحياة الأبدية "، فأجاب يعقوب " يا معلم! نعلم أن أيوب لم يتعلم من معلم، ولا إبراهيم، ومع هذا، فقد كانا طاهرين ونبيين "!

أجاب يسوع " الحق أقول لكم إن من كان من أهل العروس، لا يدعى إلى العرس، لأنه يسكن البيت الذي فيه العرس، بل يدعى البعيدون عن البيت، أفلا تعلمون أن أنبياء الله في بيت نعمة الله ورحمته، فشريعة الله ظاهرة فيهم كما يقول داود أبونا في هذا الموضوع " إن شريعة إلهه في قلبه، فلا يحفر طريقه "، الحق أقول لكم إن إلهنا، لما خلق الإنسان، لم يخلقه بارا فقط، بل وضع في قلبه نورا، يريه أنه خليق به خدمة الله، فلئن أظلم هذا النور بعد الخطيئة، فهو لا ينطفئ، لأن لكل أمة هذه الرغبة في خدمة الله، مع أنهم قد فقدوا الله وعبدوا آلهة باطلة وكاذبة، لذلك وجب أن يعلم الإنسان عن أنبياء الله، لأن النور الذي يعلمهم طريق الذهاب إلى الجنة وطننا بخدمة الله واضح، كما يجب أن يقاد ويداوى من في عينيه رمد (١) "

(٥) وجاء في الفصلين الخامس والثمانين والسادس والثمانين من إنجيل برنابا عن أن كل من يحاول منع من يفعل حسنا أو يتكلم حسنا، فإنما هو يخدم الشيطان:

" قال يسوع: إذا فعل إنسان سوءا أو تكلم بسوء، وذهب أحد ليصلحه، ويمنع عملا كهذا، فماذا يفعل هذا؟ أجاب التلاميذ " إنه يفعل حسنا، لأنه يخدم الله الذي يطلب على الدوام منع الشر، كما أن الشمس تطلب على الدوام

---

(١) راجع ص ١٢١ و ١٢٢ من إنجيل برنابا.

طرد الظلام "، فقال يسوع " وأنا أقول لكم إنه بالضد من ذلك، متى فعل أحد حسنا أو تكلم حسنا، فكل من يحاول منعه بوسيلة ليس فيها ما هو أفضل منه، فإنما هو يخدم الشيطان، بل يصير رفيقه، لأن الشيطان لا يهتم بشئ سوى منع كل شئ صالح، ولكن ماذا أقول لكم الآن! إني أقول لكم ما قاله سليمان النبي قدوس وخليل الله " من كل ألف تعرفونهم، يكون واحد صديقكم " فقال متى " ألا نقدر إذا أن نحب أحدا! "، أجاب يسوع " الحق أقول لكم إنه لا يجوز لكم أن تكرهوا شيئا إلا الخطيئة، حتى أنكم لا تقدرون أن تبغضوا الشيطان من حيث هو خليقة الله، بل من حيث هو عدو الله، أتعلمون لماذا؟ إني أفيدكم! لأنه خليقة الله، وكل ما خلق الله فهو حسن وكامل، فلذلك كل من يكره الخليقة يكره الخالق، ولكن الصديق شئ خاص لا يسهل وجوده، ولكن يسهل فقده، لأن الصديق لا يسمح باعتراض على من يحبه حبا شديدا! احذروا وانتبهوا ولا تختاروا من لا يحب من تحبون صديقا، فاعلموا ما المراد بالصديق، لا يراد بالصديق إلا طبيب النفس، وهكذا كما أنه يندر أن يجد الإنسان طبيبا ماهرا يعرف الأمراض ويفقه استعمال الأدوية فيها، هكذا يندر وجود أصدقاء يعرفون الهفوات ويفقهون كيف يرشدون للصلاح، ولكن هناك شرا وهو أن الكثيرين أصدقاء يغضون الطرف عن هفوات صديقهم، وآخرين يعذرونهم، وآخرين يحامون عنهم بوسيلة عالمية، ويوجد أصدقاء - وذلك شر مما تقدم - يدعون أصدقاءهم ويعضدونهم بارتكاب الخطأ، وستكون آخرتهم نظير لؤمهم، احذروا من أن تتخذوا أمثال هؤلاء القوم أصدقاء، لأنهم أعداء وقتلة النفس حقا! ليكن صديقك يقبل الإصلاح، كما يريد هو أن يصلحك، وكما أنه يريد أن تترك كل شئ حبا في الله، فعليه أن يرضى بأن تتركه لأجل خدمة الله! ولكن قل لي، إذا كان الإنسان لا يعرف كيف يحب الله، فكيف يعرف كيف يحب نفسه، وكيف يعرف كيف يحب الآخرين، إذا كان لا يعرف كيف يحب نفسه؟ حقا إن هذا لمحال، فمتى اخترت لك صديقا، لأن من لا صديق له مطلقا

فهو فقير جدا، فانظر أولا لا إلى نسبه الحسن ولا إلى أسرته الحسنة، ولا إلى بيته الحسن ولا إلى ثيابه الحسنة ولا إلى شخصه الحسن ولا إلى كلامه الحسن أيضا، لأنك حينئذ تغش بسهولة، بل انظر كيف يخاف الله وكيف يحتقر الأشياء الأرضية وكيف يحب الأعمال الصالحة، على نوع أخص كيف يبغض جسده، فيسهل عليك حينئذ وجدان الصديق الصادق، انظر على نوع أخص إذا كان يخاف الله ويحتقر أباطيل العالم، وإذا كان دائما منهمكا بالأعمال الصالحة ويبغض جسده كعدو عات، ولا يجب عليك أيضا أن تحب صديقا كهذا بحيث أن حبك ينحصر فيه، لأنك تكون عابد صنم، بل أحبه كهبة وهبك الله إياها فيزينه الله بفضل أعظم، الحق أقول لكم إن من وجد صديقا، وجد إحدى مسرات الفردوس، بل هو مفتاح الفردوس " أجاب تدايوس " ولكن إذا اتفق لإنسان وجود صديق لا ينطبق على ما قلت يا معلم، فماذا يجب عليه أن يفعل؟ أيحب عليه أن يهجره؟ " أجاب يسوع " يجب عليه أن يفعل ما يفعله النوتي بالمركب الذي يسيره، ما رأى منه نفعا، ولكن متى وجد فيه خسارة تركه، هكذا يجب أن تفعل بصديق شر منك. فاتركه في الأشياء التي يكون فيها عزة لك، إذا كنت لا تود أن تتركك رحمة الله (١) "!

(و) وجاء في الفصل الثالث والستين من إنجيل برنابا عن الذين يطلبون النقمة لغيرهم:

" وبعد أيام مر يسوع بجانب مدينة للسامريين، فلم يأذنوا له أن يدخل المدينة ولم يبيعوا خبزا لتلاميذه، فقال يعقوب ويوحنا عندئذ: يا معلم ألا تريد أن تضرع إلى الله ليرسل نارا من السماء على هؤلاء الناس؟ أجاب يسوع " إنكم لا تعلمون أي روح يدفعكم لتتكلموا هكذا، إذكروا أن الله عزم على إهلاك نينوى، لأنه لم يجد أحدا يخاف الله في تلك المدينة، التي بلغ من شرها أن دعا الله يونان النبي ليرسله إلى تلك المدينة، فحاول الهرب إلى طرسوس خوفا من الشعب، فطرحه الله في البحر، فابتلعته سمكة وقذفته على مقربة من

----

(١) راجع ص ١٣٢ - ١٣٥ من إنجيل برنابا.

نينوى، فلما بشر هناك، تحول الشعب إلى التوبة، فرأف الله بهم.
" ويل للذين يطلبون النقمة، لأنها إنما تحل بهم، لأن كل إنسان يستحق] نقمة الله، ألا فقولوا لي، هل خلقتم هذه المدينة مع هذا الشعب؟ إنكم لمجانين، كلا ثم كلا، إذ لو اجتمعت الخلائق جميعها، لما أتيح لها أن تخلق ذبابة واحدة جديدة من لا شئ، وهذا هو المراد بالحلق، فإذا كان الله المبارك إنما هو الذي خلق هذه المدينة يعولها، فإنما تودون هلاكها، لماذا لم تقل " أتريد يا معلم أن نضرع للرب إلهنا أن يتوجه هذا الشعب للتوبة؟ حقا إن هذا لهو العمل الجدير بتلميذ لي أن يضرع إلى الله لأجل الذين يفعلون شرا، هكذا فعل هابيل لما قتله أخوه قايين (١) الملعون من الله، وهكذا فعل إبراهيم لفرعون الذي أخذ منه زوجته، فلذلك لم يقتله ملاك الرب، بل ضربه بمرض، وهكذا فعل زكريا لما قتل في الهيكل بأمر الملك الفاجر، وهكذا فعل أرميا وأشعيا وحزقيال ودانيال وداود و جميع أخلاء الله والأنبياء الأطهار، قولوا لي إذا أصيب أخ بجنون أتقتلونه لأنه تكلم سوءا وضرب من دنا منه؟ حقا إنكم لا تفعلون هكذا، بل بالحري تحاولون أن تسترجعوا صحته بالأدوية الموافقة لمرضه (٢) "!

(٤) الموت:

" إنما أنتم في هذه الدنيا، غرض تنتضل فيه المنايا، مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر منكم يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله، ولا تجدد له زيادة في أكله، إلا بنفاد ما قبلها من رزقه، ولا يحيا له أثر، إلا مات له أثر، ولا يتجدد له جديد، إلا بعد أن يخلق له جديد، ولا تقوم له نابتة، إلا وتسقط منه محصودة (٣) "!

" فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها، فإن عزها وفخرها إلى انقطاع، وإن زينتها

---

(١) قابيل.
(٢) راجع ص ٩٨ - ١٠٠ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٢٨٢ من نهج البلاغة ج ١.

ونعيمها إلى زوال، وضراءها وبؤسها إلى نفاد، وكل مدة فيها إلى انتهاء وكل حي فيها إلى فناء، أوليس لكم في آثار الأولين مزدجر؟ وفي آبائكم الأولين تبصرة ومعتبر؟ إن كنتم تعقلون! أو لم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقين لا يبقون، أو لستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال شتى، فميت يبكى وآخر يعزى، وصريع مبتلى، وعائد يعود، وآخر بنفسه يجود، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي! ألا فاذكروا هادم اللذات ومنغص الشهوات وقاطع الأمنيات، عند المساورة للأعمال القبيحة، واستعينوا الله على أداء واجب حقه، وما لا يحصى من أعداد نعمه وإحسانه (١) ".

ولقد جاء في الفصل الحادي والأربعين بعد المائة من إنجيل برنابا عن الموت: " قولوا لي! كيف يولد الإنسان متى ولد؟ حقا إنه يولد عريانا، وأي جدوى له متى وسد ميتا تحت الثرى؟ ليس سوى خرقة يلف بها، وهذا هو الجزاء الذي يعطيه إياه العالم! فإذا كان يجب في كل عمل أن تكون الوسيلة على نسبة إلى البداية والنهاية، ليمكن إيصال العمل إلى نهاية حسنة، فما عسى أن تكون نهاية الإنسان الذي يشتهي الثروة العالمية؟ إنه للموت كما يقول داود نبي الله " إن الخاطئ ليموت شر ميتة "! إذا حاول خياط أن يدخل جذوعا في سم إبرة بدلا من خيط، فما يكون مصير عمله، إنه ليحاول عبثا، وجيرانه يزدرون به، فالانسان لا يرى أنه فاعل هذا على الدوام، وهو يجمع الخيرات الأرضية، لأن الموت هو الإبرة التي لا يمكن إدخال جذوع الخيرات الأرضية في سمها، ومع ذلك فهو بجنونه يحاول على الدوام أن يفلح في عمله، ولكن عبثا، ومن لا يصدق هذا في كلامي، فليتفرس في القبور، لأنه هناك يجد الحق، فمتى أراد أن يتبرز في الحكمة على من سواه في خوف الله، فليطالع كتاب القبر، لأنه هناك يجد التعليم الحقيقي لخلاصه، فإنه متى رأى أن جسد الإنسان يحفظ ليكون طعاما للديدان، تعلم أن يحذر العالم والجسد والحس! قولوا لي!

---

(١) راجع ص ٢٠٧ - ٢٠٩ من نهج البلاغة ج ١.

إذا كان هنالك طريق على حال يكون إذا سار معها امرء في الوسط، سار آمنا، فإذا سار على الجانبين شج رأسه، فماذا تقولون إذا رأيتم الناس يختصمون ويتبارون ليكونوا أقرب إلى الجانب ويقتلوا أنفسهم؟ ما أشد ما يكون عجبكم، حقا إنكم تقولون إنهم لمعتوهون ومجانين، وإنهم إذا لم يكونوا مجانين، فإنهم يائسون ".

أجاب التلاميذ " إن ذلك لصحيح "، حينئذ بكى يسوع وقال " إن عشاق العالم إنما هم لكذلك، لأنهم لو عاشوا بحسب العقل الذي اتخذ موضعا متوسطا في الإنسان، لا تبعوا شريعة الله وخلصوا من الموت الأبدي، ولكنهم جنوا وأصبحوا أعداء عتاة لأنفسهم، يتبعون الجسد والعالم، مجتهدين في أن يعيش كل منهم أشد غطرسة وفجورا من الآخر (١) "!

(٥) يوم الدينونة:

" رحم الله امرأ تفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر، فكأن ما هو كائن من الدنيا عما قليل لم يكن، وكأن ما هو كائن من الآخرة عما قليل لم يزل، وكل معدود منقض، وكل متوقع آت، وكل آت قريب دان! العالم من عرف قدره، وكفى بالمرء جهلا أن لا يعرف قدره، وإن من أبغض الرجال لعبدا وكله الله إلى نفسه، جائرا عن قصد السبيل، سائرا بغير دليل، إن دعى إلى حرث الدنيا عمل، وإن دعى إلى حرث الآخرة كسل، كأن ما عمل له واجب عليه، وكأن ما ونى فيه ساقط عنه (٢) "!

" واعلموا أن مجازكم على الصراط ومزالق دحضه وأهاويل زلله وثارات أهواله، فاتقوا الله تقية ذي لب شغل التفكير قلبه وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجد غرار نومه، وأظمأ الرجاء هواجر يومه، وظلف الزهد شهواته وأرجف الذكر بلسانه، وقدم الخوف لإبانه، وسلك أقصد المسالك في النهج المطلوب، ولم تفتله فاتلات الغرور، ولم تعم عليه مشتبهات الأمور، ظافرا

---

(١) راجع ص ٢١٧ - ٢١٩ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٢١٣ و ٢١٤ من نهج البلاغة ج ١.

بفرحة البشرى وراحة النعمى، في أنعم نومه وآمن يومه، قد عبر معبر العاجلة
حميدا، وقدم ذات الآجلة سعيدا، وبادر من وجل، وأكمش في مهل،
ورغب في طلب، وراقب في يومه غده، ونظر قدما أمامه، فكفى بالجنة ثوابا
ونوالا، وكفى بالنار عقابا ووبالا، وكفى بالله منتقما ونصيرا، وكفى بالكتاب
حجيجا وخصيما (١) "!

" فأما أهل طاعته، فأثابهم بجواره وخلدهم في داره حيث لا يظعن النزال
ولا يتغير لهم الحال ولا تنوبهم الأفزاع ولا تنالهم الأسقام ولا تعرض لهم
الأخطار ولا تشخصهم الأسفار! وأما أهل المعصية، فأنزلهم شر دار، وغل
الأيدي إلى الأعناق، وقرن النواصي بالأقدام، وألبسهم سرابيل القطران
ومقطعات النيران،
في عذاب قد اشتد حره وباب قد أطبق على أهله، في نار
لها كلب ولجب ولهب ساطع وقصيف هائل، لا يظعن مقيمها ولا يفادى أسيرها
ولا تفصم كبولها، لا مدة للدار فتفنى، ولا أجل للقوم فيقضى (٢) "!

(١) ولقد جاء في الفصول الثاني والخمسين إلى السابع والخمسين من إنجيل
برنابا عن يوم الدينونة:

" الحق أقول لكم إن يوم دينونة الله، سيكون رهيبا، بحيث أن المنبوذين
يفضلون عشر جحيمات على أن يذهبوا ليسمعوا الله يكلمهم بغضب شديد،
الذين ستشهد عليهم كل المخلوقات، والحق أقول لكم ليس المنبوذون هم الذين
يخشون فقط، بل القديسون وأصفياء الله، كذلك، حتى أن إبراهيم لا يثق
ببره، ولا يكون لأيوب ثقة في براءته، وماذا أقول، بل إن رسول الله
سيخاف... قبل أن يأتي ذلك اليوم، سيحل بالعالم خراب عظيم، وستنشب
حرب فتاكة طاحنة، فيقتل الأب ابنه ويقتل الابن أباه بسبب أحزاب
الشعوب، ولذلك تنقرض المدن وتصير البلاد قفراء، وتقع أوبئة فتاكة،
حتى لا يعود يوجد من يحمل الموتى للمقابر، بل تترك طعاما للحيوانات،

---

(١) راجع ص ١٥٣ - ١٥٥ من نهج البلاغة ج ١.
(٢) راجع ص ٢٣١ و ٢٣٢ من نهج البلاغة ج ١.

وسيرسل الله مجاعة على الذين يبقون على الأرض، فيصير الخبز أعظم قيمة من الذهب، فيأكلون كل أنواع الأشياء النجسة، يا لشقاء ذلك الجيل الذي لا يسمع فيه أحد يقول " أخطأت، فارحمني يا الله "، بل يجدفون بأصوات مخوفة على المجيد المبارك إلى الأبد، وبعد هذا، متى أخذ ذلك اليوم في الاقتراب، تأتي كل يوم علامة مخوفة على سكان الأرض مدة خمسة عشر يوما، ففي اليوم الأول تسير الشمس في مدارها في السماء بدون نور، بل تكون سوداء كصبغ الثوب، وستئن كما يئن أب على ابن مشرف على الموت، وفي اليوم الثاني يتحول القمر إلى دم، وسيأتي دم على الأرض كالندى، وفي اليوم الثالث تشاهد النجوم آخذه في الاقتتال كجيش من الأعداء، وفي اليوم الرابع تتصادم الحجارة والصخور كأعداء ألداء، وفي اليوم الخامس يبكي كل نبات وعشب دما. وفي اليوم السادس يطغى البحر دون أن يتجاوز محله إلى علو مائة وخمسين ذراعا، ويقف النهار كله كجدار، وفي اليوم السابع ينعكس الأمر فيغور حتى لا يكاد يرى، وفي اليوم الثامن تتألب الطيور وحيوانات البر والماء ولها جؤار وصراخ، وفي اليوم التاسع ينزل صيب من البرد مخوف، بحيث أنه يفتك فتكا لا يكاد ينجو منه عشر الأحياء، وفي اليوم العاشر يأتي برق ورعد مخوفان، فينشق ويحترق ثلث الجبال، وفي اليوم الحادي عشر يجري كل نهر إلى الوراء ويجري دما لا ماءا، وفي اليوم الثاني عشر يئن ويصرخ كل مخلوق، وفي اليوم الثالث عشر تطوى السماء كطي الدرج وتمطرنا نارا حتى يموت كل حي، وفي اليوم الرابع عشر يحدث زلزال مخوف حتى أن قنن الجبال تتطاير منه في الهواء كالطيور وتصير الأرض كلها سهلا، وفي اليوم الخامس عشر تموت الملائكة الأطهار، ولا يبقى حيا إلا الله وحده الذي له الإكرام والمجد... فمتى مرت هذه العلامات، تغشى العالم ظلمة أربعين سنة، ليس فيها من حي إلا الله وحده الذي له الإكرام والمجد إلى الأبد، ومتى مرت الأربعون سنة، يحيي الله رسوله.... عندئذ يبوق الملاك مرة أخرى، فيقوم الجميع لصوت بوقه، قائلا " تعالوا للدينونة أيتها الخلائق، لأن خالقك يريد أن يدينك "، فينظر حينئذ في وسط السماء فوق وادي يهوشافاط، عرش متألق تظلله غمامة

بيضاء، فحينئذ تصرخ الملائكة " تبارك إلهنا، أنت الذي خلقتنا وأنقذتنا من سقوط الشيطان " عند ذلك يخاف رسول الله، لأنه يدرك أن لا أحد أحب الله كما يحب... ولكن إذا خاف رسول الله، فماذا يفعل الفجار المملوءون شرا... فينفخ حينئذ الملاك في البوق ويدعو الشيطان للدينونة، فيأتي حينئذ ذلك الشقي ويشكوه كل مخلوق بامتهان شديد، حينئذ ينادي الله الملاك ميخائيل فيضربه بسيف الله مائة ألف ضربة، يضرب بها الشيطان بثقل عشر جحيمات ويكون الأول الذي يقذف به في الهاوية، ثم ينادي الملاك أتباعه فيهانون ويشكون مثله، وعند ذلك يضرب الملاك ميخائيل بأمر الله بعضا مائة ضربة وبعضا خمسينا، وبعضا عشرين وبعضا عشرا وبعضا خمسا، ثم يهبطون الهاوية لأن الله يقول لهم " إن الجحيم مثواكم أيها الملاعين "!

ثم يدعى بعد ذلك إلى الدينونة كل الكافرين والمنبوذين، فيقوم أولا كل الخلائق التي هي أدنى من الإنسان شاهدة أمام الله كيف خدمت هؤلاء الناس، وكيف أن هؤلاء أجرموا مع الله وخلقه، ويقوم كل الأنبياء شاهدا عليهم، فيقضي الله عليهم باللهب الجحيمية! الحق أقول لكم إنه لا كلمة ولا فكر من الباطل لا يجازى عليه في ذلك اليوم الرهيب، الحق أقول لكم إن قميص الشعر سيشرق كالشمس، وكل قملة كانت على إنسان حبا في الله تتحول لؤلؤة، المساكين الذين كانوا قد خدموا الله بمسكنة حقيقية من القلب، لمباركون ثلاثة أضعاف وأربعة أضعاف، لأنهم يكونون خالين في هذا العالم من المشاغل العالمية، فتمحى عنهم لذلك خطايا كثيرة، ولا يضطرون في ذلك اليوم أن يقدموا حسابا، كيف صرفوا الغنى العالمي، بل يجزون لصبرهم ومسكنتهم، الحق أقول لكم إنه لو علم العالم هذا، لفضل قميص الشعر على الأرجوان والقمل على الذهب، والصوم على الولائم...

حينئذ يعيد الله إلى التراب كل نفس حية أدنى من الإنسان، ويرسل إلى الجحيم الفجار الذين يرون مرة أخرى في أثناء سيرهم ذلك التراب الذي يعود إليه الكلاب والخيل وغيرها من الحيوانات النجسة، فحينئذ يقولون " أيها الرب

الإله، أعدنا نحن أيضا إلى هذا التراب "، ولكن لا يعطون سؤلهم (١) ".
(ب) وجاء في الفصول من الخامس والثلاثين بعد المائة إلى السابع والثلاثين بعد المائة من إنجيل برنابا عن الجحيم:
" فقال حينئذ بطرس " يا معلم! كيف يعذب الهالكون، وكم يبقون في الجحيم لكي يهرب الإنسان من الخطيئة؟ " أجاب يسوع " يا بطرس! لقد سألت عن شئ عظيم، ومع ذلك فإني إن شاء الله مجيبك، فاعلموا إذا أن الجحيم هي واحدة، ومع ذلك فإن لها سبع دركات، الواحدة منها دون الأخرى، فكما أن للخطيئة سبعة أنواع إذ أنشأها الشيطان نظير سبعة أبواب للجحيم، كذلك يوجد فيها سبعة أنواع من العذاب، لأن المتكبر أي الأشد ترفعا في قلبه، سيزج في أسفل دركة، مارا في سائر الدركات التي فوقها، ومكابدا فيها جميع الآلام الموجودة فيها، وكما أنه... يريد أن يفعل ما يعن له مما يخالف ما أمر به الله، ولا يعترف بأن أحدا فوقه، فهكذا يوضع تحت أقدام الشيطان وشياطينه، فيدوسونه كما يداس العنب عند صنع الخمر، وسيكون أضحوكة وسخرية للشياطين! والحسود الذي يحتدم غيظا لفلاح قريبه ويتهلل لبلاياه، يهبط إلى الدركة السادسة، وهناك تنهشه أنياب عدد غفير من أفاعي الجحيم! ويخيل إلي أن كل الأشياء في الجحيم تبتهج لعذابه وتتأسف لأنه لم يهبط إلى الدركة السابعة، ذلك بأن عدل الله يخيل للحسود التعيس ذلك، على إعواز الملعونين الفرح، كما يخيل للمرء في الحلم أن شخصا يرفسه فيتعذب، تلك هي الغاية أمام الحسود التعيس، ويخيل إليه حيث لا مسرة على الإطلاق، أن كل أحد يتهج لبليته ويتأسف أن التنكيل لم يكن أشد! أما الطماع، فيهبط إلى الدركة الخامسة، حيث يلم به فقر مدقع، كما ألم بصاحب الولائم الغني، وسيقدم له الشياطين زيادة في عذابه ما يشتهي، فإذا صار في يديه، اختطفته شياطين أخرى بعنف، ناطقين بهذه الكلمات " أذكر أنك لم تحب أن تعطي لمحبة الله، لذلك فلا يريد الله أن تنال "، ما أتعسه من إنسان، فإنه سيرى نفسه في تلك الحال، فيذكر سعة العيش الماضي

---

(١) راجع ص ٨٣ - ٩١ من إنجيل برنابا.

ويشاهد فاقة الحاضر وأنه بالخيرات التي لا يقدر على الحصول عليها، حينئذ كان يمكنه أن ينال النعيم الأبدي!

أما الدركة الرابعة، فيهبط إليها الشهوانيون، حيث يكون الذين قد غيروا الطريق التي أعطاهم الله إياها كحنطة مطبوخة في براز الشيطان المحترق، وهناك تعانقهم الأفاعي الجهنمية! وأما الذين كانوا قد زنوا في البغايا، فستتحول كل أعمال هذه النجاسة فيهم، إلى غشيان جنيات الجحيم اللواتي هن شياطين بصور نساء، شعورهن من أفاع وأعينهن كبريت ملتهب وفمهن سام ولسانهن علقم وجسدهن محاط بشصوص مريشة بسنان شبيهة بالتي تصاد بها الأسماك، ومخالبهن كمخالب العقبان، وأظافرهن أمواس وطبيعة أعضائهن التناسلية نار، فمع هؤلاء يتمتع الشهوانيون على جمر الجحيم الذي سيكون سريرا لهم!

ويهبط إلى الدركة الثالثة الكسلان الذي لا يشتغل الآن، هنا تشاد مدن وصروح فخيمة ولا تكاد تنجز حتى تهدم توا، لأنه ليس فيها حجر موضوع في محله، فتوضع هذه الحجارة الضخمة على كتفي الكسلان الذي لا يكون مطلق اليدين، فيبرد جسده وهو ماش، ويخفف الحمل، لأن الكسل قد أزال قوة ذراعيه، وساقاه مكبلتان بأفاعي الجحيم، وأنكى من ذلك أن وراءه الشياطين تدفعه وترمي به الأرض مرات متعددة وهو تحت العبء، ولا يساعده أحد في رفعه، بل لما كان أثقل من أن يرفع، يوضع عليه مقدار مضاعف!

ويهبط إلى الدركة الثانية النهم، فيكون هناك قحط إلى حد ألا يوجد شئ يؤكل سوى العقارب الحية والأفاعي الحية التي تعذب عذابا أليما، حتى أنهم لو لم يولدوا لكان خيرا لهم من أن يأكلوا مثل هذا الطعام، وستقدم لهم الشياطين بحسب الظاهر أطعمة شهية، ولكن لما كانت أيديهم وأرجلهم مغلولة بأغلال من نار، لا يقدرون أن يمدوا يدا إذا بدا لهم الطعام، وأنكى من ذلك أنه لما كانت هذه العقارب نفسها التي يأكلها لتلتهم بطنه، غير قادرة على الخروج سريعا، فإنها تمزق سوءة النهم، ومتى خرجت نجسة وقذرة على ما هي عليه، تؤكل مرة أخرى!

ويهبط المستشيط غضبا إلى الدركة الأولى، يمتهنه كل الشياطين وسائر الملعونين، الذين هم أسفل منه مكانا، فيرفسونه ويضربونه ويضجعونه على الطريق التي يمرون عليها، واضعين أقدامهم على عنقه، ومع هذا فهو غير قادر على المدافعة عن نفسه، لأن يديه ورجليه مربوطة، وأنكى من ذلك أنه غير قادر على إظهار غيظه بإهانة الآخرين، لأن لسانه مربوط بشص شبيه
بما يستعمله بائع اللحوم، ففي هذا المكان الملعون يكون عقاب عام يشمل كل الدركات كمزيج من حبوب عديدة يصنع منه رغيف، لأنه ستتحد بعدل الله النار والجمد والصواعق والبرق والكبريت والحرارة والبرد والريح والجنون والهلع، على طريقة لا يخفف فيها البرد الحرارة، ولا النار الجليد، بل يعذب كل منها الخاطئ التعيس تعذيبا! ففي هذه البقعة الملعونة يقيم الكافرون إلى الأبد، حتى ولو فرض أن العالم ملئ حبوبا ودخنا، وكان طير واحد يحمل حبة واحدة منها كل مائة سنة إلى انقضاء العالم، لسر الكافرون، لو كان يتاح لهم بعد انقضائه الذهاب إلى الجنة، ولكن ليس لهم هذا الأمل، إذ ليس لعذابهم من نهاية، لأنهم لم يريدوا أن يضعوا حدا لخطيئتهم حبا في الله،
أما المؤمنون فسيكون لهم تعزية، لأن لعذابهم نهاية!
فذعر التلاميذ لما سمعوا هذا وقالوا: " أيذهب إذا المؤمنون إلى الجحيم؟ "، أجاب يسوع: " يتحتم على كل أحد أيا كان أن يذهب إلى الجحيم، بيد أن ما لا مشاحة فيه أن الأطهار وأنبياء الله، إنما يذهبون إلى هناك ليشاهدوا لا ليكابدوا عقابا، أما الأبرار فإنهم لا يكابدون إلا الخوف (١)... "
(ج) وجاء في الفصل التاسع والخمسين من إنجيل برنابا عن دركات الجحيم:
" يا تلاميذي إن الجحيم واحدة، وفيها يعذب الملعونون إلى الأبد، إلا أن لها سبع طبقات أو دركات، الواحدة منها أعمق من الأخرى، ومن يذهب إلى أبعدها عمقا، يناله عقاب أشد، ومع ذلك فإن كلامي صادق في سيف الملاك ميخائيل، لأن من لا يرتكب إلا خطيئة واحدة، يستحق جحيما، ومن

---

(١) راجع ص ٢٠٧ - ٢١٣ من إنجيل برنابا.

يرتكب خطيئتين يستحق جحيمين، فلذلك يشعر المنبوذون، وهم في جحيم واحد بقصاص، كأنهم به في عشر جحيمات أو في مائة أو في ألف، والله القادر على كل شئ سيجعل بقوته وبعدله الشيطان يكابد عذابا كأنه في ألف ألف جحيم، والباقين كلا على قدر إثمه "!

أجاب حينئذ بطرس: يا معلم: حقا إن عدل الله عظيم، ولقد جعلك اليوم هذا الخطاب حزينا، ولذلك نضرع إليك أن تستريح، وغدا أخبرنا أي شئ يشبه الجحيم؟!

أجاب يسوع: " يا بطرس إنك تقول لي أن استرح، وأنت لا تدري يا بطرس ما أنت قائل، وإلا لما تكلمت هكذا، فالحق أقول لكم إن الراحة في هذا العالم إنما هي سم التقوى، والنار التي تأكل كل صالح، نسيتم إذا كيف أن سليمان نبي الله وسائر الأنبياء، قد نددوا بالكسل، حق ما يقول " الكسلان لا يحرث خوفا من البرد، فهو لذلك يتسول في الصيف " لذلك قال " كل ما تقدر يدك على فعله، فافعله بدون راحة "، وماذا يقول أيوب أبر أخلاء الله " كما أن الطير مولود للطيران، الإنسان مولود للعمل "، الحق أقول لكم إني أعاف الراحة أكثر من كل شئ (١)!

(د) وجاء في الفصل الستين من إنجيل برنابا عن آلام الجحيم:

" الجحيم واحدة، وهي ضد الجنة، كما أن الشتاء هو ضد الصيف، والبرد ضد الحر، فلذلك يجب على كل من يصف شقاء الجحيم أن يكون قد رأى جنة نعيم الله، يا له من مكان ملعون بعدل الله لأجل لعنة الكافرين والمنبوذين الذين قال عنهم أيوب خليل الله " ليس من نظام هناك، بل خوف أبدي "، ويقول أشعيا النبي في المنبوذين: " إن لهيبهم لا ينطفئ، ودودهم لا يموت "، وقال داود أبونا باكيا: " حينئذ يمطر عليهم برقا وصواعق وكبريتا وعاصفة شديدة "، تبا لهم من خطاة تعساء، ما أشد كراهتهم حينئذ للحوم الطيبة والثياب

---

(١) راجع ص ٩٣ و ٩٤ من إنجيل برنابا.

الثمينة والأرائك الوثيرة وألحان الغناء الرخيمة، ما أشد ما يسقمهم الجوع واللهب اللذاعة والجمر المحرق والعذاب الأليم مع البكاء المر الشديد "!
ثم أن يسوع أنة أسف، قائلا: " حقا خير لهم لو لم يكونوا، من أن يعانوا هذا العذاب الأليم! تصوروا رجلا يعاني العذاب في كل جارحة من جسده، وليس ثم من يرثي له بل الجميع يستهزئون به، أخبروني: ألا يكون هذا ألما مبرحا؟ "، أجاب التلاميذ: " أشد تبريح "، فقال يسوع: " إن هذا لنعيم الجحيم، لأني أقول لكم بالحق، إنه لو وضع الله في كفة كل الآلام التي عاناها الناس في هذا العالم والتي سيعانونها حتى يوم الدين، وفي الكفة الأخرى ساعة واحدة من ألم الجحيم لاختار المنبوذون بدون ريب المحن العالمية، لأن العالمية تأتي على يد الإنسان، أما الأخرى فعلى يد الشياطين الذين لا شفقة لهم على الإطلاق! فما أشد الذي سيصلونه الخطاة الأشقياء، ما أشد البرد القارس الذي لا يخفف لهبهم، ما أشد صرير الأسنان والبكاء والعويل، لأن ماء الأردن أقل من الدموع التي ستجري كل دقيقة من عيونهم، وستلعن هنا ألسنتهم كل المخلوقات مع أبيهم وأمهم (١)... "!

(٥) وجاء في الفصل الحادي والستين والثاني والستين من إنجيل برنابا عن أن الجنة للذين يحسنون المعيشة في هذا العالم:

".... ثم فتح يسوع فاه بعد صلاة العشاء، وقال أي أبي أسرة ينام وقد عرف أن لصا عزم على نقب بيته لا أحد البتة، بل يسهر ويقف متأهبا لقتل اللص، أفلا تعلمون إذا أن الشيطان أسد زائر يجول طالبا من يفترسه هو، فهو يحاول أن يوقع الإنسان في الخطيئة، الحق أقول لكم إن الإنسان إذا تحدى التاجر لا يخاف ذلك اليوم، لأنه يكون متأهبا جيدا! كان رجل أعطى جيرانه نقودا ليتاجروا بها ويقسم الربح على نسبة عادلة، فأحسن بعضهم التجارة، حتى أنهم ضاعفوا النقود، ولكن بعضهم استعملوا النقود في خدمة

---

(١) راجع ص ٩٥ و ٩٦ من إنجيل برنابا.

عدو من أعطاهم النقود، وتكلموا فيه بسوء، فقولوا لي كيف تكون الحال متى حاسب المدينين؟ إنه لا ريب يجزي أولئك الذين أحسنوا التجارة، ولكنه يشفي غيظه من الآخرين بالتوبيخ، ثم يقتص منهم بحسب الشريعة، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن الجار هو الله الذي أعطى الإنسان كل ماله مع الحياة نفسها، حتى أنه إذا أحسن المعيشة في هذا العالم، يكون لله مجد ويكون للانسان مجد الجنة، لأن الذين يحسنون المعيشة، يضاعفون نقودهم بكونهم قدوة، لأنه متى رآهم الخطاة قدوة، تحولوا إلى التوبة، وكذلك يجزى الذين يحسنون المعيشة جزاء عظيما، ولكن قولوا لي: ماذا يكون قصاص الخطاة الأئمة الذين بخطاياهم ينصفون ما أعطاهم الله، بما يصرفون حياتهم في خدمة الشيطان عدو الله مجدفين على الله ومسيئين إلى الآخرين؟ "، قال التلاميذ، " إنه سيكون بغير حساب "!

ثم قال يسوع: " من يرد إن يحسن المعيشة، فعليه أن يحتذي مثال التاجر الذي يقفل حانوته ويحرسه ليلا ونهارا يجد عظيم، وإنما يبيع السلع التي اشتراها التماسا للربح، لأنه لو علم أنه يخسر في ذلك، لما كان يبيع حتى ولا الشقيقة، فيجب عليكم أن تفعلوا هكذا، لأن نفسكم إنما هي في الحقيقة تاجر، والجسد هو الحانوت، فلذلك كان ما يتطرق إليها من الخارج بواسطة الحواس يباع ويشرى بها، والنقود هي المحبة، فانظروا إذا ألا تبيعوا وتشتروا بمحبتكم أقل فكر لا تقدرون أن تصيبوا منه ربحا، بل ليكن الفكر والكلام والعمل جميعا لمحبة الله، لأنكم بهذا تجدون أمنا في ذلك اليوم، الحق أقول لكم إن كثيرين يغتسلون ويذهبون للصلاة وكثيرون يصومون ويتصدقون، وكثيرون يطالعون ويبشرون الآخرين، وعاقبتهم ممقوتة عند الله، لأنهم يطهرون الجسد لا القلب، ويصرخون بالفم لا بالقلب، يمتنعون عن اللحوم ويملأون أنفسهم بالخطايا، يهبون الآخرين أشياء غير نافعة لهم أنفسهم، ليظهروا بمظهر الصلاح، يطالعون ليعرفوا كيف يتكلمون، لا ليعملوا، ينهون الآخرين عن الأشياء التي يعملونها هم أنفسهم، وهكذا يدانون بألسنتهم، لعمر الله إن هؤلاء لا يعرفون

الله بقلوبهم، لأنهم لو عرفوه لأحبوه، ولما كان كل ما للإنسان هبة من الله، كان عليه أن يصرف كل شئ في محبة الله (١) "!

(و) وجاء في الفصل السادس والستين من إنجيل برنابا عن جزاء الجنة:

" جاء إليه أحد قائلا: أيها المعلم الصالح إنك تعلم حسنا وحقا، لذلك قال لي ما هو الجزاء الذي يعطينا إياه الله في الجنة؟ " أجاب يسوع: " إنك تدعوني صالحا وأنت لا تعلم أن لا صالح إلا الله وحده، كما قال أيوب خليل الله " الطفل الذي عمره يوم ليس نقيا، بل إن الملائكة ليست منزهة عن الخطأ أمام الله "،

وقال أيضا: " إن الجسد يجذب الخطيئة ويمتص الإثم، كما تمتص إسفنجة الماء "!

فصمت لذلك الكاهن لأنه فشل، وقال يسوع: " الحق أقول لكم، لا شئ أشد خطرا من الكلام، لأنه هكذا قال سليمان " الحياة والموت، هما تحت سلطة اللسان "، والتفت إلى تلاميذه وقال: " احذروا الذين يباركونكم، لأنهم يخدعونكم، فباللسان بارك الشيطان أبوينا الأولين، ولكن كانت عاقبة كلامه شقاء، هكذا أيضا بارك حكماء مصر فرعون، هكذا بارك جليات الفلسطينيين، هكذا بارك أربعمائة نبي كاذب أخاب، ولكن لم يكن مدحهم إلا باطلا، فهلك الممدوحون مع المادحين، لذلك لم يقل الله بلا سبب على لسان أشعيا النبي: يا شعبي: إن الذين يباركونك يخدعونك "، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون! ويل لكم أيها الكهنة واللاويون، لأنكم أفسدتم ذبيحة الرب حتى أن الذين جاءوا ليقدموا الذبائح، يعتقدون أن الله يأكل لحما مطبوخا كالانسان، لأنكم تقولون لهم: " احضروا من غنمكم وثيرانكم وحملانكم إلى هيكل إلهكم، ولا تأكلوا الجميع، بل أعطوا نصيبا لإلهكم مما أعطاكم "، ولكنكم لا تخبرونهم عن أصل الذبيحة أنها شهادة الحياة، التي أنعم بها على أبينا إبراهيم حتى لا ينسى إيمان وطاعة أبينا إبراهيم مع المواعيد الموثقة من الله والبركة الممنوحة له!

ولكن يقول الله على لسان حزقيال النبي: " أبعدوا عني ذبائحكم هذه، إن ضحاياكم مكروهة عندي، لأنه يقترب الوقت الذي يتم فيه ما تكلم عنه إلهنا على لسان

---

(١) راجع ص ٩٦ - ٩٨ من إنجيل برنابا.

هوشع النبي قائلا: " إني أدعو الشعب غير المختار مختارا "، وكما يقول حزقيال النبي: " سيعمل الله ميثاقا جديدا مع شعبه، ليس نظير الميثاق الذي أعطاه لآبائكم، فلم يفوا به وسيأخذ منهم قلبا من حجر ويعطيهم قلبا جديدا "، وسيكون كل هذا لأنكم لا تسيرون الآن بحسب شريعته، وعندكم المفتاح ولا تفتحون، بل بالحري تسدون الطريق على الذين يسيرون فيها... "!

" سألتني أن أخبرك ما يعطينا الله في الجنة، الحق أقول لكم إن الذين يهتمون بالأجرة، لا يحبون صاحب العمل، فالراعي الذي عنده قطيع من الغنم متى رأى الذئب مقبلا يتهيأ للمحاماة عنه، وبالضد منه الأجير الذي متى رأى الذئب، ترك الغنم وهرب، لعمر الله الذي أقف في حضرته، لو كان إله آبائنا إلهكم، لما خطر في بالكم أن تقولوا " ماذا يعطيني الله " بل كنتم تقولون كما قال داود نبيه: " ماذا أعطي الله من أجل جزاء ما أعطاني "... أيها الكهنة والكتبة والفريسيون، وأنت يا رئيس الكهنة الذي تسمع صوتي، إني أعلن لكم ما قال الله لكم على لسان نبيه أشعيا: " ربيت عبدا ورفعت شأنهم، أما هم فامتهنوني " إن الملك هو إلهنا الذي وجد إسرائيل في هذا العالم مفعما شقاء، فأعطاه لعبيده يوسف وموسى وهارون، الذين اعتنوا به وأحبه إلهنا حبا شديدا، حتى أنه لأجل شعب إسرائيل ضرب مصر وأغرق فرعون وهزم مائة وعشرين ملكا من الكنعانيين والمدنيين، وأعطاه شرائعه، جاعلا إياه وارثا لكل تلك البلاد التي يقيم فيا شعبنا، ولكن كيف تصرف إسرائيل؟ كم قتل من الأنبياء؟ كم نجس نبوة؟ كيف عصى شريعة الله؟ كم وكم تحول أناس عن الله لذلك السبب، وذهبوا ليعبدوا الأوثان بذنبكم أيها الكهنة، فلكم تمتهنون الله بسلوككم، والآن تسألونني: " أي قصاص يعطيكم الله إياه في الجحيم، وما ذا يجب عليكم فعله لأجل التوبة الصادقة، ليرحمكم الله، فهذا ما أقوله لكم، ولهذه الغاية أرسلت إليكم "!

" لعمر الله الذي أقف في حضرته، إنكم لا تنالون مني تملقا، بل الحق، لذلك أقول لكم توبوا وارجعوا إلى الله، كما فعل آباؤنا بعد ارتكاب الذنب، ولا تقسوا قلوبكم (١)... "!

---

(١) راجع ص ١٠٣ – ١٠٨ من إنجيل برنابا.

(ز) وجاء في الفصول من التاسع والستين بعد المائة إلى الفصل التاسع والسبعين بعد المائة من إنجيل برنابا عن مسرات الجنة:

" أجاب يسوع: أصيخوا السمع، أشرح لكم كيفية الجنة وكيف أن الأطهار والمؤمنين يقيمون هناك إلى غير نهاية، وهذا بركة من أعظم بركات الجنة، لأن كل شئ مهما كان عظيما إذا كان له نهاية يصير صغيرا بل لا شئ! فالجنة هي البيت الذي يخزن فيه الله مسراته التي هي عظيمة جدا، حتى أن الأرض التي تدوسها أقدام الأطهار والمباركين ثمينة جدا، بحيث أن درهما منها أثمن من ألف عالم! ولقد رأى هذه المسرات أبونا داود نبي الله، فإن الله أراه إياها، إذ يسر له أن يبصر مجد الجنة، ولذلك لما عاد إلى نفسه، غطى عينيه بكلتا يديه وقال باكيا: " لا تنظري فيما بعد إلى هذا العالم يا عيني، لأن كل شئ فيه باطل، وليس فيه شئ جديد "! ولقد قال عن هذه المسرات أشعيا النبي: " لم تر عينا إنسان، ولم تسمع أذناه، ولم يدرك قلب بشر ما أعده الله للذين يحبونه "!

أتعلمون لماذا لم يروا ولم يسمعوا ولم يدركوا هذه المسرات؟ لأنهم ما داموا عائشين هنا في الأسفل، فهم ليسوا أهلا لمشهادة هذه الأشياء، ولذلك أخبركم أن أبانا داود على كونه قد رآها حقا لم يرها بعينين بشريتين، لأن الله أخذ نفسه إليه، وهكذا لما صار متحدا مع الله، رآها بنور إلهي! لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، لما كانت مسرات الجنة غير متناهية، وكان الإنسان متناهيا، فلا يقدر الإنسان أن يعيها، كما أن جرة صغيرة لا تقدر أن تعي البحر! انظروا ما أجمل العالم في زمن الصيف حين تحمل الأشياء ثمرا! حتى أن الفلاح نفسه يثمل من الحبور بالحصاد الذي أتى، فيجعل الأودية والجبال ترجع غناءه، لأنه يحب أعماله كل الحب، ألا فارفعوا إذا قلوبكم هكذا إلى الجنة حيث تثمر كل الأشياء ثمارا على قدر الذي حرثها! لعمر الله إن هذا كاف لمعرفة الجنة من حيث أن الله خلق الجنة بيتا لمسراته، ألا تظنون أنه يكون للجودة غير المحدودة بالقياس أشياء غير محدودة في الجودة؟ وأنه يكون للجمال الذي لا يقاس، أشياء جمالها يفوق القياس؟ احذروا فإنكم تضلون كثيرا إذا كنتم تظنون أنها ليست عنده!

يقول الله هكذا للرجل الذي يعبده بإخلاص: " أعرف أعمالك، وأنك تعمل لي، لعمري أنا الأبدي، إن حبك لا يزيد على جودي، فإنك تعبدني إلها خالقا لك، إنك صنعي ولا تطلب مني شيئا سوى النعمة والرحمة لإخلاصك في عبادتي، لأنك لا تضع حدا لعبادتي، إذ ترغب أن تعبدني أبدا، هكذا أفعل أنا.. لأني لا أضع في يديك خيرات الجنة فقط، بل أعطيك نفسي هبة، وكما أنك تريد أن تكون عبدي دائما، أجعل أجرتك إلى الأبد "!

قال يسوع لتلاميذه " ما هو ظنكم في الجنة وهل يوجد عقل يدرك مثل ذلك الغنى والمسرات؟ فعلى الإنسان الذي يريد أن يعرف ما يريد الله أن يعطي لعبيده، أن تكون معرفته عظيمة على قدر معرفة الله! إذ قدم هيرودس هدية لأحد شرفائه الأخصاء، أتدرون بأية طريقة يقدمها؟ "

أجاب يوحنا: " لقد رأيت ذلك مرتين، أؤكد أن عشر ما يعطيه، يكون فيه الكفاية لفقير "، قال يسوع: " ولكن لو قدم فقير لهيرودس، فماذا يعطيه "؟ أجاب يوحنا: " فلسا أو فلسين "، قال يسوع: " فليكن هذا كتابكم الذي تطالعون فيه لأجل معرفة الجنة، لأن كل ما أعطى الله للإنسان في هذا العالم الحاضر لجسده، هو كما لو أعطى هيرودس فلسا لفقير، ولكن ما يعطيه الله للجسد والنفس في الفردوس، هو كما لو أعطى هيردوس كل ما عنده، بل حياته لأحد خدمته!

يقول الله لمن يحبه ويعبده بإخلاص هكذا " يا عبدي إذهب وتأمل رمال البحر، ما أكثرها، فإذا أعطاك البحر حبة رمل واحدة، ألا يظهر لك أن ذلك قليل؟ بلى البتة، لعمري أنا خالقك، إن كل ما أعطيت لكل عظماء وملوك الأرض لأقل من حبة رمل يعطيك إياها البحر، في جنب ما أعطيك إياه في الجنة "!

قال يسوع: " تأملوا إذا خيرات الجنة، إنه لو أعطى الله للإنسان في هذا العالم أوقية من سعة العيش، فسيعطيه في الجنة ألف ألف حمل، تأملوا مقدار الثمار التي في هذا العالم، و مقدار الطعام، ومقدار الأزهار، ومقدار الأشياء التي

تخدم الإنسان! لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، كما يزيد رمل البحر على الحبة التي يأخذها منه آخذ، يزيد تين الجنة في وجودته ومقداره على نوع التين الذي نأكله هنا، وقس عليه كل شئ آخر في الجنة، ولكن أقول لكم أيضا إنه كما أن الجبل من الذهب واللآلئ هو أثمن من ظل نملة، هكذا تكون مسرات الجنة أعظم قيمة من مسرات العظماء والملوك، التي كانت لهم حتى دينونة الله، حين ينقضي العالم "!

قال بطرس: " أيذهب جسدنا الذي لنا الآن إلى الجنة؟.. "، أجاب يسوع: "... أنسيتم أيوب النبي وخليل الله كف يقول " أعلم أن إلهي حي، وأني سأقوم في اليوم الأخير بجسدي، وسأرى بعيني الله مخلصي "، ولكن صدقوني أن جسدنا هذا يتطهر على كيفية لا يكون له معها خاصة واحدة من خصائصه الحاضرة، لأنه سيتطهر من كل شهوة شريرة، وسيعيده الله إلى الحال التي كان عليها آدم قبل أن أخطأ! رجلان يخدمان سيدا واحدا في عمل واحد، أحدهما يقتصر على النظر في العمل وإصدار الأوامر، والثاني يقوم بكل ما يأمره به الأول، أقول أترون من العدل أن يخص السيد بالجزاء من ينظر ويأمر فقط، ويطرد من بيته من أنهك نفسه في العمل؟ لا البتة! فكيف يحتمل عدل الله هذا؟ إن نفس الإنسان وجسده وحسه تخدم الله، فالنفس تنظر وتأمر بالخدمة فقط، لأن النفس لما كانت لا تأكل خبزا فهي لا تصوم ولا تمشي ولا تشعر بالبرد أو الحر ولا تمرض ولا تقتل لأنها خالدة، وهي لا تكابد شيئا من الآلام الجسدية التي يكابدها الجسد بفعل العناصر، فأقول: هل من العدل إذا أن تذهب النفس وحدها إلى الجنة دون الجسد الذي أنهك نفسه بهذا المقدار في خدمة الله؟ "

قال بطرس: " يا معلم! لما كان الجسد هو الذي حمل النفس على الخطيئة، فلا ينبغي أن يوضع في الجنة " أجاب يسوع: " كيف يخطئ الجسد بدون النفس، حقا إن هذا محال، فإذا نزعت رحمة الله من الجسد، قضيت على النفس بالجحيم!

لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته إن الله يعد الخاطئ برحمته قائلا:
" أقسم بنفسي أن الساعة التي يندب فيها الخاطئ خطيئته، هي التي أنسى فيها إثمه إلى الأبد " فأي شئ يأكل إذا أطعمة الجنة، إذا كان الجسد لا يذهب إلى هناك؟ هل النفس! لا البتة لأنها روح "، أجاب بطرس: " أيأكل إذا المباركون في الفردوس؟ ولكن كيف يبرز الطعام دون نجاسة؟ "، أجاب يسوع " أي بركة ينالها الجسم إذا لم يأكل ويشرب؟ من المؤكد أنه من اللائق أن يكون التمجيد بالنسبة إلى الشئ الممجد، لكنك تخطئ يا بطرس في ظنك أن طعاما كهذا يبرز نجاسة، لأن هذا الجسم في الوقت الحاضر يأكل أطعمة قابلة للفساد، ولهذا يحصل الفساد، ولكن الجسم يكون في الجنة غير قابل للفساد وغير قابل للألم، وخالدا وخاليا من كل شقاء، والأطعمة التي لا عيب فيها، لا تحدث أدنى فساد "!
هكذا يقول الله على لسان أشعيا النبي ساكبا ازدراءه على المنبوذين:
" يجلس خدمتي على مائدتي في بيوتي، ويتلذذون بابتهاج مع حبور ومع صوت الأعواد والأراغين ولا أدعهم يحتاجون شيئا، أما أنتم أعدائي فتطرحون خارجا حيث تموتون في الشقاء وكل خادم لي يمتهنكم "!
قال يسوع لتلاميذه: " ماذا يجدي نفعا قوله يتلذذون، حقا إن الله يتكلم جليا، ولكن ما فائدة الأنهر الأربعة من السائل الثمين في الجنة مع ثمار وافرة جدا؟ فمن المؤكد أن الله لا يأكل والملائكة لا تأكل والنفس لا تأكل والحس لا يأكل، بل الجسد الذي هو جسمنا، فمجد الجنة هو طعام الجسد، أما النفس والحس فلهما الله ومحادثة الملائكة والأرواح المباركة... "!
قال برتولوماوس: " يا معلم أيكون مجد الجنة لكل واحد على السواء؟
فإذا كان على السواء فهو ليس من العدل، وإذا لم يكن على السواء فالأصغر يحسد الأعظم " أجاب يسوع " لا يكون على السواء، لأن الله عادل، وسيكون كل أحد قنوعا، إذ لا حسد هناك، قل يا برتولوماوس! يوجد سيد عنده كثيرون من الخدمة، ويلبس جميع خدمة هؤلاء لباسا واحدا، أيحزن إذا

الغلمان اللابسون لباس الغلمان لأنه ليس لهم ثياب البالغين؟ بل بالعكس، لو أراد البالغون أن يلبسوهم ثيابهم الكبيرة لتغيظوا، لأنه لما لم تكن الأثواب موافقة لحجمهم يزعمون أنهم سخرية، فارفع يا برتلوماوس قلبك لله في الجنة، فترى أن للجميع مجدا واحدا، ومع أنه يكون كثيرا لواحد وقليلا للآخر، فهو لا يولد شيئا من الحسد "! حينئذ قال من يكتب " يا معلم! أللجنة نور من الشمس، كما لهذا العالم؟! أجاب يسوع: " هكذا قال لي الله يا برنابا " إن للعالم الذي تسكنون فيه أيها البشر الخطاة، والشمس والقمر والنجوم التي تزينه لفائدتكم وحبوركم، لأني لأجل هذا خلقتها، أتحسبون إذا أن البيت الذي يسكن فيه المؤمنون بي، لا يكون أفضل؟ حقا إنكم تخطئون في هذا الحسبان، لأني أنا إلهكم هو شمس الجنة ورسولي هو القمر الذي يستمد مني كل شئ والنجوم أنبيائي الذين قد بشروكم بشئ، فكما أخذ المؤمنون بي كلمتي من أنبيائي هنا، سينالون كذلك مسرة وحبورا بواسطتهم في جنة مسراتي... "

قال برتولوماوس: " حقا إن الجنة لواسعة، لأنها إذا كان فيها خيرات عظيمة، هذا مقدارها، فلا بد أن تكون واسعة، أجاب يسوع " إن الجنة واسعة جدا، حتى أنه لا يقدر أحد أن يقيسها، الحق أقول لك إن السماوات... موضوعة بينها السيارات التي تبعد إحداها عن الأخرى مسيرة رجل خمسمائة سنة، وكذلك الأرض على مسيرة خمسمائة سنة من السماء الأولى! ولكن قف عند قياس السماء الأولى التي تزيد عن الأرض برمتها كما تزيد الأرض عن حبة رمل، وهكذا تزيد السماء الثانية عن الأولى، والثالثة عن الثانية، وهلم جرا حتى السماء الأخيرة، كل منها تزيد عما يليها! والحق أقول لك إن الجنة أكبر من الأرض برمتها والسماوات برمتها، كما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل!...

حينئذ جاء الملاك جبريل ليسوع، وأراه مرآة براقة كالشمس رأى فيها هذه الكلمات مكتوبة " لعمري أنا الأبدي، كما أن الجنة أكبر من السماوات برمتها والأرض، وكما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل، هكذا أنا أكبر

من الجنة، بل أكثر كثيرا من ذلك عدد حبوب رمل البحر وقطرات الماء في البحر وعشب الأرض وأوراق الأشجار وجلود الحيوانات، بل أكثر من ذلك كثيرا عدد حبوب الرمل التي تملأ السماوات والجنة بل أكثر! ".

حينئذ قال يسوع: " لنسجد لإلهنا المبارك إلى الأبد "، فطأطأوا من ثم رؤسهم مائة مرة. وعفروا الأرض بوجوههم في الصلاة، ولما انتهت الصلاة دعا يسوع بطرس وأخبره هو وكل التلاميذ بما رأى، وقال لبطرس: " إن نفسك التي هي أعظم من الأرض برمتها، ترى بعين واحدة الشمس التي هي أكبر من الأرض بألوف من المرات "، أجاب بطرس: " إن ذلك لصحيح، فقال حينئذ يسوع: " هكذا ترى الله خالقك بواسطة الجنة "، وبعد أن قال يسوع هذا، شكر الله ربنا مصليا (١)... "!

----

(١) راجع ص ٢٦٠ - ٢٧٠ من إنجيل برنابا.

الفصل الثالث
تمجيد الله تعالى
في إنجيل برنابا

" الحمد لله الدال على وجوده بخلقه وبمحدث خلقه على أزليته، وباشتباههم على أن لا شبه له، لا تستلمه المشاعر (١)، ولا تحجبه السواتر، لافتراق الصانع والمصنوع، والحاد والمحدود، والرب والمربوب، الأحد بلا تأويل عدد، والخالق لا بمعنى حركة ونصب، والسميع لا بأداة، والبصير بلا تفريق آلة (٢)، والشاهد لا بمماسة، والبائن (٣) لا بتراخي مسافة، والظاهر لا برؤية. والباطن لا بلطافة، بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه، من وصفه (٤) فقد حده، ومن حده فقد عده، ومن عده فقد أبطل أزله، ومن قال كيف فقد استوصفه، ومن قال أين فقد حيزه، عالم إذ لا معلوم، ورب إذ لا مربوب، وقادر إذ لا مقدور (٥) ".

" الحمد لله الذي انحسرت (٦) الأوصاف عن كنه معرفته، وردعت عظمته العقول، فلم تجد مساغا إلى بلوغ غاية ملكوته، هو الله الملك الحق المبين، أحق وأبين مما تراه العيون، لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبها، ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلا، خلق الخلق على غير تمثيل ولا مشورة

---

(١) أي لا تصل إليه الحواس.
(٢) تفريق الآلة: تفريق الأجفان وفتح بعضها عن بعض.
(٣) البائن: المنفصل عن خلقه.
(٤) أي من كيفه بكيفيات المحدثين، فقد حده.
(٥) راجع ص ٢٩٣ من نهج البلاغة ج ١.
(٦) انقطعت.

مشير ولا معونة معين، فتم خلقه بأمره وأذعن لطاعته فأجاب ولم يدفع، وانقاد ولم ينازع (١)!

" أمره قضاء وحكمة، ورضاه أمان ورحمة، يقضي بعلم ويعفو بحلم، اللهم لك الحمد على ما تأخذ وتعطي، وعلى ما تعافي وتبتلي، حمدا يكون أرضى الحمد لك، وأحب الحمد إليك، وأفضل الحمد عندك، حمدا يملأ ما خلقت ويبلغ ما أردت، حمدا لا يحجب عنك ولا يقصر دونك، حمدا لا ينقطع عدده ولا يفنى مدده، فلسنا نعلم كنه عظمتك، إلا أنا نعلم أنك حي قيوم، لا تأخذك سنة ولا نوم، ولم ينته إليك نظر ولم يدركك بصر، أدركت الأبصار، أحصيت الأعمار وأخذت بالنواصي والأقدام، وما الذي نرى من خلقك ونعجب له من قدرتك ونصفه من عظيم سلطانك، وما تغيب عنا منه، وقصرت أبصارنا عنه، وانتهت عقولنا دونه، وحالت ستور الغيوب بيننا وبينه أعظم، فمن فرغ قلبه وأعمل فكره، ليعلم كيف أقمت عرشك وذرات خلقك، وكيف علقت في الهواء سمواتك، وكيف مددت على مور الماء أرضك، رجع طرفه حسيرا. وعقله مبهورا، وسمعه والها وفكره حائرا (٢) "!

وبعد فسنتحدث في هذا الفصل عن حديث يسوع عن تعليم الأنبياء وهم أموات وتعريفهم بالله، وأن الله حاميهم رغم اضطهاد الناس لهم، وأنه هكذا يجب على الناس فعل الخير مع الجميع وأن يكونوا قديسين لأن ربهم قدوس وكاملين لأن ربهم كامل، ولذا يجب عليهم الإيمان به ومعرفته المعرفة الحق ومعرفة أن ليس له من شبيه، وأن الصلاة له تكون بالقلب قبل اللسان،

وأنه إذا اغتسل الإنسان للصلاة، يجب عليه أن يعرف أن البحر كله لا يغسل من يحب الآثام بقلبه، وبذا يستحق الإنسان ربه، بأن يتضع اتضاعا حقيقيا ليكون جديرا بقربه! " تبارك اسم الله القدوس الذي خلق نور جميع القديسين والأنبياء (٣) قبل كل شئ، ليرسله لخلاص العالم كله، كما تكلم بواسطة عبده

---

(١) راجع ص ٢٩٩ من نهج البلاغة ج ١

(٢) راجع ص ٣٠٩ و ٣١٠ من نهج البلاغة ج ١.

(٣) سنرى أنه يريد بنور الأنبياء: محمد رسول الله.

داود قائلا: " قبل كوكب الصبح في ضياء القديسين خلقتك "، تبارك اسم الله القدوس، الذي خلق الملائكة ليخدموه، وتبارك الله الذي قاص وخذل الشيطان وأتباعه الذين لم يسجدوا لمن أحب الله أن يسجد له، تبارك اسم الله القدوس الذي خلق الإنسان من طين الأرض وجعله قيما على أعماله، تبارك اسم الله القدوس الذي طرد الإنسان من الفردوس، لأنه عصى أوامره الطاهرة، تبارك اسم الله القدوس الذي برحمته نظر بإشفاق إلى دموع آدم وحواء أبوي الجنس البشري، تبارك اسم الله القدوس الذي قاص بعدل قايين (١) قاتل أخيه، وأرسل الطوفان على الأرض، وأحرق ثلاث مدن شريرة وضرب مصر وأغرق فرعون في البحر الأحمر، وبدد شمل أعداء شعبه وأدب الكفرة وقاص غير التائبين، تبارك اسم الله القدوس الذي برحمته أشفق على خلائقه فأرسل إليهم أنبياءه ليسيروا في الحق والبر أمامه الذي أنقذ عبيده من كل شر، وأعطاهم هذه الأرض كما وعد أبانا إبراهيم وابنه، إلى الأبد، ثم أعطانا ناموسه الطاهر على يد عبده موسى، لكي لا يغشنا الشيطان، ورفعنا فوق جميع الشعوب (٢) ".

(١) وجوب اتباع أنبياء الله:

في زمن الفترة ينجو الموحدون الذين يعملون صالحا، فإذا ما جاء النبي وجب اتباعه!

ولقد جاء في الفصلين التاسع والسبعين والثمانين من إنجيل برنابا عن كيفية تعليم الأنبياء وهم أموات، وتعليم من لا معرفة له بهم:

---

(١) هو قابيل قاتل هابيل.

(٢) راجع في الفصل الثاني عشر من إنجيل برنابا: الموعظة الأولى التي ألقاها يسوع على الشعب ص ١٢ - ١٤ وفي الفصل الرابع عشر ص ١٦ و ١٧: المسيح ينتخب اثني عشر تلميذا بعد صيام أربعين يوما (وتوما وسمعان الغيوران محذوفان منهم، استبدل بهم برنابا وتدايوس).

أجاب يعقوب: " وكيف يعلمنا الأنبياء وهم أموات؟ وكيف يعلم من لا معرفة له بالأنبياء؟ "، فأجاب يسوع: " إن تعليمهم مدون، فتجب مطالعته لأن الكتابة بمثابة نبي لك، الحق الحق أقول لك، إن من يمتهن النبوة، لا يمتهن النبي فقط، بل يمتهن الله الذي أرسل النبي أيضا، أما ما يختص بالأمم الذين لا يعرفون النبي، فإني أقول لكم إنه إذا عاش في تلك الأقطار رجل يعيش كما يوحي إليه قلبه، غير فاعل للآخرين ما لا يود أن يناله من الآخرين، معطيا لقريبه ما يود أخذه من الآخرين، فلا تتخلى رحمة الله عن مثل هذا الرجل، فلذلك يظهر له الله ويمنحه برحمته شريعته عند الموت، إن من لم يكن قبل ذلك، ولعله يخطر في بالكم أن الله أعطى الشريعة حبا بالشريعة، حقا إن هذا لباطل، بل منح الله شريعته، ليفعل الإنسان حسنا، حبا في الله، فإذا وجد الله إنسانا يفعل حسنا حبا له، أفتظنون أنه يمتهنه؟ كلا ثم كلا! بل يحبه أكثر من الذين أعطاهم الشريعة... هكذا يحفظ إلهنا من لهب الجحيم من يفعلون برأ أينما كانوا! قولوا لي أسكن أيوب في غير أرض عوص بين عبدة الأصنام؟ وكيف يكتب موسى عن زمن الطوفان؟ قولوا لي؟ إنه يقول " إن نوحا وجد نعمة أمام الله "، كان لأبينا إبراهيم أب لا إيمان له، لأنه كان يصنع ويعبد الأصنام الباطلة، وسكن لوط بين شر ناس على الأرض، ولقد أخذ نبوخذنصر دانيال أسيرا وهو طفل مع حننيا وعزريا وميشائيل الذين لم يكن لهم سوى سنتين من العمر لما أسروا وربوا بين جمع من الخدم عبدة الأصنام، لعمر الله إن النار تحرق الأشياء اليابسة وتحولها نارا بدون تمييز بين الزيتون والسرو والنخل، هكذا يرحم إلهنا كل من يفعل برا غير مميز بين اليهودي والسكيثي واليوناني أو الإسماعيلي، ولكن لا يقف قلبك هناك يا يعقوب، لأنه حيث أرسل الله النبي، ترتب عليك حتما أن تنكر حكمك وتتبع النبي، لا أن تقول: " لماذا يقول هذه! لماذا يأمر وينهى؟ "، بل قل: " هكذا يريد الله، وهكذا يأمر الله "، ألا ماذا قال الله لموسى لما امتهن إسرائيل موسى؟ " إنهم لم يمتهنوك، ولكن امتهنوني أنا "، الحق أقول لكم إنه لا يجب على الإنسان أن يصرف زمن حياته في تعلم الكلام أو القراءة، بل في تعلم كيف يشتغل

جيدا... ويل للعالم الذي يحاول أن يرضى جسدا ليس سوى طين وسرقين، ولا يحاول بل ينسى خدمة الله الذي خلق كل شئ، المجيد إلى الأبد (١) ".
(٢) وجوب الصبر في خدمة الله:
احذروا أن تريدوا أو تحبوا شيئا غير مرض لله ربنا:
ولقد جاء في الفصل الثامن عشر توضيح اضطهاد العالم لخدمة الله، وأن حماية الله تقيهم:
" تذكروا الأنبياء الأطهار الذين قتلهم العالم، كما حدث في أيام إيليا، إذ قتلت إيزابل عشرة آلاف نبي، حتى بالجهد نجا إيليا المسكين وسبعة آلاف من أبناء الأنبياء الذين خبأهم رئيس جيش أخاب، أواه من العالم الفاجر الذي لا يعرف الله، إذا لا تخافوا أنتم، لأن شعور رؤوسكم محصاة كي لا تهلك، انظروا العصفور الدروي والطيور الأخرى التي لا تسقط منها ريشة بدون إرادة الله، أيعتني الله بالطيور أكثر من اعتنائه بالإنسان الذي لأجله خلق كل شئ.. أفلا يجب عليكم بالأولى أن تظنوا أن الله لا يهملكم، وهو المعتني بالطيور، ولكن لماذا أتكلم عن الطيور، بل لا تسقط ورقة شجرة بدون إرادة الله، صدقوني لأني أقول لكم الحق، إن العالم يرهبكم إذا حفظتم كلامي، لأنه لو لم يخش فضيحة فجوره، لما أبغضكم، ولكنه يخشى فضيحته، ولذلك يبغضكم ويضطهدكم، فإذا رأيتم العالم يستهين بكلامكم، فلا تحزنوا، بل تأملوا كيف أن الله وهو أعظم منكم... يحتمل العالم بصبر، فلماذا تحزنون أنتم يا تراب وطين الأرض؟ فبصبركم تملكون أنفسكم، فإذا لطمكم أحد على خد فحولوا له الآخر ليلطمه، لا تجازوا شرا بشر، لأن ذلك ما تفعله شرا الحيوانات كلها، ولكن جازوا الشر بالخير، وصلوا لله لأجل الذين يبغضونكم، النار لا تطفأ بالنار، لذلك أقول لكم لا تغلبوا الشر بالشر بل بالخير، أنظروا الله الذي جعل شمسه تطلع على الصالحين والطالحين، وكذلك المطر، فكذلك يجب عليكم أن

---

(١) راجع ص ١٢٢ - ١٢٥ من إنجيل برنابا.

تفعلوا خيرا مع الجميع، لأنه مكتوب في الناموس " كونوا قديسين، لأني أنا إلهكم قدوس، كونوا أنقياء، لأني أنا نقي، وكونوا كاملين لأني أنا كامل، الحق أقول لكم إن الخادم يحاول إرضاء سيده، فلا يلبس ثوبا ينفر منه سيده، وأثوابكم هي إرادتكم ومحبتكم، احذروا إذا من أن تريدوا أو تحبوا شيئا غير مرض لله ربنا، أيقنوا أن الله يبغض بهرجة وشهوات العالم، لذلك ابغضوا أنتم العالم (١) "!

(٣) الإيمان بالله:

أساس الإيمان الله وكلمته، " فأوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر واحتج بما نهج، وحذركم عدوا نفذ في الصدور خفيا، ونفث في الأذان نجيا، فأضل وأردى ووعد فمنى، وزين سيئات الجرائم وهون موبقات العظائم حتى إذا استدرج قرينته واستغلق رهينته، أنكر ما زين واستعظم ما هون، وحذر ما أمن (٢) "!

ولقد جاء في الفصل التسعين من إنجيل برنابا عن الإيمان ".. الإيمان خاتم يختم به الله مختاريه.. فيرى المؤمن بإيمانه كل شئ أجلى من رؤيته إياه بعينه، لأن العينين، قد تخطئان، بل تكادان تخطئان على الدوام، أما الإيمان فلن يخطئ، لأن أساسه الله وكلمته، وصدقني (٣) أنه بالإيمان يخلص كل مختاري الله، ومن المؤكد أنه بدون إيمان، لا يمكن لأحد أن يرضي الله، لذلك لا يحاول الشيطان أن يبطل الصوم والصلاة والصدقات والحج، بل هو يحرض الكافرين عليها، لأنه يسر أن يرى الإنسان يشتغل بدون الحصول على أجرة، لن يحاول جهده بجد أن يبطل الإيمان، ولذلك وجب بوجه أخص، أن يحرص

----

(١) راجع ص ٢٣ و ٢٤ من إنجيل برنابا. وظاهر أن الدعوة إلى بغض العالم، معناها الدعوة إلى بغض بهرجته وشروره!

(٢) راجع ص ١٥٥ من نهج البلاغة ج ١.

(٣) الحديث ليوحنا والتلاميذ، جوابا عن سؤال يوحنا!

على الإيمان بجد، وآمن طريقة لذلك، أن تترك لفظة لماذا، لأن لماذا أخرجت البشر من الفردوس... "!
فقال يوحنا " كيف نترك لماذا، وهي باب العلم؟ "، أجاب يسوع " بل لماذا هي باب الجحيم "، فصمت يوحنا، أما يسوع فزاد " متى علمت أن الله قال شيئا، فمن أنت أيها الإنسان حتى تتقعر " لماذا قلت يا الله كذا؟ لماذا فعلت كذا؟ "، أيقول الإناء الخزفي لصانعه مثلا " لماذا صنعتني لأحوي ماء، لا لأحوي بلسما؟ " الحق أقول لكم إنه يجب في كل تجربة أن تنقوا بهذه الكلمة، قائلين " إنما الله قال كذا، إنما الله فعل كذا، إنما الله يريد كذا " لأنك إن فعلت هذا، عشت في أمن (١) "!

(٤) معرفة الله:

معرفة الله هي أصل كل نور في الحياة، إذ تشتق منها كل الفضائل الأخرى، فمن لا يعرف الله، يفقد أصل مقوماته كإنسان، يفقد روحه وضميره ويعيش في جهالة عمياء، فإذا ما عرف ربه، شعت المعرفة عليه بنورها، وعم بروحانيته العالم كله!

ولقد جاء في الفصل السابع عشر من إنجيل برنابا عن معرفة الله: "... أجاب فيليبس " إننا لراغبون في خدمة الله، ولكننا نرغب أيضا أن نعرف الله، لأن أشعيا النبي، قال " حقا إنك لإله محتجب "، وقال الله لموسى عبده " أنا الذي هو أنا "، أجاب يسوع " يا فيليبس! إن الله صلاح بدونه لا صلاح، إن الله موجود بدونه لا وجود، إن الله حياة بدونه لا أحياء، هو عظيم حتى أنه يملأ الجميع، وهو في كل مكان، هو وحده لا ند له، له بداية ولا نهاية له، ولكنه جعل لكل شئ بداية، وسيجعل لكل شئ نهاية، لا أب ولا أم له، لا أبناء ولا إخوة ولا عشراء له، ولما كان ليس لله جسم، فهو لا يأكل ولا ينام ولا يموت ولا يمشي ولا يتحرك، ولكنه يدوم إلى الأبد بدون شبيه بشري،

---

(١) راجع ص ١٣٩ و ١٤٠ من إنجيل برنابا.

لأنه يغير ذي جسد وغير مركب وغير مادي وأبسط البسائط، وهو جواد لا يحب إلا الجود، وهو مقسط حتى إذا هو قاص أو صفح، فلا مرد له، وبالاختصار أقول لك يا فيليبس إنه لا يمكنك أن تراه وتعرفه على الأرض تمام المعرفة، ولكنك ستراه في مملكته إلى الأبد، حيث يكون قوام سعادتنا ومجدنا (١) "!

(٥) ليس لله شبيه:

لله يد وسمع وبصر وكلام، لا كيدنا ولا سمعنا ولا بصرنا ولا كلامنا، بل لله المثل الأعلى، وليس له من شبيه من خلقه، وهو مستو على عرشه بالكيفية التي أرادها بالاستواء!

ولقد جاء في الفصلين الرابع بعد المائة والخامس بعد المائة عن أن ليس لله من شبه: " قال متى: يا معلم إنك لقد اعترفت أمام اليهودية كلها بأن ليس لله من شبه كالبشر، وقلت الآن إن الإنسان ينال من يدي الله، فإذا كان لله يدان إذا شبه بالبشر "، أجاب يسوع " إنك لفي ضلال يا متى، ولقد ضل كثيرون هكذا، إذ لم يفقهوا معنى الكلام، لأنه لا يجب على الإنسان أن يلاحظ ظاهر الكلام، بل معناه، إذ الكلام البشري بمثابة ترجمان بيننا وبين الله، ألا تعلم أنه لما أراد الله أن يكلم آباءنا على جبل سيناء، صرخ آباؤنا " كلمنا أنت يا موسى، ولا يكلمنا الله، لئلا نموت "، وماذا قال الله على لسان أشعيا النبي " أليس كما بعدت السماوات عن الأرض، هكذا بعدت طرق الله عن طرق الناس، وأفكار الله عن أفكار الناس؟ ". إن الله لا يدركه قياس، إلى حد أني أرتجف من وصفه، ولكن يجب أن أذكر لكم قضية، فأقول لكم إذا إن السماوات (٢).

---

(١) راجع ص ٢٠ و ٢١ من إنجيل برنابا.

(٢) ذكر هنا أن عدد السماوات تسع، مع أن المعروف لنا من القرآن الكريم أنها سبع، ومعروف أن الرقمين يتشابهان في اللاتيني (٧ و ٩)، لذا لا نستبعد حصول خطأ مطبعي في أي من الترجمتين الإنجليزية أو الإيتالية!

بعضها يبعد عن بعض كما تبعد السماء الأولى عن الأرض التي تبعد عن الأرض سفر خمسمائة سنة، وعليه فإن الأرض تبعد عن أعلى سماء مسيرة أربعة آلاف وخمسمائة سنة، فبناء على ذلك أقول لكم إنها بالنسبة إلى السماء الأولى كرأس إبرة، ومثلها السماء الأولى بالنسبة إلى الثانية، وعلى هذا النمط كل السماوات، الواحدة منها أسفل مما يليها، ولكن كل حجم الأرض مع حجم كل السماوات بالنسبة إلى الجنة كنقطة بل كحبة رمل، أليست هذه العظمة مما لا يقاس؟ "، فأجاب التلاميذ " بلى! بلى! "، حينئذ قال يسع " لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن الكون أمام الله، لصغير كحبة رمل، والله أعظم من ذلك بمقدار ما يلزم من حبوب الرمل لملء كل السماوات والجنة بل أكثر، فانظروا الآن إذا كان هناك نسبة بين الله والإنسان الذي ليس وسوى كتلة صغيرة من طين واقفة على الأرض، فانتبهوا إذا لتأخذوا المعنى، لا مجرد الكلام، إذا أردتم أن تنالوا الحياة الأبدية "، فأجاب التلاميذ " إن الله وحده يقدر أن يعرف نفسه، وإنه حقا لكما قال أشعيا النبي " هو محتجب عن الحواس البشرية ". أجاب يسوع " إن هذا لهو الحق، لذلك سنعرف الله متى صرنا في الجنة، كما يعرف هنا البحر من قطرة ماء مالح (١) "!

(٦) الصلاة لله:

الصلاة مناجاة لله وتضرع وركوع وسجود ودعاء، وهي تقرب العبد إلى ربه، لأنه بمناجاته له وبدعائه وطلبه منه أن يرحمه وأن يعطيه وأن يهبه الجنة ويقيه النار وأن يرزقه ويحفظه ويقيه السيئات، صلة لا ينعم بمثلها من لا يقوم بالصلاة، ولذلك كانت الصلاة في الإسلام إحدى دعائمه، لأنها لا تكون إلا عن معرفة لله، ولأنها إذا كانت متوفرة شروطها من الخضوع لله والتفكير في عظمته، حققت غرضها، فتنهى عبد الله المصلي عن كل فحشاء وكل منكر، وتقربه إلى الجلال والجمال!

---

(١) راجع ص ١٦٠ – ١٦٢ من إنجيل برنابا.

(ا) ولقد جاء في الفصلين السادس والثلاثين والسابع والثلاثين من إنجيل برنابا عن الصلاة: "... الحق أقول لكم إن من لا يصلي، فهو شر من الشيطان وسيحل به عذاب عظيم، لأنه لم يكن للشيطان قبل سقوطه عبرة الخوف، ولم يرسل الله له رسولا يدعوه إلى التوبة، ولكن الإنسان – وقد جاء الأنبياء كلهم إلا رسول الله الذي سيأتي بعدي، لأن الله يريد ذلك حتى أهيئ طريقه – يعيش بإهمال بدون أدنى خوف، كأنه لا يوجد إله، على أن له أمثلة لا عداد لها على عدل الله، فعن مثل هؤلاء قال داود النبي " قال الجاهل في قلبه، ليس إله، لذلك كانوا فاسدين، وأمسوا رجسا، دون أن يكون فيهم واحد يفعل صلاحا "!
" صلوا بدون انقطاع يا تلاميذي، لتعطوا، لأن من يطلب يجد، ومن يقرع يفتح له، ومن يسأل يعط، ولا تنظروا في صلواتكم إلى كثرة الكلام، لأن الله ينظر إلى القلب، كما قال سليمان " يا عبدي أعطني قلبك " الحق أقول لكم لعمر الله إن المرائين يصلون كثيرا في كل أنحاء المدينة، لينظرهم الجمهور ويعدهم قديسين، ولكن قلوبهم ممتلئة شرا، فهم ليسوا على جد فيما يطلبون، فمن الضروري أن تكون مخلصا في صلاتك، إذا أحببت أن يقبلك الله....
الحق أقول لكم إن الذين يقيمون الصلاة قليلون، ولذلك كان للشيطان تسلط لأن الله لا يحب أولئك الذين يكرمونه بشفاههم... ولكن قلوبهم تستصرخ العدل، كما تكلم أشعيا النبي قائلا " أبعد هذا الشعب الثقيل على، لأنهم يحترمونني بشفاههم، أما قلبهم فمبتعد عني "، الحق أقول لكم إن الذي يذهب ليصلي بدون تدبر، يستهزئ بالله.. فإذا أساء إليك أحد وقال لك بشفتيه " اغفر لي " وضربك ضربة بيديه، فكيف تغفر له؟ هكذا يرحم الله الذين يقولون بشفاههم " يا رب ارحمنا "، ويحبون بقلوبهم الإثم ويهمون بخطايا جديدة "!
فبكى التلاميذ لكلام يسوع وتضرعوا إليه قائلين " يا سيد علمنا لنصلي "، أجاب يسوع ".. ليكن كلامكم هكذا " أيها الرب إلهنا، ليتقدس اسمك القدوس، ليأت ملكوتك فينا، لتنفذ مشيئتك دائما، وكما هي نافذة في السماء، لتكن نافذة كذلك على الأرض، أعطنا الخبز لكل يوم، واغفر لنا خطايانا، كما نغفر نحن لمن يخطئون إلينا، ولا تسمح بدخولنا في التجارب، ولكن نجنا

من الشرير، لأنك أنت وحدك إلهنا الذي يجب له المجد والاكرام إلى الأبد (١) "!
(ب) وجاء في الفصل الثامن والثلاثين عن الاغتسال للصلاة:
" حينئذ أجاب يوحنا " يا معلم لنغتسل كما أمر الله على لسان موسى "،
قال يسوع " أتظنون أني جئت لأبطل الشريعة والأنبياء، الحق أقول لكم،
لعمر الله إني لم آت لأبطلها، ولكن لأحفظها، لأن كل نبي حفظ شريعة الله
وكل ما تكلم به على لسان الأنبياء الآخرين، لعمر الله الذي تقف نفسي
في حضرته، لا يمكن أن يكون مرضيا لله من يخالف أقل وصاياه، لكنه
يكون الأصغر في ملكوت الله، بل لا يكون له نصيب هناك، وأقول لكم
أيضا إنه لا يمكن مخالفة حرف واحد من شريعة الله إلا باجتراح أكبر الآثام،
ولكني أحب أن تفقهوا أنه ضروري أن تحافظوا على هذه الكلمات التي قالها الله
على لسان أشعيا النبي " اغتسلوا وكونوا أتقياء " أبعدوا أفكاركم عن عيني،
الحق أقول لكم إن البحر كله لا يغسل من يحب الآثام بقلبه، وأقول لكم أيضا
إنه لا يقدم أحد صلاة مرضية لله، إن لم يغتسل، ولكنه يحمل نفسه خطيئة
شبيهة بعبادة الأوثان! صدقوني بالحق، إنه إذا صلى إنسان لله كما يجب، ينال كل
ما يطلب، اذكروا موسى عبد الله الذي ضرب بصلاته مصر وشق البحر
الأحمر وأغرق هناك فرعون وجيشه، اذكروا يشوع الذي أوقف الشمس،
وصموئيل الذي أوقع الرعب في جيش الفلسطينيين الذي لا يحصى، وإيليا
الذي أمطر نارا من السماء، وأقام أليشع ميتا، وكثيرون غيرهم من الأنبياء
الأطهار الذين بواسطة الصلاة نالوا كل ما طلبوا، ولكن هؤلاء الناس لم يطلبوا
في الحقيقة شيئا لهم أنفسهم، بل إنما طلبوا الله ومجده (٢) "!
(ج) وجاء في الفصلين الثالث والثمانين والرابع والثمانين من إنجيل برنابا
عن وساوس الصلاة:

---

(١) راجع ص ٥٦ – ٥٨ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٥٨ – ٦٠ من إنجيل برنابا.

"... وبعد صلاة نصف الليل، اقترب التلاميذ من يسوع، فقال لهم
ستكون هذه الليلة في زمن مسيا رسول الله اليوبيل السنوي الذي يجئ الآن
كل مائة سنة، لذلك لا أريد أن ننام، بل أن نصلي محنين رأسنا مائة مرة،
ساجدين لإلهنا القدير الرحيم المبارك إلى الأبد، فلنقل كل مرة " أعترف بك
إلهنا الأحد، الذي ليس لك من بداية، ولا يكون لك من نهاية، لأنك برحمتك
أعطيت كل الأشياء بدايتها، وستعطي بعدلك الكل نهاية، لا شبه لك بين البشر،
لأنك بجودك غير المتناهي، لست عرضة للحركة ولا لعارض، ارحمنا لأنك
خلقتنا ونحن عمل يدك "، ولما صلى يسوع، قال " لنشكر الله لأنه وهبنا هذه
الليلة رحمة عظيمة، لأنه أعاد الزمن الذي يلزم أن يمر في هذه الليلة، إذ قد صلينا
بالاتحاد مع رسول الله، وقد سمعت صوته "، فلما سمع التلاميذ هذا، تهللوا
كثيرا وقالوا " يا معلم! علمنا شيئا من الوصايا هذه الليلة "، فقال يسوع:
"... إن كثيرين من الذين يعيشون بلا لوم قد خدعوا من الشيطان، وبينا هم
يصلون، مزجوا بصلاتهم المشاغل العالمية، فأصبحوا في ذلك الوقت ممقوتين
في نظر الله، قولوا لي أتحذرون متى اغتسلتم للصلاة من أن يمسكم شئ نجس؟
نعم بكل تأكيد، ولكن ماذا تفعلون عندما تصلون؟ إنكم تغسلون أنفسكم
من الخطايا بواسطة رحمة الله، أتريدون إذا وأنتم تصلون أن تتكلموا عن الأشياء
العالمية، احذروا من أن تفعلوا هكذا، لأن كل كلمة عالمية تصير براز الشيطان
على نفس المتكلم "، فارتجف التلاميذ، لأنه كلمهم بحدة الروح وقالوا " يا معلم
ماذا نفعل، إذا جاء صديق يكلمنا ونحن نصلي؟ "، أجاب يسوع " دعوه ينتظر
وأكملوا الصلاة "، فقال برتولوماوس " ولكن لو فرضنا أنه متى رأى أننا
لا نكلمه، اغتاظ وانصرف "؟
أجاب يسوع " إذا اغتاظ، فصدقوني أنه ليس بصديقكم، وليس بمؤمن
بل كافر رفيق الشيطان... الحق أقول لكم إن كل من يصلي، إنما يكلم الله،
أفيصح أن تتركوا التكلم مع الله، لتكلموا الناس؟ أيحق لصديقكم أن يغتاظ
لهذا السبب، لأنكم تحترمون الله أكثر منه؟ صدقوني أنه إن اغتاظ، لأن

جعلتموه ينتظر، فإنما هو خادم جيد للشيطان، لأن هذا ما يتمناه الشيطان أن يترك الله لأجل الناس، لعمر الله إنه يجب على كل من يخاف الله، أن ينفصل في كل عمل صالح عن أعمال العالم، لكيلا يفسد العمل الصالح (١) "!

(ء) وجاء في الفصول من التاسع عشر بعد المائة إلى الحادي والعشرين بعد المائة من إنجيل برنابا عن تحويل التائب الثرثرة والمزاح إلى صلاة.

"... أما ما يجب على التائب عمله بعد ذلك من تحويل الثرثرة إلى صلاة، فهو ما يقول به العقل، حتى لو لم يكن وصية من الله، لأن الإنسان يخطئ في كل كلمة قبيحة، ويمحو إلهنا خطيئته بالصلاة، لأن الصلاة هي شفيع النفس، الصلاة هي دواء النفس، الصلاة هي صيانة القلب، الصلاة هي سلاح الإيمان، الصلاة هي لجام الحس، الصلاة هي ملح الجسد الذي لا يسمح بفساده بالخطيئة، أقول لكم إن الصلاة هي يدا حياتنا اللتان بهما يدافع المصلي عن نفسه في يوم الدين، فإنه يحفظ نفسه من الخطيئة على الأرض، ويحفظ قلبه حتى لا تمسه الأماني الشريرة، مغضبا الشيطان، لأنه يحفظ حسه ضمن شريعة الله ويسلك جسده في البر، نائلا من الله كل ما يطلب! لعمر الله الذي نحن في حضرته، إن الإنسان بدون صلاة لا يقدر أن يكون رجلا ذا أعمال صالحة، أكثر مما يقدر أخرس على الاحتجاج عن نفسه أما ضرير... " ألا فلماذا لا يحول المرء الثرثرة إلى صلاة؟ أأعطاه الله الوقت لكي يغضب الله؟... لعمر الله لو علم المرء إلى أية صورة تتحول النفس بالكلام الباطل، لفضل عض لسانه بأسنانه على التكلم!... أما ثمر الكلام الباطل فهو هذا: إنه يوهن البصيرة إلى حد لا يمكنها معه أن تكون مستعدة لقبول الحق، فهو كفرس اعتاد أن يحمل رطلا من القطن، فلم يعد قادرا أن يحمل مائة رطل من الحجر. ولكن شر من ذلك الرجل الذي يصرف وقته في المزاح، فمتى أراد أن يصلي، ذكره الشيطان بنفس تلك الفكاهات المزحية، وحتى أنه عندما يجب عليه أن يبكي على خطاياه، لكي يستمنح الله الرحمة ولينال غفران خطاياه، يثير بالضحك

---

(١) راجع ص ١٣٠ – ١٣٢ من إنجيل برنابا.

غضب الله الذي سيؤدبه ويطرحه خارجا! ويل للمازحين والمتكلمين بالباطل!
ولكن إذا كان يمقت إلهنا المازحين والمتكلمين بالباطل، فكيف يعتبر الذين
يتذمرون ويغتابون جيرانهم، وفي أي ورطة يكون الذين يتخذون ارتكاب
الخطيئة ضربا من التجارة على غاية الضرورة؟ أيها العالم الدنس! لا أقدر
أن أتصور بأي صرامة يقتص منك الله! فعلى من يجاهد نفسه أن يعطي كلامه
بثمن الذهب "!
أجاب تلاميذه " ولكن من يشتري كلام امرئ بثمن الذهب؟ لا أحد
قط وكيف يجاهد نفسه؟ من المؤكد أنه يصير طماعا؟ "، أجاب يسوع " إن قلبكم
ثقيل جدا، حتى أني لا أقدر على رفعه، ولذلك لزم أن أفيدكم معنى كل كلمة،
ولكن اشكروا الله الذي وهبكم نعمه لتعرفوا أسرار الله، لا أقول على النائب
أن يبيع كلامه، بل أقول إنه متى تكلم، وجب عليه أن يحسب أنه يلفظ ذهبا،
حقا إنه إذا فعل ذلك، فإنه يتكلم متى كان الكلام ضروريا، كما يصرف الذهب
على الأشياء الضرورية، فكما لا يصرف أحد ذهبا على شئ يكون من ورائه
ضرر بجسده، كذلك لا ينبغي أن يتكلم عن شئ قد يضر نفسه.. هذا
ما يجب إذا على النائب عمله لكي لا يخسر نفسه، لأن الله أعطى كل إنسان
ملاكين مسجلين، أحدهما لتدوين الخير الذي يعمله الإنسان، والآخر
لتدوين الشر، فإذا أحب الإنسان أن ينال رحمة، فليزن كلامه بأدق مما يزن
الذهب (١) "!
(٧) كيف يستحق الإنسان ربه:
يستحق الإنسان ربه بالاتضاع الحقيقي، ومن تواضع لله رفعه! وقد جاء
في الفصول من الثمانين بعد المائة إلى التسعين بعد المائة في إنجيل برنابا عن كيف
يستحق الإنسان ربه:
" لما كان يسوع ذات يوم في رواق سليمان، دنا منه أحد فرقة الكتبة،
وهو أحد الذين يخطبون في الشعب، وقال له يا معلم! لقد خطبت في الشعب

----

(١) راجع ص ١٨٢ - ١٨٦ من إنجيل برنابا.

عدة مرات، وفي خاطري آية من الكتاب أشكل على فهمها، " أجاب يسوع وما هي؟ "، قال الكاتب " هي ما قاله الله لإبراهيم أبينا " إني أكون جزاءك العظيم " فكيف يستحق الإنسان هذا الجزاء؟ "، فتهلل حينئذ يسوع بالروح وقال " حقا إنك لست بعيدا عن ملكوت الله! أصخ السمع إلى لأني أفيدك معنى هذا التعليم، لما كان الله غير محدود والإنسان محدودا " لم يستحق الإنسان الله، فهل هذا موضع ريبتك أيها الأخ "، أجاب الكاتب باكيا " يا سيد! إنك تعرف قلبي، تكلم إذا لأن نفسي تروم أن تسمع صوتك، فقال حينئذ يسوع " لعمر الله إن الإنسان لا يستحق النفس القليل الذي يأخذه كل دقيقة "، فلما سمع الكاتب هذا كاد يجن واندهل كذلك التلاميذ لأنهم ذكروا ما قال يسوع إنهم مهما أعطوا في حب الله، يأخذون مائة ضعف، حينئذ قال: "... من خلق الإنسان من لا شئ؟ من المؤكد أنه هو الله الذي وهبه العالم برمته لمنفعته، ولكن الإنسان قد صرفه كله بارتكاب الخطيئة. لأنه بسبب الخطيئة انقلب العالم ضدا للإنسان، وليس للإنسان في شقائه شئ يعطيه لله سوى أعمال أفسدتها الخطيئة، لأنه بارتكابه الخطيئة كل يوم يفسد عمله. لذلك يقول أشعيا النبي " إن برنا كخرقة حائض " فيكف يكون للإنسان استحقاق وهو غير قادر على الترضية؟ لعل الإنسان لا يخطئ! إن المؤكد أن إلهنا يقول على لسان نبيه داود " إن الصديق يسقط سبع مرات في اليوم، فكم مرة يسقط الفاجر إذا؟ " وإذا كان برنا فاسدا، فكم يكون فجورنا ممقوتا؟ لعمر الله إنه لا يوجد شئ يجب على الإنسان الإعراض عنه كهذا القول " إني أستحق " ليعرف الإنسان أيها الأخ عمل يديه، فيرى استحقاقه، حقا إن كل عمل صالح يصدر عن الإنسان، لا يفعله الإنسان إنما يفعله الله فيه، لأن وجوده من الله الذي خلقه، أما ما يفعله الإنسان فهو أن يخالف خالقه ويرتكب الخطيئة التي لا يستحق عليها جزاء بل عذابا!

لم يخلق الله الإنسان كما قلت فقط، بل خلقه كاملا " ولقد أعطاه ملاكين

ليحرساه، وبعث له الأنبياء ومنحه الشريعة ومنحه الإيمان، وينقذه كل دقيقة من الشيطان، ويريد أن يهبه الجنة، بل أكثر من ذلك فإن الله يريد أن يعطي نفسه للإنسان، فتأملوا إذا فيما إذا كان الدين عظيما.!

ولكن لما كنتم غير قادرين على خلق ذبابة واحدة، ولما كان يوجد إلا إله واحد وهو سيد كل الأشياء، فكيف تقدرون أن تمحوا دينكم؟

حقا إن أقرضكم واحد مائة قطعة من الذهب، وجب عليكم أن تردوا مائة قطعة من الذهب، وعليه فإن معنى هذا أيها الأخ، هو أنه لما كان الله سيد الجنة وكل شئ، يقدر أن يقول كل ما يشاء ويهب ما يشاء، لذلك لما قال لإبراهيم إني أكون جزاءك العظيم، لم يقدر إبراهيم إن يقول " الله جزائي " بل الله هبتي وديني، لذاك يجب عليك أيها الأخ عندما تخطب في الشعب أن تفسر هذه الآية هكذا " إن الله يهب الإنسان كذا وكذا من الأشياء، إذا عمل الإنسان حسنا "، متى كلمك الله أيها الإنسان وقال " إنك يا عبدي قد عملت حسنا جدا، فأي جزاء تطلبه مني أنا إلهك؟ "، فأجب أنت " لما كنت يا رب عمل يديك، فلا يليق أن يكون في خطيئة وهو ما يحبه الشيطان، فارحم يا رب لأجل مجدك أعمال يديك "، فإذا قال الله " قد عفوت عنك، وأريد الآن أن أجزيك " فأجب " يا رب أنا أستحق العقوبة لما فعلته، وأنت تستحق لما فعلت أن تمجد، فعاقبني يا رب على ما فعلت وخلص ما قد صنعت " فإذا قال الله " ما هو العقاب الذي تراه معادلا لخطيئتك؟ "، فأجب أنت " يا رب بقدر ما سيكابده كل المنبوذين "، فإذا قال الله " لماذا تطلب يا عبدي الأمين عقوبة عظيمة كهذه؟، فأجب أنت " لو أخذ كل منها على قدر ما أخذت، لكانوا أشد إخلاصا مني في خدمتك "، فإذا قال الله " متى تريد أن تصيبك هذه العقوبة، وكم تكون مدتها؟ "، فأجب أنت " الآن وإلى غير نهاية "! لعمر الله الذي تقف نفسي به حضرته، إن رجلا كهذا يكون مرضيا لله أكثر من كل ملائكته الأطهار، لأن الله يحب الاتضاع الحقيقي ويكره الكبرياء "!

حينئذ شكر الكاتب يسوع وقال له " يا سيدي لنذهب إلى بيت خادمك

لأن خادمك يقدم لك وللتلاميذ طعاما "، أجاب يسوع " إني أذهب الآن إلى هناك، متى وعدتني أن تدعوني أخا لا سيدا، وتقول إنك أخي لا خادمي "، فوعد الرجل، وذهب يسوع إلى بيته، وبينما كانوا جالسين على الطعام، قال الكاتب " يا معلم! إن الله يحب الاتضاع الحقيقي، فقل لنا ما هو وكيف يكون حقيقيا أو كاذبا؟ "، أجاب يسوع " الحق أقول لكم إن من لا يصير كطفل صغير، لا يدخل ملكوت السماء "! تعجب كل أحد لسماع هذا وقال للآخر كف يمكن لمن كان ابن ثلاثين أو أربعين أن يصير ولدا؟ حقا إن هذا لقول عويص "، أجاب يسوع " لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن كلامي لحق، إني قلت لكم إنه يجب على الإنسان أن يصير كطفل صغير، لأن هذا هو الاتضاع الحقيقي... " إن من يشهد بالله بإخلاص قلب أن الله منشئ كل صلاح، وأنه هو نفسه منشئ الخطيئة، يكون متضعا، ولكن من يتكلم بلسانه كما يتكلم الولد ويناقضه بالعمل، فهو بالتأكيد تواضع كاذب وكبرياء حقيقية، إن الكبرياء تكون في أوجها متى استخدمت الأشياء الوضيعة لكيلا توبخها الناس وتمتهنها! فالاتضاع الحقيقي هو مسكنة النفس التي يعرف بها الإنسان نفسه بالحقيقة، ولكن الصفة الكاذبة إنما هي ضبابة من الجحيم، تجعل بصيرة النفس مظلمة، بحيث ينسب الإنسان إلى الله، ما يجب عليه أن ينسبه إلى نفسه، وعلى فإن الرجل ذا الاتضاع الكاذب يقول إنه متوغل في الخطيئة، ولكن إذا قال له أحد إنه خاطئ، ثار حنقه عليه واضطهده! وذو الاتضاع الكاذب يقول إن الله أعطاه كل ماله، ولكن هو من جهته لم ينعس بل عمل أعمالا صالحة!...

خدمة الله بالحق تمكن في كل زمن، ولكن الناس يصيرون أردياء بالاختلاط بالعالم أي بالعوائد الرديئة في كل زمن... وإن لفي مثال حجى كفاية لهم ليكونوا منبوذين من الله "، أجاب الكاتب " إن ذلك لصحيح "، فقال من ثم يسوع " أريد أن تقص علي مثال حجى وهوشع نبي الله، لنرى الفريسي الحقيقي "، أجاب الكاتب " ماذا أقول يا معلم؟! حقا إن كثيرين

لا يصدقون مع أنه مكتوب في دانيال النبي، ولكن إطاعة لك أقص الحقيقة!
كان حجى ابن خمس عشرة سنة عندما خرج من عند أناثوت ليخدم عوبديا النبي، بعد أن باع إرثه ووهبه للفقراء، أما عوبديا الشبخ الذي عرف اتضاع حجى، فاستعمله بمثابة كتاب يعلم به تلاميذه، فلذلك كان يكثر من تقديم الأثواب والأطعمة الفاخرة له، ولكن حجى كان دائما يرد الرسول قائلا " اذهب وعد إلى البيت، لأنك قد ارتكبت خطأ، أفيرسل لي عبوديا أشياء كهذه! لا البتة! لأنه يعرف أني لا أصلح لشئ إنما أرتكب الخطيئة "،
ومتى كان عند عوبديا شئ ردئ أعطاه لمن ولى حجى لكي يراه، فكان إذا رآه حجى يقول في نفسه " هاهو ذا عوبديا قد نسيني بلا ريب، لأن هذا الشئ لا يصلح إلا لي، لأني شر من الجميع، ومهما كان الشئ رديئا، فمتى أخذته من عوبديا الذي منحني الله إياه على يديه، صار كنزا "، ومتى أراد عوبديا أن يعلم أحدا كيف يصلي، عاد حجى وقال " أتل الآن صلاتك، ليسمع كل أحد كلامك "، فيقول حجى " أيها الرب إله إسرائيل، انظر إلى عبدك الذي يدعوك لأنك خلقته، أيها الرب الإله البار أذكر برك وقاص خطايا عبدك لكي لا أنجس عملك... إلهي إني لا أقدر أن أسألك المسرات التي تهبها لعبيدك المخلصين، لأني لا أفعل شيئا إلا الخطايا، فإذا أنزلت يا رب بأحد عبيدك سقما، فاذكرني أنا "، ثم قال الكاتب " وكان متى فعل حجى هذا، أحبه الله، حتى أن الله كان يعطي النبوة لكل من وقف بجانبه، ولم يكن حجى يطلب شيئا فيمنعه الله عنه!
ولما قال الكاتب الصالح هذا، بكى كما يبكي النوتي إذا رأى سفينته قد تحطمت قال " وكان هوشع لما ذهب ليخدم الله، أميرا لسبط نفتالي، وكان له من العمر أربع عشرة سنة، وبعد أن باع إرثه ووهبه للفقراء، ذهب ليكون تلميذا لحجى، وكان هوشع مشغوفا بالصدقة، حتى أنه كان كلما طلب منه شئ، يقول " أيها الأخ! إن الله منحني هذا لك، فاقبله "، فلم يبق له لهذا السبب سوى ثوبين فقط، أي صدرة من سمح ورداء من جلد، وكان قد باع كما قلت إرثه وأعطاه للفقراء، لأنه بدون هذا لا يجوز لأحد أن يسمى فريسيا، وكان عند هوشع

كتاب موسى وكان يطالعه برغبة شديدة، فقال له حجى يوما ما " من أخذ منك كل مالك؟ "، أجاب " كتاب موسى "، وحدث أن تلميذ أحد الأنبياء المجاورين أحب أن يذهب إلى أورشليم، ولم يكن له رداء، فلما سمع بتصدق هوشع ذهب ليراه وقال له " أيها الأخ! إني أريد أن أذهب إلى أورشليم لأقوم بتقديم ذبيحة لإلهنا، ولكن ليس لي رداء فلا أدري ماذا أفعل؟ " فلما سمع هوشع قال " عفوا أيها الأخ، فإني قد ارتكبت خطيئة عظيمة إليك، لأن الله قد أعطاني رداء لكي أعطيك إياه فنسيت، فاقبله الآن وصل إلى الله لأجلي "، فصدق الرجل هذا وقبل رداء هوشع وانصرف، ولما ذهب هوشع إلى بيت حجى قال حجى " من أخذ رداءك؟ "، أجاب حجى " كتاب موسى "، فسر حجى كثيرا من سماع هذا، لأنه أدرك صلاح هوشع! وحدث أن اللصوص سلبوا فقيرا وتركوه عريانا، فلما رأى هوشع، نزع صدرته وأعطاها للعريان، ولم يبق له سوى فرصة صغيرة من جلد الماعز على سوأته، فلما لم يأت إلى حجى ظن حجى الصالح أن هوشع مريض، فذهب مع تلميذين ليراه، فوجدوه ملفوفا بأوراق من النخل، فقال حينئذ حجى " قل لي الآن لماذا لم تزرني؟ "، أجاب هوشع " إن كتاب موسى قد أخذ صدرتي، فخشيت أن آتي إلى هناك بدون صدرة "، فأعطاه هنالك حجى صدرة أخرى! وحدث أن شابا رأى هوشع يطالع كتاب موسى فبكى وقال " أنا أيضا أود القراءة لو كان لي كتاب " فلما سمع هوشع هذا أعطاه الكتاب قائلا " أيها الأخ! إن هذا الكتاب لك، لأن الله أعطاني إياه لكي أعطيه من يرغب في كتاب باكيا " فصدقه الرجل وأخذ الكتاب! وكان تلميذ لحجى على مقربة من هوشع، فأراد أن يرى هل كتابه مكتوبا صحيحا، فذهب ليزوره وقال له " أيها الأخ! خذ كتابك ولننظر هل هو مطابق لكتابي؟ "، فأجاب هوشع " لقد أخذ مني "، فقال التلميذ " من أخذه منك؟ "، أجاب هوشع " كتاب موسى "، فلما سمع الآخر هذا، ذهب إلى حجى وقال له إن هوشع قد جن، لأنه يقول إن كتاب موسى أخذ منه كتاب موسى "، أجاب حجى " يا ليتني كنت مجنونا مثله، وكان كل المجانين نظير هوشع "! وشن لصوص سوريا الغارة على أرض يهودية، فأسروا

ابن أرملة فقيرة كانت تسكن على مقربة من جبل الكرمل حيث كان الأنبياء والفريسيون يقيمون، فاتفق حينئذ أن هوشع كان ذاهبا ليقطع حطبا، فالتقى بالمرأة وهي باكية، فشرع من ثم يبكي حالا، لأنه كان متى رأى ضاحكا ضحك، ومتى رأى باكيا بكى، فسأل حينئذ هوشع المرأة عن سبب بكائها، فأخبرته بكل شئ، فقال حينئذ هوشع: " تعالى أيتها الأخت، لأن الله يريد أن يعطيك ابنك "، فذهب كلاهما إلى جرون حيث باع هوشع نفسه وأعطى النقود للأرملة التي لم تعلم كيف حصل عليها فقبلتها وافتدت ابنها! والذي اشترى هوشع أخذه إلى أورشليم حيث كان له منزل وهو لا يعرف هوشع، فلما رأى حجى أنه لا يمكن العثور على هوشع، لبث كاسف البال، فأخبره من ثم ملاك الله كيف أنه قد أخذ عبدا إلى أورشليم، فلما علم هذا حجى، بكى لبعاد هوشع كما تبكي الأم لبعاد ابنها، وبعد أن دعا تلميذين، ذهب إلى أورشليم فصادف بمشيئة الله عند مدخل المدينة هوشع، وكان محملا للخبز ليأخذه إلى الفعلة في كرم سيده، فلما استبانه حجى قال: " يا بني كيف هجرت أباك الشيخ الذي ينشدك نائحا؟ " أجاب هوشع " يا أبتاه لقد شريت " فقال حينئذ حجى بحنق: " من هو ذلك الردئ الذي باعك؟ "، فأجاب هوشع: " غفر لك الله يا أبتاه، لأن الذي باعني صالح، بحيث لو لم يكن في العالم، لما صار أحد طاهرا "، فقال حجى " فمن هو إذا "، أجاب هوشع " إنه كتاب موسى يا أبتاه " فوقف حينئذ حجى الصالح كمن فقد عقله، وقال: " ليت كتاب موسى يبيعني أنا أيضا مع أولادي كما باعك! "، وذهب حجى مع هوشع إلى بيت سيده الذي قال لما رأى حجى " تبارك إلهنا الذي أرسل نبيه إلى بيتي " وأسرع ليقبل يده، فقال حينئذ حجى " قبل أيها الأخ عبدك الذي ابتعته لأنه خير مني " وأخبره بكل ما جرى، ثم أعتق السيد هوشع، ثم قال الكاتب " وهذا كل ما تبغى يا معلم... "

وقال يسوع للكاتب: " ماذا عساك أن تطلب مني أيها الأخ وعندك مثل هذه المعرفة؟ لعمر الله إن في هذا كفاية لخلاص الإنسان، لأن اتضاع حجى

وتصدق هو شع، يكملان العمل بالشريعة برمتها، وكتب الأنبياء برمتها! قل لي أيها الأخ: أخطر في بالك لما أتيت لتسألني في الهيكل، أن الله قد بعثني لأبيد الشريعة والأنبياء؟ من المؤكد أن الله لا يفعل هذا، لأنه غير متغير، فإن ما فرضه الله لخلاص الإنسان، هو ما أمر الأنبياء بالقول به، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، لو لم يفسد كتاب موسى مع كتاب أبينا داود بالتقاليد البشرية للفريسيين الكذبة والفقهاء، لما أعطاني الله كلمته! ولكن لماذا أتكلم عن كتاب موسى وكتاب داود؟ قد فسدت كل نبوة، حتى أنه لا يطلب اليوم شئ، لأن الله أمر به، بل ينظر الناس إذا كان الفقهاء يقولون به، والفريسيون يحفظونه.. فويل لهذا الجيل الكافر، لأنهم سيحملون تبعة دم كل نبي وصديق مع دم زكريا بن برخيا، الذي قتلوه بين الهيكل والمذبح! أي نبي لم يضطهدوه؟ أي صديق تركوه يموت حتف أنفه؟ لم يكادوا يتركوا واحدا، وهم يطلبون الآن أن يقتلوني! يفاخرون بأنهم أبناء إبراهيم، وأن لهم الهيكل الجميل ملكا، لعمر الله إنهم أولاد الشيطان، فلذلك ينفذون إرادته، ولذلك سيتهدم الهيكل مع المدينة المقدسة تهدما، لا يبقى معه حجر على حجر من الهيكل!

قل لي أيها الأخ، وأنت الفقيه المتضلع من الشريعة! بأي ضرب موعد مسيا لأبينا إبراهيم؟ أبإسحاق أم بإسماعيل؟ أجاب الكاتب: يا معلم أخشى أن أخبرك عن هذا بسبب عقاب الموت، حينئذ قال يسوع " إني آسف أيها الأخ أني أتيت لآكل خبزا في بيتك، لأنك تحب هذه الحياة الحاضرة أكثر من الله خالقك، ولهذا السبب تخشى أن تخسر حياتك، ولكن لا تخشى أن تخسر الإيمان والحياة الأبدية التي تضيع متى تكلم اللسان عكس ما يعرف القلب من شريعة الله ". حينئذ بكى الكاتب الصالح، وقال " يا معلم! لو عرفت كيف أثمر لكنت قد نشرت مرارا كثيرة بما أعرضت عن ذكره لئلا يحصل شغب في الشعب ". أجاب يسوع: " يجب عليك ألا تحترم الشعب والعالم كله ولا الأطهار كلهم ولا الملائكة كلهم، إذا أغضبوا الله، فخير أن يهلك العالم كله

من أن تغضب الله خالقك ولا تحفظه في الخطيئة، لأن الخطيئة تهلك ولا تحفظ، أما الله فقدير على خلق عوالم عدد رمال البحر، بل أكثر "، حينئذ قال الكاتب: " عفوا يا معلم لأني قد أخطأت "، فقال يسوع " الله يغفر لك، لأنك إليه قد أخطأت (١)!... "

----

(١) راجع ص ٢٧٠ - ٢٨٤ من إنجيل برنابا.

الفصل الرابع
المسيح ومعجزاته وعقيدته في التوحيد
ودعوته له في إنجيل برنابا

" الحمد لله علم السرائر وخبر الضمائر، له الإحاطة بكل شئ والقوة على كل شئ! الحمد لله خالق العباد وساطح المهاد ومسيل الوهاد ومخصب النجاد، ليس لأوليته ابتداء ولا لأزليته انقضاء، هو الأول لم يزل والباقي بلا أجل، خرت له الجباه ووحدته الشفاه، حد الأشياء عند خلقه لها، إبانة له من شبهها لا تقدره الأوهام بالحدود والحركات، ولا بالجوارح والأدوات، لا يقال له متى، ولا يضرب له أمد بحتى، الظاهر لا يقال مما، والباطل لا يقال فيما، لا شبح فينقضي، ولا مجوب فيحوى، لم يقرب من الأشياء بالتصاق، ولم يبعد عنها بافتراق، لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة، ولا كرور لفظة، ولا ازدلاف ربوة ولا انبساط خطوة، في ليل داج لا غسق ساج، يتفيأ عليه القمر المنير، وتعقبه الشمس ذات النور في الأفول والكرور، وتقلب الأزمنة والدهور، من إقبال ليل مقبل وإدبار نهار مدبر، قبل كل غاية ومدة وكل إحصاء وعدة، تعالى عما ينحله المحددون من صفات الأقدار ونهايات الأقطار وتأثل المساكن وتمكن الأماكن، فالحد لخلقه مضروب، وإلى غيره منسوب، لم يخلق الأشياء من أصول أزلية ولا أوائل أبدية، خلق ما خلق، فأقام حده، وصور ما صور فأحسن صورته، ليس لشئ منه امتناع، ولا له بطاعة شئ انتفاع، علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين، وعلمه بما في السماوات العلى، كعلمه بما في الأرض السفلى!

أيها المخلوق السوي والمنشأ المرعي، في ظلمات الأرحام ومضاعفات الأستار، بدئت من سلالة من طين، ووضعت في قرار مكين، إلى قدر معلوم

وأجل مقسوم، تمور في بطن أمك جنينا لا تحير دعاء ولا تسمع نداء، ثم أخرجت من مقرك إلى دار لم تشهدها ولم تعرف سبل منافعها، فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك وعرفك عند الحاجة مراضع طلبك وإرادتك، هيهات إن من يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات، فهو عن صفات خالقه أعجز، ومن تناوله بحدود المخلوقين أبعد (١) "!

" ابتدعهم خلقا عجيبا من حيوان وموات وساكن وذوي حركات، فأقام من شواهد البينات على لطيف صنيعته وعظيم قدرته، ما انقادت له العقول معترفة به ومسلمة له، ونعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته، وما درأ من مختلف صور الأطيار التي أسكنها أخاديد الأرض وخروق فجاجها ورأسي أعلامها (٢)!... "

" الحمد لله الذي كل معط منتقص سواه (٣)، وكل مانع مذموم ما خلاه، وهو المنان بفوائد النعم وعوائد المزيد والقسم، عياله الخلق، ضمن أرزاقهم وقدر أقواتهم، ونهج سبيل الراغبين إليه والطالبين بما لديه، وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل، الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شئ قبله، والآخر الذي ليس له بعد، فيكون شئ بعده، والرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه، ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال، ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين والعقيان، ونثارة الدر وحصيد المرجان، ما أثر ذلك في جوده، ولا أنفذ سعة ما عنده، ولكان عنده من ذخائر الأنعام ما لا تنفده مطالب الأنام، لأنه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين ولا يبخله إلحاح الملحين، هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام

---

(١) راجع ص ٣١٩ - ٣٢١ من نهج البلاغة ج ١

(٢) راجع ص ٣٢٤ من نهج البلاغة ج ١.

(٣) من خطبة الأشباح، وهي من جلائل خطب علي بن أبي طالب عليه السلام وكان سأله سائل أن يصف الله حتى كأنه يراه عيانا، فغضب عليه السلام، لذلك!

لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولهت القلوب إليه، لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول من حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب، متخلصة إليه سبحانه، فرجعت إذ جبهت معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال أولي الرويات خاطرة من تقدر جلال عزته، الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه من خالق معهود كان قبله، وأرانا من ملكوت قدرته وعجائب ما نطقت به آثار حكمته، واعتراف الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمساك قوته، ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته، وظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته وأعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجة له ودليلا عليه، وإن كان خلقا صامتا فحجته بالتدبير ناطقة ودلالته على المبدع قائمة، وأشهد أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على معرفتك ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ندلك، وكأنه لم يسمع تبرء التابعين من المتبوعين، إذ يقولون تالله إن كنا لفي ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين، كذب العادلون بك، إذ شبهوك بأصنامهم ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم، وجزأوك تجزئة المجسمات بخواطرهم، وقدروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم، وأشهد أن من ساواك بشئ من خلقك، فقد عدل لك، والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك، وأنك أنت الله الذي لم تتناه في العقول، فتكون في مهب فكرها مكيفا ولا في رويات خواطرها، فتكون محدودا مصرفا!

قدر ما خلق فأحكم تقديره، ودبره فألطف تدبيره، ووجهه لوجهته فلم يتعد حدود منزلته، ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته، ولم يستصعب إذ أمر بالمضي على إرادته، وكيف وإنما صدرت الأمور عن مشيئته، المنشئ أصناف الأشياء بلا روية فكر آل إليها ولا قريحة غريزة أضمر عليها، ولا تجربة أفادها من حوادث الدهور، ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور، فتم خلقه

وأذعن لطاعته وأجاب إلى دعوته، ولم يعترض دونه ريث المبطئ، ولا أناة المتلكئ، فأقام من الأشياء أودها ونهج حدودها، ولاءم بقدرته بين متضادها ووصل أسباب قرائنها وفرقها أجناسا مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات، بدايا خلائق أحكم صنعها وفطرها على ما أراد وابتدعها!

ونظم بلا تعليق رهوات فرجها ولاحم صدوع انفراجها ووشج بينها وبين أزواجها وذلل للهابطين بأمره والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها ناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها وأقام رصدا من الشهب الثواقب على نقابها، وأمسكها من أن تمور في خراق الهواء بأيده، وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره، وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها، وقمرها آية ممحوة من ليلها، فأجراهما في مناقل مجريهما وقدر سيرهما في مدارج درجيهما، ليميز بين الليل والنهار بهما، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما، ثم علق في جوها فلكها، وناط بها زينتها من خفيات دراريها ومصابيح كواكبها، ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها وأجراها على إذلال تسخيرها من ثبات ثابتها ومسير سائرها، وهبوطها وصعودها، ونحوسها وسعودها!

ثم خلق سبحانه لإسكان سماواته وعمارة الصفيح الأعلى من ملكوته، خلقا بديعا من ملائكته، ملأ بهم فروج فجاجها وحشى بهم فتوق أجوائها، وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبحين منهم في حظائر القدس وسترات الحجب وسرادقات المجد، ووراء ذلك الرجيج الذي تستك منه الأسماع سبحات نور تروع الأبصار عن بلوغها فتقف خاسئة على حدودها، أنشأهم على صور مختلفات وأقدار متفاوتات، أولي أجنحة تسبح جلال عزته، لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعته ولا يدعون أنهم يخلقون شيئا مما انفراد به، بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، جعلهم فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه وحملهم إلى المرسلين ودائع أمره ونهيه، وعصمهم من ريب الشبهات، فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته وأمدهم بفوائد المعونة، وأشعر

قلوبهم تواضع إخبات السكينة وفتح لهم أبوابا ذللا إلى تماجيده ونصب لهم منارا واضحة على أعلام توحيده، لم تثقلهم موصرات الآثام ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام، ولم ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم ولا قدحت قادحة الإحن فيما بينهم، ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم وما سكن من عظمته وهيبة جلالته في ثناء صدورهم، ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم، قد استفرغتهم أشغال عبادته ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته و قطعهم الايقان به إلى الوله إليه ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره، قد ذاقوا حلاوة معرفته وشربوا بالكأس الروية من محبته وتمكنت من سويداء قلوبهم وشيجة خيفته، فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم ولم ينفذ طول الرغبة إليه مادة تضرعهم ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق خشوعهم ولم يتولهم الاعجاب فيستكثروا ما سلف منهم ولا تركت لهم استكانة الاجلال نصيبا في تعظيم حسناتهم، ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤبهم ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم ولم تجف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم، ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجؤار إليه أصواتهم ولم تختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم، ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم ولا تعدو على عزيمة جدهم بلادة الغفلات ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات، قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم ويمموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم، لا يقطعون أمد غاية عبادته ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته إلا إلى مواد من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته، لم تنقطع أسباب الشفقة منهم فينوا في جدهم ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك السعي على اجتهادهم، ولم يستعظموا ما مضى من أعمالهم ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات زجلهم ولم يختلفوا في ربهم باستحواذ الشيطان عليهم، ولم يفرقهم سوء التقاطع، ولا تولاهم غل التحاسد ولا شعبتهم مصارف الريب ولا اقتسمتهم أخياف الهمم، فهم أسراء إيمان، لم يفكهم من ربقته زيغ ولا عدول ولا ونى ولا فتور، وليس في أطباق السماء موضع إهاب

إلا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد، يزدادون على طول الطاعة بربهم علما، وتزداد عزة ربهم في قلوبهم عظما!
كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة ولجج بحار زاخرة، تلتطم أو أذى أمواجها وتصطفق متقاذفات أثباجها وترغو زبدا كالفحول عند هياجها، فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها وسكن هيج ارتمائه إذ وطئنه بكلكلها وذل مستخذيا إذ تمعكت عليه بكواهلها، فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجيا مقهورا وفي حكمة الذل منقادا أسيرا، وسكنت الأرض من مدحوة في لجة تياره وروت من نخوة بأوه واعتلائه وشموخ أنفه وسمو غلوائه، وكعمته على كظة جريته، فهمد بعد نزقاته ولبد بعد زيفان وثباته، فلما سكن هياج الماء من تحت أكنافها وحمل شواهق الجبال الشمخ البذخ على أكتافها، فجر ينابيع العيون من عرانين أنوفها وفرقها في سهوب بيدها وأخاديدها وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذرات الشناخيب الشم من صياخيدها، فسكت من الميدان لرسوب الجبال في قطع أديمها و تغلغلها متسربة في جوبات خياشيمها وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها، و فسح بين الجو وبينها وأعد الهواء متنسما لساكنها وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها، ثم لم يدع جرز الأرض التي تقصر مياه العيون عن روابيها ولا تجد جداول الأنهار ذريعة إلى بلوغها، حتى أنشأ لها ناشئة سحاب تحيي مواتها وتستخرج نباتها، ألف غمامها بعد افتراق لمعه وتباين قزعه، حتى إذا تمخضت لجة المزن فيه والتمع برقه في كففه ولم ينم وميضه في كنهور ربابه ومتراكم سحابه، أرسله سحا متداركا، قد أسف هيدبه، تمريه الجنوب درر أهاضيبه ودفع شآبيبه، فما ألقت السحاب برك بوانيها وبعاع ما استقلت به من العب المحمول عليها، أخرج به من هوامد الأرض النبات ومن زعر الجبال الأعشاب، فهي تبهج بزينة رياضها تزدهر بما ألبسته من ريط أزاهيرها وحلية ما سمطت به من ناضر أنوارها، وجعل ذلك بلاغا للأنام ورزقا للأنعام، وخرق الفجاج في آفاقها وأقام المنار للسالكين على جواد طرقها.

فلما مهد أرضه وأنفذ أمره، اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه، وجعله أول جبلته وأسكنه جنته وأرغد فيها أكله، وأوعز إليه فيما نهاه عنه وأعلمه أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته والمخاطرة بمنزلته، فأقدم على ما نهاه عنه موافاة لسابق علمه، فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله، وليقيم الحجة به على عباده، ولم يخلهم بعد أن قبضه مما يؤكد عليهم حجة ربوبيته ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحملي ودائع رسالاته قرنا فقرنا، حتى تمت بنبينا محمد صلى الله عليه وآله حجته، وبلغ المقطع عذره ونذره، وقدر الأرزاق فكثرها وقللها قسمها على الضيق والسعة، فعدل فيها ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها، ثم قرن بسعتها عقابيل فاقتها وبسلامتها طوارق آفاتها وبفرج أفراحها غصص أتراحها، وخلق الآجال فأطالها وقصرها وقدمها وأخرها ووصل بالموت أسبابها، وجعله خالجا لأشطانها قاطعا لمرائر أقرانها، عالم السر من ضمائر المضمرين ونجوى المتخافتين وخواطر رجم الظنون وعقد عزيمات اليقين وما ضمنته أكنان القلوب وغيابات الغيوب، وما أصغت لاستراقه مصائخ الأسماع ومصائف الذر ومشاتي الهوام ورجع الحنين من المولهات وهمس الأقدام ومنفسح الثمرة من ولائج غلف الأكمام ومقمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها ومختبأ البعوض بين سوق الأشجار وألحيتها، ومغرز الأوراق من الأفنان، ومحط الأمشاج من مسارب الأصلاب وناشئة الغيوم ومتلاحمها، ودرور قطر السحاب في متراكمها، وما تسفي الأعاصير بذيولها وتعفو الأمطار بسيولها، وعوم نبات الأرض في كثبان الرمال ومستقر ذوات الأجنحة بذرى شناخيب الجبال وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار وما أوعبته الأهداف وحضنت عليه أمواج البحار وما غشيته سدفة ليل أو ذر عليه شارق نهار، وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير وسبحات النور وأثر كل خطوة وحس كل حركة ورجع كل كلمة وتحريك كل شفة ومستقر كل نسمة ومثقال كل ذرة وهماهم كل نفس هامة وما عليها من ثمر شجرة أو ساقط ورقة أو قرارة

نطفة أو ناقعة دم ومضغة أو ناشئة خلق أو سلالة، لم يلحقه في ذلك كلفة ولا اعترضته في حفظ ما ابتدعه من خلقه عارضة ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة، بل نفذ فيهم علمه وأحصاهم عده وغمرهم فضله مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله!

اللهم أنت أهل الوصف الجميل وتعداد الكمالات الكثير، إن تؤمل فخير مؤمل وإن ترج فأكرم مرجو، اللهم وقد بسطت لي فيما لا أمدح به غيرك ولا أثنى به على أحد سواك ولا أوجهه إلى معادن الخيبة ومواضع الريبة، وعدلت بلساني عن مدائح الآدميين والثناء على المربوبين المخلوقين، اللهم ولكل مثن على من أثنى عليه مثوبة من جزاء أو عارفة من عطاء، وقد رجوتك دليلا على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة، اللهم وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذي هو لك ولم ير مستحقا لهذه المحامد والممادح غيرك، وبي فاقة إليك لا يجبر مسكنتها إلا فضلك ولا ينعش من خلتها إلا منك وجودك، فهب لنا في هذا المقام رضاك واغننا عن مد الأيدي إلى سواك، إنك على كل شئ قدير (١) "

" كل شئ خاضع له وكل شئ قائم به، غنى كل فقير وعز كل ذليل وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف، ومن تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه، لم ترك العيون فتخبر عنك، بل كنت قبل الواصفين من خلقك، لم تخلق الخلق لوحشة، ولا استعملتهم لمنفعة، ولا يسبقك من طلبت، ولا يفلتك من أخذت، ولا ينقص سلطانك من عصاك، ولا يزيد في ملكك من أطاعك، ولا يرد أمرك من سخط قضاءك، ولا يستغني عنك من تولى عن أمرك، كل سر عندك علانية وكل غيب عندك شهادة، أنت الأبد لا أمد لك، وأنت المنتهى لا محيص عنك، وأنت الموعد لا منجأ منك إلا إليك، بيدك ناصية كل دابة، وإليك مصير كل نسمة، سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك، وما أصغر عظمة في جنب قدرتك، وما أهول ما نرى من ملكوتك، وما أحقر ذلك فيما

----

(١) راجع ص ١٧٤ - ١٩٨ من نهج البلاغة ج ١.

غاب عنا من سلطانك، وما أسبغ نعمك في الدنيا وما أصغرها في نعيم الآخرة! من ملائكة أسكنتهم سمواتك ورفعتهم عن أرضك، هم أعلم خلقك بك، وأخوفهم لك، وأقربهم منك، لم يسكنوا الأصلاب ولم يضمنوا الأرحام ولم يخلقوا من ماء مهين ولم يشعبهم ريب المنون، وإنهم على مكانهم منك ومنزلتهم عندك واستجماع أهوائهم فيك وكثرة طاعتهم لك وقلة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك لحقروا أعمالهم ولزروا على أنفسهم، ولعرفوا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك ولم يطيعوك حق طاعتك! سبحانك خالقا ومعبودا بحسن بلائك عند خلقك، خلقت دارا وجعلت فيها مأدبة، مشربا ومطعما، وأزواجا وخدما وقصورا وأنهارا وزروعا وثمارا، ثم أرسلت داعيا يدعو إليها، فلا الداعي أجابوا ولا فيما رغبت إليه رغبوا ولا إلى ما شوقت إليه اشتاقوا، أقبلوا على جيفة افتضحوا بأكلها واصطلحوا على حبها، ومن عشق شيئا أعشى بصره وأمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سميعة، قد خرقت الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه وولهت عليها نفسه، فهو عبد لها ولمن في يده شئ منها، حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها، ولا يزدجر من الله بزاجر ولا يتعظ منه بواعظ، وهو يرى المأخوذين على الغرة حيث لا إقالة ولا رجعة، كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون، وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون، وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون، فغير موصوف ما نزل بهم، اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت، ففترت لها أطرافهم وتغيرت لها ألوانهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجا، فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأذنه، على صحة من عقله وبقاء من لبه، يفكر فيم أفنى عمره وفيم أذهب دهره، ويتذكر أموالا جمعها، أغمض في مطالبها وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه، ينعمون فيها ويتمتعون بها، فيكون المهنأ لغيره والعب ء على ظهره، والمرء قد غلقت رهونه بها، فهو يعض يده ندامة على ما أصحر له عند الموت من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره، ويتمنى أن الذي كان يغبطه

بها ويحسده عليها، قد حازها دونه، فلم يزل الموت يبالغ في جسده، حتى خالط لسانه وسمعه، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه ولا يسمع بسمعه، يردد طرفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم، ثم ازداد الموت التياطا، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت الروح من جسده، فصار جيفة بين أهله، قد أوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه، لا يسعد باكيا ولا يجيب داعيا، ثم حملوه إلى محط في الأرض وأسلموه فيه إلى عمله، وانقطعوا عن زورته، حتى إذا بلغ الكتاب أجله، والأمر مقاديره، وألحق آخر الخلق بأوله، وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه، أماد السماء وفطرها، وأرج الأرض وأرجعها، وقلع جبالها ونسفها، ودك بعضها بعضا من هيبة جلالته ومخوف سطوته، وأخرج من فيها فجددهم على أخلاقهم وجمعهم بعد تفرقهم، ثم ميزهم لما يريد من مسألتهم عن خفايا الأعمال وخبايا الأفعال، وجعلهم فريقين، أنعم على هؤلاء وانتقم من هؤلاء (١) "!

وبعد فقد رأينا في الفصول السابقة تعاليم السيد المسيح الصحيحة وكلها تفيض تمجيدا لله وتوحيده، ومنها وقفنا على روحانية نبيلة ودعوة للطهر لسلام الروح، وسنوقفك في هذا الفصل على صفوة ما جاء في إنجيل برنابا عن مولده وتآمر الكهنة عليه وخيانة يهوذا له ورفعه إلى السماء، وسنحدثك عن معجزاته التي أدت إلى الفتنة الكبرى، مع أنها كلها للمتبصر واضحة جلية لأنها بإذن الله، ولله الذي أوجد آدم من غير أب وأم، وأوجد حواء من غير أم، أن يوجد عيسى بن مريم من غير أب، والله القادر أن يؤتيه بإذنه القدرة على شفاء المرضى وإبراء الأبرص والأكمه وإحياء الموتى وحفظه بأن شبه يهوذا به عند الصلب، ثم إكرامه عليه السلام برفعه إلى السماء، لأنها كلها إرادة الله، ولله أن يريد ما يشاء، ولكن على قلوب أقفالها!

وسنحدثك في هذا الفصل إن شاء الله بعد ذلك عن عقيدة المسيح في التوحيد ودعوته له، فنحدثك عن استنكاره عليه السلام كفر الكفار

---

(١) راجع ص ٢٢٧ - ٢٣٢ من نهج البلاغة ج ١.

بالحديث عن الفتنة الكبرى واستنكاره لها ومحاجته للكهنة، ودعوته لتلاميذه لإبراء المرضى - كما أبرأ هو بإذن الله - لدفعها

أولا - حياة المسيح

(١) ميلاد المسيح وتلقيه الإنجيل:

ميز الله سبحانه وتعالى المسيح بأن خلقه من غير أب آية للناس ورحمة منه ليكون خلقه بروح من الله، كذلك - مخالفا لسنته في خلقه وإعلانا لعالم الروح - من أدلة قدرته على خلق ما يشاء كيف يشاء، فدعا هذا التمييز إلى ظن بعضهم أنه أكبر من رسول، ولكنا على هذا نرى ظهور كثير من المسيحيين يدعون إلى التوحيد، لأنه الحق - وإن طردتهم المسيحية الحاضرة من حظيرتها، كما فعلت المجامع من قبل - " ولقد كان الأمر لا يسترعي النظر لو كان مقصورا على العلماء، بل إنك لترى المسيحين الذين تجادلهم أو تخالطهم بالمودة، إن استثنيت رجال الدين منهم، يصرحون في بهرة المجالس، وفي جهر من غير إسرار، بأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا المسيح إلا رجلا عظيما رسولا من عند الله، وليس هو الله ولا ابن الله، وليس ذا صلة بالألوهية إلا صلة الرسول بمن أرسله، فهل لنا أن نعتقد بأن شيوع هذا على ألسنة أولئك المثقفين، يؤدي إلى إصلاح كامل للعقيدة، يكون شاملا للأصل، ولا يكون مقتصرا على الفرع، كما فعل الاصلاح السابق واقتصر عليه (١) "!

(ا) ولقد جاء في الفصل الأول من إنجيل برنابا بشرى الملاك جبريل للعذراء مريم بولادة المسيح:

" لقد بعث الله... بالملاك جبريل إلى عذراء تدعى مريم من نسل داود من سبط يهوذا - بينما كانت هذه العذراء العائشة بكل طهر، بدون أدنى ذنب

----

(١) راجع ص ١٨٨ من محاضرات في النصرانية للأخ الشيخ محمد أبي زهرة.

المنزهة عن اللوم، المثابرة للصلاة مع الصوم - يوما ما وحدها، إذا بالملاك جبريل، قد دخل مخدعها وسلم عليها قائلا " ليكن معك يا مريم " فارتاعت العذراء من ظهور الملاك، ولكن الملاك سكن روعها قائلا:
لا تخافي يا مريم، لأنك قد نلت نعمة من الله، الذي اختارك، لتكوني أم نبي يبعثه إلى شعب إسرائيل ليسلكوا في شرائعه بإخلاص " فأجاب العذراء " كيف ألد نبيا، وأنا لا أعرف رجلا؟! فأجاب الملاك " يا مريم إن الله الذي صنع الإنسان من غير إنسان، لقادر أن يخلق فيك إنسانا من غير إنسان لأنه لا محال عنده "، فأجابت مريم إني لعالمة أن الله قدير، فلتكن مشيئته " قال الملاك " كوني حاملا بالنبي الذي ستدعينه يسوع، فامنعيه الخمر والمسكر وكل لحم نجس، لأن الطفل قدوس (١) الله "، فانحنت مريم بضعة قائلة: " ها أنا ذا أمة الله، فليكن بحسب كلمتك "!
فانصرف الملاك، أما العذراء فمجدت الله قائلة: اعرفي يا نفس عظمة الله، وافخري يا روحي بالله مخلصي، لأنه رمق ضعة أمته وستدعوني سائر الأمم مباركة، لأن القدير صيرني عظيمة، فليتبارك اسمه القدوس، لأن رحمته تمتد من جيل إلى جيل للذين يتقونه (٢) "
(ب) وجاء في الفصل الثالث من إنجيل برنابا عن ولادة المسيح العجيبة، وظهور الملائكة ممجدين الله:
" في نزل جعل مأوى للرعاة (٣)... تمت أيام مريم لتلد، فأحاط بالعذراء

---

(١) أي طاهر الله.
(٢) راجع ص ٣ و ٤ من إنجيل برنابا. وجاء في الفصل الثاني من إنجيل برنابا ص ٥ إنباء الملاك جبريل يوسف النجار عشير (خطيب) مريم بحبلها " فستلد العذراء ابنا وستدعونه يسوع... نبي من الله، أرسل إلى شعب إسرائيل، ليحول يهوذا إلى قلبه، ويسلك إسرائيل في شريعة الرب، كما هو مكتوب في ناموس موسى، وسيجئ بقوة عظيمة يمنحها الله له. وسيأتي بآيات عظيمة تفضي إلى خلاص كثيرين... "
(٣) خارج بيت لحم.

نور شديد التألق، وولدت ابنها بدون ألم (١)، وأخذته على ذراعيها، وبعد أن ربطته بأقمطة، وضعته في المذود، إذ لم يوجد موضع في النزل، فجاء جوق غفير من الملائكة إلى النزل بطرب، يسبحون الله، ويذيعون بشرى السلام لخائفي الله (٢).... "

(ج) وجاء في الفصل الرابع من إنجيل برنابا أن الملائكة تبشر الرعاة بولادة يسوع، وأن هؤلاء يبشرون به بعد رؤيتهم إياه:

" وكان الرعاة في ذلك الوقت يحرسون قطيعهم على عادتهم، وإذا بنور متألق قد أحاط بهم، وخرج من خلاله ملاك سبح الله، فارتاع الرعاة.... فسكن روعهم ملاك الرب قائلا: " ها أنا ذا أبشركم بفرح عظيم، لأنه قد ولد في مدينة داود طفل نبي للرب، سيحرز لبيت إسرائيل خلاصا عظيما، وتجدون الطفل في المذود مع أمه التي تسبح الله ". وإذ قال هذا، حضر جوق عظيم من الملائكة يسبحون الله ويبشرون الأخيار بسلام، ولما انصرفت الملائكة، تكلم الرعاة فيما بينهم قائلين: لنذهب إلى بيت لحم، وننظر الكلمة التي كلمنا بها الله بواسطة ملاكه... فعاد الرعاة إلى قطيعهم يقولون لكل أحد ما أعظم ما رأوا (٣). "

(ء) وجاء في الفصل التاسع من إنجيل برنابا محاجة يسوع العلماء بعد رجوعه إلى اليهودية وبلوغه اثني عشر عاما:

---

(١) جاء في القرآن الكريم ذكر المخاض عند ولادتها، وظن بعضهم أن الولادة كانت بألم، ولكن معنى تمخض الولد في بطن أمه، أي تحرك للخروج. راجع ص ١٥٨ من غريب القرآن للسجستاني.

(٢) راجع ص ٥ و ٦ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ٦ من إنجيل برنابا. وجاء في الفصل الخامس من إنجيل برنابا ص ٧ ختان يسوع بعد الأيام الثمانية حسب شريعة الرب. وجاء في الفصل السادس ص ٧ نجم الشرق يهدى ثلاثة من المجوس إلى اليهودية، فيرون يسوع ويسجدون له كملك ويقدمون له هدايا طيوب مع فضة وذهب. وجاء في الفصل السابع ص ٨ عودة المجوس إلى وطنهم وعدم ذهابهم إلى هيرودس عملا بإنذار يسوع إياهم في الحلم.

" ولما بلغ يسوع اثنتي عشرة سنة من العمر، صعد مع مريم ويوسف إلى أورشليم، ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة في كتاب موسى... وفي اليوم الرابع وجدوا الصبي في الهيكل وسط العلماء يحاجهم في أمر الناموس، وأعجب كل أحد بأسئلته وأجوبته، قائلا: كيف أوتي مثل هذا العلم وهو حدث لم يتعلم القراءة؟! (١).. "

(ه) وجاء في الفصل العاشر من إنجيل برنابا أن يسوع وهو ابن ثلاثين سنة، تلقى الإنجيل على جبل الزيتون من الملاك جبريل:

" ولما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر، كما أخبرني بذلك نفسه، صعد إلى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتونا، وبينما كان يصلي في الظهيرة وبلغ هذه الكلمات " يا رب برحمة... " وإذا بنور قاهر قد أحاط به، وجوق لا يحصى من الملائكة كانوا يقولون " ليتمجد الله "، فقدم له الملاك جبريل كتابا كأنه مرآة براقة، فنزل إلى قلب يسوع الذي عرف به ما فعل الله وما قال الله وما يريد الله، حتى أن كل شئ كان عريانا ومكشوفا له، ولقد قال لي " صدق يا برنابا أني أعرف كل نبي وكل نبوة، وكل ما أقوله إنما قد جاء من ذلك الكتاب "! ولما تجلت هذه الرؤيا ليسوع، وعلم أنه نبي مرسل إلى بيت إسرائيل، كاشف مريم أمه بكل ذلك قائلا: " إنه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله، وإنه لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويخدمها "، فلما سمعت مريم هذا أجابت " إني نبئت بكل ذلك قبل أن تولد، فليتمجد اسم الله القدوس "، ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته النبوية (٢) ".

(و) وجاء في الفصل الثامن والستين بعد المائة من إنجيل برنابا، عن الإنجيل:

" حينئذ قال التلاميذ: حقا! إن الله تكلم على لسانك، لأنه لم يتكلم إنسان قط كما تتكلم "! أجاب يسوع: " صدقوني أنه لما اختارني الله ليرسلني إلى بيت

----

(١) راجع ص ٩ من إنجيل برنابا. وجاء في الفصل الثامن ص ٩: الهرب بالمسيح إلى مصر وقتل هيرودس الأطفال.

(٢) راجع ص ١٠ و ١١ من إنجيل برنابا.

إسرائيل، أعطاني كتابا يشبه مرآة نقية، نزلت إلى قلبي، حتى أن كل ما أقول يصدر عن ذلك الكتاب، ومتى انتهى صدور ذلك الكتاب من فمي، أصعد عن العالم "! أجاب بطرس: يا معلم " هل ما تتكلم الآن به مكتوب في ذلك الكتاب؟ "، أجاب يسوع: " إن كل ما أقوله لمعرفة الله ولخدمة الله ولمعرفة الإنسان ولخلاص الجنس البشري، إنما هو جميعه صادر من ذلك الكتاب الذي هو إنجيلي (١) "!

(٢) معجزات المسيح (٢):

معجزة النبي أمر خارق للعادة، يكرم بها الله نبيه، ليفحم بها المرسل إليهم، وقد أرسل الله المسيح لليهود الذين سادهم إنكار الروح في أقوال بعضهم وأفعال جميعهم، ومعجزاته التي ذكرها القرآن الكريم، تلخص في خمسة أمور:

١ - أنه يخلق " أي يصور " من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيها، فيكون طيرا بإذن الله!

٢ - أنه يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله!

٣ - أنه يخرج " أي يحيي " الموتى بإذن الله!

٤ - أنه بدعائه أنزل الله عليه مائدة من السماء، بطلب الحواريين " تلاميذه " لتطمئن قلوبهم!

٥ - إنباؤه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم!

ولم يرد أن معجزات المسيح المذكورة في القرآن الكريم مذكورة على سبيل الحصر، بل على أنها أهمها وأجدرها بالذكر، ولذلك لا نجد بأسا من أن نذكر

---

(١) راجع ص ٢٥٩ و ٢٦٠ من إنجيل برنابا.

(٢) سمي عيسى عليه السلام بالمسيح، لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، وقيل المسيح الصديق لسياحته في الأرض، ومسيح فعيل من مسح الأرض، لأنه كان يمسحها أي يقطعها، وقيل سمي مسيحا لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن، وقيل لأنه كان أمسح الرجل، ليس لرجله أخمص. والأخمص ما تجافى عن الأرض من باطن الرجل. راجع ص ١٥٥ و ١٥٦ من غريب القرآن للسجستاني.

كل المعجزات التي وردت في إنجيل برنابا، لدخولها كلها أو بعضها تحت هذه الرؤس!

معجزة شفاء البرص:

(ا) ولقد جاء في الفصل الحادي عشر من إنجيل برنابا: " ولما نزل يسوع من الجبل، ليذهب إلى أورشليم، التقى بأبرص، علم بإلهام إلهي أن يسوع نبي، فتضرع إليه باكيا قائلا: " يا يسوع بن داود، ارحمني "، فأجاب يسوع ماذا تريد أيها الأخ أن أفعل لك؟ " فأجاب الأبرص: " يا سيد أعطني صحة "، فوبخه يسوع قائلا: " إنك لغبي، إضرع إلى الله الذي خلقك، وهو يعطيك صحة، لأنني رجل نظيرك "، فأجاب الأبرص: " أعلم يا سيد أنك إنسان، ولكنك قدوس الرب، فاضرع إذا إلى الله وهو يعطيني صحة "، فتنهد يسوع وقال: " أيها الرب الإله القدير: لأجل محبة أنبيائك الأطهار، أبرئ هذا العليل "!

ولما قال ذلك، لمس العليل بيديه وقال: " باسم الله، أيها الأخ أبرأ " ولما قال ذلك برئ من برصه، حتى أن جسده الأبرص أصبح كجسد طفل (١) "!

(ب) وجاء في الفصل التاسع عشر من إنجيل برنابا عن إنذار المسيح بتسليمه وشفائه عشرة برص عند نزوله من الجبل:

" سأل الذي يكتب يسوع سرا، بدموع قائلا يا سيد: " أيخدعني الشيطان، وهل أكون منبوذا؟ "، فأجاب يسوع: " لا تأسف يا برنابا، لأن الذين اختارهم الله قبل خلق العالم، لا يهلكون، تهلل، لأن اسمك مكتوب في سفر الحياة "، وعزى يسوع تلاميذه قائلا: " لا تخافوا، لأن الذي سيبغضني، لا يحزن لكلامي، لأنه ليس فيه الشعور الإلهي "، فتعزى المختارون بكلامه، وأدى يسوع صلاته، وقال التلاميذ: " آمين، ليكن هكذا أيها الرب الإله القدير الرحيم "!

ولما انتهى يسوع من العبادة، نزل من الجبل مع تلاميذه، والتقى بعشرة

---

(١) راجع ص ١١ و ١٢ من إنجيل برنابا.

برص... فصرخوا جميعهم " أعطنا صحة "، أجاب يسوع " أيها الأغبياء، أفقدتم عقلكم حتى تقولوا " أعطنا صحة، ألا ترون أني إنسان نظيركم، ادعوا إلهنا الذي خلقكم وهو القدير الرحيم، يشفكم "، فأجاب البرص بدموع: " إننا لنعلم أنك إنسان نظيرنا، ولكنك قدوس الله ونبي الرب، فصل لله ليشفينا " فتضرع الرسل إلى يسوع قائلين: " يا معلم ارحمهم "، حينئذ أن يسوع وصلى قائلا: " أيها الرب الإله القدير الرحيم، ارحم وأصخ السمع إلى كلمات عبدك " ارحم رجاء هؤلاء الرجال، وامنحهم صحة لأجل محبة إبراهيم أبينا وعهدك المقدس " وإذ قال يسوع ذلك، تحول إلى البرص وقال " اذهبوا وأروا أنفسكم للكهنة، بحسب شريعة الله "، فانصرف البرص وبرئوا على الطريق (١) "!

معجزة شفاء الجنون:

(ا) ولقد جاء في الفصل الحادي والعشرين من إنجيل برنابا عن شفاء يسوع مجنونا وطرح الخنازير في البحر وإبرائه ابنة الكنعانية:

" صعد يسوع إلى كفر ناحوم ودنا من المدينة، وإذا بشخص خرج من بين القبور، كان به شيطان تمكن منه، حتى لم تقو سلسلة على إمساكه، فألحق بالناس ضررا كثيرا، فصرخت الشياطين من فيه قائلة " يا قدوس الله، لماذا جئت قبل الوقت، لتزعجنا "، وتضرعوا إليه ألا يخرجهم، فسألهم يسوع: كم عددهم، فأجابوا " ستة آلاف وستمائة وستة وستون " فلما سمع التلاميذ هذا، ارتاعوا، وتضرعوا إلي يسوع أن ينصرف، حينئذ أجاب يسوع " أين إيمانكم؟ يجب على الشيطان أن ينصرف، لا أنا "، فحينئذ صرخت الشياطين قائلة " إننا نخرج ولكن اسمح لنا أن ندخل في تلك الخنازير "، وكان يرعى هناك بجانب البحر نحو عشرة آلاف خنزير للكنعانيين، فقال يسوع، اخرجوا وادخلوا في الخنازير "، فدخلت الشياطين الخنازير وقذفت بها إلى البحر.. فارتاع الرجال وضرعوا إلى يسوع أن ينصرف عن تخومهم، فانصرف من ثم عنهم وصعد

----

(١) راجع ص ٢٥ و ٢٦ من إنجيل برنابا.

إلى نواحي صور وصيدا، وإذا بامرأة من كنعان مع ابنتها، قد جاءت من بلادها لترى يسوع " فلما رأته آتيا مع تلاميذه، صرخت " يا يسوع بن داود ارحم ابنتي التي يعذبها الشيطان " فلم يجب يسوع بكلمة واحدة، لأنهم كانوا من غير أهل الختان، فتحنن التلاميذ وقالوا " يا معلم تحنن عليهم، انظر ما أشد صراخهم وعويلهم "، فأجاب يسوع " إني لم أرسل إلا إلى شعب إسرائيل "، فتقدمت المرأة وابناها إلى يسوع معولة قائله " يا يسوع بن داود! ارحمني "، أجاب يسوع " لا يحسن أن يؤخذ الخبز من أيدي الأطفال، ويطرح للكلاب "، وإنما قال يسوع هذا لنجاستهم لأنهم كانوا من غير أهل الختان! فأجابت المرأة " يا رب! إن الكلاب تأكل الفتات الذي يسقط من مائدة أصحابها " حينئذ انذهل يسوع من كلام المرأة، قائلا " أيتها المرأة، إن إيمانك لعظيم " ثم رفع يديه إلى السماء وصلى لله، ثم قال " أيتها المرأة، قد حررت ابنتك، فاذهبي في طريقك بسلام "، فانصرفت المرأة، ولما عادت إلى بيتها، وجدت ابنتها التي تسبح الله، لذلك قالت المرأة حقا " لا إله إلا إله إسرائيل "، فانضم من ثم أقرباؤها إلى الشريعة، عملا بالشريعة المسطورة في كتاب موسى " (١).

(ب) وجاء في الفصل التاسع والستين من إنجيل برنابا عن شفاء رجل فيه شيطان: ".. وجئ برجل فيه شيطان، وهو لا يتكلم ولا يبصر ولا يسمع، فلما رأى يسوع إيمانهم، رفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الرب إله آبائنا ارحم هذا المريض واعطه صحة، ليعلم هذا الشعب أنك أرسلتني " ولما قال يسوع هذا، أمر الروح أن ينصرف قائلا " بقوة اسم الله ربنا، انصرف أيها الشرير عن الرجل " فانصرف الروح وتكلم الأخرس، وأبصر بعينيه، فارتاع لذلك الجميع، ولكن الكهنة قالوا " إنما هو يخرج الشياطين بقوة بعلزبوب رئيس الشياطين " حينئذ قال يسوع " كل مملكة منقسمة على نفسها تخرب، ويسقط بيت على بيت، فإذا كان يخرج الشيطان بقوة الشيطان،

---

(١) راجع ص ٢٨ و ٢٩ من إنجيل برنابا. وفي الفصل الثاني والعشرين جاء: شقاء غير المختونين، بكون الكلاب أفضل منهم.

فكيف تثبت مملكته، وإذا كان أبناؤكم يخرجون الشياطين بالكتاب الذي أعطاهم إياه سليمان النبي، فهم يشهدون إني أخرج الشيطان بقوة الله (١)... "

معجزة شفاء العمى:

ولقد جاء في الفصلين السادس والخمسين بعد المائة والسابع والخمسين بعد المائة من إنجيل برنابا عن شفاء رجل ولد أعمى:

" لما اجتاز يسوع من الهيكل بعد أن صلى صلاة الظهيرة، وجد أكمه، فسأله تلاميذه " أيها المعلم! من أخطأ في هذا الإنسان حتى ولد أعمى، أبوه أم أمه؟ " أجاب يسوع " لا أبوه أخطأ فيه ولا أمه، ولكن الله خلقه هكذا، شهادة للإنجيل "، وبعد أن دعا الأكمه إليه، تفل على الأرض وصنع طينا، ووضعه على عيني الأكمه، وقال له " اذهب إلى بركة سلوام واغتسل "، فذهب الأكمه، ولما اغتسل أبصر... ولما عاد الرجل الذي كان أكمه إلى الباب الجميل من الهيكل، امتلأت أورشليم كلها بالخبر، لذلك أحضر إلى رئيس الكهنة الذي كان يأتمر مع الكهنة والفريسيين على يسوع، فسأله رئيس الكهنة قائلا: " هل ولدت أعمى أيها الرجل! "، أجاب " نعم "، فقال رئيس الكهنة " ألا فاعط مجدا لله وأخبرنا أي نبي ظهر لك في الحلم وأنا لك نورا، أهو أبونا إبراهيم أم موسى خادم الله أم نبي آخر؟ لأن غيرهم لا يقدر أن يفعل شيئا نظير هذا "، فأجاب الرجل الذي ولد أعمى " إني لم أر في حلم، ولم يشفني لا إبراهيم ولا موسى ولا نبي آخر... فسأله رئيس الكهنة عن اسم ذلك الرجل، فأجاب الرجل الذي ولد أعمى " إنه لم يذكر لي اسمه، ولكن رجلا رآه، ناداني وقال " اذهب واغتسل كما قال ذلك الرجل، لأنه يسوع الناصري نبي إلى إسرائيل وقدوسه "! فقال حينئذ رئيس الكهنة " لعله أبرأك يوم

---

(١) راجع ص ١٠٨ من إنجيل برنابا. ثم قال " لعمر الله إن التجديف على الروح القدس لا معفرة له... ". والله تعالى هو القدوس، أما روح القدس، من غير أداة التعريف، فهو جبريل عليه السلام.

السبت؟ "، أجاب الأعمى " إنه أبرأني اليوم "، فقال رئيس الكهنة " انظروا الآن، كيف أن هذا الرجل خاطئ، لأنه لا يحفظ السبت ".. فلم يصدق الفريسيون هذا، لذلك قالوا لرئيس الكهنة " أرسل وادع أباه وأمه " لأنهما يقولان الصدق "، فدعوا أبا الرجل الأكمه وأمه، فلما حضرا سألهما رئيس الكهنة.. أجاب أبو الرجل الذي ولد أعمى وأمه " إنه ولد أعمى حقا، ولكن لا نعلم كيف نال النور، هو كامل السن اسألوه، يقل لكم الصدق "، فصرفوهما وعاد الرئيس فقال للرجل الذي ولد أعمى " إعط مجدا لله وقل الصدق " أجاب الرجل الذي ولد أعمى " " لست أعلم أخاطئ هو، إنما أعلم هذا أني كنت لا أبصر، فأنارني، ومن المؤكد أنه منذ ابتداء العالم حتى هذه الساعة، لم ينر أكمه، والله لا يصيخ السمع إلى الخطاة (١) "!

معجزة شفاء أمراض أخرى:

(ا) ولقد جاء في الفصل الحادي والثلاثين من إنجيل برنابا أنه قال:

أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، وأنه شفى محموما:

" فاقترب الكهنة حينئذ إلى يسوع وقالوا " يا معلم أيجوز أن تعطى جزية لقيصر؟ "، فالتفت يسوع ليهوذا وقال " هل معك نقود؟ "، ثم أخذ يسوع بيده فلسا والتفت إلى الكهنة وقال لهم " إن على هذا الفلس صورة، فقولوا لي صورة من هي؟ "، أجابوا " صورة قيصر " فقال يسوع " أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر، وأعطوا ما لله لله "، حينئذ انصرفوا بالخيبة! واقترب قائد مائة قائلا " يا سيد إن ابني مريض، فارحم شيخوختي "، أجاب يسوع " ليرحمك الرب إله إسرائيل "، ولما كان الرجل منصرفا، قال يسوع " انتظرني، لأني آت إلى بيتك، لأصلي على ابنك "، أجاب قائد المائة " يا سيد إني لست أهلا، وأنت نبي الله أن تأتي إلى بيتي، تكفيني كلمتك التي تكلمت بها لشفاء ابني، لأن إلهك قد جعلك سيدا على كل مرض، كما قال لي ملاكه في المنام "، فتعجب حينئذ يسوع كثيرا وقال ملتفتا إلى الجمع " انظروا هذا الأجنبي، لأن فيه إيمانا أكثر من كل من وجد في إسرائيل "، ثم التفت إلى قائد المائة

---

(١) راجع ص ٢٤٠ - ٢٤٤ من إنجيل برنابا.

وقال " اذهب بسلام، لأن الله منح ابنك صحة، لأجل الإيمان العظيم الذي أعطاكه "، فمضى قائد المائة في طريقه، والتقى في الطريق بخدمته الذين أخبروه أن ابنه قد برئ، أجاب الرجل " وفي أية ساعة تركته الحمى؟ " فقالوا " أمس في الساعة السادسة، انصرفت عنه الحمى "، فعلم الرجل أنه لما قال يسوع " ليرحمك الرب إله إسرائيل " استرد ابنه صحته، لذلك آمن الرجل بإلهنا، ولما دخل بيته حطم كل آلهته تحطيما قائلا " ليس الإله الحقيقي الحي سوى إله إسرائيل "، لذلك قال " لا يأكل خبزي أحد لم يعبد إله إسرائيل (١) "!

(ب) وجاء في الفصل الرابع والثلاثين من إنجيل برنابا عن شفاء مريض متيبس اليد اليمنى إلى حد لم يتمكن معه من استعمالها. "... فوجه يسوع قلبه لله وصلى ثم قال " لتعلموا أن كلماتي حق، أقول باسم الله، امدد يا رجل يدك المريضة " فمدها صحيحة كأن لم تصبها علة (٢)!... "

(ج) وجاء في الفصل الخامس والأربعين عن شفاء يسوع امرأة، كان رأسها منحنيا نحو الأرض منذ ولادتها، فقال " ارفعي رأسك أيتها المرأة باسم إلهنا، ليعرف هؤلاء أني أقول الحق، وأنه يريد أن يذيعه، فاستقامت حينئذ المرأة صحيحة معظمة لله... " (٣)!

(ء) وجاء في الفصل الثامن والأربعين من إنجيل برنابا عن شفاء يسوع لمرضى كفر ناحوم حيث وضعوا في مقدم الرواق حيث كان يسوع وتلاميذه نازلين "... فألقى يسوع يده على كل منهم قائلا " يا إله إسرائيل باسمك القدوس اعط صحة لهذا العليل، فبرئوا جميعهم... " (٤)!

(ه) وجاء في الفصل الخامس والستين من إنجيل برنابا عن شفاء يسوع مقعدا في عيد الفصح في أورشليم عند البركة التي كانت تدعى " بيت جسرا "

---

(١) راجع ص ٤٦ – ٤٨ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٥٢ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٧٥ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ٧٦ و ٧٧ من إنجيل برنابا.

وكان له ثماني وثلاثين سنة مريضا بمرض عضال "... فلما كان يسوع عالما بذلك بإلهام إلهي، تحنن على المريض وقال له " تريد أن تبرأ؟ "، أجاب المقعد " يا سيد ليس لي أحد يضعني في الماء متى حركه الملاك، بل عندما آتي، ينزل قبلي آخر ويدخله "، حينئذ رفع يسوع عينيه نحو السماء وقال " أيها الرب إلهنا، إله آبائنا ارحم هذا المقعد " ولما قال يسوع هذا، قال " باسم الله، أبرأ أيها الأخ، قم واحمل فراشك "، فحينئذ قام المقعد حامدا لله، وحمل فراشه على كنفيه، وذهب إلى بيته حامدا لله " فصاح الذين رأوه إنه يوم السبت... وقالوا فيما بينهم " لا بد أن يكون يسوع الناصري " وقال آخرون " كلا لأنه قدوس الله، أما الذي فعل هذا، فهو أثيم لأنه كسر السبت (١)!.... "

(و) وجاء في الفصل الحادي والسبعين من إنجيل برنابا عن شفاء مصاب بالشلل:

"... ذاع في جهة الخليل كلها، أن يسوع النبي قد جاء إلى الناصرة، فتفقدوا عندئذ المرضى بجد وأحضروهم إليه متوسلين إليه أن يلمسهم بيديه، وكان الجمع غفيرا جدا، حتى أن غنيا مصابا بالشلل، لما لم يمكن إدخاله في الباب... أمر القوم برفع السقف، ودلى على ملأ أمام يسوع، فتردد يسوع دقيقة، ثم قال " لا تخف أيها الأخ، لأن خطاياك قد غفرت لك "، فاستاء كل أحد لسماع هذا وقالوا " من هذا الذي يغفر الخطايا؟ "، فقال حينئذ يسوع " لعمر الله إني لست بقادر على غفران الخطايا، ولكن الله وحده يقدر، ولكن كخادم لله، أقدر أن أتوسل إليه لأجل خطايا الآخرين، ولهذا توسلت إليه لأجل هذا المريض، وإني موقن بأن الله قد استجاب دعائي، ولكي تعلموا الحق أقول لهذا الإنسان " باسم إله آبائنا إبراهيم وأبنائه، قم معافى "، ولما قال يسوع هذا، قام المريض معافى ومجد الله، حينئذ توسل العامة إلى يسوع، ليتوسل إلى الله لأجل المرضى الذين كانوا خارجا، فخرج حينئذ يسوع إليهم ثم رفع يديه وقال " أيها الرب إله الجنود، الإله الحي،

---

(١) راجع ص ١٠١ و ١٠٢ من إنجيل برنابا.

الإله الحقيقي، الإله القدوس الذي لا يموت، ألا فارحمهم "، فأجاب كل واحد " آمين "، وبعد أن قيل هذا، وضع يسوع يديه على المرضى، فنالوا جميعهم صحتهم، فحينئذ مجدوا الله قائلين لقد افتقدنا الله بنبيه، فإن الله أرسل لنا نبيا عظيما " (١)!

(ز) وجاء في الفصول من الثاني بعد المائتين إلى الرابع بعد المائتين من إنجيل برنابا عن خطيئة أورشليم وشفاء المرضى:

" فجمع الأهلون المرضى إلى بيت سمعان (٢)، وضرعوا إلى يسوع لإبراء المرضى! حينئذ قال يسوع وهو عالم أن ساعته قد اقتربت " ادعوا المرضى ما بلغوا، لأن الله رحيم وقادر على شفائهم "، أجابوا " لا نعلم أنه يوجد مرضى آخرون هنا في أورشليم " أجاب يسوع باكيا " يا أورشليم! يا إسرائيل، إني أبكي عليك، لأنك لا تعرفين يوم حسابك، فإني أحببت أن أضمك إلى محبة الله خالقك، كما تضم الدجاجة فراخها تحت جناحيها، فلم تريدي، لذلك يقول الله هكذا " أيتها المدينة القاسية المرتكسة العقل! لقد أرسلت إليك عبدي لكي يحولك إلى قلبك فتتوبين، ولكنك يا مدينة البلبلة قد نسيت كل ما أنزلت بمصر وبفرعون حبا فيك يا إسرائيل، ستبكين مرارا عديدة، ليبرئ عبدي جسمك من المرض وأنت تطلبين أن تقتلي عبدي، لأنه يطلب أن يشفي نفسك من الخطيئة، أتبقين إذا وحدك دون عقوبة مني؟ أتعيشين إذا إلى الأبد، أو تنقذك كبرياؤك من يدي؟ لا البتة! لأني سأحمل عليك بأمراء وجيش، فيحيطون بك بقوة، وسأسلمك إلى أيديهم على كيفية تهبط بها كبرياؤك إلى الجحيم! لا أصفح عن الشيوخ ولا الأرامل! لا أصفح عن الأطفال! بل أسلمكم جميعا للجوع والسيف والسخرية! والهيكل الذي كنت أنظر إليه برحمة إياه أدمر مع المدينة، حتى تصيروا رواية وسخرية ومثلا بين الأمم، هكذا كل غضبي عليك، وحنقي لا يهجع "!

---

(١) راجع ص ١١٠ و ١١١ من إنجيل برنابا.
(٢) الذي كان أبرأه من البرص.

وبعد أن قال يسوع هذا، عاد فقال " ألا تعلمون أنه يوجد مرضى
آخرون؟ لعمر الله إن أصحاء النفس في أورشليم لأقل من مرضى الجسد،
ولكي تعرفوا الحق أقول لكم أيها المرضى، لينصرف باسم الله مرضكم عنكم "،
ولما قال هذا شفوا حالا، وبكى القوم لما سمعوا عن غضب الله على أورشليم،
وضرعوا لأجل الرحمة، فقال حينئذ يسوع " يقول الله إذا بكت أورشليم
على خطاياها وجاهدت نفسها سائرة في طرقي، فلا أذكر آثامها فيما بعد،
ولا ألحق بها شيئا من البلية التي ذكرتها، ولكن أورشليم تبكي على دمارها
لا على إهانتها لي التي بها جدفت على اسمي بين الأمم، لذلك زاد حنقي احتداما،
لعمري أنا الأبدي لو صلى لأجل هذا الشعب أيوب وإبراهيم وصموئيل وداود
ودانيال وموسى عبيدي، لا يسكن غضبي على أورشليم "، وبعد أن قال يسوع هذا
دخل البيت، وظل كل أحد خائفا (١) "!
معجزة إحياء الموتى:
(ا) ولقد جاء في الفصل السادس والأربعين من إنجيل برنابا عن إحياء
يسوع ميتا بإذن الله:
" ونزل يسوع في السنة الثانية من وظيفته النبوية من أورشليم وذهب إلى
نايين، فلما اقترب من باب المدينة، كان أهل المدينة يحملون إلى القبر ابنا وحيدا
لأمه الأرملة.. فلما وصل يسوع، علم الناس أن الذي جاء إنما هو يسوع نبي الجليل،
فلذلك تقدموا وتضرعوا إليه لأجل الميت، طالبين أن يقيمه، لأنه نبي، وفعل
تلاميذه كذلك، فخاف يسوع كثيرا، ووجه نفسه لله، وقال " خذني من العالم
يا رب، لأن العالم مجنون وكادوا يدعونني إلها "، ولما قال ذلك بكى، حينئذ
جاء الملاك جبريل وقال لا تخف يا يسوع، لأن الله أعطاك قوة على كل مرض،
حتى أن كل ما تمنحه باسم الله، يتم برمته، فعند ذلك تنهد يسوع قائلا " لتنفذ
مشيئتك أيها الإله القدير الرحيم " ولما قال هذا اقترب من أم الميت، وقال لها

---

(١) راجع ص ٢٩٩ - ٣٠١ من إنجيل برنابا.

بشفقة " لا تبكي أيتها المرأة "، ثم أخذ يد الميت وقال " أقول لك أيها الشاب، باسم الله، قم صحيحا "، فانتعش الغلام، وامتلأ الجميع خوفا، قائلين " لقد أقام الله نبيا عظيما بيننا، وافتقد شعبه (١) "!

(ب) وجاء في الفصول من الثاني والتسعين بعد المائة إلى الرابع والتسعين بعد المائة من إنجيل برنابا عن معجزة إحياء ميت:

"... وأتم هنا يسوع حديثه، وبينما كانوا على الطعام، إذا بمريم...

قد دخلت إلى بيت نيقوديموس – وهذا هو اسم الكاتب – ووضعت نفسها باكية عند قدمي يسوع قائلة " يا سيد: إن لخادمك الذي بسببك وجد رحمة من الله، أختا وأخا منطرحا مريضا في خطر الموت "، أجاب يسوع " أين بيتك؟ قولي لي، لأني أجئ لأضرع إلى الله لأجل صحته "، أجابت مريم " بيت عنيا هو بيت أختي وأخي، لأن سكني أنا المجدل... "، قال يسوع للمرأة " إذهبي توا إلى بيت أخيك وانتظريني هناك، لأني أجئ لأشفيه، ولا تخافي فإنه لا يموت "، فانصرفت المرأة، ولما ذهبت إلى بيت عنيا وجدت أخاها قد مات في ذلك اليوم. فوضعوه في ضريح آبائهم، ولبث يسوع يومين في بيت نيقوديموس، ومضى في اليوم الثالث إلى بيت عنيا، ولما قرب من المدينة، أرسل أمامه اثنين من تلاميذه ليخبرا مريم بقدومه، فخرجت مسرعة من المدينة، ولما وجدت يسوع قالت باكية " لقد قلت يا سيد إن أخي لا يموت، وقد صار له الآن أربعة أيام وهو دفين، يا ليتك جئت قبل أن أدعوك، لأنك لو فعلت، لما مات "، وأجاب يسوع " إن أخاك ليس بميت! بل هو راقد، لذلك جئت لأوقظه "، أجابت مريم باكية " يا سيد إنه يستيقظ من هذا الرقاد يوم الدينونة متى نفخ ملاك الله ببوقه "، أجاب يسوع " صدقيني يا مريم إنه سيقوم قبل ذلك، لأن الله قد أعطاني قوة على رقاده، والحق أقول لك إنه ليس بميت، فإن الميت هو من يموت دون أن يجد رحمة من الله "، فرجعت مريم بسرعة لتخبر أختها مرثا بمجئ يسوع... فلما سمعت مرثا من أختها مريم عن مجئ

---

(١) راجع ص ٧٥ و ٧٦ من إنجيل برنابا.

يسوع، قامت على عجل و أسرعت إلى الخارج، فتبعها جمهور من اليهود والكتبة والفريسيين، لأنهم حسبوا أنها ذاهبة إلى القبر لتبكي أخاها، فلما بلغت مرثا المكان الذي كان قد كلم فيه يسوع مريم، قالت باكية " يا سيد ليتك كنت هنا، لأنك لو كنت، لم يمت أخي "، ثم وصلت مريم باكية، فسكب من ثم يسوع العبرات وقال متنهدا " أين وضعتموه؟ "، أجابوا " تعال وانظر "، فقال الفريسيون فيما بينهم " لماذا سمح هذا الرجل الذي أحيا الأرملة في نايين، أن يموت هذا الرجل بعد أن قال إنه لا يموت؟، ولما وصل يسوع القبر حيث كان كل أحد يبكي، قال " لا تبكوا، لأن لعازر راقد وقد أتيت لأوقظه "، وقال الفريسيون فيما بينهم " ليتك ترقد أنت هذا الرقاد "، حينئذ قال يسوع " إن ساعتي لم تأت، ولكن متى جاءت أرقد كذلك ثم أوقظ سريعا "، ثم قال يسوع أيضا " ارفعوا الحجر عن القبر! " قالت مرثا " يا سيد لقد أنتن، لأن له أربعة أيام وهو ميت "، قال يسوع " إذا لماذا جئت إلى هنا يا مرثا، ألا تؤمنين بأني أوقظه؟ "، قالت مرثا " أعلم أنك قدوس الله الذي أرسلك إلى هذا العالم "، ثم رفع يسوع يديه إلى السماء وقال " أيها الرب إله إبراهيم وإله إسماعيل وإسحق وإله آبائنا! أرحم مصاب هاتين المرأتين، واعط مجدا لاسمك المقدس "، ولما أجاب كل واحد " آمين "، قال يسوع بصوت عال " لعازر! هلم خارجا "، فقام على إثر ذلك الميت، وقال يسوع لتلاميذه " حلوه " لأنه كان مربوطا بثياب القبر مع منديل على وجهه... فآمن بيسوع جم غفير من اليهود وبعض الفريسيين، لأن الآية كانت عظيمة، وانصرف الذين لبثوا بدون إيمان وذهبوا إلى أورشليم وأخبروا رئيس الكهنة بقيامة لعازر، وأن كثيرين صاروا ناصريين، لأنهم هكذا كانوا يدعون الذين حملوا على التوبة بواسطة كلمة الله التي بشر بها يسوع، فتشاور الكتبة والفريسيون مع رئيس الكهنة ليقتلوا لعازر، لأن كثيرين رفضوا تقاليدهم، وآمنوا بكلمة يسوع، لأن آية لعازر كانت عظيمة، إذ أن لعازر حدث الشعب وأكل وشرب، ولكن لما كان قويا وله أتباع في أورشليم، لم يعرفوا ماذا يفعلون، ودخل يسوع بيت لعازر في بيت عنيا... وجلس يسوع على المائدة مع جم غفير من الذين آمنوا، وتكلم

قائلا.... أيها الإخوة لم يبق لي معكم سوى هنيهة من الزمن، لأنه اقترب الزمن الذي يجب فيه أن أنصرف من العالم (١)... "!

معجزات أخرى:

(ا) وجاء في الفصل الخامس عشر من إنجيل برنابا عن الآية التي فعلها المسيح في العرس، حيث حول الماء خمرا نقية:

" لما اقترب عيد المظال، دعا غني يسوع وتلاميذه وأمه إلى العرس، فذهب يسوع، وبينما هم في الوليمة، فرغت الخمر، فكلمت أم يسوع إياه قائلة: " ليس لهم خمر " فأجاب يسوع " وما شأني في ذلك يا أماه (٢) "، فأوصت أمه الخدم أن يطيعوا يسوع المسيح في كل ما يأمرهم به، وكانت هناك ستة أجران للماء حسب عادة إسرائيل، ليطهروا أنفسهم للصلاة، فقال يسوع " املأوا هذه الأجران ماء "، ففعل الخدمة هكذا، فقال لهم يسوع " باسم الله اسقوا المدعوين "... أما الذين كانوا بجانب يسوع، فلما رأوا الحقيقة، نهضوا عن المائدة واحتفوا به قائلين " حقا إنك قدوس الله، ونبي صادق مرسل إلينا من الله (٣) "

(ب) وجاء في الفصل العشرين من إنجيل برنابا عن الآية التي فعلها يسوع في البحر وإعلانه أين يقبل النبي:

" وذهب يسوع إلى بحر الجليل ونزل في مركب مسافر إلى الناصرة مدينته، فحدث نوء عظيم في البحر حتى أشرف المركب على الغرق... فنهض يسوع ورفع عينيه نحو السماء وقال " يا ألوهيم الصباؤت، ارحم عبيدك (٤)! ولما قال يسوع

---

(١) راجع ص ٢٨٥ - ٢٩٠ من إنجيل برنابا.

(٢) يفهم من ذلك أنه لم يشرب من خمرهم، وقد جاء في ص ٣ من إنجيل برنابا كلام جبريل عليه السلام لمريم العذراء عن تربية المسيح " فامنعيه الخمر والمسكر وكل لحم نجس "

(٣) راجع ص ١٧ من إنجيل برنابا، وقد ذكر أن الخمر المحولة من الماء كانت جيدة حتى أن مدير الحفلة وبخ الأتباع لعدم تقديمها وتأخيرها. ونفسر الجودة هنا بالنقاء والخلو من النجس، لا سيما وقد كان الماء في أجران معدودة للطهارة!

(٤) لفظ الجلالة بالعبري.

هذا، سكنت الريح حالا وهدأ البحر، فجزع النوتية قائلين " ومن هو هذا حتى أن البحر والريح يطيعانه "، ولما بلغ مدينة الناصرة، أذاع النوتية في المدينة كل ما فعله يسوع، فمثل بين يديه الكتبة والعلماء، وقالوا " لقد سمعناكم فعلت في البحر واليهودية، فأتنا إذا بآية من الآيات هنا في وطنك "، فأجاب يسوع " يطلب هذا الجيل العديم الإيمان آية، ولكن لن تعطى له، لأنه لا يقبل نبي في وطنه (١)! "

(ج) وجاء في الفصول من الحادي والثمانين إلى الثالث والثمانين من إنجيل برنابا عن السامرية التي أبت أن تعطي المسيح شربة ماء:

"... فقال يسوع " لعمر الله، إن نسيان كلمة الله التي بها خلق كل الأشياء، والتي بها يقدم لك الحياة الأبدية، لخطيئة كبرى "، ولما قال يسوع هذا صلى وقال بعد صلاته " لا يجب أن نعبر غدا إلى السامرة، لأنه هكذا قال لي ملاك الله القدوس "... ولما أعيا يسوع السفر، أرسل تلاميذه إلى المدينة ليشتروا طعاما، فجلس بجانب البئر على حجر البئر، وإذا بامرأة من السامرة قد جاءت إلى البئر لتستقي ماء، فقال يسوع للمرأة " أعطني لأشرب،، فأجابت المرأة " ألا تخجل وأنت عبراني " أن تطلب مني شربة ماء وأنا امرأة سامرية؟ "، أجاب يسوع " أيتها المرأة! لو كنت تعلمين من يطلب منك شربة، لطلبت أنت منه شربة "، أجابت المرأة " وكيف تعطيني لأشرب ولا إناء ولا حبل معك لتجذب به الماء، والبئر عميقة؟ "، أجاب يسوع " أيتها المرأة! من يشرب من ماء هذه البئر، يعاوده العطش، أما من يشرب من الماء الذي أعطيه، فلا يعطش أبدا، بل يعطى العطاش ليشربوا، بحيث يصلون إلى الحياة الأبدية " فقالت المرأة " يا سيد أعطني من مائك هذا "، أجاب يسوع " اذهبي وادعي زوجك، وإياكما أعطي لتشربا " قالت المرأة " ليس لي زوج "، أجاب يسوع " حسنا، قلت الحق، لأنه كان لك خمسة أزواج، والذي معك الآن ليس هو زوجك "، فلما سمعت المرأة هذا اضطربت وقالت " يا سيد أرى بهذا أنك

---

(١) راجع ص ٢٧ و ٢٨ من إنجيل برنابا.

نبي، لذلك أضرع إليك أن تخبرني عما يأتي " إن العبرانيين، يصلون على جبل صهيون في الهيكل الذي بناه سليمان في أورشليم، ويقولون إن نعمة الله ورحمته توجد هناك، لا في موضع آخر. أما قومنا فإنهم يقولون إن السجود إنما يجب أن يكون على جبال السامرة فقط، فمن هم الساجدون الحقيقيون؟، " حينئذ تنهد يسوع وبكى قائلا " ويل لك يا بلاد اليهودية، لأنك تفخرين قائلة " هيكل الرب! هيكل الرب! " وتعيشين كأنه لا إله، منغمسة في الملذات ومكاسب العالم، فإن هذه المرأة تحكم عليك بالجحيم في يوم الدين، لأن هذه المرأة تطلب أن تعرف كيف نجد نعمة ورحمة عند الله "، ثم التفت إلى المرأة وقال " أيتها المرأة! إنكم أنتم السامريين، تسجدون لما لا تعرفون، أما نحن العبرانيين، فنسجد لمن نعرف، الحق أقول لك، إن الله روح وحق، ويجب أن يسجد له بالروح والحق، لأن عهد الله، إنما أخذ في أورشليم في هيكل سليمان " لا في موضع آخر، ولكن صدقيني إنه يأتي وقت يعطي فيه رحمته في مدينة أخرى، ويمكن السجود له في كل مكان بالحق، ويقبل الله الصلاة الحقيقية في كل مكان برحمته... وبينما كانت المرأة تكلم يسوع، جاء تلاميذه... فلما انصرفت المرأة، قالوا " يا معلم تعال وكل "، أجاب يسوع " يجب أن آكل طعاما آخر.. فوقف التلاميذ مندهشين منتظرين نتيجة كلام يسوع، عندئذ قال يسوع " إنكم لا تعلمون أن الطعام الحقيقي هو عمل مشيئة الله، لأنه ليس الخبز الذي يقيت الإنسان، ويعطيه حياة، بل بالحري كلمة الله بإرادته، فلهذا السبب لا تأكل الملائكة الأطهار، بل يعيشون ويتغذون بإرادة الله، وهكذا نحن وموسى وإيليا وواحد آخر، لبثنا أربعين يوما وأربعين ليلة بدون شئ من الطعام "، ثم رفع يسوع عينيه، وقال " متى يكون الحصاد؟ " أجاب التلاميذ " بعد ثلاثة أشهر " قال يسوع " انظروا الآن كيف أن الجبال بيضاء بالحبوب، الحق أقول لكم، إنه يوجد اليوم حصاد عظيم يجنى "، وحينئذ أشار إلى الجم الغفير الذي أتى ليراه، لأن المرأة أثارت المدينة بأسرها، قائلة: " أيها القوم! تعالوا وانظروا نبيا جديدا مرسلا من الله إلى بيت إسرائيل "، وقصت عليهم كل ما سمعت من يسوع، فلما أتوا إلى هناك، توسلوا إلى يسوع، أن يمكث

عندهم، فدخل المدينة ومكث هناك يومين شافيا كل المرضى، ومعلما ما يختص بملكوت الله، حينئذ قال أهل المدينة للمرأة: " إننا أكثر إيمانا بكلامه وآياته، منا بما قلت، لأنه قدوس الله حقا، ونبي مرسل لخلاص الذين يؤمنون به... " (١)

(ء) وجاء في الفصل الثامن والتسعين من إنجيل برنابا عن معجزة كفاية خمسة أرغفة وسمكتين لأكثر من خمسة آلاف رجل، خلا النساء والأطفال:

"... وبعد أن انصرف الفريق الأكبر من الجمع، بقي نحو خمسة آلاف رجل، خلا النساء والأطفال، لم يتمكنوا من الانصراف كالآخرين، لأن السفر أعياهم، لأنهم لبثوا يومين بدون خبز... فكانوا يقتاتون بالعشب الأخضر، فلما رأى يسوع هذا، أخذته الشفقة عليهم وقال لفيليبس: " أين نجد خبزا لهم، لكيلا يهلكوا من الجوع؟ "، أجاب فيليبس: " يا سيدي! إن مائتي قطعة من الذهب، لا تكفي لشراء ما يتبلغون به من الخبز "، حينئذ قال اندرواس: " هذا غلام معه خمسة أرغفة وسمكتان، ولكن ما عسى أن تكون بين هذا العدد الجم؟ "، أجاب يسوع: " أجلس الجمع "، فجلسوا على العشب، خمسين خمسين، وأربعين أربعين، حينئذ قال يسوع: " باسم الله " وأخذ الخبز وصلى لله، ثم كسر الخبز وأعطاه للتلاميذ، والتلاميذ أعطوه للجمع، وفعلوا كذلك بالسمكتين، فأكلوا كلهم وشبعوا، حينئذ قال يسوع: " اجمعوا الباقي "، فجمع التلاميذ تلك الكسر، فملأت اثنتي عشرة قفة، حينئذ وضع كل أحد يده على عينيه قائلا: " أمستيقظ أنا أم حالم؟ "، ولبثوا جمعيهم مدة ساعة، كأنهم مجانين بسبب الآية العظمى (٢) ".

(٥) وجاء في الفصل الثلاثين بعد المائة من إنجيل برنابا عن معجزة الخصوبة بعد خوف القحط:

" ولما طلع الصباح، جاء باكرا رجال المدينة كلهم مع النساء والأطفال إلى البيت الذي كان فيه يسوع وتلاميذه، وتوسلوا إليه قائلين: " يا سيد!

---

(١) راجع ص ١٢٥ - ١٣٠ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ١٥١ - ١٥٣ من إنجيل برنابا.

ارحمنا، لأن الديدان قد أكلت في هذه السنة الحبوب، ولا نحصل في هذه السنة على خبز في أرضنا "، أجاب يسوع: " ما هذا الخوف الذي أنتم فيه؟
ألا تعلمون أن إيليا خادم الله، لم ير خبزا مدة اضطهاد أخاب له ثلاث سنين، مغتذيا بالبقول والثمار البرية فقط؟ وعاش داود أبونا نبي الله مدة سنتين على الثمار البرية والبقول، إذ اضطهده شاول، حتى أنه لم يذق الخبز سوى مرتين "، أجاب القوم: " إنهم كانوا أيها السيد أنبياء الله، يغتذون بالمسرة الروحية، ولذلك احتملوا كل شئ، ولكن ماذا يصيب هؤلاء الصغار؟ " ثم أروه جمهور أطفالهم، حينئذ تحنن يسوع على شقائهم وقال: " كم بقي للحصاد؟ "، فأجابوا: " عشرون يوما "، فقال يسوع: " يجب أن ننقطع هذه العشرين يوما، للصوم والصلاة، لأن الله سيرحمكم، الحق أقول لكم إن الله، قد أحدث هذا القحط، لأنه ابتدأ هنا جنون الناس وخطيئة إسرائيل، إذ قالوا: إنني أنا الله وابن الله (١) "، وبعد أن صاموا تسعة عشر يوما، شاهدوا في صباح اليوم العشرين الحقول والهضاب مغطاة بالحنطة اليابسة، فأسرعوا إلى يسوع وقصوا عليه كل شئ، فلما سمع يسوع ذلك شكر الله، وقال: " اذهبوا أيها الإخوة واجمعوا الخبز الذي أعطاكم إياه الله " فجمع القوم مقدارا وافرا من الحنطة.. وكان ذلك سبب سعة في إسرائيل، فتشاور الأهالي لينصبوا يسوع ملكا عليهم، فلما عرف ذلك هرب منهم، ولذلك اجتهد التلاميذ خمسة عشر يوما ليجدوه (٢) ".
(و) جاء في الفصل المائتين من إنجيل برنابا عن معجزة تسبيح الحجارة:
" حينئذ التفت يسوع إلى لعازر وقال: " يجب علي أيها الأخ أن أمكث في العالم هنيهة فمتى كنت على مقربة من بيتك، لا أذهب إلى محل آخر قط، لأنك تخدمني لا حبا في بل حبا في الله " وكان فصح اليهود قريبا، لذلك قال يسوع لتلاميذه: " لنذهب إلى أورشليم لنأكل حمل الفصح " وأرسل بطرس ويوحنا إلى المدينة قائلا: " تجدان إتانا بجانب باب المدينة معه جحش، فحلاها

---

(١) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا!.
(٢) راجع ص ٢١٣ و ٢١٤ من إنجيل برنابا.

وائتيا بها إلى هنا، لأنه يجب أن أركبها إلى أورشليم.. فذهب التلميذان .. فأحضرا الإتان والجحش، فوضع التلميذان رداءيهما على الجحش وركب يسوع، وحدث أنه لما سمع أهل أورشليم أن يسوع الناصري آت، فرح الناس مع أطفالهم متشوقين لرؤية يسوع حاملين في أيديهم أغصان النخل والزيتون مرنمين " تبارك الآتي إلينا باسم الله، مرحبا بابن داود "! فلما بلغ يسوع المدينة، فرش الناس ثيابه تحت أرجل الإتان، مرنمين " تبارك الآتي إلينا باسم الرب الإله، مرحبا بابن داود " فوبخ الفريسيون يسوع " ألا ترى ما يقول هؤلاء؟ مرهم أن يسكنوا " حينئذ قال يسوع: " لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، لو سكت هؤلاء، لصرخت الحجارة بكفر الأشرار والأردياء " ولما قال يسوع هذا صرخت حجارة أورشليم كلها بصوت عظيم: " تبارك الآتي إلينا باسم الرب الإله " وعلى ذلك أصر الفريسيون على عدم إيمانهم، وبعد أن التأموا، ائتمروا ليسقطوه بكلامه " (١).

(ز) وجاء في الفصل الواحد بعد المائتين من إنجيل برنابا عن معجزة صنع المسيح بإصبعه مرآة على الأرض رأى فيها كل إثمه:

" وبعد أن دخل يسوع الهيكل، أحضر إليه الكتبة والفريسيون امرأة أخذت في زنا، وقالوا فيما بينهم إذا خلصها، فذلك مضاد لشريعة موسى، فيكون عندنا مذنبا، وإذا دانها فذلك مضاد لتعليمه، لأنه يبشر بالرحمة "، فتقدموا إلى يسوع وقالوا: " يا معلم! لقد وجدنا هذه المرأة وهي تزني، وقد أمر موسى أن مثل هذه ترجم، فماذا تقول أنت؟ " فانحنى من ثم يسوع وصنع بإصبعه مرآة على الأرض، رأى فيها كل إثمه، ولما ظلوا يلحون بالجواب، انتصب يسوع وقال مشيرا بإصبعه إلى المرآة: " من كان منكم بلا خطيئة، فليكن أول راجم لها "، ثم عاد فانحنى مقلبا المرآة، فلما رأى القوم هذا،

---

(١) راجع ص ٢٩٥ و ٢٩٦ من إنجيل برنابا.
وبارك الله لك وفيك وعليك، وباركك، وتبارك مثل بارك، مثل قاتل وتقاتل، إلا أن فاعل يتعدى وتفاعل لا يتعدى. راجع ص ٦٢ من مختار الصحاح للرازي

خرجوا واحدا فواحدا، مبتدئين من الشيوخ، لأنهم خجلوا أن برواجسهم، ولما انتصب يسوع، ولم ير أحدا سوى المرأة، قال: " أيتها المرأة! أين الذين دانوك؟ فأجابت المرأة باكية: " يا سيد! قد انصرفوا، فإذا صفحت عني، فإني لعمر الله لا أخطئ فيما بعد "، حينئذ قال يسوع: " تبارك الله! اذهبي في طريقك بسلام، ولا تخطئي فيما بعد، لأن الله لم يرسلني لأدينك (١)... "

(٣) تآمر الكهنة على المسيح:

(ا) ولقد جاء في الفصل الثالث عشر من إنجيل برنابا عن خوف يسوع وصلاته وتعزية الملاك جبريل العجيبة:

" ولما مضت بعض أيام، وكان يسوع عالما بالروح رغبة الكهنة، صعد إلى جبل الزيتون ليصلي، وبعد أن صرف الليل كله في الصلاة، صلى يسوع في الصباح، قائلا: يا رب إني عالم أن الكتبة يبغضونني، والكهنة مضمرون على قتلي أنا عبدك، لذلك أيها الرب الإله القدير الرحيم، اسمع برحمة صلوات عبدك، وأنقذني من حبائلهم، لأنك أنت خلاصي، وأنت تعلم يا رب أني أنا عبدك، إياك أطلب يا رب، وكلمتك أتكلم، لأن كلمتك حق، وهي تدوم إلى الأبد "، ولما أتم يسوع هذه الكلمات، وإذا بالملاك جبريل قد جاء إليه قائلا: " لا تخف يا يسوع! لأن ألف ألف من الذين يسكنون فوق السماء، يحرسون ثيابك، ولا تموت حتى يكمل كل شئ، ويمسي العالم على وشك النهاية "، فخر يسوع على وجهه إلى الأرض، قائلا: " أيها الإله الرب العظيم، ما أعظم رحمتك لي (٢)... ".

(ب) وجاء في الفصل الثاني والأربعين من إنجيل برنابا عندما أرسل الكهنة اللاويين وبعض الكتبة، لسؤال يسوع من هو:

----

(١) راجع ص ٢٩٦ - ٢٩٨ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ١٤ و ١٥ من إنجيل برنابا، حيث ذكر أن جبريل دل يسوع على كبش " فقدمه يسوع ذبيحة حامدا ومسبحا لله الممجد إلى الأبد "!

"... فإن رؤساء الكهنة تشاوروا فيما بينهم، ليسقطوه بكلامه، لذلك أرسلوا اللاويين وبعض الكتبة، يسألونه قائلين: من أنت؟ فاعترف يسوع وقال: " الحق أني لست مسيا "، فقالوا: أأنت إيليا أو أرميا أو أحد الأنبياء القدماء، أجاب يسوع: " كلا "، حينئذ قالوا: من أنت لنشهد للذين أرسلونا؟! " فقال حينئذ يسوع " أنا صوت صارخ في اليهودية كلها، يصرخ " أعدوا طريق رسول الرب "، " كما هو مكتوب في أشعيا "، قالوا: إن لم تكن المسيح ولا إيليا أو نبيا، فلماذا تبشر بتعليم جديد وتجعل نفسك أعظم شأنا من مسيا؟ "، أجاب يسوع: " إن الآيات التي يفعلها الله على يدي، تظهر أني أتكلم بما يريد الله، ولست أحسب نفسي نظير تقولون عنه (١). "

---

(١) ثم وردت عبارة " لأني لست أهلا أن أحل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله الذي تسمونه مسيا... "
وورد مثل هذا الكلام في الفصل الرابع والأربعين ممن إنجيل برنابا ص ٧١ في حديث يسوع مع تلاميذه عن مسيا ".. صدقوني أني رأيته وقدمته له الاحترام، كما رآه كل نبي، لأن الله يعطيهم روحه نبوة، ولما رأيته امتلأت عزاء قائلا: يا محمد ليكن الله معك، وليجعلني أهلا أن أحل سير حذائك، لأني إذا نلت هذا صرت نبيا عظيما وقدوس الله "، ولما قال يسوع هذا، شكر الله. وجاء في الفصل السابع والتسعين من إنجيل برنابا ص ١٩٧ عندما سأل الكاهن المسيح متي سيأتي مسيا "... ومع أني لست مستحقا أن أحل سير حذائه قد نلت نعمة ورحمة من الله، لأراه. " -
وأنا أعتقد أن هذا الكلام من تواضع عيسى عليه السلام عند حديثه عن أخيه محمد، وإلا فإن الرسل كلهم إخوة، ولإخوتهم إعزازها، وقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إذا تحدث عن الأنبياء السابقين، تحدث ذاكرا فضلهم حديث محب لأنبياء الله، وكان يقول: " لا تخيروا بين الأنبياء " فلقد جاءه رجل فقال يا خير البرية! فقال صلى الله عليه وسلم: " ذاك إبراهيم خليل الله "، وتحدث عن عيسى عليه السلام، فقال: " ما من بني آدم من مولود إلا ينخسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخا من نخسته إياه، إلا مريم وابنها ". راجع ص ٣ - ٤٢ من وحي الأحاديث المحمدية ج ١ لمحمود علي قراعة. فذكر العبارات السابقة نحملها محمل الاتضاع الحقيقي الذي نادى به المسيح عليه السلام.

فانصرف اللاويون والكتبة بالخيبة، وقصوا كل شئ على رؤساء الكهنة الذين قالوا إن الشيطان على ظهره، وهو يتلو كل شئ عليه "، ثم قال يسوع لتلاميذه: " الحق أقول لكم إن رؤساء وشيوخ شعبنا، يتربصون بي الدوائر "، فقال بطرس: " لا تذهب فيما بعد إلى أورشليم "! فقال له يسوع: " إنك لغبي ولا تدري ما تقول! فإن على أن أحتمل اضطهادات كثيرة، لأنه هكذا احتمل جميع الأنبياء وأطهار الله، ولكن لا تخف، لأنه يوجد قوم معنا وقوم علينا "، ولما قال يسوع هذا انصرف إلى جبل طابور، وصعد معه بطرس ويعقوب ويوحنا أخوه، مع الذي يكتب هذا، فأشرق هناك فوقهم نور عظيم، وصارت ثيابه بيضاء كالثلج ولمع وجهه كالشمس، وإذا بموسى وإيليا يكلمان يسوع بشأن ما سيحل بشعبنا وبالمدينة المقدسة... وبينما كان يتكلم غشيته سحابة بيضاء، وسمعوا صوتا قائلا: " انظروا خادمي الذي به سررت، اسمعوا له "، فارتاع التلاميذ وسقطوا على وجوههم، كأنهم أموات، فنزل يسوع وأنهض تلاميذه قائلا: " لا تخافوا، لأن الله يحبكم، وقد فعل هذا لكي تؤمنوا بكلامي (١) "!

(ج) وجاء في الفصل الثامن بعد المائتين من إنجيل برنابا عن مؤامرة رئيس الكهنة على يسوع في الهيكل:

".... أجاب رئيس الكهنة: " إنما أسألك هذا ولا أطلب قتلك، فقل لنا من كان ابن إبراهيم هذا؟ " أجاب يسوع: " إن غيرة شرفك يا الله تؤججني ولا أقدر أن أسكت، الحق أقول إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته مسيا الموعود به إبراهيم، أن به تتبارك كل قبائل الأرض "، فلما سمع هذا رئيس الكهنة حنق وصرخ " لنرجم هذا الفاجر لأنه إسماعيلي، وقد جدف على موسى وعلى شريعة الله "، فأخذ من ثم كل من الكتبة والفريسين مع شيوخ الشعب حجارة ليرجموا يسوع، فاختفى عن أعينهم وخرج من الهيكل... أما التلاميذ والمؤمنون الذين رأوا يسوع خارجا من الهيكل - لأنه لم يكن محتجبا عنهم - فتبعوه إلى بيت سمعان!

----

(١) راجع ص ٦٦ - ٦٨ من إنجيل برنابا.

فجاء من ثم نيقوديموس إلى هناك وأشار على يسوع أن يخرج من أورشليم.... قائلا: " يا سيد إن لي بستانا وبيتا وراء جدول قدرون، فأضرع إليك إذا أن تذهب هناك مع بعض تلاميذك، وأن تبقى هناك إلى أن يزول حقد الكهنة، لأني أقدم إليك كل ما يلزم، وأنتم يا جمهور التلاميذ، امكثوا هنا في بيت سمعان وفي بيتي، لأن الله يعول الجميع " ففعل يسوع هكذا، ورغب في أن يكون معه الذين دعوا أولا رسلا فقط (١) "!

(د) وجاء في الفصل التاسع بعد المائتين من إنجيل برنابا عن إخبار العذراء مريم باضطهاد ابنها:

" وفي هذا الوقت، بينما كانت العذراء مريم أم يسوع منتصبة في الصلاة، زارها الملاك جبريل وقص عليها اضطهاد ابنها قائلا: " لا تخافي يا مريم، لأن الله سيحميه من العالم " فانطلقت مريم من الناصرة باكية، وجاءت إلى أورشليم إلى بيت مريم سالومة أختها، تطلب ابنها (٢).... "

(ه) وجاء في الفصل العاشر بعد المائتين من إنجيل برنابا عن البحث عن يسوع:

".... خاف الوالي مجلس الشيوخ وصالح هيرودس، وكانا قبل هذا قد أبغض أحدهما الآخر إلى الموت، واتحدا معا على إماتة يسوع، وقالا لرئيس الكهنة: " متى علمت أين الأثيم، فأرسل إلينا، نعطك جنودا "، وقد عمل هذا لتتم نبوة داود الذي أنبأ بيسوع نبي إسرائيل، قائلا: " اتحد أمراء الأرض وملوكا على قدوس إسرائيل، لأنه نادى بخلاص العالم "، وعليه فقد حدث تفتيش عام في ذلك على يسوع في أورشليم كلها (٣) "!

(و) وجاء في الفصل الحادي عشر بعد المائتين من إنجيل برنابا عن تعزية يسوع لتلاميذه:

----

(١) راجع ص ٣٠٥ و ٣٠٦ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٣٠٦ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ٣٠٦ – ٣٠٨ من إنجيل برنابا.

" ولما كان يسوع في بيت نيقوديموس وراء جدول قدرون، عزى
تلاميذه قائلا: " لقد دنت الساعة التي أنطلق فيها من هذا العالم، تعزوا ولا تحزنوا
لأنني حيث أمضي لا أشعر بمحنة، أتكونون أخلائي لو حزنتم لحسن حالي؟
لا البتة! بل بالحري أعداء، إذا سر العالم فاحزنوا، لأن مسرة العالم تنقلب
بكاء، أما حزنكم فسيتحول فرحا، ولن ينتزع فرحكم منكم أحد، العالم بأسره
لا يقدر أن ينزع الفرح الذي يشعر به القلب بالله خالقه، وانظروا أن لا تنسوا
الكلام الذي كلمكم الله به على لساني، كونوا شهودي على كل من يفسد الشهادة
التي قد شهدتها بإنجيلي على العالم وعلى عشاق العالم (١) "!
(ز) وجاء في الفصل الثالث عشر بعد المائتين من إنجيل برنابا عن الوليمة
الأخيرة مع يسوع:
" ولما جاء يوم أكل الحمل، أرسل نيقوديموس الحمل سرا إلى البستان
ليسوع وتلاميذه، مخبرا بكل ما أمر به هيرودس والوالي ورئيس الكهنة،
فتهلل من ثم يسوع بالروح قائلا: " تبارك اسمك القدوس يا رب، لأنك
لم تفرزني من عدد خدمتك الذين اضطهدهم وقتلهم العالم، أشكرك يا إلهي
لأنك قد أتممت عملك "، ثم التفت إلى يهوذا وقال له:؟ " يا صديق لماذا تتأخر؟
إن وقتي قد دنا، فاذهب وافعل ما يجب أن تفعله "، فظن التلاميذ أن يسوع
أرسل يهوذا ليشتري شيئا ليوم الفصح، ولكن يسوع عرف أن يهوذا كان
على وشك تسليمه، ولذلك قال له هكذا، لأنه يحب الانصراف من العالم،
أجاب يهوذا: " تمهل على يا سيد حتى آكل ثم أذهب "، فقال يسوع:
" لنأكل لأني اشتهيت جدا أن آكل هذا الحمل، قبل أن أنصرف عنكم "،
ثم قام وأخذ منشفة ومنطق حقويه، ثم وضع ماء وشرع يغسل أرجل تلاميذه،
فابتدأ يسوع بيهوذا وانتهى ببطرس، فقال بطرس: " يا سيد أتغسل رجلي؟ "،
أجاب يسوع: " إن ما أفعله، لا تفهمه الآن، ولكن ستعلمه فيما بعد "،

---

(١) راجع ص ٣٠٨ و ٣٠٩ من إنجيل برنابا.

أجاب بطرس: " لن تغسل رجلي أبدا "، حينئذ نهض يسوع وقال:
" وأنت لا تأتي بصحبتي في يوم الدينونة "، أجاب بطرس: " لا تغسل رجلي فقط! بل يدي ورأسي "، فبعد غسل التلاميذ وجلوسهم على المائدة ليأكلوا، قال يسوع: " لقد غسلتكم، ولكن مع ذلك لستم كلكم طاهرين، لأن ماء البحر لا يطهر من لا يصدقني "، قال هذا يسوع لأنه علم من سيسلمه، فحزن التلاميذ لهذه الكلمات، فقال يسوع أيضا: " الحق أقول لكم إن واحدا منكم سيسلمني، فأباع كخروف، ولكن ويل له، لأنه سيتم كل ما قاله داود أبونا عنه إنه سيسقط في الهوة التي أعدها للآخرين "، فنظر من ثم التلاميذ بعضهم إلى بعض قائلين بحزن: " من سيكون الخائن؟ "، فقال حينئذ يهوذا: " أنا هو يا معلم؟ "، أجاب يسوع: " لقد قلت لي من هو الذي سيسلمني ":
أما الأحد عشر رسولا، لم يسمعوه، فلما أكل الحمل، ركب الشيطان ظهر يهوذا، فخرج من البيت، ويسوع يقول أيضا: " أسرع بفعل ما أنت فاعل (١) "!
(٤) خيانة يهوذا:
(١) ولقد جاء في الفصل الثاني والسبعين من إنجيل برنابا عندما أخبر الملاك جبريل يسوع عن خيانة يهوذا:
"... لأن الملاك جبريل، قال له: كيف كانت ليهوذا يد مع الكهنة، وأخبرهم بكل ما تكلم به يسوع، فاقترب الذي يكتب هذا إلى يسوع بدموع قائلا: " يا معلم! قل من هو الذي يسلمك؟ "، أجاب يسوع قائلا " يا برنابا: ليست هذه الساعة هي التي تعرفه فيها: ولكن يعلن الشرير نفسه قريبا، لأني سأنصرف عن العالم "، فبكى حينئذ الرسل قائلين: " يا معلم! لماذا تتركنا، لأن الأحرى بنا أن نموت من أن تتركنا "، أجاب يسوع: " لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا، لأني لست الذي خلقكم، بل الله الذي خلقكم يحميكم، أما من خصوصي، فإني قد أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله (٢)... "

---

(١) راجع ص ٣١٠ - ٣١٢ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١١١ و ١١٢ من إنجيل برنابا.

(ب) ولقد جاء في الفصلين التاسع والثلاثين بعد المائة والأربعين بعد المائة من إنجيل برنابا عن حديث المسيح عن بيع يهوذا له وتسليمه لأعدائه، وأنه سيرحل عن العالم:

" أما يسوع، فوجده الذي يكتب ويعقوب ويوحنا، فقالوا وهم باكون: " يا معلم لماذا هربت منا؟ فقد طلبناك ونحن حزانى، بل إن التلاميذ كلهم طلبوك باكين "، فأجاب يسوع: " إنما هربت، لأني علمت أن جيشا من الشياطين يهيئ له ما سترونه بعد برهة وجيزة، فسيقوم على رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وسيطلبون أمرا من الحاكم الروماني بقتلي، لأنهم يخافون أن أغتصب ملك إسرائيل! وعلاوة على هذا فإن واحدا من تلاميذي يبيعني ويسلمني كما بيع يوسف إلى مصر، ولكن الله العادل سيوثقه كما يقول النبي داود: " من نصب فخا لأخيه، وقع فيه "، ولكن الله سيخلصني من أيديهم، وسينقلني من العالم، فخاف التلاميذ الثلاثة، ولكن يسوع عزاهم قائلا: " لا تخافوا، لأنه لا يسلمني أحد منكم "، فكان لهم بهذا شئ من العزاء، وجاء في اليوم التالي ستة وثلاثون تلميذا من تلاميذ يسوع، مثنى مثنى، ومكث في دمشق ينتظر الباقين، وحزن كل منهم، لأنهم عرفوا أن يسوع سينصرف من العالم، لذلك فتح فاه، وقال: " إن من يسير دون أن يعلم إلى أين يذهب، لهو تعيس، وأتعس منه من هو قادر ويعرف كيف يبلغ نزلا حسنا، ومع ذلك يريد أن يمكث في الطريق القذرة والمطر وخطر اللصوص! قولوا لي أيها الإخوة! هل هذا العالم وطننا؟ لا البتة! فإن الإنسان الأول طرد إلى العالم منفيا، فهو يكابد فيه عقوبة خطأه، أيمكن أن يوجد منفي لا يبالي بالعودة إلى وطنه الغني، وقد وجد نفسه في الفاقة؟ حقا إن العقل لينكر ذلك، ولكن الاختبار يثبته بالبرهان، لأن محبي العالم لا يفكرون في الموت، بل عندما يكلمهم عنه أحد، لا يصغون إلى كلامه! صدقوني أيها القوم أني جئت إلى العالم بامتياز، لم يعط إلى بشر حتى أنه لم يعط لرسول الله، لأن إلهنا لم يخلق الإنسان ليبقيه في العالم، بل ليضعه في الجنة... وسليمان نبي الله يصرخ معي " ما أمر ذكراك

أيها الموت للذين يتنعمون في ثروتهم "، إني لا أقول هذا، لأن علي أن أموت الآن، وإني عالم بأن سأحيا إلى نحو منتهى العالم، ولكن أكلمكم بهذا لكي تتعلموا كيف تموتون! لعمر الله إذا أسئ عمل شئ ولو مرة، دل على أنه لا بد من التمرن عليه إذا أريد إتقانه، أرأيتم كيف تتمرن الجنود في زمن السلم بعضهم مع بعض كأنهم يتحاربون؟ وكيف يتاح لمن لم يتعلم كيف يحسن الموت أن يموت ميتة صالحة! قال النبي داود: " ثمين في نظر الرب موت الطاهرين "! أتدرون لماذا؟ إني أفيدكم! إنه لما كانت الأشياء النادرة ثمينة، وكان موت الذين يحسنون الموت نادرا، كان ثمينا في نظر الله خالقنا، فمن المؤكد أنه متى شرع المرء في أمر لا يريد أن ينجزه فقط، ولكنه يكدح حتى يكون لغرضه نتيجة حسنة! يا لك من رجل شقي يفضل سراويلاته على نفسه، لأنه عندما يفصل القماش يقيسه جيدا قبل تفصيله، ومتى فصله خاطه باعتناء، أما حياته التي ولدت لتموت - إذ لا يموت إلا من يولد - فلماذا لا يقيسها الإنسان بالموت؟ أرأيتم البنائين كيف لا يضعون حجرا، إلا والأساس نصب عيونهم، فيقيسونه ليروا إذا كان مستقيما لكيلا يسقط الجدار؟ يا له من رجل تعيس، لأن بنيان حياته سيتهدم شر تهدم، لأنه لا ينظر إلى أساس الموت (١) "!

(ج) وجاء في الفصلين الثاني والأربعين بعد المائة والثالث والأربعين بعد المائة من إنجيل برنابا عن تظاهر يهوذا الخائن بحب المسيح:

" لما رأى يهوذا الخائن أن يسوع قد هرب، يئس من أن يصير عظيما في العالم، لأنه كان يحمل كيس يسوع حيث كان يحفظ فيه كل ما كان يعطى له حبا في الله، فهو قد رجا أن يصير يسوع ملكا على إسرائيل، وأنه هو نفسه يصبح رجلا عزيزا، فلما فقد هذا الرجاء، قال في نفسه: " لو كان هذا الرجل نبيا، لعرف أني أختلس نقوده، ولكان حنق وطردني من خدمته، إذ يعلم أني لا أومن به، ولو كان حكيما لما هرب من المجد الذي يريد الله أن يعطيه إياه، فالأجدر بي إذا أن أتفق مع رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين،

---

(١) راجع ص ٢١٥ - ٢١٧ من إنجيل برنابا.

ونرى كيف أسلمه إلى أيديهم، فبهذا أتمكن من تحصيل شئ من النفع، فبعد أن عقد النية، أخبر الكتبة والفريسيين عما حدث في نايين، فتشاوروا مع رئيس الكهنة... وجاء حينئذ بمشيئة الله، كل التلاميذ إلى دمشق، وتظاهر في ذلك يهوذا الخائن أكثر من غيره بمكابدة الحزن على غياب يسوع، لذلك قال يسوع: " ليحذر كل أحد من يحاول بدون سبب أن يقيم دلائل الحب "، وأخذ الله بصيرتنا، حتى لا نعلم لأي غرض قال هذا، وبعد مجئ كل التلاميذ، قال يسوع: " لنرجع إلى الجليل، لأن ملاك الله قال لي: إنه يجب على أن أذهب إلى هناك "! وعليه جاء يسوع إلى الناصرة في صباح يوم سبت، فلما تبين الأهالي أنه يسوع أحب كل أحد أن يراه،

حتى أن عشارا اسمه زكا، كان قصير القامة بحيث

لا يقدر أن يرى يسوع مع كثرة الجمع، فتسلق جميزة حتى رأسها، وتربص هناك حتى يمر يسوع في ذلك المكان وهو ذاهب إلى المجمع، فلما بلغ يسوع ذلك الموضع، رفع عينيه وقال: " انزل يا زكا، لأني سأقيم في بيتك "، فنزل الرجل وقبله بفرح وصنع وليمة عظيمة، فتذمر الفريسيون قائلين لتلاميذ يسوع: " لماذا ذهب معلمكم ليأكل مع عشارين وخطاة؟ "، أجاب يسوع: " لأي سبب يذهب الطبيب إلى بيت المريض؟ قولوا لي، أقل لكم لماذا ذهبت إلى هناك "، أجابوا: " ليشفي المرض، أجاب يسوع: "؟ لقد قلتم الحق، فإنه لا حاجة بالأصحاء إلى طبيب، بل المرضى فقط (١) "!

(ء) وجاء في الفصل الخامس من إنجيل برنابا عن محاولة منع يهوذا الخائن مريم من سكب الطيب على رأس يسوع وثوبه:

" وبينما كان يسوع على العشاء مع تلاميذه في بيت سمعان الأبرص، إذا بمريم أخت لعازر (٢) قد دخلت البيت، ثم كسرت إناء وسكبت الطيب

---

(١) راجع ص ٢١٩ - ٢٢٢ من إنجيل برنابا.

(٢) جاء في ص ٢٨٩ من إنجيل برنابا عن مريم هذه "... ودخل يسوع بيت لعازر في بيت عنيا، فخدمته مرثا ومريم، وكانت مريم ذات يوم جالسة عند قدمي يسوع مصغية إلى كلامه، فقالت مرثا ليسوع " ألا ترى يا سيد أن أختي لا تهتم بك ولا تحضر ما يجب أن تأكله أنت وتلاميذك؟ "، أجاب يسوع " مرثا! مرثا! تبصري فيما يجب أن تفعلي، لأن مريم قد اختارت نصيبا لن ينتزع منها إلى الأبد!

على رأس يسوع وثوبه، فلما رأى هذا يهوذا الخائن، أراد أن يمنع مريم عن القيام بعمل كهذا، قائلا: " اذهبي وبيعي الطيب وأحضري النقود، لكي أعطيها للفقراء "، قال يسوع: " لماذا تمنعها؟ دعها، فإن الفقراء معكم دائما، أما أنا فلست معكم دائما "، أجاب يهوذا: " يا معلم! كان يمكن أن يباع هذا الطيب بثلاثمائة قطعة من النقود، فانظر إذا كم من فقير كان يمكن مساعدته "، أجاب يسوع: " يا يهوذا إني لعارف قلبك، فاصبر أعطك الكل "، فأكل كل أحد بخوف، وحزن التلاميذ، لأنهم عرفوا أن يسوع سينصرف عنهم قريبا، ولكن يهوذا حنق، لأنه علم أنه خاسر ثلاثين قطعة من النقود، لأجل الطيب الذي لم يبع، لأنه كان يختلس العشر من كل ما يعطى ليسوع (١)... "

(٥) وجاء في الفصل الرابع عشر بعد المائتين من إنجيل برنابا عن خيانة يهوذا:

" وخرج يسوع من البيت، ومال إلى بستان ليصلي، فجثا على ركبتيه مائة مرة معفرا وجهه كعادته في الصلاة، ولما كان يهوذا يعرف الموضع الذي كان فيه يسوع مع تلاميذه، ذهب إلى رئيس الكهنة وقال: " إذا أعطيتني ما وعدت به، أسلم هذه الليلة ليدك يسوع الذي تطلبونه، لأنه منفرد مع أحد عشر رفيقا "، أجاب رئيس الكهنة: " كم تطلب؟ "، قال يهوذا: " ثلاثين قطعة من الذهب "، فحينئذ عد له رئيس الكهنة النقود، وأرسل فريسيا إلى الوالي وهيرودس ليحضرا جنودا، لأنهما خافا الشعب، فأخذوا من ثم أسلحتهم، وخرجوا من أورشليم بالمشاعل والمصابيح على العصى (٢) "!

(و) وجاء في الفصول من السادس عشر بعد المائتين إلى الثامن عشر بعد المائتين من إنجيل برنابا، عن عقوبة يهوذا:

" ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نياما، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه،

---

(١) راجع ص ٣٠١ و ٣٠٢ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٣١٢ و ٣١٣ من إنجيل برنابا.

فصار شبها بيسوع، حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن أيقظنا، أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم، لذلك تعجبنا وأجبنا: " أنت يا سيد هو معلمنا، أنسيتنا الآن "، أما هو فقال مبتسما: " هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفون يهوذا الإسخريوطي "، وبينما كان يقول هذا، دخلت الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا، لأنه كان شبيها بيسوع من كل وجه، أما نحن فلما سمعنا قول يهوذا، ورأينا جمهور الجند، هربنا كالمجانين، ويوحنا الذي كان ملتفا بملحفة من الكتان، استيقظ وهرب، ولما أمسكه جندي بملحفة الكنان، ترك ملحفة الكنان وهرب عريانا، لأن الله سمع دعاء يسوع وخلص الأحد عشر من الشر! فأخذ الجنود يهوذا وأوثقوه، ساخرين منه، لأنه أنكر وهو صادق أنه هو يسوع، فقال الجنود مستهزئين به: يا سيد لا تخف، لأننا قد أتينا، فنجعلك ملكا على إسرائيل وإنما أوثقناك لأننا نعلم أنك ترفض المملكة "، أجاب يهوذا: " لعلكم جننتم... أفتوثقوني أنا الذي أرشدتكم، لتجعلوني ملكا؟! "، حينئذ خان الجنود صبرهم وشرعوا يمتهنون يهوذا بضربات ورفسات، وقادوه بحنق إلى أورشليم، وتبع يوحنا وبطرس الجنود عن بعد، وأكدا للذي يكتب أنهما شاهدا كل التحري الذي تحراه بشأن يهوذا رئيس الكهنة ومجلس الفريسيين الذين اجتمعوا ليقتلوا يسوع، فتكلم من ثم يهوذا كلمات جنون كثيرة، حتى أن كل واحد أغرب في الضحك، معتقدا أنه بالحقيقة يسوع، وأنه يتظاهر بالجنون خوفا من الموت، لذلك عصب الكتبة عينيه بعصابة، وقالوا مستهزئين: " يا يسوع نبي الناصريين – لأنهم هكذا كانوا يدعون المؤمنين بيسوع – قل لنا من ضربك، ولطموه وبصقوا في وجهه... ولما أصبح الصباح، التأم المجلس الكبير لكتبة وشيوخ الشعب.. وإن رؤساء الكهنة اعتقدوا أن يهوذا يسوع، بل إن التلاميذ كلهم مع الذي يكتب اعتقدوا ذلك، بل أكثر من ذلك أن أم يسوع العذراء المسكينة مع أقاربه وأصدقائه، اعتقدوا ذلك، حتى أن حزن كل واحد كان يفوق التصديق، لعمر الله إن الذي يكتب نسي كل ما قاله يسوع من أنه يرفع إلى العالم وأن شخصا آخر سيعذب باسمه، وأنه لا يموت إلى وشك نهاية العالم، ولذلك ذهب الذي يكتب مع أم يسوع ومع يوحنا إلى الصليب...

وأمر رئيس الكهنة خدمه أن يوسعوه لطما ورفسا، لكي يعود إلى عقل رأسه، ولقد أصابه من الاستهزاء على يد خدم رئيس الكهنة ما يفوق التصديق... فألبسوه لباس مشعوذ وأوسعوه ضربا بأيديهم وأرجلهم... ثم قادوه بعد ذلك موثقا إلى الوالي.. أما بيلاطس وهو اسم الوالي، فلكي يتخلص من هذه الدعوى قال إنه جليلي وهيرودس هو ملك الجليل، فليس من حقي الحكم في هذه الدعوى، فخذوه إلى هيرودس.. فلما قيد يهوذا إلى هناك، سأله هيرودس عن أشياء كثيرة، لم يحسن يهوذا الإجابة عنها، منكرا أنه هو يسوع، حينئذ سخر به هيرودس مع بلاطه كله، وأمر أن يلبس ثوبا أبيض كما يلبس الحمقى، ورده إلى بيلاطس قائلا " لا تقصر في إعطاء العدل بيت إسرائيل "!
وكتب هيرودس هذا، لأن رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين أعطوه مبلغا كبيرا من النقود، فلما علم الوالي من أحد خدم هيرودس، أن الأمر هكذا، تظاهر بأنه يريد أن يطلق سراح يهوذا، طمعا في نيل شئ من النقود، فأمر عبيده الذين دفع لهم الكهنة نقودا ليقتلوه، أن يجلدوه ولكن الله الذي قدر العواقب، أبقى يهوذا للصلب ليكابد ذلك الموت الهائل الذي كان أسلم إليه آخر، فلم يسمح بموت يهوذا تحت الجلد، مع أن الجنود جلدوه بشدة سال معها جسمه دما، ولذلك ألبسوه ثوبا قديما من الأرجوان تهكما قائلين " يليق بملكنا الجديد أن يلبس حلة ويتوج " فجمعوا شوكا وصنعوا إكليلا شبيها بأكاليل الذهب والحجارة الكريمة التي يضعها الملوك على رؤسهم، ووضعوا إكليل الشوك على رأس يهوذا، ووضعوا في يده قصبة كصولجان، وأجلسوه في مكان عال ومر من أمامه الجنود حانين رؤسهم تهكما مؤدين له السلام، كأنه ملك اليهود، وبسطوا أيديهم لينالوا الهبات... فلما لم ينالوا شيئا، ضربوا يهوذا قائلين كيف تكون إذا متوجا أيها الملك! إذا كنت لا تهب الجنود والخدم؟ "!
فلما رأى رؤساء الكهنة مع الكتبة والفريسيين أن يهوذا لم يمت من الجلد، ولما كانوا يخافون أن يطلق بيلاطس سراحه، أعطوا هبة من النقود للوالي، فتناولها وأسلم يهوذا للكتبة والفريسيين.. وحكموا بالصلب على لصين معه، فقادوه إلى جبل الجمجمة، حيث اعتادوا شنق المجرمين، وهناك صلبوه عريانا

مبالغة في تحقيره، ولم يفعل يهوذا شيئا سوى الصراخ " يا الله، لماذا تركتني؟ فإن المجرم قد نجا، أما أنا فأموت ظلما "!
الحق أقول إن صوت يهوذا ووجهه وشخصه، بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه هو يسوع، لذلك خرج بعضهم من تعليم يسوع، معتقدين أن يسوع كان نبيا كاذبا وأنه إنما فعل الآيات التي فعلها بصناعة السحر، لأن يسوع قال إنه لا يموت إلى وشك انقضاء العالم... فالذين ثبتوا راسخين في تعليم يسوع، حاق بهم الحزن إذ رأوا من يموت شبيها بيسوع كل الشبه حتى أنهم لم يذكروا ما قاله يسوع، وهكذا ذهبوا في صحبة أم يسوع إلى جبل الجمجمة، ولم يقتصروا على حضور موت يهوذا باكين، بل حصلوا بواسطة نيقوديموس ويوسف الأباريمثيائي من الوالي على جسد يهوذا ليدفنوه، فأنزلوه من ثم عن الصليب ببكاء لا يصدر عن أحد، ودفنوه في القبر الجديد ليوسف، بعد أن ضمخوه بمائة رطل من الطيوب، ورجع كل إلى بيته، ومضى الذي يكتب ويوحنا ويعقوب أخوه مع أم يسوع إلى الناصرة، أما التلاميذ الذين لم يخافوا الله، فذهبوا ليلا وسرقوا جسد يهوذا وخبأوه وأشاعوا أن يسوع قام، فحدث بسبب هذا اضطراب، فأمر رئيس الكهنة أن لا يتكلم أحد عن يسوع الناصري وإلا كان تحت عقوبة الحرم، فحصل اضطهاد عظيم، فرجم وضرب ونفي من البلاد كثيرون، لأنهم لم يلازموا الصمت في هذا الأمر، وبلغ الخبر الناصرة، كيف أن يسوع أحد أهالي مدينتهم، قام بعد أن مات على الصليب، فضرع الذي يكتب إلى أم يسوع أن ترضى فتكف عن البكاء، لأن ابنها قام، فلما سمعت العذراء مريم هذا، قالت باكية " لنذهب إلى أورشليم، لننشد ابني، فإني إذا رأيته مت قريرة العين (١) "!

----

(١) راجع ص ٣١٣ - ٣٢٠ من إنجيل برنابا.

(٥) رفع المسيح إلى السماء:

(ا) ولقد جاء في الفصل الخامس عشر بعد المائتين من إنجيل برنابا عن رفع المسيح إلى السماء:

" ولما دنت الجنود من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دنو جم غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفا، وكان الأحد عشر نياما، فلما رأى الله الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه، أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد (١) ".

(ب) وجاء في الفصول التاسع عشر بعد المائتين إلى الواحد والعشرين بعد المائتين من إنجيل برنابا، عن رؤية العذراء والتلاميذ يسوع:

" فعادت العذراء إلى أورشليم مع الذي يكتب ويعقوب ويوحنا في اليوم الذي صدر فيه أمر رئيس الكهنة، ثم إن العذراء التي كانت تخاف الله، أوصت الساكنين معها أن ينسوا ابنها.. وما كان أشد انفعال كل أحد! والله الذي يبلو قلوب البشر، يعلم أننا فنينا بين الأسى على موت يهوذا الذي كنا نحسبه يسوع معلمنا، وبين الشوق إلى رؤيته قائما، وصعد الملائكة الذين كانوا حراسا على مريم إلى السماء الثالثة، حيث كان يسوع في صحبة الملائكة وقصوا عليه كل شئ، لذلك ضرع يسوع إلى الله أن يأذن له أن يرى أمه وتلاميذه، فأمر حينئذ الرحمن ملائكته الأربعة المقربين... أن يحملوا يسوع إلى بيت أمه وأن يحرسوه هناك مدة ثلاثة أيام متوالية، وأن لا يسمحوا لأحد أن يراه إلا الذين آمنوا بتعليمه، فجاء يسوع محفوفا بالسناء إلى الغرفة التي أقامت فيها مريم العذراء مع أختيها ومرثا ومريم المجدلية ولعازر والذي يكتب ويوحنا ويعقوب وبطرس، فخروا من الهلع كأنهم أموات، فأنهض يسوع أمه

----

(١) راجع ص ٣١٣ من إنجيل برنابا.

والآخرين عن الأرض، قائلا " لا تخافوا، لأني أنا يسوع، ولا تبكوا فإني حي لا ميت "، فلبث كل منهم زمنا طويلا كالمخبول لحضور يسوع، لأنهم اعتقدوا اعتقادا تاما بأن يسوع مات، فقالت حينئذ العذراء " قل لي يا بني، لماذا سمح الله بموتك، ملحقا العار بأقربائك وأخلائك وملحقا العار بتعليمك؟ وقد أعطاك قوة على إحياء الموتى، فإن كل من يحبك كان كميت "، أجاب يسوع معانقا أمه " صدقيني يا أماه، لأني أقول لك الحق، إني لم أمت قط، لأن الله حفظني إلى قرب انقضاء العالم "، ولما قال هذا رغب إلى الملائكة الأربعة، أن يظهروا ويشهدوا كيف كان الأمر، فظهر من ثم الملائكة كأربع شموس متألقة، حتى أن كل أحد خر من الهلع ثانية كأنه ميت، فأعطى حينئذ يسوع الملائكة أربع ملاء من كتان ليستروا بها أنفسهم، لتتمكن أمه ورفاقه من رؤيتهم وسماعهم يتكلمون، وبعد أن أنهض كل واحد منهم، عزاهم قائلا " إن هؤلاء هم سفراء الله: جبريل الذي يعلن أسرار الله، وميخائيل الذي يحارب أعداء الله، ورافائيل الذي يقبض أرواح الميتين وأوريل الذي ينادي إلى دينونة الله في اليوم الآخر، ثم قص الملائكة الأربعة على العذراء، كيف أن الله أرسل إلى يسوع، وغير صورة يهوذا، ليكابد العذاب الذي باع له آخر...

والتفت يسوع إلى الذي يكتب، وقال " يا برنابا! عليك إن تكتب إنجيلي حتما وما حدث في شأني مدة وجودي في العالم، واكتب أيضا ما حل بيهوذا، ليزول انخداع المؤمنين ويصدق كل أحد الحق "، حينئذ أجاب الذي يكتب إني لفاعل ذلك إن شاء الله يا معلم! ولكن لا أعلم ماذا حدث ليهوذا، لأني لم أر كل شئ " أجاب يسوع " ههنا يوحنا وبطرس اللذان قد عاينا كل شئ فهما يخبرانك بكل ما حدث "، ثم أوصانا يوسع أن ندعو تلاميذه المخلصين ليروه، فجمع حينئذ يعقوب ويوحنا التلاميذ السبعة مع نيقوديموس ويوسف وكثيرين آخرين من الاثنين والسبعين، وأكلوا مع يسوع، وفي اليوم الثالث قال يسوع " اذهبوا مع أمي إلى جبل الزيتون، لأنني أصعد من هناك أيضا إلى السماء، وسترون من يحملني "، فذهب الجميع، خلا خمسة وعشرين من التلاميذ الاثنين

والسبعين الذين كانوا قد هربوا إلى دمشق من الخوف، وبينما كان الجميع وقوفا للصلاة، جاء يسوع وقت الظهيرة مع جم غفير من الملائكة الذين كانوا يسبحون الله، فطاروا فرقا من سناء وجهه، فخروا على وجوههم إلى الأرض ولكن يسوع أنهضهم وعزاهم قائلا... " لا تخافوا! أنا معلمكم " ووبخ كثيرين من الذين اعتقدوا أنه مات، وقام قائلا " الحق أقول إني لم أمت " بل يهوذا الخائن، احذروا، لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم، ولكن كونوا شهودي في كل إسرائيل وفي العالم كله، لكل الأشياء التي رأيتموها "، وبعد أن قال هذا، صلى لأجل خلاص المؤمنين وتجديد الخطاة، فلما انتهت الصلاة عانق أمه قائلا " سلام لك يا أمي! " توكلي على الله الذي خلقك وخلقني " وبعد أن قال هذا، التفت إلى تلاميذه قائلا " لتكن نعمة الله ورحمته معكم "، ثم حملته الملائكة الأربعة أما أعينهم إلى السماء " (١).

ثانيا - عقيدة المسيح ودعوته لها

" ينص القرآن الكريم، على أن عقيدة المسيح هي التوحيد الكامل، التوحيد بكل شعبه، التوحيد في العبادة، فلا يعبد إلا الله، والتوحيد في التكوين، فخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له، والتوحيد في الذات والصفات، فليست ذاته بمركبة، وهي منزهة عن مشابهة الحوادث سبحانه وتعالى، فالقرآن الكريم يثبت أن عيسى ما دعا إلا إلى التوحيد الكامل وهذا ما يقوله الله تعالى عما يكون من عيسى يوم القيامة، من مجاوبة بينه وبين ربه " وإذ قال الله، يا عيسى بن مريم، أأنت قلت للناس، اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟! قال سبحانك! ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته، فقد علمته، تعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت

---

(١) راجع ص ٣١٣ - ٣٢٥ من إنجيل برنابا. ويجب هنا التوقف، لأنه لم يرد في القرآن الكريم أنه رجع إلى الدنيا بعد رفعه إلى السماء، ولكن سيعود عند قرب نهاية العالم!

عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني، كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شئ شهيد "، فهذا نص يفيد بصريحه أن عيسى ما دعا إلا إلى التوحيد، فغير التوحيد إذن دخل النصرانية من بعده!! " (١).

(١) الفتنة الكبرى:

ولقد جاء في الفصل الثامن والأربعين من إنجيل برنابا، عن الفتنة الكبرى:

" كان جيش الرومان في ذلك الوقت في اليهودية، لأن بلادنا كانت خاضعة لهم، بسبب خطايا أسلافنا، وكانت عادة الرومان أن يدعوا كل من فعل شيئا جديدا فيه نفع للشعب إلها ويعبدوه، فلما كان بعض هؤلاء الجنود في نايين، وبخوا واحدا بعد آخر، قائلين " لقد زاركم أحد آلهتكم، وأنتم لا تكترثون له؟ حقا لو زارنا آلهتنا، لأعطيناهم كل مالنا، وأنتم تنظرون كم نخشى آلهتنا، لأننا نعطي تماثيلهم، أفضل ما عندنا! فوسوس الشيطان بهذا الأسلوب من الكلام، حتى أنه أثار شغبا بين شعب نايين، ولكن يسوع لم يمكث في نايين، بل تحول إلى كفر ناحوم، وبلغ الشقاق في نايين مبلغا، وقال معه قوم " إن الذي زارنا إنما هو إلهنا "، وقال الآخرون " إن الله لا يرى، فلم يره أحد حتى ولا موسى عبده، فليس هو الله، بل هو بالحري ابنه (٢) "، وقال آخرون " إنه ليس الله ولا ابن الله، لأنه ليس لله جسد، فيلد، بل هو نبي عظيم من الله!

وبلغ من وسوسة الشيطان، أن كاد ذلك يجر على شعبنا في السنة الثالثة من وظيفة يسوع النبوية، خرابا عظيما (٣)... "

---

(١) راجع ص ٧ من محاضرات في النصرانية للأخ الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة.

(٢) سبحان الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا

(٣) راجع ص ٧٦ من إنجيل برنابا.

(٢) استنكار المسيح كفر الكافرين:
(ا) ولقد جاء في الفصول من الحادي والتسعين إلى السادس والتسعين من إنجيل برنابا عن الفتنة الكبرى، واستنكار المسيح كفر الكافرين:
" وحدث في هذا الزمن اضطراب عظيم في اليهودية كلها لأجل يسوع، لأن الجنود الرومانية أثارت بفعل الشيطان، العبرانيين... فحدثت بسبب ذلك فتنة كبرى، حتى أن اليهودية كلها تدججت بالسلاح مدة الأربعين يوما، فقام الابن على الأب والأخ على الأخ... وقد نشأ هذا عن الآيات العظيمة التي فعلها يسوع... فانذهل يسوع، لما رأى الجم الغفير الذي غطى الأرض بالقوم، وقال لتلاميذه " لعل الشيطان أحدث فتنة في اليهودية، لينزع الله من الشيطان السيطرة التي له على الخطاة " ولما قال هذا، اقترب الجمهور، فلما عرفوه أخذوا يصرخون " مرحبا بك يا إلهنا "، وأخذوا يسجدون له كما يسجدون لله، فتنفس يسوع الصعداء، وقال " انصرفوا عني أيها المجانين! لأني أخشى أن تفتح الأرض فاها، وتبتلعني وإياكم، لكلامكم الممقوت "، ولذلك ارتاع العشب، وطفقوا يبكون "!
" حينئذ رفع يسوع يده إيماء للصمت، وقال: إنكم لقد ضللتم ضلالا عظيما، أيها الإسرائيليون، لأنكم دعوتموني إلهكم، وأنا إنسان: وإني أخشى لهذا أن ينزل الله بالمدينة المقدسة وباء شديدا، مسلما إياها لاستعباد الغرباء، لعن الشيطان الذي أغراكم بهذا، ألف لعنة "!، ولما قال يسوع هذا، صفع وجهه بكلتا كفيه، فحدث على أثر ذلك نحيب شديد، حتى لم يسمع أحد ما قال يسوع فرفع من ثم يده مرة أخرى إيماء للصمت، ولما هدأ نحيب القوم، تكلم مرة أخرى " أشهد أمام السماء، وأشهد كل شئ على الأرض، أني برئ من كل ما قد قلتم، لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية، وعرضة لحكم الله، مكابد شقاء الأكل والمنام وشقاء البرد والحر كسائر البشر، لذلك متى جاء الله ليدين، يكون كلامي كحسام يخترق كل من يؤمن بأني أعظم من إنسان "

ولما قال يسوع هذا، رأى كوكبة من الفرسان، فعلم من ثم أن الوالي
مع هيرودس ورئيس الكهنة، كانوا قادمين، فقال يسوع " لعلهم قد صاروا
مجانين أيضا " فلما وصل الوالي مع هيرودس ورئيس الكهنة إلى هناك، ترجلوا
جميعا، وأحاطوا بيسوع حتى أن الجنود لم يتمكنوا من دفع الجمهور الذين كانوا
يودون أن يسمعوا يسوع يكلم الكاهن، فاقترب يسوع من الكاهن باحترام
ولكن هذا كان يريد أن يسجد ليسوع، فصرخ يسوع " حذار ما أنت فاعل،
يا كاهن الله، لا تخطئ إلى الله "، أجاب الكاهن " إن اليهودية
قد اضطربت لآياتك وتعليمك، حتى أنهم يجاهرون بأنك أنت الله (١)،
فاضطررت بسبب الشعب، أن آتي إلى هنا مع الوالي الروماني والملك هيرودس
فنرجوك من كل قلبنا، أن ترضى بإزالة الفتنة التي ثارت بسببك، لأن فريقا
يقول إنك الله (٢)، وآخر إنك ابن الله (٣)، ويقول فريق إنك نبي "، أجاب
يسوع " وأنت يا رئيس كهنة الله، لماذا لم تخمد الفتنة؟ هل جننت أنت أيضا؟
هل أمست النبوات وشريعة الله نسيا منسيا؟ أيتها اليهودية الشقية التي ضللها
الشيطان! "، ولما قال يسوع هذا، عاد فقال " وإني أشهد أمام السماء، وأشهد
كل ساكن على الأرض، أني بريء من كل ما قال الناس عني، من أني أعظم من
بشر، لأني بشر مولود من امرأة فانية وعرضة لحكم الله، أعيش كسائر البشر،
عرضة للشقاء العام، لعمر الله الذي تقف نفسي بحضرته، إنك أيها الكاهن
لقد أخطأت خطيئة عظيمة بالقول الذي قلته، ليلطف الله بهذه المدينة المقدسة،
حتى لا تحل بها نقمة عظيمة لهذه الخطيئة "، فقال حينئذ الكاهن " ليغفر لنا
الله، أما أنت فصل لأجلنا "، ثم قال الوالي وهيرودس " يا سيد! إنه لمن المحال
أن يفعل بشر ما أنت تفعله، فلذلك لا نفقه ما تقول "، أجاب يسوع
" إن ما تقوله لصدق، إن الله يفعل صلاحا بالإنسان، كما أن الشيطان يفعل
شرا، لأن الإنسان بمثابة حانوت، من يدخله برضاه، يشتغل ويبيع فيه،

(١، ٢، ٣) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ولكن قل لي أيها الوالي، وأنت أيها الملك، أنتما تقولان هذا، لأنكما أجنبيان عن شريعتنا، لأنكما لو قرأتما العهد وميثاق إلهنا، لرأيتما أن موسى حول بعصاه البحر دما والغبار براغيث والندى زوبعة والنور ظلاما، أرسل الضفادع والجرذان على مصر، فغطت الأرض وقتل الأبكار وشق البحر وأغرق فيه فرعون، ولم أفعل شيئا من هذا، وكل يعرف بأن موسى إنما هو الآن رجل ميت، وأوقف يشوع الشمس وشق الأردن، وهما مما لم أفعله حتى الآن، وكل يعترف بأن يشوع إنما هو الآن رجل ميت، وأنزل إيليا النار من السماء عيانا وأنزل المطر، وهما مما لم أفعله، وكل يعترف بأن إيليا إنما هو بشر، وكثيرون آخرون من الأنبياء والأطهار وأخلاء الله، فعلوا بقوة الله أشياء لا تبلغ كنهها عقول الذين لا يعرفون إلهنا القدير الرحيم، المبارك إلى الأبد ".

" وعليه، فإن الوالي والكاهن والملك، توسلوا إلى يسوع، أن يرتقي مكانا مرتفعا ويكلم الشعب تسكينا لهم، حينئذ ارتقى يسوع أحد الحجارة الاثني عشر التي أمر يشوع الاثني عشر سبطا أن يأخذوها من وسط الأردن عندما عبر إسرائيل من هناك، دون أن تبتل أحذيتهم.. فصعد من ثم الكاهن إلى هناك، فقال له يسوع بوضوح يتمكن كل واحد من سماعه " قد كتب في عهد الله الحي وميثاقه، أن ليس لإلهنا بداية، ولا يكون له نهاية "، أجاب الكاهن " لقد كتب هذا هناك ". فقال يسوع " إنه كتب هناك أن إلهنا قد برأ كل شئ بكلمته فقط "، فأجاب الكاهن " إنه لكذلك " فقال يسوع " إنه مكتوب هناك، إن الله لا يرى لأنه محجوب عن عقل الإنسان، لأنه غير متجسد وغير مركب وغير متغير "، فقال الكاهن " إنه لكذلك حقا "، فقال يسوع " إنه مكتوب هناك، كيف أن السماوات لا تسعة، لأن إلهنا غير محدود "، فقال الكاهن " هكذا قال سليمان النبي، يا يسوع "، قال يسوع " إنه مكتوب هناك أن ليس لله حاجة، لأنه لا يأكل ولا ينام ولا يعتريه نقص "، قال الكاهن " إنه لكذلك، قال يسوع " إنه مكتوب هناك أن إلهنا في كل مكان، وأن

لا إله سواه، الذي يضرب ويشفى، ويفعل كل ما يريد "، قال الكاهن " هكذا كتب "، حينئذ رفع يسوع يديه، وقال " أيها الرب إلهنا، هذا هو إيماني الذي آتي به إلى دينونتك، شاهدا على كل من يؤمن بخلاف ذلك "، ثم التفت إلى الشعب، وقال " توبوا، لأنكم تعرفون خطيئتكم، من كل ما قال الكاهن، إنه مكتوب في سفر موسى عهد الله إلى الأبد... فإني بشر منظور، وكتلة من طين تمشي على الأرض، وفان كسائر البشر، إنه كان لي بداية وستكون لي نهاية، وإني لا أقدر أن أبتدع خلق ذبابة "، حينئذ رفع الشعب أصواتهم باكين وقالوا " لقد أخطأنا إلى إليك أيها الرب إلهنا، فارحمنا "...

ولما انتهت الصلاة، قال الكاهن بصوت عال " قف يا يسوع " لأنه يجب علينا أن نعرف من أنت، تسكينا لامتنا " أجاب يسوع " أنا يسوع بن مريم من نسل داود، بشر مائت، ويخاف الله، وأطلب أن لا يعطي الاكرام والمجد إلا لله (١)!!. "

(ب) وجاء في الفصلين التاسع والتسعين والمائة، من إنجيل برنابا، عن استنكار المسيح للفتنة الكبرى:

".... وبعد أن جلس على حجر، أجلسهم (الاثنين والسبعين مع الاثني عشر) بجانبه، وفتح فاه، متنفسا الصعداء، وقال " لقد رأيت اليوم إثما عظيما في اليهودية وفي إسرائيل، وهو إثم يخفق له قلبي في صدري من خشية الله، الحق أقول لكم إن الله غيور على كرامته، ويحب إسرائيل.. لأنه عندما أحب إسرائيل (٢) شيئا بسببه نسي الله، أبطل الله ذلك الشئ، أي شئ أحب إلى الله هنا على الأرض من الكهنوت والهيكل المقدس؟ ومع هذا لما نسي الشعب الله في زمن أرميا النبي وفاخروا بالهيكل فقط، إذ لم يكن له نظير

---

(١) راجع ص ١٤١ - ١٤٩ من إنجيل برنابا.

(٢) يعقوب عليه السلام. راجع ص ٢٧ من غريب القرآن للسجستاني. ثم أطلق اللفظ على أهل بيته، فأهل ملته.

في العالم كله، أثار الله غضبه بواسطة نبو خذ نصر ملك بابل، ومكنه وجيشه من المدينة المقدسة، فأحرقها وأحرق الهيكل المقدس، حتى أن الأشياء المقدسة التي كان أنبياء الله يرتجفون من مسها، ديست تحت أقدام الكفار المملوئين إثما، وأحب إبراهيم ابنه إسماعيل أكثر قليلا مما ينبغي، لذلك أمر الله إبراهيم أن يذبح ابنه، ليقتل المحبة الأثيمة في قلبه، وهو أمر كان فعله لو قطعت المدية، وأحب داود أبشالوم حبا شديدا، ولذلك سمح الله أن يثور الابن على أبيه، فتعلق بشعره وقتله يوأب، ما أرهب حكم الله، إن أبشالوم أحب شعره أكثر من كل شئ، فتحول حبلا علق به، وأوشك أيوب البر أن يفرط في حب أبنائه السبعة وبناته الثلاث، فدفعه الله إلى يد الشيطان، فلم يأخذ منه أبناءه وثروته في يوم واحد فقط، بل ضربه أيضا بداء عضال، حتى كانت الديدان تخرج من جسده، مدة سبع سنين، وأحب أبونا يعقوب ابنه يوسف أكثر من أبنائه الآخرين، لذلك قضى الله ببيعه، وجعل يعقوب يخدع من هؤلاء الأبناء أنفسهم، حتى أنه صدق أن الوحش افترس ابنه، فلبث عشر سنوات نائحا!

لعمر الله أيها الإخوان! إني أخشى أن يغضب الله علي... لنصل ولنصم ثلاثة أيام، ومن الآن فصاعدا، لنصل لله ثلاث مرات، متى لاح النجم الأول، وكل ليلة، إذ تؤدي الصلاة لله، طالبين منه الرحمة ثلاث مرات، لأن خطيئة إسرائيل، تزيد على الخطايا الأخرى، ثلاثة أضعاف "!

أجاب التلاميذ " ليكن كذلك " فلما انتهى اليوم الثالث، دعا يسوع في صباح اليوم الرابع، كل التلاميذ والرسل، وقال لهم " يكفي أن يمكث معي برنابا ويوحنا، أما أنتم فجوبوا السامرية واليهودية وإسرائيل كلها، مبشرين بالتوبة، لأن الفأس موضوعة على مقربة من الشجرة، لتقطعها، وصلوا على المرضى، لأن الله قد سلطني على كل مرض (١).... "

---

(١) راجع ص ١٥٣ و ١٥٤ من إنجيل برنابا.

(ج) وجاء في الفصل الثاني والخمسين في إنجيل برنابا، عند الكلام عن يوم الدينونة وصدق الأبرار:

"... الحق أقول لكم متكلما من القلب، إني أقشعر، لأن العالم سيدعوني إلها، وعلى أن أقدم لأجل هذا حسابا، لعمر الله الذي نفسي واقفة في حضرته، إني رجل فان كسائر الناس، على أني وإن أقامني الله نبيا على بيت إسرائيل، لأجل صحة الضعفاء وإصلاح الخطاة خادم الله، وأنتم شهداء على هذا، كيف أني أنكر على هؤلاء الأشرار، الذين بعد انصرافي من العالم سيبطلون حق إنجيلي بعمل الشيطان، ولكني سأعود قبل النهاية، وسيأتي معي أخنوخ وإيليا، ونشهد على الأشرار الذين ستكون آخرتهم ملعونة ".

وبعد أن تكلم يسوع هكذا، أذرف الدموع، فبكى تلاميذه بصوت عال ورفعوا أصواتهم قائلين " اصفح أيها الرب الإله، وارحم خادمك الأمين " فأجاب يسوع " آمين! آمين (١) ".

(ء) وجاء في الفصل الثالث والخمسين في حديث يسوع عن يوم الدينونة ووصوله إلى موت الملائكة الأطهار:

"... ولما قال يسوع هذا، صفع وجهه بكلتا يديه، ثم ضرب الأرض برأسه، ولما رفع رأسه قال: " ليكن ملعونا كل من يدرج في أقوالي أني ابن الله " فسقط التلاميذ عند هذه الكلمات كأموات، فأنهضهم يسوع قائلا، " لنخف الله، إذا أردنا أن لا نراع في ذلك اليوم (٢) "

(٥) وجاء في الفصل السبعين في إنجيل برنابا، عندما سأل المسيح تلاميذه ماذا يقول الناس عنه:

----

(١) راجع ص ٨٤ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٨٦ من إنجيل برنابا.

" وانصرف يسوع من أورشليم بعد الفصح، ودخل حدود قيصرية فيلبس، فسأل تلاميذه بعد أن أنذره الملاك جبريل بالشغب الذي نجم بين العامة، قائلا " ماذا يقول الناس عني؟ "، أجابوا " يقول البعض إنك إيليا وآخرون أرميا، وآخرون أحد الأنبياء " أجاب يسوع ما قولكم أنتم في " أجاب بطرس " إنك المسيح بن الله (١) " فغضب حينئذ يسوع وانتهره بغضب قائلا " اذهب وانصرف عني، لأنك أنت الشيطان، وتحاول أن تسئ إلي "!

ثم هدد الأحد عشر، قائلا " ويلكم إذا صدقتم هذا، لأني ظفرت بلعنة كبيرة من الله، على من يصدق هذا " وأراد أن يطرد بطرس، فتضرع حينئذ الأحد عشر إلى يسوع لأجله، فلم يطرده، ولكنه انتهره أيضا، قائلا " حذار أن تقول مثل هذا الكلام مرة أخرى، لأن الله يلعنك " فبكى بطرس " وقال يا سيد! لقد تكلمت بغباوة، فاضرع إلى الله أن يغفر لي " ثم قال يسوع " إذا كان إلهنا لم يرد أن يظهر نفسه لموسى عبده، ولا لإيليا الذي أحبه كثيرا، ولا لنبي ما، أتظنون أن الله يظهر نفسه لهذا الجيل الفاقد الإيمان، بل ألا تعلمون أن الله خلق بكلمة واحدة كل شئ من العدم، وأن منشأ البشر جميعهم من كتلة طين؟ فكيف إذا يكون الله شبيها بالإنسان؟ ويل للذين يدعون الشيطان يخدعهم " ولما قال يسوع هذا ضرع إلى الله لأجل بطرس، والأحد عشر وبطرس يبكون ويقولون " ليكن كذلك أيها الرب المبارك إلهنا " وانصرف يسوع بعد هذا وذهب إلى الجليل إخمادا لهذا الرأي الباطل الذي ابتدأ أن يعلق بالعامة في شأنه (٢) ".

(و) وجاء في الفصل الثاني عشر بعد المائة، في إنجيل برنابا، عند بكاء المسيح وتلاميذه بعد حديثه عن البكاء الجسدي وأن الصوم والسهر الجسديين، لا تكفي للتكفير عن الخطيئة، ما لم تكن من القلب:

---

(١) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

(٢) راجع ص ١٠٩ و ١١٠ من إنجيل برنابا.

" فأجاب الكاتب باكيا، وقال: " اسمح لي بالبكاء يا معلم، ولغيري أيضا، لأننا خطاة، وأنت يا من هو طاهر ونبي الله لا يحسن بك أن تكثر من البكاء " أجاب يسوع " صدقني يا برنابا إنني لا أقدر أن أبكي قدر ما يجب علي " لأنه لو لم يدعني الناس إلها، لكنت عاينت هنا الله كنا يعاين في الجنة، ولكنت أمنت خشية يوم الدين، بيد أن الله يعلم أني برئ لأنه لم يخطر لي في بال أن أحسب أكثر من عبد فقير، بل أقول لك إنني لو لم أدع إلها، لكنت حملت إلى الجنة عندما انصرف من العالم، أما الآن فلا أذهب إلى هناك حتى الدينونة، فترى إذا إذا كان يحق لي البكاء، فاعلم يا برنابا أنه لأجل هذا يجب على التحفظ، وسيبيعني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود، وعليه فإني على يقين من أن يبيعني يقتل باسمي، لأن الله سيصعدني من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي، ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة، أمكث في ذلك العار زمنا طويلا في العالم، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس، تزال عني هذه الوصمة، وسيفعل الله هذا، لأني اعترفت بحقيقة مسيا الذي سيعطيني هذا الجزاء، أي أن أعرف أني حي وأني برئ من وصمة تلك الميتة (١).... "

(ز) وجاء في الفصلين السابع عشر بعد المائة والثامن عشر بعد المائة من إنجيل برنابا، بعد ذكر قول إيليا للأعمى، أن كل من يجد لذة في المخلوق أيا كان ولا يطلب أن يجد لذة في الله، فقد صنع صنما (٢) في قلبه وترك الله: " ثم قال يسوع، متنهدا " أفهمتم كل ما قاله إيليا؟ "، أجاب التلاميذ " حقا لقد فهمنا، وإننا لحيارى من العلم بأنه لا يوجد هنا على الأرض إلا قليلون من الذين لا يعبدون الأصنام " فقال حينئذ يسوع " إنكم لتقولون

----

(١) راجع ص ١٧١ - ١٧٣ من إنجيل برنابا.

(٢) الصنم ما كان مصورا من حجر أو صفر أو نحو ذلك، والوثن ما كان من غير صورة. راجع ص ١٢ من غريب القرآن للسجستاني.

الحق، لأن إسرائيل كان الآن راغبا في إقامة عبادة الأصنام التي في قلوبهم، إذ حسبوني إلها، وكثيرون منهم قد احتقروا الآن تعليمي قائلين إنه يمكنني أن أجعل نفسي سيد اليهودية كلها، إذا اعترفت بأنني إله، وإني مجنون إذ رضيت أن أعيش في الفاقة في أنحاء البرية، دون أن أقيم على الدوام بين الرؤساء في عيش رغيد، فما أتعسك أيها الإنسان الذي تحترم النور الذي يشترك فيه الذباب والنمل، وتحتقر النور الذي تشترك فيه الملائكة والأنبياء وأخلاء الله الأطهار خاصة (١)... "

(ع) وجاء في الفصل الثامن والتسعين بعد المائة من إنجيل برنابا، عند الحديث عن القصاص:

" فإني كنت أهلا للقصاص، لأن البشر دعوني إلها (٢)، ولكن لما كنت قد اعترفت، لا بأني لست إلها - فقط كما هو الحق - بل اعترفت أيضا أني لست مسيا، فقد رفع الله لذلك العقوبة عني، وسيجعل شريرا يكابدها باسمي حتى لا يبقى منها لي سوى العار... " (٣).

(ط) وجاء في الفصول من السادس بعد المائتين إلى الثامن بعد المائتين من إنجيل برنابا، عند محاجة رئيس الكهنة ليسوع في الهيكل:

" ولما جاء النهار، صعد يسوع إلى الهيكل مع جم غفير من الشعب، فاقترب منه رئيس الكهنة، قائلا: " قل لي يا يسوع! أنسيت كل ما كنت قد اعترفت به من أنك لست الله ولا ابن الله ولا مسيا؟ " أجاب يسوع: " لا! البتة لم أنس، لأن هذا هو الاعتراف الذي أشهد به أمام كرسي دينونة الله في يوم الدينونة، لأن كل ما كتب في كتاب موسى صحيح كل الصحة، فإن الله خالقنا أحد وأنا عبد الله، وأرغب في خدمة رسول الله الذي تسمونه مسيا " قال رئيس الكهنة " ما المراد إذا من المجئ إلى الهيكل بهذا الجم

---

(١) راجع ص ١٨١ و ١٨٢ من إنجيل برنابا.

(٢) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا!

(٣) يشير لما سيلقى يهوذا. راجع ص ٢٨٤ من إنجيل برنابا.

الغفير؟ لعلك تريد أن تجعل نفسك ملكا على إسرائيل؟ احذر من أن يحل بك خطر " أجاب يسوع " لو طلبت مجدي ورغبت في نصيبي في هذا العالم، لما هربت، لما أراد أهل نايين أن يجعلوني ملكا، صدقني إني لست أطلب شيئا في هذا العالم "، حينئذ قال رئيس الكهنة " نحب أن نعرف شيئا عن مسيا "، وحينئذ اجتمع الكهنة والكتبة والفريسيون، نطاقا حول يسوع أجاب يسوع " ما هو ذلك الشئ الذي تريدون أن تعرفوه عن مسيا، لعله الكذب؟ الحق إني لا أقول الكذب لأني لو كنت قلت الكذب، لعبدتني أنت والكتبة والفريسيون مع كل إسرائيل، ولكن تبغضونني وتطلبون أن تقتلوني لأني أقول لكم الحق "!

قال رئيس الكهنة " نعلم الآن أن وراء ظهرك شيطانا، لأنك سامري ولا تحترم كاهن الله " أجاب يسوع " لعمر الله ليس وراء ظهري شيطان، ولكن أطلب أن أخرج الشيطان، فلهذا السبب يثير الشيطان على العالم، لأني لست من هذا العالم، بل أطلب أن يمجد الله الذي أرسلني إلى العالم، فأصيخوا السمع إلي أخبركم بمن وراء ظهره الشيطان! لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن من يعمل بحسب إرادة الشيطان، فالشيطان وراء ظهره، وقد وضع عليه لجام إرادته ويديره أنى شاء، حاملا إياه على الإسراع إلى كل إثم! كما أن اسم الثوب يختلف باختلاف صاحبه، وهو هو الثوب نفسه، هكذا البشر يختلفون على كونهم من مادة واحدة، بسبب أعمال الذي يعمل في الإنسان! إذا كنت قد أخطأت كما أعلم ذلك، فلماذا لم توبخوني كأخ، بدلا من أن تبغضوني كعدو؟ ... لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن من يخاف ويحب الله خالقه، يرحم من يرحمه الله... إذا كنت أفعل الإثم، فوبخوني يحببكم الله، لأنكم تكونون عاملين بحسب إرادته، ولكن إذا لم يقدر أحد أن يوبخني على خطيئة، فذلك دليل على أنكم لست أبناء إبراهيم كما تدعون أنفسكم، ولا أنتم متحدون مع ذلك الرأس الذي كان إبراهيم متحدا به، لعمر الله إن

إبراهيم أحب الله، بحيث أنه لم يكتف بتحطيم الأصنام الباطلة، ولا بهجر أبيه وأمه، ولكنه كان يريد أن يذبح ابنه، طاعة لله (١)... "
(٣) دعوة المسيح تلاميذه لإبراء المرضى لدفع الفتنة:
وجاء في الفصول من السادس والعشرين بعد المائة إلى الثامن والعشرين بعد المائة من إنجيل برنابا بدعوته تلاميذه لإبراء المرضى بإذن الله، ليعرف الناس إنما الإله واحد قادر على أن يبرئ إذا شاء على يد المسيح، كما أنه قادر على أن يبرئ إذا شاء على يد غيره:
" وبعد أن جمع يسوع تلاميذه، أرسلهم مثنى مثنى إلى مقاطعة إسرائيل قائلا " اذهبوا وبشروا كما سمعتم " فحينئذ انحنوا، فوضع يده على رأسهم قائلا " باسم الله أبرئوا المرضى، أخرجوا الشياطين وأزيلوا ضلال إسرائيل في شأن مخبريهم، ما قلت أمام رئيس الكهنة " فانصرفوا جميعهم، خلا من يكتب ويعقوب ويوحنا، فذهبوا في كل اليهودية، مبشرين بالتوبة، كما أمرهم يسوع، مبرئين كل نوع من المرض، حتى ثبت في إسرائيل كلام يسوع وأن الله أحد، وأن يسوع نبي الله إذ رأوا هذا الجم يفعل ما فعل يسوع من حيث شفاء المرضى... وبعد أن جاب التلاميذ اليهودية، عادوا إلى يسوع، فاستقبلهم كما يستقبل الأب أبناءه، قائلا " أخبروني، كيف فعل الرب إلهنا؟ حقا إلى لقد رأيت الشيطان يسقط تحت أقدامكم، وأنتم تدوسونه، كما يدوس الكرام العنب "، فأجاب التلاميذ " يا معلم! لقد أبرأنا عددا لا يحصى من المرضى، وأخرجنا شياطين كثيرة، كانوا يعذبون الناس "، فقال يسوع:
" ليغفر لكم الله أيها الإخوة، لأنكم أخطأتم إذ قلتم أبرأنا، إنما الله هو الذي فعل ذلك كله " فحينئذ قالوا " لقد تكلمنا بغباوة، فعلمنا كيف نتكلم " أجاب يسوع " في كل عمل صالح، قولوا " الرب صنع "، وفي كل عمل ردئ،

----
(١) راجع ص ٢٩٩ - ٣٠٥ من إنجيل برنابا.

قولوا " أخطأت "، فقال التلاميذ: " إنا لفاعلون هكذا " ثم قال يسوع
ماذا يقول إسرائيل، وقد رأى الله يصنع على أيدي جمهور من الناس،
ما صنع الله على يدي؟ أجاب التلاميذ " يقولون إنه يوجد إله واحد، وإنك
نبي الله " أجاب يسوع بوجه متهلل: " تبارك اسم الله القدوس الذي لم يحتقر
رغبة عبده هذا "، ولما قال ذلك، انصرفوا للراحة، وانصرف يسوع من البرية
ودخل أورشليم، فأسرع من ثم الشعب كله إلى الهيكل ليراه، فبعد قراءة المزامير
ارتقى يسوع الدكة التي كان يرتقيها الكتبة، وبعد أن أشار بيده إيماء للصمت،
قال: " أيها الإخوة! تبارك (١) اسم الله القدوس، الذي خلقنا من طين
الأرض، لا من روح ملتهب، لأنه متى أخطأنا وجدنا رحمة عند الله، لن
يجدها الشيطان أبدا، لأنه لا يمكن إصلاحه، إذ يقول إنه شريف دوما.. هل
سمعتم أيها الإخوة ما يقول أبونا داود عن إلهنا، إنه يذكر أننا تراب،
وأن روحنا تمضي فلا تعود أيضا، فلذلك رحمنا! طوبى (٢) للذين يعرفون
هذه الكلمات، لأنهم لا يخطئون إلى ربهم إلى الأبد، فإنهم بعد أن يخطئوا
يتوبون، فلذلك لا تدوم خطيئتهم! ويل للمتغطرسين، لأنهم سيذلون في
الجحيم! قولوا لي أيها الإخوة ما هو سبب الغطرسة؟ أيتفق أن يوجد صلاح
على الأرض! لا البتة لأنه كما يقول سليمان نبي الله " إن كل ما تحت الشمس باطل
"،
ولكن إذا كانت أشياء العالم لا تسوغ لنا الغطرسة بقلوبنا، فبالأحرى أن
أن لا تسوغه حياتنا، لأنها مثقلة بشقاء كثير، لأن كل الحيوانات التي هي دون
الإنسان تقاتلنا، ما أكثر الذين قتلهم حر الصيف المحرق! ما أكثر الذين

---

(١) تبارك تفاعل، من البركة وهي الزيادة والنماء والكثرة والاتساع، أي البركة
تكسب وتنال بذكرك، ويقال تبارك تقدس، والقدس الطهارة، ويقال تبارك تعاظم
الذي بيده الملك. راجع ص ٤٩ من غريب القرآن للسجستاني.
(٢) طوبى لهم عند النحويين فعلى من الطيب. وقيل طوبى الخير وأقصى الأمنية
وقيل طوبى اسم الجنة بالهندية، وقيل طوبى شجرة في الجنة. راجع ص ١٢٠ من غريب
القرآن للسجستاني.

قتلهم الصقيع وبرد الشتاء! ما أكثر الذين قتلتهم الصواعق والبرد! وما أكثر الذي غرقوا البحر بعصف الرياح! ما أكثر الذين ماتوا من الوباء والجوع!
أو لأن الوحوش الضارية قد افترستهم أو نهشتهم الأفاعي أو خنقهم الطعام!
ما أتعس الإنسان المتغطرس، إذ أنه يرزح تحت أعمال ثقيلة، وتقف له في كل موضع جميع الخلائق بالمرصاد، ولكن ماذا أقول عن الجسد والحس اللذين لا يطلبان إلا الإثم، وعن العالم الذي لا يقدم إلا الخطيئة، وعن الشرير الذي لما كان يخدم الشيطان، يضطهد كل من يعيش بحسب شريعة الله، ومن المؤكد أيها الإخوة أن الإنسان كما يقول داود " لو تأمل الأبدية بعينه لما أخطأ "، ليس تغطرس الإنسان بقلبه إقفال رأفة الله ورحمته حتى لا يعود يصفح، لأن أبانا داود يقول " إن إلهنا يذكر أننا لسنا سوى تراب، وأن روحنا تمضي، ولا تعود أيضا " أفمن تغطرس إذا أنكر أنه تراب، وعليه فلما كان لا يعرف حاجته، فهو لا يطلب عونا، فيغضب الله معينه!
لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن الله يعفو عن الشيطان،
لو عرف الشيطان شقاءه، وطلب رحمة من خالقه المبارك إلى الأبد. لذلك أقول لكم أيها الإخوة، إنني أنا الذي هو إنسان، تراب وطين يسير على الأرض، أقول لكم جاهدوا أنفسكم واعرفوا خطاياكم، أقول أيها الإخوة إن الشيطان ضللكم بواسطة الجنود الرومانية، عندما قلتم إنني أنا الله (١)، فاحذروا من أن تصدقوهم، لأنهم واقعون تحت لعنة الله، وعابدون الآلهة الباطلة الكاذبة، كما استنزل أبونا داود لعنة عليهم، قائلا " إن آلهة الأمم فضة وذهب، عمل أيديهم، لها أعين ولا تبصر، لها آذان ولا تسمع، ولها مناخر ولا تشم، لها فم ولا تأكل، لها لسان ولا تنطق، لها أيد ولا تلمس، لها أرجل ولا تمشي لذلك قال داود أبونا ضارعا إلى إلهنا الحي " مثلها يكون صانعوها، بل كل من يتكل عليها "، يا لكبرياء لم يسمع بمثلها، كبرياء الإنسان الذي ينسى حاله ويود أن يصنع إلها بحسب هواه، مع أن الله خلقه من تراب، وهو بذلك

---

(١) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

يستهزئ بالله بهدوء، كأنه يقول " لا فائدة من عبادة الله "، لأن هذا ما تظهره أعمالهم، إلى هذا أراد الشيطان أن يوصلكم أيها الإخوة، إذ حملكم على التصديق بأنني أنا الله (١)، فإني وأنا لا طاقة لي أن أخلق ذبابة، بل إني زائل وفان، لا أقدر أن أعطيكم شيئا نافعا، لأني أنا نفسي في حاجة إلى كل شئ، فكيف أقدر إذا أن أعينكم في كل شئ، كما هو شأن الله أن يفعل، أفنستهزئ إذا، وإلهنا هو الإله العظيم الذي خلق بكلمته الكون بالأمم وآلهتهم؟! صعد رجلان إلى الهيكل ليصليا، أحدهما فريسي والآخر عشار، فاقترب الفريسي من المقدس، وصلى رافعا وجهه، قائلا " أشكرك أيها الرب إلهي، لأني لست كباقي الناس الخطاة الذين يرتكبون كل إثم، ولا مثل هذا العشار، لأن أصوم مرتين في الأسبوع، وأعشر كل ما أقتنيه "! أما العشار فلبث واقفا على بعد منحنيا إلى الأرض، وقال مطرقا برأسه، قارعا صدره " يا رب! إنني لست أهلا أن أتطلع إلى السماء، ولا إلى مقدسك، لأني أخطأت كثيرا، فارحمني "، الحق أقول لكم إن العشار نزل من الهيكل أفضل من الفريسي لأن إلهنا برره غافرا له خطاياه، أما الفريسي، فنزل وهو على حال أردا، لأن إلهنا رفضه، ماقتا أعماله (٢) "!

(٤) صلاة المسيح عند قرب رحيله:

(ا) وجاء في الفصل الثامن عشر بعد المائتين من إنجيل برنابا، عن صلاة المسيح بعد تعزيته تلاميذه، لأنه راحل: " ثم رفع يديه إلى الرب، وصلى قائلا. أيها الرب إلهنا، إله إبراهيم وإله إسماعيل وإسحق، إله آبائنا، ارحم من أعطيتني، وخلصهم من العالم، لا أقول خذهم من العالم، لأنه من الضروري أن يشهدوا على الذين يفسدون إنجيلي، ولكن أضرع إليك أن تحفظهم من الشرير، حتى يحضروا معي يوم الدينونة، يشهدوا على العالم، وعلى بيت إسرائيل

---

(١) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

(٢) راجع ص ١٩٢ – ١٩٧ من إنجيل برنابا.

الذي أفسد عهدك، أيها الرب الإله القدير الغيور، الذي ينتقم في عبادة الأصنام من أبناء الآباء عبدة الأصنام حتى الجيل الرابع، العن إلى الأبد كل من يفسد إنجيلي الذي أعطيتني، عندما يكتبون أني ابنك (١)، لأني أنا الطين والتراب خادمك، ولم أحسب نفسي قط خادما صالحا لك، لأن لا أقدر أن أكافئك على ما أعطيتني، لأن كل الأشياء لك أيها الرب الإله الرحيم، الذي تظهر رحمة إلى ألف جيل للذين يخافونك، ارحم الذين يؤمنون بالكلام الذي أعطيتني إياه، لأن كلمتك التي تكلمتها هي حقيقة، كما أنك أنت الإله الحقيقي، لأنها كلمتك أنت، فإني كنت أتكلم دائما كمن يقرأ، ولا يقدر أن يقرأ إلا ما هو مكتوب في الكتاب الذي يقرأه، وهكذا قلت ما قد أعطيتني إياه! أيها الرب الإله المخلص! خلص من قد أعطيتني، لكيلا يقدر الشيطان أن يفعل شيئا ضدهم، ولا تخلصهم فقط، بل كل من يؤمن لهم! أيها الرب الجواد والغني في الرحمة، امنح خادمك أن يكون بين أمة رسولك يوم الدين، وليس أنا فقط، بل كل من قد أعطيتني، مع سائر الذين سيؤمنون بي بواسطة بشيرهم، وافعل هذا يا رب لأجل ذاتك، حتى لا يفاخرك الشيطان، يا رب! أيها الرب الذي بعنايتك تقدم كل الضروريات لشعبك إسرائيل، أذكر قبائل الأرض كلها التي قد وعدت أن تباركها برسولك، الذي لأجله خلقت العالم! ارحم العالم وعجل بإرسال رسولك، لكي يسلب الشيطان عدوك، مملكته "، وبعد أن فرغ يسوع من هذا، قال ثلاث مرات " ليكن هكذا أيها الرب العظيم "، فأجابوا كلهم باكين " ليكن هكذا! ليكن هذا "، خلا يهوذا، لأنه لم يؤمن بشئ (٢)!

(ب) وجاء في الفصل العشرين بعد المائتين من إنجيل برنابا، عند الحديث عن رفع يسوع إلى السماء:

" حينئذ، قال الذي يكتب يا معلم! أيجوز لي أن أسألك الآن، كما كان يجوز عندما كنت مقيما معنا؟ " أجاب يسوع " سل ما شئت يا برنابا، أجبك " فقال حينئذ

---

(١) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا

(٢) راجع ص ٣٠٩ و ٣١٠ من إنجيل برنابا

الذي يكتب " يا معلم! إذا كان الله رحيما، فلماذا عذبنا بهذا المقدار، بما جعلنا نعتقد أنك كنت ميتا؟ ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت، وسمح الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على جبل الجمجمة، وأنت قدوس الله! "

أجاب يسوع " صدقني يا برنابا! أن الله يعاقب على كل خطيئة مهما كانت خفيفة عقابا عظيما، لأن الله يغضب من الخطيئة، فلذلك لما كانت أمي وتلاميذي الأمناء الذين كانوا معي، أحبوني قليلا حبا عالميا، أراد الله البر، أن يعاقب على هذا الحب بالحزن، حتى لا يعاقب عليه بلهب الجحيم، فلما كان الناس قد دعوني الله (١) وابن الله (٢)، على أني كنت بريئا في العالم، أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا، معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب، لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة، وسيبقى هذا، إلى أن يأتي محمد رسول الله، الذي متى جاء، كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله "،

وبعد أن تكلم يسوع بهذا، قال " إنك لعادل أيها الرب إلهنا! لأن لك وحدك الإكرام والمجد، بدون نهاية " (٣)

(٥) مقدمة إنجيل برنابا وخاتمته:

ولقد ذكر برنابا في مقدمته للإنجيل المسمى باسمه، إنه الإنجيل الصحيح ليسوع المسمى المسيح، نبي جديد مرسل من الله إلى العالم، بحسب رواية برنابا رسوله، وقال "... برنابا رسول يسوع الناصري المسمى المسيح، يتمنى لجميع سكان الأرض سلاما وعزاء، أيها الأعزاء! إن الله العظيم العجيب، قد افتقدنا... بنبيه يسوع المسيح، برحمة عظيمة للتعليم والآيات، التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله (٤) ورافضين الختان، الذي أمر به الله دائما، مجوزين كل لحم نجس،

----

(١) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا

(٢) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا

(٣) راجع ص ٣٢٣ من إنجيل برنابا

(٤) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا

الذين ضل في عدادهم أيضا بولص، الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى (١).. " وقال في خاتمة إنجيله ".. أما الحق المكروه من الشيطان، فقد اضطهده الباطل كما هي الحال دائما، فإن فريقا من الأشرار المدعين أنهم تلاميذ، بشروا بأن يسوع مات ولم يقم، وآخرون بشروا بأنه مات بالحقيقة " ثم قال آخرون وبشروا ولا زالوا يبشرون! بأن يسوع هو ابن الله (٢)، وقد خدع في عدادهم بولص، أما نحن، فإنما نبشر بما كتبت، الذين يخافون الله، ليخلصوا في اليوم الآخر، لدينونة الله " (٣).

" لقد كفر الذين قالوا ن الله ثالث ثلاثة "، " إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم "، ولن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله "، " لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم "، " ما المسيح ابن مريم، إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ".

---

(١) راجع ص ٢ من إنجيل برنابا.

(٢) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

(٣) راجع الفصل الثاني والعشرين بعد المائتين من إنجيل برنابا ص ٣٢٥. ولقد حرمت الكنيسة على الناس، مناقشة لفظ التثليث، وقررت مبدأ آمن ولا تسأل، فحاول مثلا عمنويل كانت فيلسوف المسيحية، تفسيره بقوله " إن الأب والابن وروح القدس، إنما تدل على ثلاث صفات أساسية في اللاهوت، وهي القدرة والمحبة والحكمة، أو على ثلاثة فواعل عليا، وهي الخلق والحفظ والضبط "، وعلى هذا فهي في عرفه، ألفاظ لا تدل على معانيها المعروفة بها، فلا داعى إذن، كما يقول المرحوم الأستاذ أحمد نجيب برادة لاستعمالها في غير ما وضعت له، ليكون الناس على بينة من حقيقة معبودهم بعيدين عن الضلال والتضليل. راجع ص ٢٢ - ٢٤ من وحي الآيات الأولى في تنزيل القرآن للمرحوم أحمد نجيب برادة.

الفصل الخامس
محمد رسول الله
المبشر به في إنجيل برنابا
" أهدى هذا الفصل، لتلك السيدة
المسيحية التي قمصت لما سمعت اسم محمد، كأن
قد لدغتها عقرب، ثم أخذت تدفع عنها ريح
ذكره، إذ ستبكي عندما تعرف الحق "!

" الحمد لله الذي أظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه، ما حير مقل العيون من عجائب قدرته، وردع خطرات هماهم النفوس عن عرفان كنه صفته، وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة إيمان وإيقان وإخلاص وإذعان، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ونجيبه وصفوته، أرسله وأعلام الهدى دارسة، ومناهج الدين طامسة، فصدع بالحق ونصح للخلق، وهدى إلى الرشد، وأمر بالقصد (١) أرسله بالضياء، وقدمه في الاصطفاء (٢) "، " دعا إلى طاعته، وقاهر أعداءه جهادا على دينه، لا يثنيه عن ذلك اجتماع على تكذيبه، والتماس لإطفاء نوره (٣) "، " ابتعثه والناس يضربون في غمرة، ويموجون في حيرة، قد قادمتهم أزمة الحين، واستغلقت على أفئدتهم أقفال الرين (٤) "، " لا يوازي فضله ولا يجبر فقده، أضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة، والجهالة الغالبة والجفوة الجافية، والناس يستحلون الحريم، ويستذلون الحكيم، يحيون على فترة

---

(١) راجع ص ٤٢٧ و ٤٢٨ من نهج البلاغة ج ١
(٢) راجع ص ٤٥٥ من نهج البلاغة ج ١
(٣) راجع ص ٢٤٠ و ٢٤١ من نهج البلاغة ج ١
(٤) راجع ص ٣٩١ و ٣٩٢ من نهج البلاغة ج ١

ويموتون على كفرة (١).. " أرسله داعيا إلى الحق، وشاهدا على الخلق، فبلغ رسالات ربه، غير وان ولا مقصر، وجاهد في الله أعداءه، غير وان ولا معذر، إمام من اتقى، وبصر وبصيرة من اهتدى (٢) " " سراج لمع ضوؤه، وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه، سيرته القصد (٣) وسنته الرشد، وكلامه وحكمه العدل، على حين فترة من الرسل، وهفوة عن العمل، وغباوة من الأمم (٤) "، اختاره من شجرة الأنبياء، ومشكاة الضياء وذؤابة العلياء وشرف البطحاء، ومصابيح الظلمة وينابيع الحكمة، طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يضع من ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عمى وآذان صم وألسنة بكم، متتبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة (٥)!.

" مستقره خير مستقر، ومنبته أشرف منبت، في معادن الكرامة ومماهد السلامة، قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار، وثنيت إليه أزمة الأبصار، وأطفأ به الثوائر، ألف به إخوانا، وفرق به أقرانا، وأعز به الذلة، وأذل به العزة كلامه بيان، وصمته لسان (٦) "، بعثه الله سبحانه وتعالى، وليس أحد من العرب يقرأ كتابا ولا يدعي نبوة ولا وحيا، فقاتل بمن أطاعه من عصاه، يسوقهم إلى منجاتهم، ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم، يحسر الحسير، ويقف الكسير فيقيم عليه، حتى يلحقه غايته، إلا هالكا لا خير فيه، حتى أراهم منجاتهم، وبوأهم محلتهم، فاستدارت رحاهم، واستقامت قناتهم (٧).. "

" قد حقر الدنيا وصغرها، وأهونها وهونها، وعلم أن الله زواها عنه

---

(١) راجع ص ٢٩ من نهج البلاغة ج ١

(٢) راجع ص ٢٤٧ من نهج البلاغة ج ١

(٣) الاستقامة.

(٤) راجع ص ١٠٢ من نهج البلاغة ج ١

(٥) راجع ص ٢٢٣ و ٢٢٤ من نهج البلاغة ج ١

(٦) راجع ص ٢٠٣ من نهج البلاغة ج ١

(٧) راجع ص ٢١٥ و ٢١٦ من نهج البلاغة ج ١

اختيارا، وبسطها لغيره احتقارا، فأعرض عنها بقلبه، وأمات ذكرها عن
نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشا أو يرجو فيها
مقاما، بلغ عن ربه معذرا، ونصح لأمته منذرا، ودعا إلى الجنة مبشرا (١) "!
" بعثه شهيدا وبشيرا ونذيرا، بالنور المضئ والبرهان الجلي والمنهاج
البادي والكتاب الهادي، أسرته خير أسرة، وشجرته خير شجرة، أغصانها
معتدلة، وثمارها متهدلة، مولده بمكة، وهجرته بطيبة (٢) علا بها ذكره، وامتد بها
صوته، أرسله بحجة كافية، وموعظة شافية، ودعوة متلافية، أظهر به الشرائع
المجهولة، وقمع به البدع المدخولة، وبين به الأحكام المفصولة، فمن يتبع غير
الإسلام دينا، تتحقق شقوته، وتنفصم عروته، وتعظم كبوته، ويكون مآبه
إلى الحزن الطويل، والعذاب الوبيل (٣) "!
" أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الأمم، فجاءهم بتصديق
الذي بين يديه، والنور المقتدى به، ذلك القرآن، فيه علم ما يأتي، والحديث عن
الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم (٤) "!
صلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، " اللهم أقسم له مقسما من عدلك،
واجزه مضاعفات الخير من فضلك! اللهم أعل على بناء البانين بناءه، وأكرم
لديك نزله، وشرف عندك منزلته، وآته الوسيلة، واعطه السناء والفضيلة،
واحشرنا في زمرته، غير خزايا ولا نادمين، ولا ناكبين ولا ناكثين، ولا ضالين
ولا مضلين، " فهو أمينك المأمون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة،
ورسولك بالحق رحمة (٥) "!

---

(١) راجع ص ٢٣٢ من نهج البلاغة ج ١.
(٢) المدينة المنورة.
(٣) راجع ص ٣١٥ و ٣١٦ من نهج البلاغة ج ١
(٤) راجع ص ٣٠٥ من نهج البلاغة ج ١
(٥) راجع ص ٢٢١ من نهج البلاغة ج ١

" بعث الله محمدا، صلى الله عليه وسلم وآله نذيرا، للعالمين، وأمينا على التنزيل (١) "، " فساق الناس حتى بوأهم محلتهم، وبلغهم منجاتهم، فاستقامت قناتهم، واطمأنت صفاتهم (٢) "، ولقد بشر به المسيح عليه السلام، في إنجيل برنابا، في كثير من مواضعه:

البشارة بمحمد في إنجيل برنابا:

(ا) فلقد جاء في الفصل السابع عشر من إنجيل برنابا، لما طلب فيليبس من يسوع، معرفة الله، وأجابه:

" أجاب فيليبس: ماذا تقول يا سيد، حقا لقد كتب في أشعيا أن الله " أبونا " (٣) فكيف لا يكون له بنون (٤) "؟ أجاب يسوع: إنه في الأنبياء مكتوب أمثال كثيرة، لا يجب أن نأخذها بالحرف، بل بالمعنى، لأن كل الأنبياء البالغين مائة وأربعة وأربعين ألفا، الذين أرسلهم الله إلى العالم، قد تكلموا بالمعميات بظلام، ولكن سيأتي بعدي بهاء كل الأنبياء والأطهار، فيشرق نورا على ظلمات سائر ما قال الأنبياء، لأنه رسول الله " ولما قال هذا، تنهد يسوع، وقال: " ارأف بإسرائيل أيها الرب الإله، وانظر بشفقة على إبراهيم، وعلى ذريته، لكي يخدموك بإخلاص "، فأجاب تلاميذه: " ليكن كذلك أيها الرب الإله (٥) "..

(ب) وجاء في الفصل التاسع والثلاثين، من إنجيل برنابا، عند الحديث عن خلق آدم "... ففتح حينئذ آدم فاه، وقال: " أشكرك أيها الرب إلهي، لأنك تفضلت فخلقتني، ولكن أضرع إليك أن تنبأني ما معنى هذه الكلمات " محمد رسول الله "، فأجاب الله: " مرحبا بك يا عبدي آدم، وإني أقول لك

---

(١) راجع ص ٧٤ من نهج البلاغة ج ١

(٢) راجع ص ٢١٩ من نهج البلاغة ج ١

(٣) سبحانه.

(٤) سبحانه.

(٥) راجع ص ٢٢ من إنجيل برنابا.

إنك أول إنسان خلقت، وهذا الذي رأيته إنما هو ابنك، الذي سيأتي إلى العالم بعد الآن بعدة سنين، وسيكون رسولي،، الذي لأجله خلقت كل الأشياء، الذي متى جاء، سيعطي نورا للعالم، الذي كانت نفسه موضوعة في بهاء سماوي ستين ألف سنة، قبل أن أخلق شيئا "، فضرع آدم إلى الله قائلا: " يا رب هبني هذه الكتابة على أظفار أصابع يدي "، فمنح الله الإنسان الأول تلك الكتابة على إبهاميه، على ظفر إبهام اليد اليسرى، ما نصه " لا إله إلا الله "، وعلى ظفر إبهام اليد اليسرى، ما نصه " محمد رسول الله "، فقبل الإنسان الأول بحنو أبوي، هذه الكلمات، ومسح عينيه، وقال: " بورك ذلك اليوم سنأتي فيه إلى العالم " (١)!

(ج) وجاء في الفصل الحادي والأربعين، من إنجيل برنابا، عند الحديث عن خروج آدم وحواء من الجنة " ثم قال الله لآدم وحواء اللذين كانا ينتجعان " أخرجا من الجنة، وجاهدا أبدانكما، ولا بضعف رجاؤكما، لأني أرسل ابنكما على كيفية يمكن بها لذريتكما أن ترفع سلطة الشيطان عن الجنس البشري، لأني سأعطي رسولي الذي سيأتي، كل شئ "، فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس، فلما التفت آدم، رأى مكتوبا فوق الباب " لا إله إلا الله، محمد رسول الله "، فبكى عند ذلك، وقال: " أيها الابن! عسى الله أن يريد أن تأتي سريعا، وتخلصنا من هذا الشقاء " (٢)!

(ء) وجاء في الفصل الثاني والأربعين، من إنجيل برنابا، عندما أرسل الكتبة لسؤال يسوع، هل هو مسيا؟

"... رسول الله الذي تسمونه مسيا، خلق قبلي، وسيأتي بعدي، وسيأتي بكلام الحق، ولا يكون لدينه نهاية (٣)... "

(ه) وجاء في الفصل الثالث والأربعين، من إنجيل برنابا، حينما سأل أندراوس يسوع، أن يصرح بكل شئ عن مسيا:

---

(١) راجع ص ٦٢ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٦٥ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ٦٦ من إنجيل برنابا.

"... حينئذ قال أندراوس: " لقد حدثتنا بأشياء كثيرة عن مسيا، فتكلم بالتصريح لنا بكل شئ "، أجاب يسوع: " كل من يعمل، فإنما يعمل لغاية يجد فيها غناء، لذلك أقول لكم إن الله لما كان بالحقيقة كاملا، لم يكن له حاجة إلى غناء، لأنه الغناء عنده نفسه، وهكذا لما أراد أن يعمل، خلق قبل كل شئ نفس رسوله، الذي لأجله قصد إلى خلق الكل، ولكي تجد الخلائق فرحا وبركة بالله، وييسر رسوله بكل خلائقه التي قدر أن تكون عبيدا له، ولماذا وهل كان هذا هكذا إلا لأن الله أراد ذلك. الحق أقول لكم إن كل نبي متى جاء، فإنه إنما يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله، ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذي أرسلوا إليه، ولكن رسول الله متى جاء، يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده، فيحمل خلاصا ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه وسيأتي بقوة على الظالمين، ويبيد عبادة الأصنام، بحيث يخزي الشيطان لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلا: " انظر! فإني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيما، هكذا سيفعل نسلك " (١)...

(و) وجاء في الفصل الرابع والأربعين، من إنجيل برنابا، عند الحديث عن هل كان العهد لإسماعيل أو لإسحاق، ومن ذرية من مسيا:

" حينئذ قال التلاميذ: يا معلم! هكذا كتب في كتاب موسى، إن العهد صنع بإسحق "، أجاب يسوع متأوها: " هذا هو المكتوب، ولكن موسى لم يكتبه ولا يشوع، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله، الحق أقول لكم إنكم إذا أعملتم النظر في كلام الملاك جبريل، تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا، لأن الملاك قال: " يا إبراهيم! سيعلم الله كيف يحبك الله، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله، حقا يجب عليك أن تفعل شيئا لأجل محبة الله "، أجاب إبراهيم: " وها هو ذا عبد الله، مستعد أن يفعل كل ما يريد الله "، فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلا: " خذ ابنك بكرك إسماعيل، واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة "، فكيف يكون إسحق البكر، وهو لما ولد، كان إسماعيل ابن سبع سنين؟! "، فقال حينئذ

---

(١) راجع ص ٦٨ - ٧٠ من إنجيل برنابا.

التلاميذ: " إن خداع الفقهاء لجلي، لذلك فقل لنا أنت الحق، لأننا نعلم أنك مرسل من الله "، فأجاب حينئذ يسوع: " الحق أقول لكم، إن الشيطان يحاول دائما إبطال شريعة الله، فلذلك قد نجس هو وأتباعه والمراءون وصانعو الشر كل شئ اليوم، الأولون بالتعليم الكاذب، والآخرون بمعيشة الخلاعة...
لذلك أقول لكم، إن رسول الله... مزدان بروح الفهم والمشورة، وروح الحكمة والقوة، روح الخوف والمحبة، روح التبصر والاعتدال، مزدان بروح المحبة والرحمة، روح العدل والتقوى، روح اللطف والصبر، التي أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه، ما أسعد الزمن الذي سيأتي فيه إلى العالم، صدقوني أني رأيته، وقدمت له الاحترام، كما رآه كل نبي، لأن الله يعطيهم روحه نبوة، ولما رأيته امتلأت عزاء (١)... "
(ز) وجاء في الفصل الثاني والخمسين، من إنجيل برنابا، عند الحديث عن يوم الدينونة، وأن الجميع حتى الأطهار وأصفياء الله، سيخافون:
".. بل إن رسول الله سيخاف، لأن الله إظهارا لجلاله، سيجرد رسوله من الذاكرة، حتى لا يذكر كيف أن الله أعطاه كل شئ (٢)... "
(ح) وجاء في الفصول من الرابع والخمسين، إلى السادس والخمسين، من إنجيل برنابا، عند الحديث عن الدينونة ومرور العلامات التي ذكرها يسوع وغشيان العالم بعد ذلك ظلمة أربعين سنة:
"... ومتى مرت الأربعون سنة، يحيي الله رسوله، الذي سيطلع أيضا كالشمس، بيد أنه متألق كألف شمس، فيجلس ولا يتكلم.. وسيقيم الله أيضا الملائكة الأربعة المقربين (٣) الذين ينشدون رسول الله، فمتى وجدوه، قاموا على الجوانب الأربعة للمحل حراسا له، ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الملائكة

----
(١) راجع ص ٧٠ و ٧١ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٨٣ من إنجيل برنابا.
(٣) أي جبريل وميكائيل (ميخائيل) وعزرائيل (رافائيل) وإسرافيل (أوريل)

الذين يأتون كالنحل، ويحيطون برسول الله، ثم يحيي الله بعد ذلك سائر أنبيائه الذين سيأتون جميعا تابعين لآدم، فيقبلون يد رسول الله، واضعين أنفسهم في كنف حمايته، ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الأصفياء، الذين يصرخون " اذكرنا يا محمد "، فتتحرك الرحمة في رسول الله بصراخهم، وينظر فيما يجب فعله، خائفا لأجل خلاصهم، ثم يحيي الله بعد ذلك كل مخلوق، فتعود إلى وجودها الأول، وسيكون لكل منها قوة النطق علاوة، ثم يحيي الله بعد ذلك المنبوذين كلهم الذين عند قيامهم يخاف سائر خلق الله، بسبب قبح منظرهم، ويصرخون " أيها الرب إلهنا، لا تدعنا من رحمتك "، وبعد هذا يقيم الله الشيطان، الذي سيصير كل مخلوق كميت، خوفا من هيئة منظره المريع "!

ثم قال يسوع " أرجو الله، أن لا أرى هذه الهولة في ذلك اليوم، إن رسول الله لا يتهيب هذه المناظر، لأنه لا يخاف إلا الله وحده.. ويذهب رسول الله ليجمع كل الأنبياء، الذين يكلمهم راغبا إليهم أن يذهبوا معه ليضرعوا إلى الله لأجل المؤمنين، فيتعذر كل أحد خوفا، ولعمر الله إني أنا أيضا، لا أذهب إلى هناك، لأني أعرف ما أعرف، وعندما يرى الله ذلك، يذكر رسوله كيف أنه خلق كل الأشياء محبة له، فيذهب خوفه، ويتقدم إلى العرش بمحبة واحترام، والملائكة ترنم " تبارك اسمك القدوس يا الله إلهنا "، ومتى صار على مقربة من العرش، يفتح الله لرسوله، كخليل لخليله بعد طول الأمد على اللقاء، ويبدأ رسول الله بالكلام أولا، فيقول " إني أعبدك وأحبك يا إلهي، وأشكرك من كل قلبي ونفسي، لأنك أردت فخلقتني، لأكون عبدك، وخلقت كل شئ حبا في، لأحبك لأجل كل شئ، وفي كل شئ، وفوق كل شئ فليحمدك خلائقك يا إلهي "!

حينئذ تقول كل مخلوقات الله " نشكرك يا رب، وتبارك اسمك القدوس "!

ويكلم الله رسوله، قائلا " مرحبا بك يا عبدي الأمين، فاطلب ما تريد، تنل كل شئ ".

فيجيب رسول الله " يا رب أذكر أنك لما خلقتني قلت إنك أردت أن تخلق

العالم والجنة والملائكة والناس حبا في، ليمجدوك بي أنا عبدك، لذلك أضرع إليك أيها الرب الإله الرحيم العادل، أن تذكر وعدك لعبدك "!
فيجيب الله كخليل يمازح خليله، ويقول: " أعندك شهود على هذا يا خليلي محمد "؟ فيقول باحترام: " نعم يا رب "، فيقول الله: " اذهب وادعهم يا جبريل "، فيأتي جبريل إلى رسول الله ويقول: " من هم شهودك أيها السيد؟ فيجب رسول الله: " هم آدم وإبراهيم وإسماعيل وموسى وداود ويسوع ابن مريم "، فينصرف الملاك، وينادي الشهود المذكورين الذين يحضرون إلى هناك خائفين، فمتى حضروا يقول لهم الله: " أتذكرون ما أثبته رسولي "؟ فيجيبون: " أي شئ يا رب؟ "، فيقول الله: " إني خلقت كل شئ حبا فيه، ليحمدني كل الخلائق "، فيجيب كل منهم: " عندنا ثلاثة شهود أفضل منا يا رب " فيجيب الله: " من هم هؤلاء الشهود الثلاثة؟ "، فيقول موسى: " الأول الكتاب الذي أعطيتنيه "، ويقول داود: " الثاني الكتاب الذي أعطيتنيه "، ويقول الذي يكلمكم " يا رب إن العالم كله أغراه الشيطان، فقال إني كنت ابنك وشريكك، ولكن الكتاب الذي أعطيتنيه قال حقا إني أنا عبدك، ويعترف ذلك الكتاب بما أثبته رسولك "، فيتكلم حينئذ رسول الله، ويقول: " هكذا يقول الكتاب الذي أعطيتنيه يا رب "، فعندما يقول رسول الله هذا، يتكلم الله قائلا: " إن ما فعلته الآن، إنما فعلته ليعلم كل أحد مبلغ حبي لك "، وبعد أن يتكلم هكذا، يعطي الله رسوله كتابا مكتوبا فيه أسماء كل مختاري الله، لذلك يسجد كل مخلوق لله، قائلا: " لك وحدك اللهم المجد والإكرام، لأنك وهبتنا لرسولك "، ويفتح الله الكتاب الذي في يد رسوله، وينادي كل الملائكة والأنبياء وكل المختارين، ويكون مكتوبا على جبهة كل علامة رسول الله، ويكتب في الكتاب مجد الجنة، ويمر حينئذ كل أحد إلى يمين الله الذي يكون بالقرب منه رسول الله، ويجلس الأنبياء بجانبه ويجلس القديسون بجانب الأنبياء، والمباركون بجانب القديسين (١).. "

---

(١) راجع ص ٨٦ - ٩٠ من إنجيل برنابا.

(ط) وجاء في الفصل السابع والخمسين، من إنجيل برنابا، عند ذكر الحساب:
"... ومتى انتهى حساب الجميع، يقول الله لرسوله: " انظر يا خليلي
ما كان أعظم شرهم، فإني أنا خالقهم، سخرت كل المخلوقات لخدمتهم، فامتهنوني في كل شئ، فالعدل كل العدل إذا أن لا أرحمهم "، فيجيب رسول الله:
" حقا أيها الرب إلهنا المجيد، إنه لا يقدر أحد من أخلائك وعبيدك، أن يسألك رحمة بهم، وإني أنا عبدك، أطلب قبل الجميع العدل فيهم "، وبعد أن يقول هذا الكلام، تصرخ ضدهم الملائكة والأنبياء بجملتها، مع مختاري الله كلهم، بل لماذا أقول المختارين، لأني الحق أقول لكم، إن الرتيلاوات والذباب والحجارة والرمل، لتصرخ من الفجار وتطلب إقامة العدل (١)... "
(ى) وجاء في الفصل الثامن والخمسين من إنجيل برنابا عن عدم شفقة
رسول الله، على المنبوذين يوم الدينونة: " وبينما كان يتكلم يسوع، بكى تلاميذه بحرارة، وأذرف يسوع عبرات كثيرة، وبعد أن بكى يوحنا، قال: يا معلم نحب أن نعرف.. كيف يمكن رسول الله، وهو مملوء رحمة، أن لا يشفق على هؤلاء المنبوذين في ذلك اليوم، وهم من نفس الطين الذي هو منه؟ أجاب يسوع
" أما سمعتم ما يقول داود النبي، كيف يضحك البار من هلاك الخطاة، فيستهزئ بالخاطئ بهذه الكلمات، قائلا: رأيت الإنسان الذي اتكل على قوته وغناه ونسي الله، فالحق أقول لكم إن إبراهيم سيستهزئ بأبيه، وآدم بالمنبوذين كلهم، إنما يكون هذا، لأن المختارين سيقومون، كاملين ومتحدين بالله حتى أنه لا يخالج عقولهم أدنى فكر ضد عدله، ولذلك سيطلب كل منهم إقامة العدل، ولا سيما رسول الله، لعمر الله الذي أقف في حضرته، مع أني الآن أبكي شفقة على الجنس البشري، لأطلبن في ذلك اليوم، عدلا بدون رحمة، لهؤلاء الذين يحتقرون كلامي، ولا سيما أولئك الذين ينجسون إنجيلي (٢) "!

---

(١) راجع ص ٩١ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٩٢ و ٩٣ من إنجيل برنابا.

(ن) وجاء في الفصل الثاني والسبعين، من إنجيل برنابا، عندما أخبر يسوع تلاميذه بخيانة يهوذا، وأنه سيسلمه، وأنه سينصرف عن العالم:
"... فإني قد أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله: الذي سيأتي بخلاص للعالم، ولكن احذروا أن تغشوا، لأنه سيأتي أنبياء كذبة كثيرون، يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي "!
حينئذ قال أندراوس " يا معلم! أذكر لنا علامة لنعرفه "، أجاب يسوع
" إنه لا يأتي في زمنكم، بل يأتي بعدكم بعدة سنين، حينما يبطل إنجيلي، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنا، في ذلك الوقت يرحم الله العالم، فيرسل رسوله، الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء، يعرفه أحد مختاري الله، وهو سيظهره للعالم وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الأصنام من العالم، وإني أسر بذلك، لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدقي، وسينتقم الله من الذين سيقولون إني أكبر من إنسان، الحق أقول لكم إن القمر سيعطيه رقادا في صباه، ومتى كبر هو أخذه في كفيه، فليحذر العالم أن ينبذه، لأنه سيفتك بعبادة الأصنام، فإن موسى عبد الله، قتل أكثر من ذلك كثيرا، ولم يبق يشوع على المدن التي أحرقوها، وقتلوا الأطفال، لأن القرحة المزمنة يستعمل لها الكي، وسيجئ بحق أجلى من سائر الأنبياء، وسيوبخ من لا يحسن السلوك في العالم، وستحيي طربا أبراج مدينة آبائنا، بعضها بعضا، فمتى شوهد سقوط عبادة الأصنام إلى الأرض، واعترف بأني بشر كسائر البشر، فالحق أقول لكم إن نبي الله حينئذ يأتي (١) "!
(ل) وجاء في الفصل الثاني والثمانين، من إنجيل برنابا، عند سؤال السامرية المسيح عن القبلة وعن مسيا:
"... أجابت المرأة " إنا ننتظر مسيا، فمتى جاء يعلمنا " أجاب يسوع
" أتعلمين أيتها المرأة، أن مسيا لا بد أن يأتي؟ "، أجابت " نعم يا سيد "،

----
(١) راجع ص ١١٣ من إنجيل برنابا.

حينئذ تهلل يسوع، وقال " يلوح لي أيتها المرأة أنك مؤمنة، فأعلى إذا أنه بالإيمان بمسيا، سيخلص كل مختاري الله، إذا وجب أن تعرفي مجئ مسيا "، قالت المرأة " لعلك أنت مسيا أيها السيد "، أجاب يسوع " إني حقا أرسلت إلى بيت إسرائيل، نبي خلاص، ولكن سيأتي بعد مسيا المرسل من الله، لكل العالم الذي لأجله خلق الله العالم، وحينئذ يسجد لله في كل العالم، وتال الرحمة حتى أن سنة اليوبيل التي تجئ كل مائة سنة، سيجعلها مسيا كل سنة في كل مكان (١).. "

(م) وجاء في الفصل التسعين من إنجيل برنابا، قول المسيح عن الإيمان:

"... الإيمان خاتم يختم به الله مختاريه، وهو خاتم أعطاه لرسوله، الذي أخذ كل مختار الإيمان على يديه، فالإيمان واحد، كما أن الله واحد، لذلك لما خلق الله قبل كل شئ رسوله، وهبه قبل كل شئ الإيمان، الذي هو بمثابة صورة الله، وكل ما صنع الله، وما قال (٢)... "

(ن) وجاء في الفصلين السادس والتسعين والسابع والتسعين من إنجيل برنابا، عندما سأل الكاهن المسيح من هو، فأجاب إنه يسوع بن مريم، بشر مائت ويخاف الله وقال إنه برئ من الفتنة: أجاب الكاهن:

إنه مكتوب في كتاب موسى إن إلهنا سيرسل لنا مسيا، الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله، وسيأتي للعالم برحمة الله، لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت مسيا الله الذي ننتظر؟ " أجاب يسوع " حقا إن الله وعد هكذا، ولكني لست هو، لأنه خلق قبلي وسيأتي بعدي "، أجاب الكاهن " إننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبي وقدوس الله، لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل، أن تفيدنا حبا في الله، بأية كيفية سيأتي مسيا؟ "، أجاب يسوع " لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي، إني لست مسيا الذي تنتظره كل قبائل الأرض، كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلا " بنسلك أبارك كل قبائل الأرض "، ولكن عندما يأخذني الله من العالم، سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة، بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله (٣)

---

(١) راجع ص ١٢٨ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ١٣٩ من إنجيل برنابا.

(٣) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وابن الله (١)، فينجس بسبب هذا كلامي وتعليمي، حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا، حينئذ يرحم الله العالم، ويرسل رسوله، الذي خلق كل الأشياء لأجله الذي سيأتي من الجنوب بقوة، وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام، وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر، وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا... " فأجاب حينئذ الكاهن مع الوالي والملك قائلين " لا تزعج نفسك يا يسوع قدوس الله، لأن هذه الفتنة لا تحدث في زمننا مرة أخرى، سنكتب إلى مجلس الشيوخ الروماني المقدس بإصدار أمر ملكي أن لا أحد يدعوك فيما بعد " الله أو ابن الله "، فقال حينئذ يسوع " إن كلامكم لا يعزيني، لأنه يأتي ظلام حيث ترجون النور، ولكن تعزيتي هي في مجئ الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب، سيمتد دينه ويعم العالم بأسره، لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم، إن ما يعزيني هو أن لا نهاية لدينه، لأن الله سيحفظه صحيحا " أجاب الكاهن " أيأتي رسل آخرون بعد مجئ رسول الله؟ " فأجاب يسوع " لا يأتي بعده أنبياء صادقون، مرسلون من الله، ولكن يأتي عدد غفير من الأنبياء الكذبة، وهو ما يحزنني، لأن الشيطان سيثيرهم بحكم الله العادل فيستترون بدعوى إنجيلي "، أجاب هيرودس " كيف أن مجئ هؤلاء الكافرين، يكون بحكم الله العادل؟ "، أجاب يسوع " من العدل أن من لا يؤمن بالحق لخلاصه، يؤمن بالكذب للعنته، لذلك أقول لكم إن العالم كان يمتهن الأنبياء الصادقين دائما، وأحب الكاذبين، كما يشاهد في أيام ميشع وأرميا لأن الشبيه يحب شبيهه "، فقال حينئذ الكاهن " ماذا يسمى مسيا، وما هي العلامة التي تعلن مجيئه؟ "، أجاب يسوع " إن اسم مسيا عجب، لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي، قال الله " اصبر يا محمد، لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجما غفيرا من الخلائق التي أهبها لك، حتى أن من يباركك يكون مباركا، ومن يلعنك يكون ملعونا، ومتى أرسلتك إلى العالم، أجعلك رسولي للخلاص، وتكون كلمتك صادقة، حتى أن السماء

---

(١) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

والأرض، تهنان، ولكن إيمانك لا يهن أبدا " إن اسمه المبارك محمد "، حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين " يا الله أرسل لنا رسولك! يا محمد (١) تعال سريعا لخلاص العالم " (٢).

(س) وجاء في الفصل الثاني والعشرين بعد المائة، من إنجيل برنابا، عند الحديث عن التوبة:

"... ثم رفع يديه وصلى قائلا: أيها الرب الإله القدير الرحيم، الذي خلقتنا نحن عبيدك برحمة، ومنحتنا مرتبة البشر ودين رسولك الحقيقي، إننا نشكرك على كل إنعاماتك، ونود أن نعبدك وحدك، كل أيام حياتنا نادبين خطايانا، مصلين ومتصدقين وصائمين ومطالعين كلمتك، مثقفين الذين يجهلون مشيئتك، مكابدين الآلام من العالم، حبا فيك، باذلين نفسنا للموت خدمة لك! فنجنا أنت يا رب، من الشيطان ومن الجسد ومن العالم، كما نجيت مصطفاك إكراما لنفسك وإكراما لرسولك الذي خلقتنا لأجله، وإكراما لكل قديسيك وأنبيائك "

فكان يجيب التلاميذ دائما، ليكن كذلك يا رب، ليكن كذلك أيها الإله الرحيم (٣) ".

(٣) وجاء في الفصل الرابع والعشرين، من إنجيل برنابا، عن التعليم:

" كل ما ينطبق على كتاب موسى، فهو حق فاقبلوه، لأنه لما كان الله واحدا كان الحق واحدا، فينتج من ذلك أن التعليم واحد، وأن معنى التعليم واحد، فالإيمان إذا واحد، الحق أقول لكم، إنه لو لم يمح الحق من كتاب موسى، لما أعطى الله داود أبانا الكتاب الثاني، ولو لم يفسد كتاب داود، لم يعهد الله بإنجيله إلي، لأن الرب إلهنا غير متغير، ولقد نطق رسالة واحدة لكل البشر

---

(١) اسمه كذلك في لسان العرب أحمد، وفي لسان عمران مسئ، وفي اللاتيني كنسلاتر وفي الرومي باركل تسى.

(٢) راجع ص ١٤٨ - ١٥١ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ١٨٧ من إنجيل برنابا

فمتى جاء رسول الله، يجئ ليطهر كل ما أفسد الفجار من كتابي... لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن كل تعليم يحول الإنسان عن غايته التي هي الله، لشر تعليم، لذلك يجب عليك ملاحظة ثلاثة أمور في التعليم، أي محبة الله وعطف المرء على قريبه، وبغضك لنفسك التي أغضبت الله وتغضبه كل يوم، فتجنب كل تعليم مضاد لهذه الرؤس الثلاثة، لأنه شرير جدا " (١)!

(ف) وجاء في الفصلين السادس والثلاثين بعد المائة والسابع الثلاثين بعد المائة، من إنجيل برنابا، عند الحديث عن الجحيم:

".... يتحتم على كل أحد أيا كان أن يذهب إلى الجحيم... وماذا أقول؟ أفيدكم أنه حتى رسول الله، يذهب إلى هناك ليشاهد عدل الله، فترتعد ثمة الجحيم لحضوره، وبما أنه ذو جسد بشري، يرفع العقاب عن كل ذي جسد بشري من المقضي عليهم بالعقاب، فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة إقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم، ولكنه لا يقيم هناك إلا طرفة عين، وإنما يفعل الله هذا، ليعرف كل مخلوق أنه نال نفعا من رسول الله، ومتى ذهب إلى هناك ولولت الشياطين وحاولت الاختباء تحت الجمر المتقد، قائلا بعضهم لبعض " اهربوا اهربوا فإن عدونا محمدا قد أتى " فمتى سمع الشيطان ذلك، يصفع وجهه بكلتا كفيه، ويقول صارخا " ذلك بالرغم عني، لا شرفا مني.. "، أما ما يختص بالمؤمنين الذين لهم اثنان وسبعون درجة، مع أصحاب الدرجتين الأخريين، الذين كان لهم إيمان بدون أعمال صالحة، إذ كان الفريق الأول حزينا على الأعمال الصالحة، والآخر مسرورا بالشر، فسيمكثون جميعا في الجحيم، سبعين ألف سنة! وبعد هذه السنين يجئ الملاك جبريل إلى الجحيم ويسمعهم يقولون " يا محمد أين وعدك لنا، إن من كان على دينك، لا يمكث في الجحيم أبدا " فيعود حينئذ ملاك الله إلى الجنة، وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقص عليه ما سمع، فحينئذ يكلم الرسول الله، ويقول " ربي وإلهي، أذكر وعدك لي أنا عبدك، بأن لا يمكث الذين قبلوا ديني في الجحيم إلى الأبد، " فيجيب الله

----

(١) راجع ص ١٩٠ و ١٩١ من إنجيل برنابا.

أطلب ما تريد يا خليلي، لأني أهبك كل ما تطلب " فحينئذ يقول رسول الله " يا رب يوجد من المؤمنين في الجحيم من لبث سبعين ألف سنة، أين رحمتك يا رب! إني أضرع إليك يا رب أن تعتقهم من هذه العقوبة بالمرة "، فيأمر الله حينئذ الملائكة المقربين لله، أن يذهبوا إلى الجحيم ويخرجوا كل من على دين رسوله ويعودون إلى الجنة، وهو ما سيفعلونه، ويكون من مبلغ جدوى دين رسول الله، أن كل من آمن به، يذهب إلى الجنة بعد العقوبة التي تكلمت عنها، ولو لم يعمل عملا صالحا، لأنه مات على دينه (١) ".

(ص) وجاء في الفصلين الثامن والخمسين بعد المائة والتاسع والخمسين بعد المائة، من إنجيل برنابا، عند الحديث عن الخطيئة:

"... وماذا أقول؟ لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، لو خامر رسول الله حب هذا العالم الشرير، متى جاء إليه، لأخذ الله منه بالتأكيد كل ما وهبه عند خلقه وجعله منبوذا، لأن الله بهذا المقدار مضاد للعالم " أجاب التلاميذ يا معلم " إن كلامك لعظيم جدا، فارحمنا لأننا لا نفهمه " قال يسوع " أيخيل لكم أن الله قد خلق رسوله ليكون ندا له، يريد أن يجعل نفسه مساويا لله؟ كلا ثم كلا! بل عبده الصالح، الذي لا يريد ما لا يريد الله (٢).

(ق) وجاءه في الفصل الثالث والستين بعد المائة، من إنجيل برنابا، عن سبق الاصطفاء:

" وذهب يسوع مع تلاميذه إلى البرية وراء الأردن، فلما انقضت صلاة الظهيرة، جلس بجانب نخلة، وجلس تلاميذه تحت ظل النخلة، حينئذ قال يسوع " أيها الإخوة! إن سبق الاصطفاء لسر عظيم، حتى أني أقول لكم الحق إنه لا يعلمه جليا إلا إنسان واحد فقط، وهو الذي تتطلع إليه الأمم الذي تتجلى له أسرار الله تجليا، فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه، متى

---

(١) راجع ص ٢١١ - ٢١٣ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٢٤٧ من إنجيل برنابا.

جاء إلى العالم، لأن الله سيظللهم كما تظللنا هذه النخلة، إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية، هكذا تقي رحمة الله المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان ".
أجاب التلاميذ " يا معلم من عسى أن يكون الرجل الذي تتكلم عنه،
الذي سيأتي إلى العالم؟ "، أجاب يسوع، بابتهاج قلب " إنه محمد رسول الله، ومتى جاء إلى العالم، فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها، كما يجعل المطر يعطي ثمرا بعد انقطاع المطر زمنا طويلا، فهو غمامة بيضاء، ملأى برحمة الله، وهي رحمة ينثرها الله رذاذا على المؤمنين كالغيث (١) ".
(ر) وجاء في الفصل السادس والسبعين بعد المائة، من إنجيل برنابا،
عن مجد الجنة:
"... فمجد الجنة هو طعام الجسد... وأما ذلك المجد، فسيوضحه بأجلى بيان محمد رسول الله، الذي هو أدرى بالأشياء من كل مخلوق، لأن الله قد خلق كل شئ حبا فيه (٢).. "
(ش) وجاء في الفصلين الحادي والتسعين بعد المائة والثاني والتسعين بعد المائة، من إنجيل برنابا، عند الحديث عن مسيا:
" حينئذ قال الكاتب: عفوا يا معلم لأني قد أخطأت "، فقال يسوع " إن الله يغفر لك، لأنك إليه قد أخطأت " فقال من ثم الكاتب " لقد رأيت كتيبا قديما مكتوبا بيد موسى ويشوع - الذي أوقف الشمس كما قد فعلت - خادمي ونبيي الله، وهو كتاب موسى الحقيقي نفسه، مكتوب أن إسماعيل هو أب لمسيا وإسحق أب لرسول مسيا، وهكذا يقول الكتاب إن موسى قال " أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم، أظهر لعبدك في سناء مجدك "، فأراه الله من ثم رسوله على ذراعي إسماعيل، وإسماعيل على ذراعي إبراهيم، ووقف على مقربة من إسماعيل إسحق، وكان على ذراعيه طفل يشير بإصبعه إلى رسول الله، قائلا هذا

---

(١) راجع ص ٢٥٤ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٢٦٧ من إنجيل برنابا.

هو الذي لأجله خلق الله كل شئ "، فصرخ من ثم موسى بفرح " يا إسماعيل إن في ذراعيك العالم كله والجنة، اذكرني أنا عبد الله، لأجد نعمة في نظر الله بسبب ابنك، الذي لأجله صنع الله كل شئ! "
لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله يأكل لحم المواشي أو الغنم! لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله قد حصر رحمته في إسرائيل فقط! بل إن الله يرحم كل إنسان يطلب الله خالقه بالحق! لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله، لأن رئيس الكهنة الذي كنت في مكتبته نهاني، " قائلا إن إسماعيليا قد كتبه "، فقال حينئذ يسوع " انظر أن لا تعود أبدا فتحجز الحق، لأنه بالإيمان بمسيا سيعطي الله الخلاص للبشر، ولن يخلص أحد بدونه (١)... "
نسبه ومولده:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي تحشر الناس على قدمي (١) وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي "، " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم "!
ولقد ولد عام الفيل، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه (٣) ثم أمر بالهجرة، فهاجر إلى المدينة، فمكث بها عشر سنين، ثم توفي، وهو ابن ثلاث وستين (٤)، وأولاده خمسة أولاد ذكور (أربعة من خديجة)، وأربع بنات (٥)

---

(١) راجع ص ٢٨٤ و ٢٨٥ من إنجيل برنابا.
(٢) أي على أثري، وقيل على عهدي وزماني.
(٣) أنزل عليه وهو ابن أربعين.
(٤) على الأرجح، وفي رواية ابن خمس وستين، راجع ص ٣١٣ ج ٣ من تيسير الوصول للشيباني. وكان كل من الميلاد والهجرة والوفاة، ليلة الاثنين.
(٥) عبد الله والطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم (من مارية)، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

صفاته وأخلاقه:
كان علي بن أبي طالب إذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول ما معناه وخلاصته: إنه كان ربعة من القوم (١) ولم يكن فاحش السمن، وكان أسل الخد (٢) أبيض مشربا بحمرة، أدعج العينين، ذا مسربة (٣)، إذا مشى يتكفأ تكفيا، كأنما ينحط من صبب (٤)، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين، أجود الناس صدرا، وأشجعهم قلبا، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته لم أر قبله مثله ولا بعده، لا يسرد الحديث سردا (٥)، يتكلم بكلام فصل، يفهمه من سمعه، وكان كما يقول أنس " أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس " وقالت عنه عائشة " ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين، إلا أخذ بأيسرهما، ما لم يكن إثما، كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه من شئ قط، إلا أن تنتهك حرمة الله ".
فضائل الرسول:
حدث أنس، رضي الله عنه، فقال: " لما كان اليوم الذي دخل فيه النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، أضاء منها كل شئ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم فيه منها كل شئ، وما نفضنا أيدينا من دفنه، حتى أنكرنا قلوبنا (٦) " هكذا كانت الإضاءة لكل شئ حتى للقلوب، عند دخول النبي الكريم المدينة، وهكذا كانت الظلمة، وللناس إنكارهم لقلوبهم يوم فارقهم إلى الرفيق الأعلى،

---

(١) أي معتدل القامة.
(٢) أي مستطيلا من غير ارتفاع.
(٣) أي ذا شعر نابت على الصدر، ونازل إلى آخر البطن.
(٤) التكفؤ: التمايل في المشي إلى قدام، والصبب الانحدار من موضع عال،
(٥) أي لا يسرع في النطق بالحديث. وقالت عائشة إنه كان يحدث حديثا لو عده عاد لأحصاه.
(٦) راجع ص ٧١ من تيسير الوصول للشيباني ج ٣.

ولا غرو، فالنبي صلى الله عليه وسلم أحب إلى المسلم من كل شي، حتى نفسه، لأنه هداه لربه.

وقد حدثنا النبي الكريم، عن نفسه، فقال " أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ولواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر " وقال " إذا كان يوم القيامة، كنت أنا إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم، غير فخر "، وقال " وآتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد! فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك "، وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا " وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم (١)، فلا يأمرني إلا بخير "

هذا النبي الكريم، أتى ليدعو الناس إلى الله وجنته، وهو في دعوته لا ينسى أمته، ولم يدنس نبينا الكريم قبل البعث، بل كان المثل الأعلى للخلق وكان يتعبد في غار حراء، قال الله تعالى " ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى "، أي ضالا عن تفاصيل الإيمان والإسلام، فهداك الله عز وجل، وكذلك قوله تعالى " ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان "، يريد ما كنت تدري ما القرآن ولا شرائع الإيمان، ولم يرد الإيمان الذي هو الإقرار (٢)

وقد حسن الله خلقه وخلقه، وجنبه منكرات الأخلاق، فأنزل عليه القرآن وأدبه به، فكان خلقه القرآن بمثل قوله تعالى " خذ العفو وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين " وقوله " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي " وقوله، واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور " وقوله " فاعف عنهم واصفح " إن الله يحب المحسنين "، وقوله " وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم "، وقوله " وادفع

---

(١) أي انقاد وأذعن وصار طوعا، فلا يكاد يعرض له بما لا يريده.

(٢) راجع ص ١٤٣ - ١٤٩ من مختلف الحديث لابن قتيبة.

بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة، كأنه ولي حميم " وقوله " والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين "، وقوله " اجتنبوا كثيرا من الظن، إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ".

ويقول الغزالي إن أمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر، وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب، ثم يشرق ذلك النور على كافة الخلق فإنه أدب بالقرآن، وأدب الخلق به، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق، ثم لما أكمل الله تعالى خلقه، أثنى عليه، فقال تعالى " إنك لعلى خلق عظيم ".

فكان صلى الله عليه وسلم، أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس واعف الناس، وأسخى الناس، وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم معهن، وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد، ويجيب دعوة العبد والحر، ويقبل الهدية ويكافئ عليها ويأكلها، ولا يأكل الصدقة، ولا يستكبر على إجابة الأمة والمسكين، يغضب لربه، ولا يغضب لنفسه وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه، وكان يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد، ولا يتورع عن مطعم حلال، وإن وجد تمرا دون خبزا كله وإن وجد شواء أكله، وإن وجد خبز بر أو شعير أكله، وإن وجد حلوا أو عسلا أكله، وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به، وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله، لا يأكل متكئا ولا على خوان، ولم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية، حتى لقي الله تعالى، إيثارا على نفسه، لا فقرا ولا بخلا، يجيب الوليمة، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس، أشد الناس تواضعا، وأسكنهم في غير كبر، وأبلغهم في غير تطويل، وأحسنهم بشرا لا يهوله شئ من أمور الدنيا، ويلبس ما وجد من المباح، يردف خلفه عبده أو غيره، يركب ما أمكنه، مرة فرسا، ومرة بعيرا، ومرة بغلة شهباء، ومرة حمارا ومرة يمشي راجلا، يحب الطيب، ويجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم، يصل ذوي

رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم، لا يحفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه، يمزح ولا يقول إلا حقا، لا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى، أو فيما لا بد له منه من صلاح نفسه، لا يحتقر مسكينا لفقره، ولا يهاب ملكا لملكه، يدعو هذا وهذا إلى الله، دعاء مستويا (١).

وبالجملة لا توجد صفة كريمة إلا كان لنبينا الكريم الذروة فيها، فكان شديد الحياء، وكان أبر الناس بأصدقائه وكان شديد التواضع، وكان يعفو عن كثير ويتحمل الأذى في سبيل نصر الله، وكان كثير السخاء، والكرم، وكان يداعب ولا يقول إلا حقا، وكان صلبا في التمسك بالحق، وكان أكثر الناس حرصا على الأدب في حق ربه، وكان وفيا للناس وللأماكن والجهات، بارا بأولاده وأهله، وكان صلى الله عليه وسلم غني الروح فقيرا من المادة، فقد حدثنا أنس رضي الله عنه، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد أخفت في الله ما لم يخف أحد، وأوذيت في الله ما لم يؤذ أحد، ولقد أتى علي ثلاثون يوما ما بين يوم وليلة، وما لي ولبلال من الطعام، إلا شئ يواريه إبط بلال "!

وحدثنا أبو طلحة رضي الله عنهما، فقال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع، ورفعنا ثيابنا عن حجر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن حجرين (٢) "

الله أكبر! هذا رسول الله، لو شاء لأوتي خزائن الأرض، ولكنه آثر ما عند الله في الأخرى، وجاهد في سبيل ربه ولم يعبأ بالحياة المادية الصغيرة، لأن الروح السامية النبيلة همها غذاء الروح، من مناجاة ربها، والجهاد في سبيله والعمل للقرب منه، طارحة ما في الحياة الدنيا من بهرج، لأنها وقد عرفت الحق لم تجد أكبر من هذه المعرفة لذة، فآثرت ما يوصلها إلى مرقاة القرب من الحق لأن ما عند الله باق، وما في الدنيا ظل زائل، لذا لم يكن النبي الكريم، ليهتم

---

(١) راجع ص ٢٤٩ و ٢٥٠ من إحياء علوم الدين للغزالي ج ٢.
(٢) راجع ص ١٧٤ ج ١ من تيسير الوصول للشيباني.

بالغذاء المادي: إذ أنه كان يرى أن حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، وحتى أنه إذا لم يجد هذه اللقيمات، فإنه كان يستحي - وهو الذي أوتي المعرفة، وأنزل عليه الوحي، وكشف عنه في اليقظة والمنام ما أعد الله له - كان يستحي أن يطلب من ربه رزقا ماديا، وكان يرى الصبر في سبيل الله، هو الموصل إلى الله!

محمد رسول الله، باعث الدعوة للهدى ودين الحق، كان يقضي الأيام الكثيرة والليالي الطويلة من غير لقيمات صغيرة، فكان يقضي أيامه ولياليه طاويا، يربط الحجر على بطنه، ليعينه ذلك على تحمل ألم الجوع!

وكان له في لذته الروحية، من مناجاة ربه، والتهجد في ليله، والعمل لنشر الدعوة الإسلامية لهداية الناس، أكبر صارف له عن التفكير في ماديات نفسه!

لقد نعم محمد رسول الله وحبيبه، بمعرفة الله، فكان له من المعرفة خير هاد ولقد نعم بتوفيق الله ونصره، فكانت روحه صلى الله عليه وسلم، أسمى من أن تعنى بشؤون جسمه، ومن أن تفكر في غذائه إلا بما يقيم الصلب!

لقد كان نبينا الكريم مراقبا ربه، فكان يأكل كل ما يقدم له، شاكرا ربه على ما أنعم، انظر إلى ما رواه يوسف عبد الله بن سلام رضي الله عنهما، إذ قال " أخذ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كسرة من شعير، فوضع عليا تمرة، وقال هذه إدام هذه (١) "، فإنك تجد في هذه الرواية، قناعة الزاهدين وانظر إلى ما رواه جابر رضي الله عنه، إذ قال " إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سأل أهله الأدم، فقالوا ما عندنا إلا الخل! فدعى به، فجعل يأكل ويقول " نعم الإدام الخل! نعم الإدام الخل (٢) " فإنك تجد في هذه الرواية، شكر الصابرين!

وكان نبينا الكريم يمدح الزهد ويحث على حب الفقراء، وكان يرى الزهد في ألا يقبل الإنسان على الدنيا أو يعرض عنها، بل بأن يرضى بما يعطيه الله

----

(١) راجع ص ٣٥٩ ج ٢ من تيسير الوصول للشيباني.

(٢) راجع ص ٣٤٨ ج ٢ من تيسير الوصول للشيباني.

من خير أو يقضى عليه به من شر، لأنه مسافر يكفيه منها زاد الراكب من الكفاف، وأن الورع لا يعدل بشئ، وأن حقيقته في ترك ما لا بأس به، حذرا مما به بأس، وأن من الإيمان التواضع في اللباس، وترك التبجح به!!

وقد كان فقر النبي الكريم، من إيثاره على نفسه بأمواله، إذ كان يفرقها على المستحقين من أصحابه والمساكين، وفي النوائب التي تنوب المسلمين، ولا يرد سائلا إذا وجد مالا كثيرا، ولا يضع درهما فوق درهم، فكان سيد الأغنياء الشاكرين، وكان سيد الفقراء الصابرين.

ونخرج من هذا، إلى أن النبي الكريم كان فقيرا، ولم يعبه هذا الفقر، لأنه لم يعبأ بالدنيا وزينتها، وكان همه الروح والسمو بها، والنفس وتزكيتها، ولما آتاه الله المال، كان ينفقه في سبيل الله ويتصدق به، إلى حد أن كان يتصدق بالمال وينام طاويا، وما ذاك إلا رغبة فيما عند الله وتقديم القرض الحسن لله الذي وعد في القرآن الكريم بأن يضاعفه، هذا على زهد في هذا الدنيا الفانية وانصراف عن زخرفها، خشية أن يشغله المال وجمعه وكنزه عن الذكر الحق لربه والدعوة إليه والجهاد في سبيله!

" وقد كان في رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، كاف لك في الأسود، ودليل ذلك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم عن رضاعها، وزوى عن زخارفها، وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول " رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير "، والله ما سأله إلا خبزا يأكله، لأنه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه، لهزاله وتشذب لحمه، وإن شئت ثلثت بداود صلى الله عليه وسلم، صاحب المزامير وقارئ أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه أيكم يكفيني بيعها، ويأكل قرص الشعير من ثمنها، وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم عليه السلام، فلقد كان يتوسد الحجر ويلبس الخشن، وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها

وفاكهته وريحانه، ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يتلفته ولا طمع يذله، دابته رجلاه وخادمه يداه، فتأس بنبيك الأطهر صلى الله عليه وآله، فإن فيه أسوة لمن تأسى وعزاء لمن تعزى، وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه والمقتض لأثره، قضم الدنيا قضما ولم يعرها طرفا، أهضم أهل الدنيا كشحا وأخمصهم من الدنيا بطنا، عرضت عليه الدنيا، فأبى أن يقبلها علم أن الله سبحانه أبغض شيئا فأبغضه، وحقر شيئا فحقره وصغر شيئا فصغره، ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض الله ورسوله، وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله، لكفى به شقاقا لله ومحادة عن أمر الله، ولقد كان صلى الله عليه وآله يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه، ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة لإحدى أزواجه غيبيه عني، فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشا ولا يعتقدها قرارا ولا يرجوا فيها مقاما، فأخرجها من النفس وأشخصها عن القلب وغيبها عن البصر، وكذا من أبغض شيئا أبغض أن ينظر إليه وأن يذكر عنده، ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله، ما يدلك على مساوي الدنيا وعيوبها إذ جاع فيها مع خاصته وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته فلينظر ناظر بعقله، أكرم الله محمدا بذلك أم أهانه، فإن قال أهابه فقد كذب وأتى بالإفك العظيم، وإن قال أكرمه، فليعلم أن الله أهان غيره حيث بسط الدنيا له وزواها عن أقرب الناس منه، فتأس متأس بنبيه، واقتص أثره وولج مولجه، وإلا فلا يأمن الهلكة، فإن الله جعل محمدا صلى الله عليه وسلم علما للساعة ومبشرا بالجنة ومنذرا بالعقوبة، وخرج من الدنيا خميصا، وورد الآخرة سليما، لم يضع حجرا على حجر، حتى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربه، فما أعظم منة الله عندنا، حين أنعم علينا به سلفا نتبعه، وقائدا نطأ عقبه (١) "

---

(١) راجع ص ٣١٠ - ٣١٥ من نهج البلاغة ج ١.

وقفت من حديثنا على قطر من بحر، من فيض الأخلاق المحمدية والسيرة الكريمة الراضية المرضية، فإذا سألت عن الاقتصاد في الأعمال وجدت الرسول الكريم على رأس المقتصدين، مع أنه على رأس المتقين، على أنه كثير الإعتكاف، وكان أبر الناس بأهله وولده والمسلمين، شديد الورع، يأمر في الغزو بتقوى الله، ويأمر بحسن معاملة الخدم وإحسان معاملتهم، وكان شديد الرفق بالحيوان، شديدا في تحري ما يأكله هو أو يأكله أهله، يحب الاجتماع في السفر وإعانة الرفيق فيه، وكان ينهى عن طرق النساء ليلا بعده، وكان شديد الحث على الصدقة وشديد القيام بها، وكان أشد الناس بغضا للمدح، وتواضعا لله، ويكره أن يجابه أحدا، ويكره الخبث حتى لفظه!

هذه أمثلة من سيرة محمد ونفحة من فيض كريم خلقه، سيرة هي النبراس والمثل الأعلى لمن عاش للحق ومات في سبيل الحق، سيرة تدر على المسلمين التعاليم الإسلامية الكريمة التي يؤمنون بها فتسموا بأراوحهم وتسمو بنفوسهم وتقويهم! سيرة نبيلة جعلت محمدا ملء العيون والقلوب، وجعلته من عظيم خلقه أحب إلى المسلمين من أموالهم وأولادهم ونفوسهم! هذه سيرة محمد باذل روحه ونفسه لإسعاد البشر، " قل ما أسألكم عليه من أجر، إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا (١) "!

بدء الوحي:

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أول ما بدئ به رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، من الوحي، الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وحبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزل إلى أهله، يتزود لذلك، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ! فقال ما أنا بقارئ!

---

(١) راجع ص ٣٥ - ٦٥ و ١٢٧ - ١٤٢ و ١٥١ - ١٧٣ و ٤٩٣ - ٥٢٨ من وحي الأحاديث المحمدية ج ١ لمحمود علي قراعة.

قال: فأخذني فغطني (١) حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: إقرأ! فقلت لست بقارئ، فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال اقرأ!
فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد! ثم أرسلني فقال: " اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم " فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة: فقال زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر، وقال لقد خشيت على نفسي، قالت له خديجة كلا: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك تصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل (٢) وتكسب المعدوم (٣) وتقري الضيف،
ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ما يقول! قال يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة هذا الناموس (٤) الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا (٥) ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال صلى الله عليه وسلم، أو مخرجي هم؟! قال: نعم! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك، أنصرك نصرا مؤزرا (٦) ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي (٧) ".

---

(١) غطه إذا حطه بشدة.
(٢) الكل العيال والحوائج المهمة.
(٣) أي تنال كل معدوم أو وتوصله إلى كل ما هو معدوم عنده.
(٤) الناموس: صاحب سر الملك، الذي لا يحضر إلا بخير، وهو جبرئيل الموكل بالوحي والغيب.
(٥) جذعا: كناية عن الشباب، يتمنى أن لو كان شابا، عند ظهوره، ليعينه وينصره.
(٦) مؤكدا.
(٧) راجع ص ٣٢٢ من تيسير الوصول ج ٣ للشيباني.

الإسراء:
عن أنس رضي الله عنه، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حدثهم عن ليلة أسري به، فقال: بينا أنا في الحطيم (وربما قال في الحجر) مضطجع (زاد في رواية: بين النائم واليقظان)، أتاني آت فشق ما بين هذه إلى هذه - يعني ثغرة نحره إلى شعرته - قال:
فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيمانا، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار، أبيض يضع خطوه عند أقصى طرفه - فحملت عليه، فانطلق بي جبريل عليه السلام، حتى أتى بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح، فقيل من هذا؟ قال جبريل! قيل من معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم! قيل وقد أرسل إليه؟ قال نعم! قيل مرحبا به فنعم المجئ جاء
فلما خلصت، فإذا فيها آدم عليه السلام، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه
فسلمت عليه، فرد على السلام، وقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح
ثم صعد بي، حتى أتينا السماء الثانية، فاستفتح، فقيل من هذا؟ قال جبريل! قيل ومن معك؟ قال: محمد! قيل وقد أرسل إليه؟ قال نعم! قيل مرحبا به، ولنعم المجئ جاء، ففتح لنا، فلما خلصنا، فإذا أنا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة، قال هذا يحيى وعيسى عليهما السلام، فسلمت عليهما، فردا على السلام، ثم قالا: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح، فقيل من هذا؟ قال: جبريل! قيل: ومن معك؟ قال محمد! قيل: وقد أرسل إليه؟
قال: نعم! قيل مرحبا به، فلنعم المجئ جاء، ففتح لنا، فلما خلصنا، فإذا يوسف عليه السلام، قال هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد على ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الرابعة، فاستفتح فقيل من هذا؟ قال جبرئيل! قيل ومن معك! قال محمد! قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل مرحبا به فلنعم المجئ جاء، فلما خلصنا، فإذا إدريس عليه السلام، قال هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد على، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة

فاستفتح فقيل له من هذا! قال: جبريل! قيل: ومن معك؟ قال: محمد! قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحبا به، فلنعم المجئ جاء، فلما خلصنا، فإذا هارون عليه السلام، قال هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد على ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي إلى السماء السادسة، فاستفتح، فقيل من هذا؟ قال: جبرئيل! قيل، ومن معك؟ قال: محمد! قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحبا به فلنعم المجئ جاء، ففتح، فلما خلصنا، فإذا موسى عليه السلام، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد على ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما جاوزته بكى، فقيل ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاما بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح، فقيل من هذا؟ قال: جبريل! قيل: ومن معك؟ قال: محمد! قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم!
قيل: مرحبا به، فلنعم المجئ جاء، ففتح، فلما خلصت، فإذا إبراهيم عليه السلام، قال هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم رفعت إلى سدرة المنتهى (١)، فإذا نبقها مثل آذان الفيلة، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران قلت ما هذا،
قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، أما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن، فأخذت اللبن فقال هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك، قال ثم فرضت على الصلاة خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى عليه السلام، قال بم أمرت؟ فقلت بخمسين صلاة في اليوم والليلة، فقال إن أمتك لا تستطيع ذلك، وإني والله قد
جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت قلت وضع عني عشرا، فقال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك،

---

(١) سدرة المنتهى، كما يقول الشيباني، هي شجرة في أقصى الجنة، إليها ينتهي علم الأولين والآخرين. والسدر شجر معروف.

فرجعت، فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فلم أزل بين ربي وموسى، حتى أمرت بخمس صلوات، فرجعت إلى موسى عليه السلام، فقال بم أمرت؟ قلت بخمس صلوات، فقال إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قلت قد سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم، فلما جاوزت موسى عليه السلام، نادى مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي (١) ".

معجزاته:

ولقد أخبرنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن مغيبات يحدثنا التاريخ بحصولها، كالبشرى بفتح مصر بقوله " ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا، فإن لهم ذمة ورحما "، وكالبشرى بفتح كنوز كسرى بن هرمز، وكالبشرى بأن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينا، وكاطلاعه بنور النبوة على إثم مكلمه، فعن أبي سهم رضي الله عنه، قال " مرت بي امرأة، فأخذت بكشحها، ثم أطلقتها، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم، في المدينة يبايع الناس، فأتيته، فقال: ألست بصاحب الجذبة بالأمس! فقلت: بلى! وإني لا أعود يا رسول الله... فبايعني "!

وكتكليم الجمادات له، وانقيادها إليه، من ذلك ما رواه علي في قوله " كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا من بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل، إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله "، وما رواه أنس في قوله " خطب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى لزق جذع، فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه، حن الجذع حنين الناقة، فنزل صلى الله عليه وسلم فمسه، فسكن "! وكجعل بركته تزيد الطعام والشراب للمسلمين في الأوقات الحرجة، فعن جابر رضي الله عنه، قال " عطش الناس يوم الحديبية، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين يديه ركوة، وقالوا ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشرب

---

(١) زاد في رواية: هن خمس، وهن بخمسين، لا يبدل القول لدي. راجع ص ٣٤٤ - ٣٤٦ من تيسير الوصول ج ٣ للشيباني.

إلا ما في ركوتك، فوضع صلى الله عليه وسلم، يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فتوضأ وشربنا (١) "، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال " كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في مسير، فنفدت أزواد القوم، حتى هموا بنحر بعض حمائلهم، فقال عمر رضي الله عنه، يا رسول الله! لو جمعت ما بقي من أزواد القوم، فدعوت الله عليها، ففعل، فجاءه ذو البر ببره وذو التمر بتمره وذو النواة بنواته – قيل ما كانوا يصنعون بالنوى؟ قال كانوا يمصونه ويشربون عليه الماء – فدعا عليها حتى ملأ القوم مزاودهم، ثم قال عند ذلك " أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة "!

ومن ذلك إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم، وكف أذى الكفار عنه، فقد دعا على بعض الكفار وسماهم، فصرعوا يوم بدر وسحبوا إلى القليب قليب بدر، ومن ذلك عزم أبي جهل على وطء رقبة الرسول وتعفير وجهه في التراب وهو يصلي، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأ على رقبته، فما فجئهم منه، إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له مالك؟ قال إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة! فقال النبي صلى الله عليه وسلم " لو دنا لاختطفته الملائكة عضوا عضوا "!

ومن ذلك، أنه صلى الله عليه وسلم، كان يسأل عن الشئ لا يعرفه، فيلهمه الله سبحانه وتعالى الجواب، ومن ذلك انشقاق القمر، والقوم مع النبي، في منى فلقتين فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه، ومن ذلك قوله " إن عفريتا من الجن تفلت علي البارحة، ليقطع علي صلاتي، فأمكنني الله تعالى منه، فذعته (٢)، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان " رب هب لي ملكا، لا ينبغي لأحد من بعدي " فرده الله خاسئا "!

---

(١) قيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.
(٢) الذعت: أشد الخنق.

ومن ذلك، أنه عليه الصلاة والسلام، أوتي في المنام علم ما سيكون، فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ فيقص عليه ما شاء الله أن يقص وأنه قال لنا ذات غداة: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ فقالوا ما منا أحد رأى شيئا! فقال: لكني أتاني الليلة آتيان، وإنما ابتعثاني فقالا لي انطلق! فانطلقت فأتينا على رجل مضطجع، فإذا آخر قائم عليه بصخرة، فإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه، فيبلغ رأسه فيتدهده الحجر هاهنا، فيتبع الحجر، فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل به مثل ما فعل بالمرة الأولى! قال: قلت لهما: سبحان الله! ما هذا؟ قالا لي انطلق! انطلق!... فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، فإذا هو يأتي أحد شقي وجهه، فيشر شر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، ثم يتحول الجانب الآخر، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب، حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى، قلت سبحان الله! ما هذا؟ قالا... انطلق!.. انطلق!.. فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، فإذا فيه لغط وأصوات، فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم اللهب ضوضأوا (١)، قلت: ما هؤلاء؟ قالا: انطلق!.. انطلق!.. فانطلقنا... فأتينا على نهر أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح، وإذا على شط النهر رجل عنده حجازة كبيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما سبح، ثم يأتي ذلك الرجل الذي عنده الحجارة، فيفغر فاه، فيلقمه حجرا، فينطلق فيسبح ثم يرجع إليه، كلما رجع إليه فغر فاه، فألقمه حجرا، قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق!... انطلق!... فانطلقنا... فأتينا على رجل كريه المرآة كأكره ما أنت راء، فإذا عنده نار يحشها (٢)، ويسعى حولها، قلت: ما هذا؟ قالا، انطلق!... انطلق!...

----

(١) الضوضاء: أصوات الناس وجلبتهم.

(٢) يوقدها.

فانطلقنا: فأتينا على روضة معتمة (١)، فيها من كل نور (٢) الربيع، وإذا بين ظهري تلك الروضة، رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء، وإذا حوله من أكثر ولدان رأيتهم، قلت: ما هؤلاء؟ قالا: انطلق!... انطلق!...

فانطلقنا.. فأتينا على دوحة (٣) عظيمة، لم أر دوحة قط أعظم منها ولا أحسن، فقالا: إرق فيها! فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب وفضة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا، ففتح لنا، فدخلنا، فتلقانا رجال، شطر من خلفهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء، فقالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، وإذا نهر معترض، كأن ماءه المحض (٤) في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا وقد ذهب أسوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، فقالا: هذه جنة عدن وهذاك منزلك، فسمى بصرى صعدا، فإذا قصر مثل الربابة (٥) البيضاء، فقلت: فذراني فأدخله! قالا: أما الآن فلا! وأنت داخله! فقلت: فإني رأيت منذ الليلة عجبا! فما هذا الذي رأيت؟! قالا: إنا سنخبرك! أما الرجل الأول الذي رأيته يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة! وأما الرجل الذي يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يبدو من بيته، فيكذب الكذب تبلغ الآفاق! وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني! وأما الرجل الكريه المرآة الذي عنده النار يحشها ويسعى حولها، فإنه مالك خازن النار! وأما الرجل الطويل الذي في الروضة، فإنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام! وأما الولدان الذين حوله، فكل مولود مات على الفطرة! - فقال رجل: يا رسول الله! وأولاد المشركين؟ قال صلى الله عليه وسلم: وأولاد المشركين! - وأما القوم الذين كانوا، شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح، فإنهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا! تجاوز الله عنهم (٦) "

ولقد حدثنا الإمام علي بن أبي طالب عن معجزة، رآها للنبي، فقال ".. لقد

----

(١) طويلة النبات.

(٢) بفتح، النور: الزهر.

(٣) شجرة.

(٤) المحض من كل شئ: الخالص منه، والمراد به هنا: اللبن الخالص.

(٥) الشجرة.

(٦) راجع ص ١٩٦ - ١٩٨ من تيسير الوصول ج ١ للشيباني.

كنث معه صلى الله عليه وآله، لما أتاه الملأ من قريش، فقالوا له يا محمد! إنك قد ادعيت عظيما، لم يدعه آباؤك ولا أحد من بيتك، ونحن نسألك أمرا إن أجبتنا إليه وأريتناه علمنا أنك نبي ورسول، وإن لم تفعل، علمنا أنك ساحر كذاب! فقال صلى الله عليه وآله " وما تسألون؟ " قالوا تدعوا لنا هذه الشجرة، حتى تنقلع بعروقها، وتقف بين يديك! فقال صلى الله عليه وآله " إن الله على كل شئ قدير، فإن فعل لكم ذلك! أتؤمنون وتشهدون بالحق "؟ قالوا نعم، قال " فإني سأريكم ما تطلبون، وإني لأعلم أنكم لا تفيئون (١) إلى خير، وإن فيكم من يطرح في القليب (٢) ومن يحزب الأحزاب (٣) "، ثم قال صلى الله عليه وآله " يا أيتها الشجرة، إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر، فتعلمين أني رسول الله، فانقلعي بعروقك، حتى تقفي بين يدي، بإذن الله "! والذي بعثه بالحق، لانقلعت بعروقها، وجاءت ولها دوي شديد وقصف كقصف أجنحة الطير، حتى وقفت بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وآله مرفرفة، وألقت بغضها الأعلى على رسول الله صلى الله عليه وآله، وببعض أغصانها على منكبي، وكنت عن يمينه، صلى الله عليه وآله، فلما نظر القوم إلى ذلك، قالوا علوا واستكبارا " فمرها، فليأتك نصفها، ويبقى نصفها "! فأمرها بذلك، فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشده دويا، فكادت تلتف برسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا كفرا وعتوا " فمر هذا النصف، فليرجع الله نصفه كما كان "! فأمره صلى الله عليه وآله، فقلت أنا " لا إله إلا الله، فإني أول مؤمن بك يا رسول الله، وأول من أقر بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى، تصديقا بنبوتك وإجلالا لكلمتك "، فقال القوم كلهم " بل ساحر كذاب، عجيب السحر، خفيف فيه، وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا (يعنوني) (٤) ".

---

(١) لا ترجعون.
(٢) القليب، كأمير: البئر، والمراد منه قليب بدر، طرح فيه نيف وعشرون من أكابر قريش.
(٣) والأحزاب متفرقة من القبائل اجتمعوا على ضربه صلى الله عليه وسلم في وقعة الخندق.
(٤) راجع ص ٤١٧ - ٤١٩ من نهج البلاغة ج ١.

دلائل نبوته:
أصول هذه الدلائل، هي القرآن الكريم، ثم بشارات السابقين من الأنبياء والرسل به – وقد رأيت بشارة المسيح به في إنجيل برنابا – ثم سيرته الكاملة ثم معجزاته المحسوسة، وقد جاء في القرآن الكريم إن أهل الكتاب يجدون النبي صلى الله عليه وسلم، في التوراة والإنجيل، قال الله تعالى " والذين يتبعون الرسول الأمي، الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر (١) "!
ومن البشائر الباقية في التوراة والإنجيل إلى هذا العهد، ما جاء في سفر التثنية من التوراة " أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به "، ويقول أستاذنا المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: إن النبي المماثل لموسى عليه السلام في الرسالة العظيمة والشريعة المستأنفة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإخوة بني إسرائيل هم العرب، لأنهما يجتمعان مع إبراهيم عليه السلام، ولو كان النبي الموعود به من بني إسرائيل، لقال " من أنفسهم "، وقوله " وأجعل كلامي في فمه " يوافق حال النبي صلى الله عليه وسلم من الأمية، وعدم تعاطي الكتابة (٢) ".
وذكر أستاذنا المرحوم محمد لطفي جمعة، أنه جاء في لوقا، أنه ظهر في الليلة التي ولد فيها المسيح عليه السلام، جمهور من الجنود السماوية للرعاة الذين كانوا في البرية يترنمون بهذا النشيد " المجد لله في الأعالي! وعلى الأرض إسلام! وللناس أحمد! "، ويقول الأب عبد الواحد داود الأشوري العراقي، مطران

---

(١) من الأمر بالمعروف، أنه يدخل الناس في دين الله أفواجا، وينشر شريعته المشتملة على الظاهر والباطن والعلم والعمل وسياسة الدين، دنيا وأخرى، فهي ليست ظاهرة فقط كشريعة موسى، ولا باطنة فقط كشريعة عيسى. راجع ص ٤٥ – ٥٨ من المأثور عن الإسراء والمعراج، لأستاذنا المرحوم الشيخ محمد بخيت.
(٢) راجع ص ١٨ – ٢١ من محمد رسول الله وخاتم النبيين، لأستاذنا المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين.

الموصل في عهد السلطان عبد الحميد، في ص ٣٣ الباب الثاني، إن هذا هو الصحيح لا الترجمة العربية للآية " المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة (١) "!

ويقول المرحوم الشريف الحسيني المغربي، في تفسير قول الله تعالى " قل بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا، هو خير مما يجمعون "، إن فضل الله ورحمته، هو محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مستندا بذلك على قوله تعالى " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين "، أي من جن وإنس وشجر وحيوان، فما من شئ إلا وهو مستمد من نوره صلى الله عليه وسلم، وله إليه وجهة، وقال تعالى " هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين "، إلى قوله " والله ذو الفضل العظيم "، وكذلك الأنبياء، أخذ الله تعالى منهم ميثاقهم أن يؤمنوا به وينصروه كما قال جل وعلا " وإذ أخذ الله ميثاق النبيين، لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم، لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا، وأنا معكم من الشاهدين "

فامتثلوا أمر ربهم ونصروه، بأن بشر كل نبي قومه به صلى الله عليه وسلم، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام، كما حكى عنه الله تعالى " وإذ قال عيسى بن مريم، يا بني إسرائيل، إني رسول الله إليكم، مصدقا لما بين يدي من التوراة، ومبشرا برسول، يأتي من بعدي، اسمه أحمد "، وقال تعالى " محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا، يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل، كزرع أخرج شطأه، فآزره، فاستغلظ، فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما "، فتعريب الأنبياء قومهم به صلى الله عليه وسلم، في التوراة

---

(١) راجع ص ٥٠٥ – ٥٠٧ من " بطل الأنبياء أبو القاسم " لأستاذنا المرحوم محمد لطفي جمعة.

والإنجيل، هو عين نصرهم له، صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين (١) "!

بيعة النبي:

ولقد كان نبينا الكريم يطلب من الناس، أن يبايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئا، وعلى أن يستقيموا، فعن عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس، فقال " ألا تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق "، وفي أخرى " ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم، فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا، فستره الله عليه، فأمره إلى الله تعالى، إن شاء عفى عنه، وإن شاء عذبه " - فبايعناه على ذلك (٢)

الهجرة:

وقعت زمن النبي الكريم، هجرتان: حثه المسلمين على الهجرة إلى الحبشة، وهجرته معهم هو إلى المدينة، وفيهما يبين لنا نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم قدر النية والإخلاص، فعن عمر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه "! ولقد كانت هجرة النبي لربه، فكان فيها مخلصا، فهيأ الله له إخلاصه وإخلاص صديقه الصديق، وهيأ الله

راجع ص ٢٣١ - ٢٣٣ من العقد النفيس في نظم جواهر التدريس للمرحوم الشريف الحسيني المغربي.

(٢) وفي رواية: ومن أصاب من ذلك شيئا، فأخذ به في الدنيا، فهو كفارة له وطهور. راجع ص ١٩ و ٢٠ من تيسير الوصول للشيباني ج ٣ وراجع ص ٩ - ٣٤ و ٢٤٦ - ٢٤٨ و ٢٧٣ - ٢٨٤ و ٤٣٧ - ٤٩٢ من وحي الأحاديث المحدية ج ١ لمحمود علي قراعة.

له التوفيق في هجرته، فعن البراء بن عازب، رضي الله عنه، قال جاء أبو بكر رضي الله عنه إلى أبي في منزله، فاشترى منه رحلا، وقال لعازب: ابعث معي ابنك يحمله إلى منزلي! فقال أبي: احمله! فحملته، وخرج أبي معه ينتقد ثمنه فقال له أبي: يا أبا بكر! كيف صنعتما ليلة أسريت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: نعم! أسرينا ليلتنا حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد، حتى رفعت لنا صخرة طويلة، لها ظل لم تأت عليها الشمس بعد، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة، فسويت بيدي مكانا ينام فيه رسول صلى الله عليه وسلم في ظلها، ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت: نم يا رسول الله، وأنا أنفض لك ما حولك (١)، فنام، وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا، فقلت: لمن أنت يا غلام؟ قال: لرجل من أهل المدينة! فقلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم! قلت: أفتحلب لي؟ قال: نعم! فأخذ شاة، فقلت انفض الضرع من الشعر والتراب والقذى، ففعل، وحلب في قعب معه كثبة من لبن، ومعي إداوة ارتوى فيها، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو نائم، فكرهت أن أوقظه، فوقفت حتى استيقظ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت يا رسول الله اشرب، فشرب حتى رضيت ثم قال لي: ألم يأن للرحيل؟ فارتحلنا بعد ما زالت الشمس، وأتبعنا سراقة ابن مالك بن جعشم ونحن في جلد من الأرض (٢)، فقلت يا رسول الله أتينا! فقال: لا تحزن، إن الله معنا! فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فارتطمت (٣) يدا فرسه إلى بطنها، فقال إني علمت أنكما دعوتما على، فادعوا لي - فالله لكما - أن أرد عنكما الطلب فدعا صلى الله عليه وسلم له، فنجا، فرجع لا يلقى أحدا إلا قال: قد كفيتم ما هنا، ولا يلقى أحدا إلا رده ووفى لنا! وعن أبي بكر رضي الله عنه، قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا

---

(١) أي: أحرسك وأطوف، هل أرى طلبا.
(٢) الجلد: الأرض الغليظة الصلبة
(٣) نشبت في الأرض ولم تكد تتخلص.

فقلت يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا، فقال: يا أبا بكر! ما ظنك باثنين، الله ثالثهما؟! ".

والهجرة، وإن كان قد مضى عليها ١٣٧٨ عاما، ولكنها لا تنقطع ما بقي الجهاد، فعن عبد الله بن السعدي، رضي الله عنه، قال: وفدنا على النبي، صلى الله عليه وسلم، فقلت يا رسول! إني تركت قوما من خلفي، وهم يزعمون أن الهجرة قد انقطعت، فقال: لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار (١) "!

والهجرة هي مبدأ التوحيد والوحدة، فألف النبي بين الأوس والخزرج وآخى بين المهاجرين والأنصار، والرجوع بالعقيدة إلى مصدرها الصافي وبعد الهجرة بدأ القرآن ينزل بيانا للعبادات والمعاملات والنظم وأحوال الناس، بعد أن كان لا يذكر إلا قواعد الإيمان وبرهان التوحيد ومحاسن الأخلاق، فقرب فهم الشريعة الإسلامية للناس من وجهتيها الروحية والفقهية، فاعتنقها الناس بالقلوب، وهي الضاربة على أوتار القلوب، تصل إلى أعماقها بتيارات روحانياتها، وما بأسسها من صلة قويمة بحب الحق والخير والإصلاح، وإنا لننتظر اليوم الذي تصبح فيه مطبقة تطبيقا عالميا، ويعتنق الناس جميعا روحانياتها واجتماعياتها، البالغة مبلغا عظيما في الصعود بالأرواح والنفوس إلى مرقاة السمو الروحي والأخلاقي والاجتماعي (٢)!

الرسول في قضائه:

كان نبينا، صلى الله عليه وسلم، يقتضي بكتاب الله تعالى، لا يحيد عن لفظ النص ولا روحه، وكان شديدا في الحق، لا يسمح بالشفاعة في الحدود، ومع هذا فقد كان يحب درء الحدود عن المسلمين ما استطاعوا، إذ يفهمنا النبي الكريم إنما الشفاعة قبل أن يبلغ السلطان، فللانسان أن يتسامح في حق نفسه، ولغيره أن يشف عند المجني عليه، قبل إبلاغه أولي الأمر، ومع إصلاح ذات البين، على أنه يراعي الحديث الشريف القائل " من حالت شفاعته، دون حد من حدود

---

(١) راجع ص ٣٦٥ من تيسير الوصول ج ٣ للشيباني.
(٢) راجع ص ٤٢٠ - ٥٣٨ من وحي الأحاديث المحمدية ج ١ لمحمود علي قراعة.

الله تعالى، فقد ضاد الله عز وجل، ومن خاصم في باطل، وهو يعلم، لم يزل في سخط الله تعالى حتى ينزع، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه، أسكنه الله ردغة الخيال (١) حتى يخرج مما قال، ومن أعان على خصومة بظلم، فقد باء بغضب من الله تعالى "!

ولقد أراد نبينا الكريم، تعليم أمته كيف يكون القضاء، وكيف يتحرون فيه العدل، باتباع كتاب الله وسنة رسوله، وتطبيق المبادئ الكلية على الجزئيات القضائية، وترك للفقهاء مادة غنية خصبة، استطاعوا منها التأويل والتخريج،

وقد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض القضايا، وأراد أن يعرفنا أن القاضي إنما يقضي حسب ما يظهر له من الوقائع ومن البينات عليها، فمن كان من الخصمين أفطن وألحن بحجته وأقوم بها منه، وقضى له على حسبان أن ما قاله صحيح، فإنما القضاء له قطعة من النار، فليحملها أو ليذرها!.

وعلمنا الرسول الكريم، آداب القضاء في المساواة بين الخصمين، وأن يتحرى القاضي الحكم في الوقت الذي تصفو فيه نفسه من الغضب وما أشبه،

أما عن الدعاوى والبينات، فقد علمنا نبينا الكريم أن على المدعى أن يثبت دعواه وعلى المدعى عليه أن يحلف اليمين ببراءة ذمته من المدعى عليه به!

وبين لنا النبي الكريم صفات الشاهد العدل، فعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم " لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة، ولا زان ولا زانية، ولا ذي غمر على أخيه "، وللترمذي عن عائشة بعد قوله خائنة " ولا مجلود حدا، ولا مجرب شهادة، ولا القانع (مثل الوكيل والأجير) لأهل البيت، ولا ظنين في ولاء ولا قرابة " (٢)!

وسن نبينا الكريم سنة الحبس الاحتياطي، فعن بهز بن حكيم عن جده، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حبس رجلا فيه تهمة، ثم خلى سبيله " (٣).

---

(١) الردغة، بسكون الدال وتحريكها: الطين والوحل الكثير.
(٢) راجع ص ١٨٥ ج ٣ من تيسير الوصول للشيباني.
(٣) راجع ص ١٨٦ ج ٣ من تيسير الوصول للشيباني.

وقد حذر النبي الكريم عن الجور في القضاء، حتى أنه قال إن القاضي مذبوح بغير سكين، وإن من عرف الحكم وجار في الحكم، فمآله النار، وكذلك من يقضي على جهل فأمه سقر، ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي في الحكم (١).

شخصيته في الغزوات:

غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ست عشرة غزوة، كان يلجأ فيها إلى ربه سبحانه وتعالى، يستمد منه المعونة، وكان نبينا متعمقا في استغاثته، طالبا نصر ربه لينصر الله بنصره دينه، وليعز المؤمنين! في هذا الوقت العصيب الذي شعر فيه النبي بقلة المسلمين وكثرة عدد المشركين، تغلبت عليه العقيدة الراسخة في أن الفئة القليلة المؤمنة، ستغلب بإذن الله الفئة الكثيرة المشركة، في هذا الوقت، أدركه رجل عرفت عنه الجرأة، طلب أن يصيب مع المسلمين، فشرط عليه النبي أن يؤمن فأبى، فأبى النبي قبوله إلا بعد أن دخل الإسلام في قلبه وفتح الله عليه نور الإيمان!

وكان صلى الله عليه وسلم، وهو في القتال، لا ينسى أو لا يريد أن ينسى المسلمون المعاني الإنسانية النبيلة، من حفظ للعهد أو عطف على النساء والأطفال! وكان النبي الكريم يأمر المجاهدين بأمره، وكانوا إذا اتبعوه نصرهم الله، وحدث أن أمر جيشا من الرماة ألا يبرحوا، فلما أبوا، خذلوا، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه حالهم إلا أن يشد عزائمهم ويأمرهم بعدم إجابة عدوهم، وأن يردوا عليه رد العزة والاستشعار بالحق!

وكان النبي الكريم، يشترك في القتال بنفسه، وكان يكره من المجاهدين في الحرب أن تنفعل نفوسهم بغير العواطف المتصلة بها!

وكان الرسول الكريم، لا يخذل من ينصره مهما قيل فيه، ومهما كانت

----

(١) راجع ص ١٧٢ - ١٧٨ و ٢٤٩ - ٢٧٢ من وحي الأحاديث المحمدية ج ١ لمحمود علي قراعة.

النتائج، وكان يأبى صلى الله عليه وسلم على المجاهدين مجاهدة قوادهم وأمرائهم، وكان النبي الكريم يحب في أوامره، أن تكون صريحة، لأنه جاء بالحق، والحق أبلج، ولم يقاتل نبينا إلا في سبيل قول " لا إله إلا الله " ولذا غضب لما أنبأه أحدهم بقتل أعرابي قالها، وكان نبينا الكريم يأبى أن يطاع الأمراء - حتى في الحرب - إلا في طاعة الله!

وقبل نبينا الكريم إسلام مشترط إعفاءه من الجهاد والصدقة، لعلمه أن من يدخل الإسلام، ويرى ما أعده الله للمجاهد والمتصدق من خير عميم دائم، ومن جنات عرضها السماوات والأرض، لا بد سيصدق ويجاهد.

وكان أول عمل عمله الرسول الكريم بعد نصره، يوم الفتح، تكسير الأصنام (١)!

حبه للجمال:

لا ريب في أن كل من عرف الحق ودعا للحق، كان عمله كله جميلا، ولذا كان نبينا الكريم، وهو المثل الأعلى للخلق الكريم والخلق الجميل، مثلا أعلى في حب كل شئ حسن وطيب وجميل، إذ آتاه الله كل جمال حسي ومعنى، وكانت حياته صلى الله عليه وسلم كلها دعوة للحق، وكمالا في حب الجمال والخير، ولسنا في حاجة إلى ضرب أمثال لحبه للحق والخير، لأنه إنما أرسله الله للدعوة للحق، وكان معلم الناس الخير، ولكنا نضرب بعض الأمثال الدالة على حب نبينا الكريم للجمال الحسى، بعد أن أوتي كل معاني الجمال المعنوي، فمن ذلك أنه كان يحب من الأسماء ما كان جميلا دالا على معنى جميل وقال " إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم " (٢)، وعن عائشة رضي الله عنها، قالت " كانت رسول الله صلى الله عليه وسلم يغير الاسم القبيح "، وكان نبينا الكريم يحب جمال البيان، ويستحسن الخضاب

---

(١) راجع ص ٦٥ - ٨٠ من وحي الأحاديث المحمدية ج ١ لمحمود علي قراعة.
(٢) راجع ص ٣٧ من تيسير الوصول ج ٣ للشيباني.

والزينة لكل من الرجال والنساء، ولكنه كان يكره أن يبالغ الرجال فيها، لأن المغالاة فيها تخرج عن أن تكون زينة مقبولة مستحسنة، إلى أن تكون تخنثا مكروها، أو خروجا من المرأة عن حد الأدب مع الغير، وكان يستحسن الترجيل (١)، وأمر صلى الله عليه وسلم بحلق الشعر، ولكنه نهى عن القزع وهو إذا حلق رأس الصبي، ترك جانبا رأسه وناصيته، ونهى أن تحلق المرأة رأسها، وقال " لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة " (٢)، وكان يحب الطيب والنظافة والزينة، وكان يحب للنساء بساطة التجميل، ويذم جر الثوب خيلاء، لما فيه من معنى ذميم، ونهي عن اللبس الذي يتعرض فيه المرء للعرى، ولنفس المعنى نهى النساء عن لبس الثياب الرقاق، ولعن الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل، وكان يكره الثوب الذي تشم منه ريح العرق، ويتجنب أكل ماله رائحة خبيثة كالبصل والثوم، وكان يقول " من أكل ثوما أو بصلا، فليعتزلنا، أو ليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته "، وكان عليه الصلاة والسلام يحب الجمال حتى في هيئة النوم، فنهى عن الاضطجاع على البطن أو وضع إحدى الرجلين على الأخرى في النوم، خوف انكشاف العورة، وكان يحب الجمال حتى في قضاء الحاجة، فنهى عن التبول قائما إلا لعذر من مرض وعن كشف العورة عند الغائط أو البول أمام الناس بل البعد عن الأنظار عند القيام بهما، ثم التنظيف بالماء والأحجار بعدهما، مع الاستعاذة من الخبث، وحمد الله على إبعاد الأذى وإجلال اسم الله أن يذكر في هذه الحالة أو في تلك الأمكنة، وذكره بعدها كلمة غفرانك!

وكان من مظاهر حب نبينا الكريم للجمال، حبه للسواك، وكان يقول " السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب تعالى "، وكان يبتسم للشئ المثير للضحك ويمزح ويداعب، ولا يقول إلا حقا، وكان يسمح باللهو البرئ، إلا أنه كان

----

(١) تسريح الشعر.

(٢) الواصلة التي تصل الشعر بشعر النساء، والمستوصلة التي يعمل بها ذلك، والواشمة التي تجعل الخيلان في وجهها بكحل أو مداد، والمستوشمة المعمول بها ذلك.

يكره أن يلهو الإنسان بما فيه إيذاء الحيوان، أو فيما يجره إلى الإثم، فنهى عن اتخاذ شئ فيه الروح غرضا، وعن التمثيل بالحيوان أو قتله للعب أو قتل شئ من الدواب صبرا بنصبه للقتل أو حبسه على القتل، ونهى عن التحرش بين البهائم!

وكان يكره المزاج الثقيل، كأخذ عصا الغير أو إفزاعه!

وكان نبينا الكريم لكي يقرب فهم الأمور الشرعية للناس، يضرب لهم الأمثال ويحدثهم عما حصل في الغابر، ليتخذوا منها واعظا وزاجرا في الحاضر، ومتتبع الأحاديث النبوية الكريمة، يجد الكثير من هذه الأمثال التي تضرب على أوتار القلوب، فتوصل المعنى المقصود إلى قلوب المسلمين بطريق مباشر، يصل بالمعنى السامي إلى أن يكون مغناطيسا جاذبا لهذه القلوب، وباعثا روحانيا تميل إليه الأرواح وتعشقه النفوس!

فمثلا: حدثنا نبينا الكريم عن قصة جحود آدم عليه السلام ونسيانه، وأن ذلك كان سبب جحود ذريته ونسيانهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح، عطس فقال الحمد لله! فحمد الله تعالى بإذنه، فقال له ربه " يرحمك الله! يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس، فقل السلام عليكم "، فقالوا " عليك السلام ورحمة الله وبركاته "، ثم رجع إلى ربه، فقال: " إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم "، فقال الله تعالى ويداه مقبوضتان " اختر أيهما شئت "، قال " اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين (١) مباركة "، فبسطها، فإذا فيها

---

(١) ونرى في حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: يمين الله سحاء (أي دائمة الصب والعطاء) لا يغيضها شئ الليل والنهار. ويقول ابن قتيبة أي تصب عطاء ولا ينقصها ذلك، ويقول: إنما قوله " كلتا يدي ربي يمين "، أراد به معنى التمام والكمال، لأن كل شئ، فمياسره تنقص عن ميامنه في القوة والبطش والتمام. راجع ص ٢٦٥ من مختلف الحديث لابن قتيبة. وفي النهاية أن اليمين هنا كناية عن محل عطائه، ووصفها بالامتلاء لكثرة منافعها، فجعلها كالعين الثرة التي لا يغيضها الاستقاء ولا ينقصها الامتياح، وخص اليمين لأنها في الأكثر مظنة العطاء، على طريق المجاز والاتساع. راجع في النهاية كلمة سح في باب السين مع الحاء المهملة.

آدم وذريته، فقال أي رب ما هؤلاء؟ قال " هؤلاء ذريتك "، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، وإذا فيهم رجل من أضوئهم، فقال: يا رب من هذا؟ فقال " ابنك داود، وقد كتبت له عمرا أربعين سنة " قال " زد في عمره " قال " ذلك الذي كتبت له " قال: أي رب، فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة " قال " أنت وذاك "، ثم أسكن آدم الجنة ما شاء الله، ثم أهبط فيها، وكان آدم عليه السلام يعد لنفسه، فأتاه ملك الموت، فقال له " قد عجلت! أليس قد كتب لي ألف سنة؟ " قال " بلى! ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة "، فجحد، فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته، قال " فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود (١) "!

وحدثنا نبينا الكريم عن تجلى عاطفة الأمومة، عند ذكر سليمان عليه السلام فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كانت امرأتان ومعهما ابناهما، جاء الذئب، فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها " إنما ذهب بابنك "، فتحاكما إلى داود عليه السلام، فقضى به للكبرى، فخرجتا إلى سليمان عليه السلام، فأخبرتاه، فقال " إئتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى " لا تفعل ذلك يرحمك الله، هو ابنها " فقضى به للصغرى (٢) وهنا تبيان لقدر عاطفة الأم التي فضلت أن ترى ابنها حيا يربيه غيرها وينسب لغيرها!

وحدثنا نبينا الكريم عن القضاء والقدر والرضا به، وأن كل شئ سبقت به إرادة الله لا بد كائن، في قصة محاجة موسى وآدم عليهما السلام، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قال موسى يا رب أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة، فأراه الله أباه آدم عليه السلام، فقال: أنت أبونا آدم؟ فقال نعم! فقال، أنت الذي نفخ الله فيك من روحه وعلمك الأسماء كلها، وأمر الملائكة عليهم السلام فسجدوا لك؟ قال نعم! قال فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟! فقال آدم: ومن أنت؟ قال: أنا

---

(١) راجع ص ٣٢٠ ج ١ من تيسير الوصول للشيباني.
(٢) راجع ص ٦٧ ج ٣ من تيسير الوصول للشيباني.

موسى! قال: أنت الذي اصطفاك الله برسالاته؟ أنت نبي بني إسرائيل الذي كلمك الله من وراء الحجاب، ولم يجعل بينك وبينه رسولا من خلفه؟ قال: نعم! قال: فما وجدت أن ذلك كان في كتاب الله قبل أن أخلق؟! قال: بلى! قال: أفتلومني في شئ سبق من الله فيه القضاء قبلي؟! قال صلى الله عليه وسلم عند ذلك " فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى - عليهما السلام (١) ".

وحدثنا نبينا الكريم من حديث طويل عن أمر إبراهيم ابنه إسماعيل بترك زوجة جاحدة، ثم أمره بتثبيت أخرى شاكرة: " ماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم عليه السلام، فسأل امرأته عنه، فقالت " خرج يبتغي لنا "، وسألها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت " نحن بشر، نحن في ضيق وشدة "، قال فإذا جاء زوجك، فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بيته "، فلما جاء إسماعيل، كأنه أنسى شيئا (٢)، فقال هل جاءكم من أحد؟ قالت نعم! شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألنا عن عيشتنا فأخبرته أنا في جهد وشدة! قال: فهل أوصاك بشئ؟ قالت: نعم! أمرني أن اقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بيتك! فقال ذلك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك! وطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسأل عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا شيئا! قال: كيف حالكم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل، قال ما طعامكم؟ قالت اللحم! قال: ما شرابكم؟ قالت: الماء! قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء! - قال صلى الله عليه وسلم لم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم لدعا لهم فيه - قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بيته! فلما جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من أحد قالت: نعم! أتانا شيخ حسن الهيئة - وأثنت عليه - فسألني عنك، فأخبرته

---

(١) راجع ص ١٧٣ ج ٣ من تيسير الوصول للشيباني.

(٢) أي أبصر أثر أبيه وبركة قدومه.

أنا بخير، قال: فأوصاك بشئ؟ قالت: نعم! هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك! قال ذاك أبي وأنت العتبة، وأمرني أن أمسكك (١)... ".
وحدثنا نبينا الكريم عن قدر قوة الإيمان، فذكر لنا قصة أصحاب الأخدود، فعن صهيب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كان فيمن قبلكم ملك وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت فابعث لي غلاما أعلمه السحر، فكان يبعث إليه غلاما فيعلمه، وكان في طريقه راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فكان كلما أتى الساحر مر بالراهب، وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكى ذلك إلى الراهب، فقال إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر، فبينما هو على ذلك، إذ أتى على دابة عظيمة حبست للناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب! فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس! فرماها وقتلها، ومشى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال: يا بني أنت اليوم أفضل مني، وقد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت، فلا تدل علي! وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس وسائر الأدواء، فسمع به جليس للملك، وكان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، وقال " هي لك إن شفيتني "، فقال " إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله، فإن آمنت بالله، دعوت الله لك، فشفاك "، فآمن، فشفاه الله، فأتى الملك، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال: من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي! قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله! فأخذه فعذبه، حتى دل على الغلام، فجئ به، فقال له الملك: أي بني! قد بلغ من سحرك ما يبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل! فقال: إني لا أشفى أحدا،

---

(١) من حديث طويل، أخرجه البخاري، راجع ص ٢٠٣ - ٢٠٥ من تيسير الوصول ج ٣ للشيباني. هذا ولقد قرأت في (مجلة الثقافة السوفيتية): " مجلة الشرق " العدد الرابع السنة الثانية إبريل سنة ١٩٥٨ ص ٩٤ لمحررها الأخ الدكتور محمد مندور قصة اسمها بابان من قصص الأبخاز الشعبية فوجدتها مقتبسة من هذه القصة الدينية.

إنما يشفي الله! فأخذه، فلم يزل يعذبه، حتى دل على الراهب، فجئ بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضعه على مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جئ بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه، وقال اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به، فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت! فرجف بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله! فدفعه إلى نفر آخرين، وقال: اذهبوا به في قرقور (١) وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه! فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت! فانكفأت بهم السفينة - فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله! ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي، حتى تفعل ما آمرك به! قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد (٢) واحد، وتصلبني على جذع، وتأخذ سهما من كنانتي (٣) ثم تضع السهم في كبد القوس (٤)، ثم قل: بسم الله رب الغلام! ثم ارم، فإنك إذا فعلت ذلك، قتلتني! فجمع الناس، وفعل ما أمره به، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده على صدغه موضع السهم، فمات رحمه الله، فقال الناس: آمنا برب الغلام! ثلاثا، فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس برب الغلام! فأمر بالأخدود (٥) بأفواه السكك، فخدت وأضرم فيها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فألقوه فيها، فجاءت امرأة ومعها صبي، فتقاعست (٦) أن تقع فيها، فقال الغلام لها: يا أم اصبري! فإنك على حق (٧) ".

---

(١) بالضم سفينة صغيرة.
(٢) وجه الأرض.
(٣) جعبة النشاب.
(٤) وسطها.
(٥) الأخدود: شق في الأرض وجمعه أخاديد.
(٦) التقاعس: التأخر والمشي إلى الوراء.
(٧) راجع ص ٢٠٧ من تيسير الوصول للشيباني ج ٣.

وحدثنا نبينا الكريم عن صاحب جريج، وكيف دفعته كراهية الفجور إلى أن تكلم في المهد بإذن الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم عليهما السلام وصاحب جريج، وكان جريج رجلا عابد، فاتخذ صومعة، فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلي، فقالت: يا جريج! فقال: اللهم أمي وصلاتي، فقالت بعد ثالث يوم في ثالث مرة: اللهم لا تمته، حتى ينظر في وجوه الموسات (١) فتذاكر بنو إسرائيل جريجا وعبادته، وكانت امرأة بغي (٢) يتمثل بها، فقالت إن شئتم لأفتننه! فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعيا كان يأوي إلى صومعته، فأمكنته من نفسها، فوقع عليها فحملت، فلما ولدت، قالت: هو من جريج! فأتوه فأنزلوه من صومعته وهدموها وجعلوا يضربونه! فقال:
ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغي، فولدت منك! فقال: أين الصبي؟
فجاءوا به، فقال: دعوني، حتى أصلي! فصلى، فلما انصرف، أتى الصبي فطعن في بطنه، وقال: يا غلام! من أبوك؟ فقال: فلان الراعي! فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني صومعتك من ذهب! قال: لا! أعيدوها من لبن كما كانت! ففعلوا! وبينا صبي يرضع من أمه، مر رجل على دابة فارهة وشارة حسنة، فقالت المرأة: اللهم اجعل ابني مثل هذا! فترك الثدي وأقبل ينظر إليه، وقال: اللهم لا تجعلني مثله! ثم أقبل على ثديه، وجعل يرتضع - قال فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فيه يمصها - ومروا بجارية يضربونها ويقولون: زنيت! سرقت!
وهي تقول: حسبي الله، ونعم الوكيل! فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها!
فترك الرضاع، ونظر إليها وقال: اللهم اجعلني مثلها! فهنالك تراجعا الحديث، فقال: مر رجل حسن الهيئة، فقلت اللهم اجعل ابني مثله، فقلت اللهم لا تجعلني مثله! ومروا بهذه الأمة يضربونها ويقولون زنيت سرقت، فقلت اللهم لا تجعل

----

(١) الموسات والمياميس: جمع مومس وهي الفاجرة.
(٢) البغي: الزانية.

ابني مثلها، فقلت اللهم اجعلني مثلها! فقال: إن ذلك الرجل كان جبارا، فقلت اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيت سرقت، ولم تزن ولم تسرق، فقلت اللهم اجعلني مثلها (١) ".

هذه بعض أمثلة قصص ضرب لنا بها الرسول الكريم الأمثال، لكي يقرر في نفوسنا ما يريد تقريره، ويثبت في قلوبنا المبادئ السامية التي يبغي تثبيتها، وهناك أمثلة أخرى من الأمثال ذكرها نبينا الكريم، لوجود علاقة تشابه بين ما ذكره وما يبغي تقريره، من ذلك: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوما في أيديهم مثل أذناب البقر، يغدون في غضب الله ويروحون في سخط الله! وقال صنفان من أهل النار ولم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها النساء، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤسهن كأسنمة البخت، لا يدخلن الجنة ولا يرحن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا "! ويقول الشيباني في تفسيره إن هذه النسوة كاسيات أي بنعم الله، عاريات من شكره، وقيل يسترن بعض أجسامهم ويكشفهن بعضها، وقيل يلبسن ثيابا رقيقة تصف ما تحتها، فهن كاسيات في ظاهر الأمر عاريات في الحقيقة، ويفسر قوله مائلات بأنهن زائغات عن طاعة الله وما يلزمهن من حفظ الفروج، وقوله مميلات أي يعلمن غيرهن، وقيل مائلات للشر، مميلات للرجال إلى الفتنة، وقيل غير ذلك، وقيل رؤسهن كأسنمة البخت أي يكبرنها من المانع والخمر والعمائم، أو بصلة الشعر بما يصيرها كأسنمة البخت (٢) ".

ويكره نبينا الكريم الصور والستور، لأن الصور - كما يقول الإمام محمد عبده - كانت أيام الوثنية تتخذ لسببين، الأول اللهو، والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين، والأول مما يبغضه الدين، والثاني جاء الإسلام لمحوه، والمصور في الحالين شاغل عن الله، أو ممهد للإشراك به، فإذا زال هذان

---

(١) راجع ص ٢٠٧ و ٢٠٨ من تيسير الوصول ج ٣ للشيباني.

(٢) راجع ص ٣٩٤ - ٣٩٦ من تيسير الوصول ج ٣ ص للشيباني. والبخت (بالضم) نوع من الإبل والجمع البخاتي.

العارضان، وقصدت الفائدة، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات (١) "!

روحانية الرسول في أدعيته:

محمد الذي أنزل الله عليه القرآن، ماذا كان مبلغ روحانيته وقدر فنائه في ربه؟

محمد رسول الله لم يقنع بما آتاه الله من فضل، لا بل قنع، ولكن كان يرى دائما أنه مقصر في الشكر، فكان كثير الشكر والذكر، كان كثير الذكر، ولم يكن هذا عن قناعة بالفضل، لأنه عرف أن الذكر يزيد الفضل، وكان كثير الشكر، فكان ذلك منه قناعة بالفضل، وحمدا لربه على ما آتاه من نعم تجل عن الحصر، فكان محمد بين الذكر والشكر، وبين القناعة بالفضل وحب الاستزادة من الفضل، أكثر الناس روحانية، ليقرب بهذه الروحانية وهذا التطهير من الرب، وأي نعم أجل من هذا القرب، ومن هذا الطهر؟!، فعن ابن عباس، قال:

سمعت رسول الله (ص) ليلة، حين فرغ من صلاته، يقول: اللهم إني أسألك رحمة من عندك، تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري وتلم بها شعثي (٢)، وترد بها غائبي وترفع بها شاهدي وتزكي (٣) بها عملي وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء، اللهم أعطني إيمانا ويقينا ليس بعده كفر، ورحمة أنال شرف كرامتك في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك الفوز في القضاء ونزل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء، اللهم إني أنزل بك حاجتي وإن قصر رأيي وضعف عملي وافتقرت إلى رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور ويا شافي الصدور، كما تجير بين البحور (٤) أن تجيرني من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور، اللهم وما قصر عنه رأيي ولم تبلغه مسألتي ولم تبلغه نيتي، من خير وعدته أحدا من خلقك أو خير أنت معطيه أحدا من عبادك،

---

(١) راجع ص ٨١ - ١٢٦، ١٤٣ - ١٥٠ و ٢١٢ - ٢٤٦، ٥٢٩ - ٥٣١ من وحي الأحاديث المحمدية ج ١ لمحمود علي قراعة.

(٢) أي تجمع بها متفرق أمري.

(٣) أي تطهر.

(٤) أي تمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر.

فإني راغب إليك فيه، وأسألك برحمتك يا رب العالمين، اللهم يا ذا الحبل الشديد (١) والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، الركع السجود، الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وإنك تفعل ما تريد، اللهم اجعلنا هادين مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، سلما لأوليائك، حربا لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، اللهم هذا الجهد (٢) وعليك التكلان، اللهم اجعل لي نورا في قلبي، ونورا بين يدي، ونورا من خلفي، ونورا عن يميني، ونورا عن شمالي ونورا من فوقي، ونورا من تحتي، ونورا في سمعي، ونورا في بصري، ونورا في شعري ونورا في بشري، ونورا في لحمي، ونورا في دمي، ونورا في مخي، ونورا في عظامي (٣)، اللهم أعظم لي نورا، وأعطني نورا، واجعل لي نورا، سبحان الذي تعطف بالعز وقال به (٤)،
سبحان الذي لبس المجد وتكرم به، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح (٥)
إلا له، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي المجد والكرم، سبحان
ذي الإجلال والإكرام (٦) ".!

مرض النبي:

من أحاديث النبي الكريم " الدنيا سجن المؤمن "، فهم المؤمن الخروج من الدنيا، وإنهم ميتون "، فالنبي الكريم مات كما يموت البشر، وعانى آلام المرض

---

(١) الحبل: السبب أو القرآن أو الدين.

(٢) الجهد بفتح الجيم المشقة وبضمها الطاقة والقدرة.

(٣) يقول الشيباني إن المراد بالنور المسؤول في جميع ما تقدم، ضياء الحق وبيانه.

(٤) أي اختصها بالعز واتصف به، ومعنى وقال به أي حكم به،

(٥) التسبيح: التنزيه، وسبحان الله معناه التنزيه لله، وهو نصب على المصدر، كأنه قال أبرى الله من السوء براءة. راجع ص ٣٠٤ من مختار الصحاح للإمام الرازي.

(٦) راجع ص ١٦ ج ٣ من تيسير الوصول للشيباني. وراجع ص ١٨٠ - ٢١١ من وحي الأحاديث المحمدية ج ١ لمحمود علي قراعة.

كما يعانيه أبناء آدم وحواء، ولكنه لقي الله مطمئنا مسرورا، لقيامه بتأدية رسالته خير قيام، ورجعت بموته روحه إلى ربها راضية مرضية، لتدخل في صميم عباد الله المخلصين، ولتدخل جنته، مميزة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود الذي وعده به ربه!

فعن عائشة رضي الله عنها، قالت " لما ثقل النبي صلى الله عليه وسلم، واشتد به وجعه، استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي، فأذن له، فخرج بين رجلين أحدهما العباس بن عبد المطلب، ورجل آخر، يخط رجلاه في الأرض، فلما دخل بيتي، واشتد وجعه، قال: أهريقوا على من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس، فأجلسناه في مخضب (١) لحفصة، ثم طفقنا نصب عليه الماء من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن، ثم خرج إلى الناس، فصلى بهم، وخطبهم (٢) "!

وفاة النبي:

اختار الله سبحانه لمحمد لقاءه ورضي له ما عنده، فقبضه إليه كريما، باقية روحه ساطعة النور في عالم الظهور، مات ولم يمت، نعم برضوان الله وحب المخلصين من عباده في السماوات والأرضين، فهوى بموته نجم عظيم، ولكنه صعد ثانية إلى السماء، وأنار الأرض بمروره عليها نور الهداية وعبير الخير، هدى الله به عباده من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة، بعثه الله شهيدا وبشيرا ونذيرا.

وقد خير بين الدنيا، وبين ما عند ربه، فاختار ما عند ربه، وكانت آخر كلمة تكلم بها، الرفيق الأعلى (وهم النبيون يسكنون أعلا عليين)، فعن عائشة رضي الله عنه، قالت: كانت النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح " لن يقبض نبي، حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيا أو يخير! "، فلما نزل به وروايته على فخذي غشي عليه ثم أفاق، فأشخص بصره إلى سقف البيت، ثم قال " اللهم

---

(١) المركن والإجانة.

(٢) راجع ص ٢٩١ من تيسير الوصول ج ٣ للشيباني.

الرفيق الأعلى "، قلت: إذ لا يختارنا، وعرفنا أنه الحديث الذي كان يحدثنا به وهو صحيح، فكانت آخر كلمة تكلم بها " الرفيق الأعلى " (١)!

وهكذا لحق النبي بالرفيق الأعلى، وانقطع بذلك كربه من الدنيا وما لاقى من عنت في سبيل إنارة العالم بدين الهدى والحق، وبهذا الموت الذي كتبه الله على عباده جميعا، فارق النبي الكريم العالم الأرضي، وكانت وفاته صلى الله عليه وسلم بشير رفقته للعالم السماوي، حيث يسبح بحمد ربه (٢)

" وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل، انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه، فلن يضر الله شيئا، وسيجزي الله الشاكرين "!

* * *

بأبي - أيها النبي الكريم - أنت وأمي " لقد انقطع بموتك، ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء، خصصت حتى صرت مسليا عمن سواك وعممت حتى صار الناس فيك سواء، ولولا أنت أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع، لأنفدنا عليك ماء الشؤون ولكان الداء مماطلا، والكمد محالفا، وقلالك، ولكنه ما لا يملك رده، ولا يستطاع دفعه! بأبي أنت وأمي! اذكرنا عند ربك، واجعلنا من بالك (٣) "!

---

(١) راجع ص ٢٩٢ من تيسير الوصول ج ٣ ص للشيباني

(٢) راجع ص ٤٥٣ - ٤٥٩ و ٥٢٣ - ٥٢٦ من وحي الأحاديث المحمدية ج ١ لمحمود علي قراعة.

(٣) راجع ص ٤٩١ و ٤٩٢ من نهج البلاغة ج ١

الفصل السادس
الجنة ونعيمها في الإسلام
الذي أحال إليه إنجيل برنابا.
" فمجد الجنة هو طعام الجسد... وأما ذلك المجد،
فسيوضحه - بأجلى بيان - رسول الله، الذي هو
أدرى بالأشياء من كل مخلوق، لأن الله قد خلق كل
شئ حبا فيه ".
(إنجيل برنابا ص ٢٦٧)
وجود الجنة الآن:
يجب اعتقاد أن الجنة موجودة الآن، مستندين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسنة، وما علم بالضرورة من دعوة الرسل كلهم إليها وإخبارهم بها (١)!
ويدل على وجودها من القرآن، قوله تعالى " ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى "، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى، كما في الصحيحين من حديث أنس في قصة الإسراء وفي آخره " ثم انطلق بي جبريل، حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم دخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك "، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن أحدكم إذا مات، عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار،

---

(١) لهذا يذكر السلف في عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان، رداء على القدرية والمعتزلة، الذين ينكرون أن تكون الآن مخلوقة، ويقولون بل الله ينشئها يوم القيامة! راجع ص ٢٤ - ٤٣ من حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم.

فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك، حتى يبعثك الله تعالى يوم القيامة، وفي الموطأ والسنن من حديث كعب بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنما نسمة المؤمن طير يعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة "، وهذا صريح في دخول الجنة قبل يوم القيامة (١)!

ويقول ابن القيم إن احتجاجهم بقوله تعالى " كل شئ هالك إلا وجهه "، فإنما أتى من عدم فهمهم معنى الآية، وظنهم أن لو كانت الجنة مخلوقة الآن، لوجب اضطرار أن تفنى يوم القيامة، وأن يهلك كل ما فيها ويموت، فتموت الحور العين التي فيها والولدان، وقد أخبر الله سبحانه أن الدار دار خلود ومن فيها مخلدون لا يموتون فيها - وإنما وفق لمعناها السلف وأئمة الإسلام، قال البخاري في صحيحه: يقال (كل شئ هالك إلا وجهه)، إلا ملكه، ويقال إلا ما أريد به وجهه.

وقال أبو عبد الله أحمد بن حنبل " أي كل شئ مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقتا للبقاء، لا للفناء ولا للهلاك، وهما من الآخرة، لا من الدنيا "!

قالوا وقد روى الترمذي من حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها " سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر "، قال هذا حديث حسن غريب!

قالوا: " فلو كانت الجنة مخلوقة مفروغا منها، لم تكن قيعانا ولم يكن لهذا الغرس معنى "، قالوا وقد قال تعالى عن امرأة فرعون إنها قالت " رب ابن لي عندك بيتا في الجنة "، ومحال أن يقول قائل لمن بنى له بيتا: ابن لي بيتا!

---

(١) راجع ص ٨٠ من حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم. وص ٣٣ - ٣٥ من نعيم الجنة لمحمود علي قراعة.

وأصرح من هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم " من نبي الله مسجدا، نبي الله له بيتا في الجنة "، متفق عليه، وهذه جملة مركبة من شرط وجزاء، تقتضي وجود الجزاء بعد الشرط بإجماع أهل العربية!

فرد عليهم ابن القيم بقوله: ما تعنون بقولكم إن الجنة لم تخلق بعد؟!

أتريدون أنها الآن عدم محض، لم تدخل إلى الوجود، بل هي بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور، فهذا قول باطل قطعا! أم تريدون أنها لم تخلق بكمالها وجميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنها لا يزال الله يحدث فيها شيئا بعد شئ، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أمورا أخر، والعبد كلما وسع في أعمال البر، وسع الله له في الجنة، وكلما عمل خيرا، غرس له بها هناك غراس، وبنى له بناء، وأنشئ له من عمله أنواع مما يتمتع به، فهذا حق، لا يمكن رده (١)!

المبشرون بالجنة:

القرآن الكريم مملوء بما يفيد أن الجنة جزاء من عمل صالحا، وجزاء من اتقى، وقد نعتهم تارة بالمفلحين وتارة بالمحسنين، ووعد بأنه يكفر عنهم سيئاتهم، وأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأنهم سينعمون برضا الله وحبه ورحمته وجنته، وأن لهم البشرى بالأجر العظيم، والنعيم المقيم، والأمن في الأخرى وحصول الخير فيها (٢)!

الجنة والنار عموما:

للجنة عدة أسماء باعتبار صفاتها، والجنة هو الاسم العام، ومنه سمي البستان جنة، لأنه يستر داخله بالأشجار ويغطيه، ومن أسماء الجنة: دار السلام، لأنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه، وهي دار الله، واسمه سبحانه وتعالى

---

(١) راجع ص ٨١ - ٨٣ من حادي الأرواح لابن القيم، وص ٣٥ - ٣٩ من نعيم الجنة لمحمود علي قراعة.

(٢) راجع ص ٤٣ - ٨٦ من نعيم الجنة لمحمود علي قراعة.

السلام، الذي سلمها وسلم أهلها " دعواهم فيها سبحانك (١) اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين "، " سلام قولا من رب رحيم "، ويبشر الراحل عن الدنيا حال كونه من أصحاب اليمين، بالسلامة.
وجنات عدن اسم لجملة الجنان، يقال عدن بالمكان إذا أقام به.
وقدم الصدق ومقعد الصدق، من أسماء الجنة (٢). والفردوس اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، وأصل الفردوس البستان بالرومية. وجنات النعيم اسم جامع لجميع الجنات، لما تضمنه من الأنواع التي يتنعم بها، من المأكل والمشروب والملبوس والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج والمساكن الناعمة، وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن (٣)!
وجنة الخلد، سميت بذلك، لأن أهلها لا يظعنون عنها أبدا، والغرفة جنس كالجنة، والمأوى مفعل من أوى يأوى، إذا انضم إلى المكان واستقر به وهو اسم من أسماء الجنة.
ويقول أبو عبيدة: " عرف الله الجنة لعبيده، أي بينها لهم، حتى عرفوها من غير استدلال " وقال الحسن " وصف الله الجنة في الدنيا لهم، فإذا دخلوها عرفوها بصفتها " واختار الزجاج أنه من العرف وهو الرائحة الطيبة، وقيل هو من العرف أي التتابع، أي تابع لهم طيباتها، وملاذها (٤)!
ومن أسماء النار: الجحيم ولظى وسقر، ويقول ابن القيم " إن النار خلقت تخويفا للمؤمنين وتطهيرا للخاطئين والمجرمين، فهي طهرة من الخبث الذي

---

(١) قال الأشجعي: سمعت سفيان الثوري يقول إذا أرادوا الشئ، قالوا سبحانك اللهم، فيأتيهم ما دعوا به، ومعنى هذه الكلمة تنزيه الرب وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به. راجع ص ٢٩٩ من حادي الأرواح لابن قيم الجوزية.
(٢) راجع ص ١٥١ - ١٦٢ من حادي الأرواح لابن القيم.
(٣) راجع ص ٨٨ - ٩٩ من حادي الأرواح لابن القيم.
(٤) راجع ص ٢٢٨ و ٢٢٩ من حادي الأرواح لابن القيم، وص ١٢٧ من غريب القرآن للسجستاني.

اكتسبته النفس في هذا العالم، فإن تطهرت هنا بالتوبة النصوح والحسنات الماحية والمصائب المكفرة، لم يحتج إلى تطهيرها هناك، وقيل لها مع جملة الطيبين " سلام عليكم طبتم، فادخلوها خالدين " (أي ادخلوا الجنة)، وإن لم تتطهر في هذه الدار، ووافت الدار الأخرى بدرنها ونجسها وخبثها، أدخلت النار طهرة لها، ويكون مكثها في النار بحسب زوال ذلك الدرن والخبث والنجاسة التي لا يغسلها الماء، فإذا تطهرت الطهر التام، أخرجت من النار (١)!

وقال تعالى في صفة النار " حتى إذا جاءوها، فتحت أبوابها " (بغير واو)، ولكن عند ذكر الجنة ذكر الواو " وفتحت ".

ويقول ابن القيم ما خلاصته إن السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة، وذكره في آية أهل النار، أن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة، حتى إذا وصلوا إليها، فتحت في وجوههم، فيفجأهم العذاب بغته، وأما الجنة، فإذا انتهوا إليها، صادفوا أبوابها مغلقة، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم، ويستشفعون إليه بأولى العزم من رسله، وكلهم يتأخر عن ذلك، حتى تقع الدلالة على خاتمهم وأفضلهم، فيقول " أنا... لها "، فيأتي إلى تحت العرش ويخر ساجدا لربه، فيدعه ما يشاء أن يدعه، ثم يأذن له في رفع رأسه، وأن يسأل حاجته، فيشفع إليه سبحانه في فتح أبوابها، فيشفعه ليفتحها، تعظيما لخطرها وإظهارا لمنزلة رسوله وكرامته عليه. وتأمل في سوق أهل الدارين زمرا، أهل الجنة، مستبشرين مبشرين بدخولها، بالدخول إلى المقاعد والمنازل، وأهل النار، مغتمين مبكتين مصغرين، بقول خزنتها لهم " ادخلوا أبواب جهنم " صغارا لهم وإذلالا وخزيا (٢)!

وعن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات (٣) "، وقال الله تعالى حكاية

---

(١) راجع ص ١٩٢ من حادي الأرواح لابن القيم.
(٢) راجع ص ٨٨ - ٩٩ من حادي الأرواح لابن القيم.
(٣) راجع ص ٢٤٠ من تيسير الوصول للشيباني ج ٣.

عن أولي الألباب من عباده قولهم " ربنا إننا سمعنا مناديا، ينادي للإيمان، أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد "، والمعنى وآتنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك، من دخول الجنة (١)!

فالجنة يسأل الله إياها عباده المؤمنون، ويدخلهم فيها بفضله، ويسألهم إياها ملائكة لهم، إذ يقولون " فاغفر لذين تابوا واتبعوا سبيلك "، والرسل يسألون إياها لهم، والجنة تسأل ربها أهلها، فعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من مسلم يسأل الله الجنة ثلاثا، إلا قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة! ومن استجار من النار ثلاثا، قالت النار: اللهم أجره من النار (٢) "

الجنة ونعيمها في القرآن:

قال تعالى في سورة الحشر " لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون "، ولم يشأ سبحانه وتعالى أن يكون الفوز مجرد السلامة من النار، بل ".. سوف بإذنه إن شاء، ننظر ونعجب، تغمرنا سعادة خالدة أبدية، سابحين في ملكوت عظمته، وهو الذي خلق الكل بحكمته القادرة، وحفظه بمحبته الخالدة (٣)... "

ومن نعيم الجنة الذي ذكرنا في القرآن الكريم:

(١) رضوان الله ومغفرته، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم: " للذين

---

(١) وقالت طائفة، معناه: وآتنا ما وعدتنا على الإيمان برسلك، راجع ص ١٣ من حادي الأرواح لابن القيم، وقيل المعنى: آتنا ما وعدتنا من النصر والظفر، على ألسنة رسلك.

(٢) راجع ص ٩٥ – ١٠٢ من نعيم الجنة لمحمود علي قراعة.

(٣) من خطاب لأستاذنا المرحوم محمد لطفي جمعة، أرسله لمحمود علي قراعة.

أحسنوا، الحسنى (١) وزيادة، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة "، " ومغفرة من ربهم "، " ورضوان من الله " " لهم ما يشاءون فيها، ولدينا مزيد (٢) ".
(٢) السلام والأمن والسرور والعز والمحبة والعدل والخير والخلود:
" إن المتقين في مقام أمين (٣) "، " وهم فيها خالدون "، " خالدون فيها بإذن ربهم، تحيتهم فيها سلام "، " إن المتقين في جنات وعيون، ادخلوها بسلام آمنين، ونزعنا ما في صدورهم من غل (٤)، إخوانا على سرر متقابلين، لا يمسهم فيها نصب (٥) وما هم عنها بمخرجين "، " يدخلون الجنة، ولا يظلمون شيئا، جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب، إنه كان وعده مأتيا، لا يسمعون فيها لغوا، إلا سلاما، ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا، تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا "، " وهدوا إلى الطيب من القول، وهدوا إلى صراط الحميد "، " وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور، الذي أحلنا دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب، ولا يمسنا فيها لغوب (٦) "، " وهم مكرمون، في جنات النعيم، على سرر متقابلين "، " إن للمتقين لحسن مآب (٧)، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب (٨) "، " هذا ما توعدون

---

(١) الحسنى: الجنة، والزيادة إلى وجه الله الكريم، كذلك فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقتر في تفسير ابن عباس: السواد، وهو لا يكون بعد النظر إلى الله تعالى، ومن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان، فهو من لوازم رؤية الرب تبارك وتعالى. راجع ص ٥٨ - ٦٢ من حادي الأرواح لابن القيم.
(٢) يقول علي بن أبي طالب وأنس بن مالك: إن المزيد هو النظر إلى وجه الله عز وجل.
(٣) أي آمن من كل سوء وآفة ومكروه.
(٤) أي عداوة وشحناء، ويقال الغل والحسد. راجع ص ١٣٤ من غريب القرآن للسجستاني.
(٥) أي تعب. راجع ص ١٨٩ من غريب القرآن للسجستاني.
(٦) أي إعياء. راجع ص ١٥٢ من غريب القرآن للسجستاني.
(٧) أي مرجع، راجع ص ١٥٤ من غريب القرآن للسجستاني.
(٨) إذا دخلوا الجنة، لم تغلق أبوابها عليهم، بل تبقى مفتحة. وأما أهل النار (إنها عليهم مؤصدة) أي مطبقة مغلقة. وفي تفتيح الأبواب إشارة إلى تصرفهم في ذهابهم وإيابهم وإلى أنها دار أمن. راجع ص ٨٨ - ٩٩ من حادي الأرواح لابن القيم

ليوم الحساب، إن هذا لرزقنا ما له من نفاد "، " يا عباد لا خوف عليكم اليوم، ولا أنتم تحزنون "، " لا يذوقون فيها الموت، إلا الموتة الأولى، ووقاهم عذاب الجحيم، فضلا من ربك، ذلك هو الفوم العظيم " " ادخلوها بسلام، ذلك يوم الخلود "، " فمن الله علينا، ووقانا عذاب السموم، إنا كنا من قبل ندعوه، إنه هو البر الرحيم "، " لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما، إلا قيلا سلاما سلاما "، فوقاهم الله شر ذلك اليوم، ولقاهم نضرة وسرورا "، " وإذا رأيت، ثم رأيت نعيما وملكا كبير (١) "، " وجوه يومئذ ناعمة، لسعيها راضية، في جنة عالية، لا تسمع فيها لاغية "، كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين، وما أدراك ما عليون، كتاب مرقوم (٢)، يشهده المقربون، إن الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون، تعرف في وجوههم نضرة النعيم "!

(٣) جريان الأنهار من تحت الجنات، وسعتها، وجمال ريحها وأثاثها ورياشها: " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أن لهم جنات، تجري من تحتها الأنهار (٣) " " وندخلهم ظلا ظليلا "، " مثل الجنة التي وعد المتقون، تجري من تحتها الأنهار، أكلها دائم وظلها، تلك عقبى الذين اتقوا، وعقبى الكافرين النار "، " متكئين فيها على الأرائك، نعم الثواب، وحسنت مرتفقا "، " متكئين على

---

(١) قيل إن الملك الكبير: أن الملائكة لا تدخل على ولي الله إلا بإذن، وولي الله مأذون بالدخول على ربه.

(٢) يقول إن الله تعالى أخبر أن كتابهم كتاب مرقوم، تحقيقا لكونه مكتوبا كتابة حقيقة. راجع ص ١١٤ - ١٢٠ من حادي الأرواح لابن القيم.

سرر مصفوفة "، " إن المتقين في جنات ونهر، في مقعد صدق، عند مليك مقتدر "، " متكئين على فرش بطائنها من إستبرق " " ولمن خاف مقام ربه جنتان، فبأي آلاء ربكما تكذبان (١)، ذواتا أفنان (٢) "، " ومن دونهما جنتان.. مدهامتان (٣).. فيهما عينان نضاختان (٤).. "، " متكئين على رفرف خضر، وعبقري (٥) حسان "، " على سرر موضونة (٦)، متكئين عليها متقابلين "، " وظل ممدود (٧)، وماء مسكوب "، " وفرش مرفوعة " " متكئين فيها على الأرائك، لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا "، " فيها عين جارية، فيها سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق (٨) مصفوفة، وزرابي (٩)
مبثوثة (١) "!

____

(١) قيل الخطاب للإنس والجن.
(٢) أغصان واحدها فتن. راجع ص ٢٠ من غريب القرآن للسجستاني.
(٣) أي سوداوان من شدة الخضرة والري. راجع ص ١٧٢ من غريب القرآن للسجستاني.
(٤) أي بالمسلك والعنبر وقيل فوارتان بالماء.
(٥) بقول الحسن: هي البسط، ويقال إن الرفرف الخضر، هي رياض الجنة، ويقال العرش. والعبقري: هي طنافس ثخان ويقال العبقري الممدوح راجع ص ٨٧ و ١١٧ من غريب القرآن للسجستاني.
(٦) أي منسوجة بعضها على بعض باليواقيت والجواهر. راجع ص ١ ١٦ من غريب القرآن للسجستاني.
(٧) أي دائم لا تنسخه الشمس. راجع ص ١٢٢ من غريب القرآن للسجستاني.
وقال ابن عباس: الظل الممدود شجرة إليها أهل الجنة، يتحدثون في ظلها.
فيشتهي بعضهم، ويذكر لهو الدنيا، فتحرك به.
(٨) أي وسائد، واحدها نمرقة. راجع ص ١٨١ من غريب القرآن للسجستاني.
(٩) الزرابي الطنافس المحملة: واحدتها زربية، والزرابي البسط.
(١٠) المبثوثة المتفرقة الكثيرة في مجالس راجع ص ٩٢ من غريب القرآن للسجستاني.

(٤) الأزواج المطهرة: " ولهم فيها أزواج (١) مطهرة "، " إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون (٢) "، " وعندهم قاصرات الطرف عين (٣) كأنهن بيض مكنون (٤) "، " وعندهم قاصرات الطرف أتراب (٥) "، " وزوجناهم (٦) بحور عين "، " فيهن قاصرات الطرف، لم يطمثهن (٧) إنس قبلهم ولا جان.. كأنهن الياقوت والمرجان "، " فيهن خيرات (٨) حسان... حور مقصورات في الخيام (٩) "، " وحور عين (١٠) كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون "، " إنا أنشأناهن (١) إنشاء، فجعلناهن أبكارا، عربا (١٢) أترابا "!

\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-

(١) الأزواج جمع زوج (وهو أفصح من زوجة).
(٢) في التفسير فاكهون ناعمون وفكهون معجبون، وفي اللغة الذين يتفكهون، والفاكهون الذين عندهم فاكهة كثيرة. راجع ص ١٣٦ و ١٣٧ من غريب القرآن للسجستاني، ويقال إنهم في شغل في افتضاض الأبكار
(٣) أي واسعات الأعين. الواحدة عيناء. راجع ص ١٣٠ من غريب القرآن للسجستاني.
(٤) أي مصون. راجع ص ١٦٠ من غريب القرآن للسجستاني. والتشبيه برقة الجلد كرقة جلد البيض.
(٥) الأتراب الأمثال، وقيل أي في غاية الحسن، قاصرات، أي قصرن طرف أزواجهن عليهن وقصرن طرفهن على أزواجهن.
(٦) قرناهم، وقيل أنكحناهم.
(٧) أي يمسهن. والطمث: النكاح بالتدمية. راجع ص ٢٠١ من غريب القرآن للسجستاني.
(٨) خيرات الصفات، حسان الوجوه.
(٩) يقول مجاهد: في خيام اللؤلؤ.
(١٠) الحور من الحور في العين (وهو شدة بياضها مع قوة سوادها)، والحوراء هي الحسناء الجميلة.
(١١) اختلف في هل هن الحور العين، أو الآدميات، ويقول ابن القيم الظهر أن الإنشاء واقع على الصنفين. راجع ص ٣٥٣ - ٣٦٠ من حادي الأرواح لابن القيم.
(١٢) أي متحببات إلى أزواجهن.

(٥) - الثياب والحلي والزينة والخدم: " يحلون فيها من أساور من ذهب، ويلبسون ثيابا خضرا، من سندس وإستبرق " (١)، " يحلون فيها من أساور من ذهب، ولؤلؤا (٢) ولباسهم فيها حرير "، " يطاف عليهم بصحاف (٣) من ذهب وأكواب (٤)، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين "، " يلبسون من سندس وإستبرق، متقابلين "، " ويطوف عليهم غلمان لهم، كأنهم لؤلؤ مكنون "، " يطوف عليهم ولدان (٥) مخلدون، بأكواب وأباريق "، " وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا "، " ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا، قوارير من فضة (٦) قدروها (٧) تقديرا "، " ويطوف عليهم ولدان مخلدون، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا (٨) منثورا "، " وحلوا أساور من فضة (٩) "!

----

(١) السندس: رقيق الديباج، والإستبرق غليظة. راجع ص ١٠٢ من غريب القرآن للسجستاني. وقال الزجاج هما نوعان من الحرير.

(٢) اختلفوا في جر لؤلؤ ونصبه، ثم يحتمل أن يكون لهم أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ، أو أن تكون من ذهب مرصع باللؤلؤ، والله أعلم بما أراد. راجع ص ٣١٣ و ٣١٤ من حادي الأرواح لابن القيم.

(٣) جمع صحفة.

(٤) جمع كوب.

(٥) اختلف في هؤلاء الولدان، فقيل هم أطفال المسلمين، وقيل هم أطفال المشركين، وقيل بل هم غلمان أنشأهم الله في الجنة، وقيل مخلدون أي في آذانهم القرطة وفي أيديهم الأساور. وقيل لا يهرمون ولا يتغيرون. راجع ص ٣٣٩ - ٣٤١ من حادي الأرواح لابن القيم.

(٧) أي على قدر الري.

(٨) يقول ابن القيم إن الله سبحانه شبههم باللؤلؤ المنثور لما فيه من البياض وحسن الخلقة. راجع ص ٣٣٩ - ٣٤١ من حادي الأرواح لابن القيم.

(٩) وهنا تنويع. لأنه سبق ذكر الأساور الذهبية. وفي التنويع لذة وزيادة نعيم.

(٦) - الأكل والشرب والفواكه والأشجار والأزهار والثمار: " كلما زقوا منها من ثمرة رزقا، قالوا هذا الذي رزقنا من قبل (١) وأتوا به متشابها (٢) "، " مثل الجنة التي وعد المتقون، تجري من تحتها الأنهار، أكلها دائم وظلها "، " لهم فيها فاكهة، ولهم ما يدعون "، " أولئك لهم رزق معلوم، فواكه وهم مكرمون، في جنات النعيم، على سرر متقابلين، يطاف عليهم بكأس من معين (٣)، بيضاء لذة للشاربين، لا فيها غول (٤)، ولا هم عنها ينزفون (د) "، " يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب.. إن هذه لرزقنا ما له من نفاد "، " وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون، لكم فيها فاكهة كثيرة، منها تأكلون "، " يدعون فيها بكل فاكهة آمنين "، " مثل الجنة التي وعد المتقون، فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خبر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات "، " إن المتقين في جنات ونعيم، فاكهين بما آتاهم ربهم، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون "، " وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون، يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم "، " ولمن خاف مقام ربه جنتان.. فيهما من كل فاكهة زوجان.. فيهما فاكهة ونخل ورمان "، " وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون "، " وأصحاب

---

(١) أي شبيه ونظيره لا عينه، وهل المراد هذا الذي رزقنا في الدنيا نظيره من الفواكه والثمار، أو هذا الذي رزقناه من قبل في الجنة؟ قيل: فيه قولان. راجع ص ٢٦٥ - ٢٧٦ من حادي الأرواح لابن القيم.
(٢) أي يشبه بعضه بعضا في الجودة والحسن، ويقال يشبه بعضه بعضا في الصورة ويختلف في الطعم. راجع ص ١٦٤ من غريب القرآن للسجستاني.
(٤) أي لا تغتال عقولهم، فتذهب بها، راجع ص ١٦٢ من غريب القرآن للسجستاني
(٥) يقال نزف الرجل إذا ذهب عقله.

اليمين، ما أصحاب اليمين، في سدر مخضود (١)، وطلح (٢) منضود، وظل ممدود (٣)، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة (٤) "! " إن الأبرار يشربون من كأس، كان مزاجها كافورا، عينا يشرب بها (٥) عباد الله، بفجرونها تفجيرا "، " ودانية عليهم ظلالها، وذللت قطوفها تذليلا..
ويسقون فيها كأسا، كان مزاجها زنجبيلا، عينا فيها تسمى سلسبيلا (٦)..
وسقاهم ربهم شرابا طهورا "، " إن المتقين في ظلال وعيون، وفواكه مما يشتهون، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون "، " إن للمتقين مفازا،

---

(١) السدر شجر النبق، والمخضود الذي لا شوك فيه. راجع ص ١٠٤ من غريب القرآن للسجستاني.
(٢) أكثر المفسرين قالوا إنه شجر الموز.
(٣) أي دائم لا تنسخه الشمس. راجع ص ١٢٢ من غريب القرآن للسجستاني.
وقال ابن عباس: الظل الممدود شجرة يخرج إليها أهل الجنة، يتحدثون في ظلها، فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا، فتحرك به، كما سبق وذكرنا
(٤) أي لا تكون في وقت دون وقت، ولا تمنع من أرادها.
(٥) يقول ابن القيم ما خلاصته: إن الله سبحانه أخبر عن العين التي يشرب بها المقربون صرفا، وشراب الأبرار يمزج بها، لأن أولئك أخلصوا الأعمال كلها لله، فأخلص شرابهم! وهؤلاء مزجوا، فمزج شرابهم بالكافور في أول السورة لبرده وطيب رائحته - في مقابل حرارة خوفهم - والزنجبيل في آخرها لحرارته وطيب رائحته، والظاهر أن الكأس الأولى غير الثانية، وأنهما نوعان لذيذان من الشراب، راجع ص ٢٨١ - ٢٩١ من حادي الأرواح لابن القيم.
(٦) يقول بعضهم: سلسبيلا جملة مركبة من فعل وفاعل، وسبيلا منصوب على المفعول، أي سل سبيلا إليها، ويقول آخرون إن السلسبيل اسم العين نفسها وقال مجاهد إنها مسلسلة لهم يعرفونها حيث شاءوا. وقال آخرون سلاستها حدة جريتها وطيب مذاقها. وقيل إنه صفة للماء، ليس باسم للعين. راجع ص ٢٩٩ من حادي الأرواح لابن القيم.

حدائق وأعنابا، وكواعب أترابا، وكأسا دهاقا (١) "، " يسقون من رحيق مختوم، ختامه مسلك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ومزاجه (٢) من تسنيم، عينا يشرب بها المقربون "، " فأما إن كان من المقربين، فروح وريحان (٣)، وجنة نعيم ".

الجنة ونعيمها في أحاديث الرسول:

الأحاديث عن الجنة كثيرة، نذكر بعضها: سأل أبو هريرة رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بناء الجنة وأهلها، فقال " لبنة فضة، ولبنة ذهب، وملاطها (٤) المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس (٥) ويخلد ولا يموت، ولا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم "، " إن في الجنة شجرة، إلا وساقها من ذهب "، " لقاب قوس (٦) في الجنة، خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب " ولقاب قوس أحدكم أو موضع قده في الجنة، خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض، لأضاءت الدنيا وما فيها، ولملأت ما بينهما

---

(١) مترعة أي ملأى. راجع ص ٨١ من غريب القرآن للسجستاني، وعن عكرمة، قال: ملأى متتابعة. أخرجه البخاري. راجع ص ١٧٨ من تيسير الوصول للشيباني ج ١.

(٢) يقال هو أرفع شراب أهل الجنة. ويقال تسنيم عين تجري من فوقهم، تسنمهم في منازلهم، تنزل عليهم من عال. راجع ص ٥٩ من غريب القرآن للسجستاني

(٣) روح، نسيم طيب، وريحان رزق. ومن قرأ فروح يقال: حياة لا موت فيها. راجع ص ٨٨ من غريب القرآن للسجستاني. وراجع ص ١٠٣ - ١٢١ من نعيم الجنة لمحمود علي قراعة.

(٤) الملاط: الطين الذي يجعل فوق ساقي البناء، يملط به الحائط أي يصلح.

(٥) بئس يبأس إذا افتقر واشتدت حاجته. راجع ٢٣٦ من تيسير الوصول ج ٣ للشيباني.

(٦) قاب القوس وقده: قدره.

ريحا (١) "، " لو أن ما يقل ظفر مما في الجنة بدا، لتزخرفت (٢) له خوافق السماوات والأرض (٣)، ولو أن رجلا من أهل الجنة اطلع، فبدا، سواره، لطمس ضوء الشمس، كما تطمس الشمس ضوء النجوم (٤) "، " إن أهل الجنة، ليتراءون أهل الغرف، كما تتراءون الكواكب في السماء (٥) "، " أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر (٦)، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة والألنجوج وعود الطيب (٧)، أزواجهم الحور العين: على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا في السماء (٨) "، " إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون.... ويلهمون التسبيح والتحميد، كما تلهمون النفس (٩) "، أهل الجنة جرد (١٠) مرد، كحل (١١) ".

وعن بريدة رضي الله عنه، قال: هل في الجنة خيل؟ قال " إن الله أدخلك الجنة، فلا تشأ أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء، تطير بك في الجنة

---

(١) زيادة من الترمذي عن أنس في أخرى. وزاد " لنصيفها (يعني الخمار) خير من الدنيا وما فيها.

(٢) الزخرفة: الزينة والزخرف.

(٣) خوافق السماء: جوانبها الأربعة وهي جهات الرياح الأربع.

(٤) عن سعد بن أبي وقاص راجع ص ٢٣٧ من تيسير الوصول ج ٣ للشيباني.

(٥) عن سهل بن أسعد، أخرجه الترمذي.

(٦) كلهم جميل أمرد، وأجسامهم شفافة لا ظلال لها.

(٧) الألوة والألنجوج من أسماء العود يتبخر به.

(٨) عن أبي هريرة أخرجه الشيخان والترمذي.

(٩) عن جابر، أخرجه مسلم وأبو داود (١٠) الجرد جمع أجرد، وهو الذي لا شعر عليه.

(١١) الكحل جمع كحيل، وهو الذي ترى أجفانه كأنها مكحولة. عن أبي هريرة، أخرجه الترمذي. وزاد في رواية: عليهم التيجان، وأن لؤلؤة منها لتضئ بين المشرق والمغرب. وفي رواية عن الخدري أن من مات من أهل الجنة، يدخلون الجنة بني ثلاثين، لا يزيدون عليها أبدا.

حيث شئت إلا كان! "، فقال آخر: هل في الجنة من إبل؟، قال " إن يدخلك الله الجنة، يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك (١) " إن في الجنة، لمجتمعا للحور العين، يغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها، يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له (٢)، " إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال، فتحثو في ثيابهم ووجوههم، فيزدادون حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم، وقد ازدادوا حسنا وجمالا، فيقول أهلوهم: والله لقد ازددتم حسنا بعدنا وجمالا (٣) فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجملا "، " إن في الجنة لسوقا ما فيها شراء ولا بيع، إلا الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها (٤) "!

وعن الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أدنى أهل الجنة منزلة، له ثمانون ألف خادم وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء (٥) "، وعن ابن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أدنى أهل الجنة منزلة، لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه ونعمه وسرره مسيرة ألف عام، وأكرمهم على الله، لمن ينظر إلى وجهه غدوة وعشية! ثم قرأ صلى الله عليه وسلم " وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة "، وعن المغيرة بن شعيبة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سأل موسى عليه السلام ربه تعالى: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجئ بعد ما أدخل أهل الجنة، الجنة، فيقال له: ادخل الجنة! فيقول: أي رب، وكيف؟ وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا

---

(١) أخرجه الترمذي. وعن أبي رزين رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يكون لأهل الجنة ولد " أخرجه الترمذي، وزاد في رواية من الخدري: إن اشتهى الولد، كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة، ولكن لا يشتهي!

(٢) عن علي رضي الله عنه، أخرجه مسلم.

(٣) عن أنس، أخرجه مسلم.

(٤) عن علي، أخرجه الترمذي.

(٥) أخرجه الترمذي.

أخذاتهم (١)، فيقال أما ترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رب رضيت! فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله! فيقول في الخامسة: رضيت رب! فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك! فيقول: رضيت رب! فقال: فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر (٢) "، وعن الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يقول الله عز وجل لأهل الجنة، يا أهل الجنة! فيقولن: لبيك ربنا وسعديك! والخير في يديك! فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شئ أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا (٣) "، وعن صهيب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا دخل أهل الجنة، الجنة، يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولن: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة؟ ألم تنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب! فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى، ثم تلا هذه الآية " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة (٤).

----

(١) أي منازلهم المختصة بهم.
(٢) أخرجه مسل والترمذي.
(٣) أخرجه الشيخان والترمذي. راجع ص ٢٤٠ - ٢٤٣ من تيسير الوصول ج ٣ للشيباني: وظاهر أن دخول الجنة مظهر من مظاهر الرضا، ولذا يقول ابن القيم: قد سمى الله سبحانه وتعالى كبير خزنة الجنة " رضوان " وهو اسم مشتق من الرضا، وسمي خازن النار مالكا، وهو اسم مشتق من الملك، وهو القوة والشدة. راجع ص ١٧٣ من حادي الأرواح لابن القيم.
(٤) أخرجه مسلم والترمذي. راجع ص ٢٤٧ متى تيسير الوصول ج ٣ للشيباني. وراجع ص ١٢١ - ١٣١ من نعيم الجنة لمحمود علي قراعة.

تغليب روحية اللذات في الجنة:
الإسلام دين روحانيات ومعنويات، وهو عند ذكر الماديات الأخروية، لا يريد بها جزاءها الحسى فحسب، بل يريد بها جزاءها المعنوي الروحي أيضا، وإن أراد ببعضها اللذة الحسية، فإنه لا يريدها حقيرة متواضعة، كما هي في دنيانا، بل يريدها عزيزة تتصل أكبر ما تتصل بالروحانيات والمعنويات (١) "!
واللذة سواء أكانت حسية أم معنوية، تتصل أكبر ما تتصل بالتفاعلات النفسية، وتقرب كل القرب من الروح! وبضم الحاسة الفنية نكاد نتفق في إعزاز الجزء الروحي في كل حاصة من الحواس الخمس، وإكبار شأوه وفهم أنه أسمى جزئياتها! فأنت إذا رأيت مثلا منظرا جميلا، هل تستطيع أن تقدر لطربك الروحي من رؤية هذا المنظر أقل من تسعة أعشار ما يشع عليك من سرور؟
والإنسان كما يمكنه أن يسمو بلذته الحسية إلى حيث مرقاة الروح، يستطيع أن ينزل بها إلى حيث يريد من النزول! فعند سماعك لغناء، تستطيع أن ترقى به، وتستطيع أن تجعله ينزل بك، فإذا سمعت غناء من ذي صوت جميل، لتقديس الله بالتفكر في جمال الحناجر التي خلقها، فأنت رجل روح تتمتع بلذة السماع. وهي لذة حسية، وترتفع بها إلى جعلها ترقى بروحك وبنفسك، وأما إذا كنت تسمع صوتا جميلا من جميل، وتريد بسماعك ومن حركات المغني تحريك شهواتك، فأنت نازل بلذتك الحسية إلى الحضيض، ولذا قرر السهروردي حل الغناء في الأولى، وحرمته في الثانية!
فحسية اللذات لا تمنع من روحانيتها، لأن اللذة معنى لا يحس، وأنها إذا نسبت لما ينتجها، فليس هذا إنزالا لها من عالمها إلى عالم المادة أو الحس (٢).
ويتوصل بتصور ما في الدنيا من العسل واللبن والماء والخمر والحرير والذهب والفضة، إلى تصور ما أخبر الله تعالى به من ذلك في الجنة، ولكن لا يلزم

---

(١) راجع ص ٣١٥ س ١٢٦ ع ١٤٥ من مجلة الرسالة لمحمود علي قراعة.
(٢) راجع مجلة الرسالة العدد ٣١٦ س ٧ ص ١٤٧٣ و ١٤٧٤ لمحمود علي قراعة.

أن يكون الغيب مثل الشهادة، بل الحقيقة غير الحقيقة، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه " ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء " - ولذلك لا يبعد فهم أن تكون لذة الجنة من هذه الأشياء أسمى من لذة الدنيا، لذة روحية حسية - وروحية بمعنى أن للروح النصيب الأكبر منها ومن نشوتها!

ولا ريب في أن لذة النظر إلى وجه الله تعالى تفوق كل اللذات، وأن لذة اللقاء والرضا أسمى نعيم، وأن اللذات الأخرى ثانوية - وإن تكن عظيمة في نفسها، لأن ذكر الله لها كجزاء للعمل الصالح أكبر دال على عظمها - ولكن لا ريب في أنها مهما عظمت، فإنها لا تقاس عند المؤمن الفاني في الله عز وجل المحب له سبحانه وتعالى، باللذة العظمى لذة رؤيته ولذة رضوانه (١)!

ثم إن الأخذ بروحية اللذات، لا يتعارض مع البعث والنشور، والرأي أنه سواء أخذنا بإعادة المعدوم في الكل، أو جمع ما تفرق من الأجزاء، أو إعادة ما انعدم بذاته من الأجزاء وتأليف ما تفرق منه، فإنها إذا أعيدت في الآخرة، فلا بد أن يجمعها الله تعالى في نشأة أخرى، مستعدة للبقاء غير قابلة للفناء، مهيأة لما تلقاه من النعيم أو العذاب، وتكون الأرواح فهيا قوالب الأبدان والأبدان من جنس أرواحها كما ذكره ابن القيم، وإن جميع الإدراكات من سمع وبصر ولذة ة وألم، لا تكون متفرقة في مواضع البدن كما هي في نشأة الدنيا، بل يوصف كل جزء بأنه سميع بصير متلذذ متألم كما تقتضيه نشأته " وننشئكم فيما لا تعلمون "، ومعنى " كما بدأنا أول خلق نعيده "، أنا نعيد أول خلق مماثلا للذي بدأنا، والتشبيه يقتضي المغايرة (٢) وهذا لا ينافي إعزاز اللذة الروحية!

وكذلك روحية اللذات لا تتعارض مع صريح الآيات في رؤية الله تعالى (٣)

----

(١) راجع ص ٦ و ٧ من نعيم الجنة لمحمود علي قراعة.

(٢) راجع ص ٩٨ من أحكام الروح لأستاذنا المرحوم الشيخ حسنين مخلوق العدوي

(٣) مثل قوله تعالى " واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه " وقوله تعالى " تحيتهم يوم يلقونه سلام " وقوله تعالى " فمن كان يرجو لقاء ربه " وقوله تعالى " وقال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله "، فقد أجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحي السليم من العمى والمانع، اقتضى المعاينة والرؤية، وكذا قوله سبحانه وتعالى " يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه "، إن عاد الضمير إلى العمل فهو رؤيته في الكتاب مسطورا، وإن عاد إلى الرب سبحانه وتعالى، فهو لقاؤه. راجع ص ٥٤ - ٥٨ من حادي الأرواح لابن القيم.

لأن الرأي أنه جل شأنه، لا يرى ولا يحس إلا بعيون مخلوقة له ومجلي لائق باستعداد الرائي كما نقله الآلوسي عن بعض المحققين في تفسير قوله تعالى " وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة "، أنه إذا رفع الحجاب بينه تعالى وبينهم، ينظرون إليه وينظر إليهم عز وجل، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، فيرونه سبحانه، لكن لا من حيث ذاته البحث، ولا من حيث كل تجل حتى تجليه بنوره الشعاعي الذي لا يطاق، بل بتجل مطاق لهم وملائم لاستعدادهم، وأن هذا الحجاب غير الحجاب المشار إليه في حيث " حجابه النور، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه (أنواره وجلاله وعظمته التي خر منها موسى صعقا (١)، وتقطع الجبل دكا لما تجلى عليه) كل شئ أدركه بصره، فلا معنى لرؤية ذاته تعالى عند المحققين إلا رؤية حجابه (حجاب التنزل والتجلي)، كما أنه لا معنى لرؤية ذواتنا إلا رؤية ألوانها وأصواتها (٢)، وهذه لذة روحية عند من يفهمون الروحانيات!

الصلة بين اللذتين الروحية والحسية:

نحن نؤمن بأن لذة النظر إلى وجه الله تعالى تفوق كل اللذات، وأن لذة اللقاء والرضا أسمى نعيم. وإنا نرى أن اللذات الأخرى الثانوية لذات حسية

---

(١) سأل كليم الله موسى ربه تعالى النظر إليه، فقال له ربه تبارك وتعالى " لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه، فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل، جعله دكا " فأجابه بقوله " لن تراني " ولم يقل لا تراني ولا أني لست بمرئى، وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يرى، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار (الدنيا) لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى. راجع ص ٥٢ - ٥٤ من حادي الأرواح لابن القيم.

(٢) راجع ص ١٠٢ من أحكام الروح لأستاذنا المرحوم الشيخ حسنين مخلوف العدوي

تسمو بالروح، أو لذات روحية معنوية تطربها، لذلك قال مجاهد في قوله تعالى " وأزواج مطهرة " قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمنى والولد، فارتفع بلذة الأكل والشرب والنكاح، من المستوى البهيمي إلى مرقاة الروح!

فوضع الأزهار والرياحين الجميلة على المائدة، لا يلهب الرغبة في الطعام، بل يجعلها شريفة ويوجد حولها جوا روحيا يسمو بها بعض السمو!

وكذا غسل اليد، وكذا البدء ببسم الله في أوله وبحمده في آخره، وكذا إكثار الأيدي على الطعام، ولا ريب في أن القصد من هذا هو السمو بلذة الأكل وإحاطتها بأجواء روحية، تخرجها بقدر الإمكان عن ماديتها!

وكذا يمكن القول عن الصلة بين المرء وزوجه، هل يمكن قصرها على الصلة البهيمية وإبعاد الصلة القلبية الروحية، أم أن الصلة القلبية الروحية هي الأصل وما عداها تابع؟! ثم لماذا ننكر خطر الإشعاع الروحي؟ أما القول بأن السمو الروحي يعترضه أن كل شخص لا يمكن أن يتعدى درجته من النعيم، فمردود (١) بأنه لن يتعدى درجته، لأن ما حولها من نعيم يهيئ له السمو الروحي الدرجة المقدرة له!

هذا إذا جاريناهم لنستدرجهم، لأنه لم يقل أحد بتحديد اللذة، وإن كنا نختلف في درجات النعيم، فكما أنك في الدنيا، لك أن تستعمل ملكك في كل أوجه الاستعمال إلا الاستعمال المنافي للقانون أو الذي فيه إساءة الاستعمال الحق أو التعدي على الغير، فأقل ما يتصور أن تكون كذلك في الآخرة، لا يجد من استعمالك إلا بعد هذا الاستعمال عن جو السمو الروحي الذي يشع على المؤمنين، ثم إن تحديد الدرجات لا يمنع من أن أتمتع بكل ما أستطيع من النشوة الروحية، لأن الممنوع ليس الصعود في نشوتي بل الرقي عن درجتي، ثم إن الذي يحدد هذه الدرجة هو معرفة الله، فبقدر معرفته سبحانه ستكون درجات

---

(١) هذا ردنا على كلمتي الأستاذين محمد على حسنين جويق وداود حمدان ص ١٥٦٩ و ١٥٧٠ لمجلة الرسالة العدد ٣١٨ س ٧ لمحمود علي قراعة.

النعيم، وبقدر معرفته سبحانه ستكون اللذة (١).
ولعل الذين ينكرون هذه الفكرة يفهمون قول المناوي: إنه على من أراد أن ينع عن عالم الحسن ويرجع إلى ذاته، أن يعمل على ركود حواسه الظاهرة، ليقوى على أن يحسن بما لا يقع عليه الحس "! فإذا فهموا معنا أن النفس الإنسانية كما قال الغزالي " ليست جسما، ولا قوة جسمانية في المادة، بل هي جوهر مجرد متصرف في البدن، تصرف التدبير، من غير أن تكون داخلة فيه بالجزئية والحلول " استطاعوا أن يعرجوا إلى العالم العلوي (إذا سما جوهرهم)، وأن يسموا إلى درجة الخروج عن البدن، كأنهم مجردون لا أبدان لهم، فيروا أنفسهم داخلين في ذواتهم، خارجين عن سائر الأشياء، ويروا في نفوسهم المتجردة من أثقال البدن، أنواعا من الحسن والبهاء، ما تعجب وتريهم أنهم من الجوهر الأعلا الأفضل الشريف، وأنهم ذوو حياة فعالة كما قال العلامة مسعود التفتازاني، فيفهمون مع الصوفيين أن كل المخلوقات بأسرها مظاهر صفات الله وطريق إلى القرب منه، وزيادة معرفته!
فالصور الجميلة الآدمية، موصلة إلى معرفة معانيها، وما معانيها إلا إدراك قدرة الله تعالى وعظيم شأنه وجليل جماله، فإذا ناجى المخلوق صورة آدمية جميلة، فهو لا يناجيها هي بالذات، وإنما يناجي خالقها البادي جماله ومظاهر قوته في معانيها، ولذا تجد ابن الفارض يقرر في تائيته الكبرى أن حسن كل مليح ومليحة معار من حسن الذات الإلهية، وأن قيسا حينما هام بلبنى، وأن مجنون ليلى حين هام بليلى، وأن كثير عزة حين هام بعزة، وأن كل العشاق حين

---

(١) أفضل الجنة وأشرفها وأعظمها نورا، الوسيلة، وفيها معنى التقرب إلى الله بأنواع الوسائل، وقد كشف سبحانه عن هذا المعنى كل الكشف بقوله " أولئك الذين يدعون، يبتغون إلى ربهم الوسيلة، أيهم أقرب "، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق محبة لربه، كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله تعالى، ووجب أن نسألها له بما نلنا على يده من الإيمان. راجع ص ١٢٤ - ١٣٥ من حادي الأرواح لابن القيم.

يهيمون بمعشوقيهم، لا يهيمون بهم على الحقيقة، وإنما هم يهيمون بالذات الإلهية التي صورت تلك الصور، فأحسنت خلقها!

فالذي يشوق، هو الحياة في العيون، حياة بريقها وحياة سحرها، والحياة في الحديث والحياة في الابتسامة، وإن خفة الروح هي التي تحبب إلينا الجميل، تحبب إلينا حديثه، فنجعله مغناطيسا جاذبا لقلوبنا وتبعث إلينا فتنة فتور عينيه، وترسل إلينا تحية ابتسامته، وأنها صلة روحية، يعوزنا لتذوقها أن نتفهمها لنحول بينها وبين البهيمية، ولنقدس بها المنعم علينا بها!

ولقد ظن قوم - كما قال ابن مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق - " أن كمال الإنسان وغايته هما في اللذات الحسية، وأنها هي الخير المطلوب والسعادة القصوى! وظنوا أن جميع قواه الأخرى، إنما ركبت فيه من أجل هذه اللذات والتوصل إليها، وأن النفس الشريفة التي سميناها ناطقة، إنما وهبت له ليرتب بها الأفعال ويميزها ويوجهها نحو هذه اللذات، لتكون الغاية الأخيرة، هي حصولها على النهاية والغاية الجسمانية! وظنوا أيضا أن قوى النفس الناطقة (أعني الذكر والحفظ والروية)، كلها تراد لتلك الغاية، وقالوا وذلك أن الإنسان إذا تذكر اللذات التي حصلت له بالمطاعم والمشارب والمناكح، اشتاق إليها وأحب معاودتها، قد صارت منفعة الذكر والحفظ إنما هي الذات وتحصيلها، ولأجل هذه الظنون التي وقعت لهم، جعلوا النفس المميزة الشريفة كالعبد المهين، وكالأجير المستعمل في النفس الشهوية، لتخدمها في المآكل والمشارب والمناكح، وترتبها لها، وتعد لها إعدادا كاملا موافقا! وهذا هو رأي الجمهور من العامة الرعاع وجهال الناس السقاط، وإلى هذه الخيرات التي جعلوها غايتهم، تشوقوا عند ذكر الجنة والقرب من بارئهم عز وجل، وهي التي يسألونها ربهم تبارك وتعالى، في دعواتهم وصلواتهم، وإذا خلوا بالعبادات، وتركوا الدنيا وزهدوا فيما، فإنما ذلك منهم على سبيل المتجر والمرابحة في هذه بعينها، كأنهم تركوا قليلها ليصلوا إلى كثيرها، وأعرضوا عن الفانيات منها، ليبلغوا إلى الباقيات، إلا أنك تجدهم مع هذه الاعتقادات وهذه الأفعال، إذا ذكر عندهم الملائكة

والخلق الأعلى الأشرف، وما نزههم الله عنه من هذه القاذورات، علموا بالجملة أنهم أقرب إلى الله تعالى وأعلى رتبة من الناس، وأنهم غير محتاجين إلى شئ من حاجات البشر، بل يعلمون أن خالقهم وخالق كل شئ، الذي تولى إبداع الكل، هو منزه عن هذه الأشياء، متعال عنها غير موصوف باللذة والتمتع، مع التمكن من إيجادها، وأن الناس يشاركون في هذه اللذات الخنافس والديدان وصغار الحشرات والهمج من الحيوان، وإنما يناسبون الملائكة بالعقل والتمييز "!

وبذا ترى ابن مسكويه، وضع لنا أساسا ساميا نبيلا في تقدير اللذات، وأن أسماها ما كان ربانيا! ويقول " إن الإنسان ذو فضيلة روحانية، يناسب بها الأرواح الطيبة التي تسمى ملائكة، وذو فضيلة جسمانية، يناسب بها الأنعام لأنه مركب منهما، فهو بالخير الجسماني الذي يناسب به الأنعام، مقيم في هذا العالم السفلي مدة قصيرة ليعمره وينظمه ويرتبه، حتى إذا ظفر بهذه المرتبة على الكمال، انتقل إلى العالم العلوي، وأقام فيه دائما سرمدا، في صحبة الملائكة والأرواح الطيبة "!

وابن مسكويه يقرر أنه " ليس يعني بالعلوي المكان الأعلى في الحس، ولا بالسفلى المكان الأسفل في الحس، بل كل محسوس فهو أسفل، وإن كان محسوسا في المكان الأعلا، وكل معقول فهو أعلا، وإن كان معقولا في المكان الأسفل " ثم يذكر لنا أن " للحس لذة عرضية على حدة، وأن للعقل لذة ذاتية على حدة، وأن من لا يعرف اللذة الذاتية، لا يعرف اللذة بالحقيقة ولا يلتذ بها! " وهو يسمى اللذة الناقصة التي تشاركنا فيها الحيوانات " لذة انفعالية " ويسمى التامية التي يختص بها الحيوان الناطق " لذة فعلية أي فاعلة " وسمى اللذات الحسية المقترنة بالشهوات " عرضية، لأنها تزول سريعا وتنقضي وشيكا، بل تنقلب لذاتها فتصير غير لذات، بل تصير آلاما كثيرة أو مكروهة بشعة مستقبحة، أما اللذة الذاتية فتسمى كذلك، لأنها لا تصير في وقت آخر غير لذة، وتنتقل عن حالتها، بل هي ثابتة أبدا "!

وخرج ابن مسكويه من هذا بالحكم بأن " السعيد تكون لذته ذاتية لا عرضية،

وعقلية لا حسية، وفعلية لا انفعالية، وإلهية لا بهيمية! " ثم يحدثنا بعد ذلك عن " الجوهر الإلهي الذي في الإنسان، وأنه إذا صفا من كدورته التي حصلت من ملابسة الطبية، ولم تجذبه أنواع الشهوات وأصناف محبات الكرامات، اشتقاق إلى شبيه، ورأى بعين عقله، الخير الأول المحض الذي لا تشوبه مادة، فأسرع إليه، وحينئذ يفيض نور ذلك الخير الأول عليه، فيلتذ به لذة لا تشبهها لذة، ويصير إلى معنى الاتحاد، استعمل الطبيعة البدنية أم لم يستعملها، إلا إنه بعد مفارقته الطبيعة بالكلية، أحق بهذه المرتبة العالية، لأنه ليس يصفو الصفاء التام، إلا بعد مفارقته الحياة الدنيوية! "

فترى من هذا كله، إعزاز الجانب الروحي في الدنيا، وهو بلا ريب في الآخرة أعز، وفي الجنة أوفى! وبذا ترى أن أسمى جزء في التمتع، هو التمتع بالفكرة الروحية، وأن يكون المؤمنون في مقعد صدق، عند مليك مقتدر، ينظرون إلى وجه الله الكريم، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، ولهم فيها كل ما يشتهون، وأنهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون، وأنهم ينالون بالنظر من الله، ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان (١)!

مدى تمتع كل من الروح والجسد:

هناك من يرى أن الجنة رمز ومجاز، ولكن لما كانت اللذات الأخروية، هي لذات لا تدرك إلا بالعقل المحض، فقد قال مثل العلامة الأصفهاني " أنه لما أراد الله أن يقرب معرفة تلك اللذات من أفهام الكافة، شبهها ومثلها لهم، بأنواع ما تدركه حواسهم، فقال تعالى " مثل الجنة التي وعد المتقون، فيها أنها من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغر طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى "، ليبين للكافة طيبها بما عرفوه من طيب المطاعم، وقال " مثل الجنة "، ولم يقل الجنة، لينبه الخاصة على أن ذلك تصوير وتمثيل، وأن الإنسان إن اجتهد ما اجتهد أن يطلع على تلك السعادة، فلا سبيل إليها إلا على

---

(١) راجع مجلة الرسالة ص ١٦٨١ - ١٦٨٤ من العدد ٣٢١ س ٧ لمحمود علي قراعة.

أحد وجهين: أحدهما أن يفارق هذا الهيكل، ويخلف وراء هذا المنزل، فيطلع على ذلك! والثاني أن يزيل قبل مفارقة الهيكل، الأمراض النفسانية، فيطلع من وراء ستر رقيق على ما أعد له (١) "!

ولكنا لا نستطيع الأخذ بنظرية التصوير هذه، ونستبعدها، لمعارضتها لكثير من النصوص، وسبق وجود جنة بها أشياء مادية، وخرج منها أبوانا آدم وحواء، لأكلهما من الشجرة المحرمة (٢)!

ويتشبث أصحاب النظرية الحسية ببديهية أن الإنسان مكون من جسد وروح، ولقد ذكر الخوارزمي (٣) " أن الأفعال والتدبير والآراء كلها تصدر من الجسد الحي، وأن الطاعة والمعصية حصلتا منهما جميعا، وأن الثواب بالطاعة والعقاب بالمعصية، إنما صدر من الجسد بواسطة الروح، فيجب أن يكون العقاب والثواب لهما، وأن كلا منهما محتاج لصاحبه، لولا الروح، لكان القالب خشبا مسندة، ولولا القالب، لما كان الروح!

فكل راض وفاعل وعامل من وجه، فيكون الخطاب والثواب لهما جميعا "

حتى قال ابن عباس رضي الله عنه: لم تزل الخصومة قائمة إلى يوم القيامة، حتى تختصم الروح مع الجسد، فيقول الجسد " أي رب! خلقتني كالجثة، ولم تجعل لي يدا أبطش بها، ولا رجلا أمشى بها، ولا عينا أبصر بها، حتى دخل هذا على كالشهاب، فبه نطق لساني وسمعت أذني وأبصرت عيني وبطشت يدي، فأحل عليه العذاب، ونجني من النار "، فتقول الروح " يا رب! خلقتني كالريح، ولم تجعل لي يدا ورجلا وعينا وسمعا، فلم أتحرك إلا بحركته، ولم أسكن إلا بسكونه

----

(١) راجع ص ٥٩ – ٦٢ من تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين للأصفهاني.

(٢) اختلف في تعيين شجرة المحنة، فقال ابن مسعود هي الكرم، وقال ابن عباس هي السنبلة، وقال ابن جريج هي شجرة التين! ويقول ابن عطية إن الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة، فخالف هو إليها، وعصى في الأكل منها، وقيل إنهما أكلا من غير التي أشير إليها (جنسها لا عينها) وقيل إنهما نسيا الوعيد. راجع صفحة ٣٠١ – ٣٠٧ من تفسير القرطبي ج ١.

(٣) راجع ص ٦٠ و ١٢٩ من مفيد العلوم ومبيد الهموم للخوارزمي.

فما ذنبي وما جرى يا رب أحل عليه العذاب، ونجني "، قال: فيضرب الله تعالى لهما مثلا، كالأعمى والمقعد يصطحبان، أما الأعمى، فلا يبصر، والمقعد لا يقدر على المشي، فبلغا إلى بستان، فجلسا وتشاورا وطلبا حيلة، فقال الأعمى " أنا لا أبصر، فمر أنت وآت بالعنب "، وقال المقعد " بل مر أنت! فإني لا أقدر على المشي "، ثم تناظروا وتناصفا، وقالا " هذا " هذا أمر لا يتم بأمر دون الآخر، يا أعمى قم أنت فارفعني، حتى أتسلق الحائط، وأقطف العنب "، فلما توافقا، قطعا العنب وأكلاه، وقال المقعد " لولا أنت يا أعمى، لما أكلت! " وقال الأعمى " لولا أنت يا مقعد، لما أكلت! ".

ونحن لم ننكر تمتع الروح والجسد، فالذي يحتمل الجدال، ليس ذكر أن النعيم سيلحق الجسم والروح، أم لا،؟ لأنا على ذلك، بل هل أغلب اللذات سيكون حسيا أو روحيا؟

على أن وجود الأشياء الحسية في الجنة، لا يعني أن التمتع سيكون حسيا مطلقا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يجب ملاحظة تغيير ما في طبيعة الإنسان ونشأته في الدنيا، عنها في الآخرة، لوجود قوى نفسية نازعة للبهيمية، وعدم إمكان تصور هذا في الآخر، على فهم أن أصحاب الجنة لم يصلوا إليها إلا لأنهم فهموا خصائص الروح، وتمتعوا كثيرا، كل حسب درجته بلذاتها، فلا يعقل أن يكون حبهم للذة الروحية في العالم الثاني، أقل من حبهم لها في عالمهم الدنيوي! ثم إن للجو حكمه فجو الجنة جو روحي، لا يمكن أن يعمد إنسان إلى الخروج عنه! على أن الحسيات لها بعض العناية بها، وللذاتها بعض الرغبة فيها، على أن تكون ثانوية وتابعة، وعلى أن تنحو نحو الفكرة الروحية!

ويكفي أصحاب النظرية الحسية، من علامات روحية اللذات في الجنة، أن أصحاب الجنة سيكونون ولا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشية، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد الله رب العالمين (١)!

---

(١) هذا ردنا رد على رد أستاذنا المرحوم الدكتور زكي مبارك في العدد ٣١٦ من الرسالة. راجع ص ١٨٠٣ و ١٨٠٤ من العدد ٣٢٣ من مجلة الرسالة ص ٨ لمحمود علي قراعة.

تصور العالم الثاني:
يجب تصور ذلك العالم الثاني، الخالي من الحقد ومن لا شهوة ومن الغضب ومن الجبن والخور والحزن، ومن الكفاح لأجل العيش، أو القتال لأجل الحياة، في دار غرسها الله بيده، وجعلها مقرا لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم وملكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص!
ففي الجنة أشياء كثيرة مادية، سينعم المؤمن الصالح بها، ولكن لن يحول وجودها بين ألها وبين الالتذاذ الروحي بها وبما هو أسمى منها، من عدم وجود اللغو أو التأثيم، بل بث فكرة السلام، سلام القلب والروح، وكرامة الله ورضوانه!
الحق أن تشبثنا بالحسيات، دعانا إلى فهم أن اللذة قاصرة عليها، أو أنها أصل وما عداها تابع أو فرع، وفاتنا أن القائلين بذلك يعكسون الأمور، لأن السمو لا يقاس بالكثرة، بل يقاس بالتأثير، على أنهم إذا تدبروا لوصلوا إلى أن الصريح من السلام ورضوان الله، لن تكون لذته إلا روحية، وما في الجنة من صور حور وولدان، فأسمى تمتع بها روحي، بالنشوة التي يبعثها الجمال والتقديس الواجب لخالق ها الجمال، وكل من النشوة والتقديس روحي، وما عدا ذلك من فاكهة وأنهار ولحم طير ونكاح للحور، وما في الجنة من الأواني والفرش، فلن يبقى للحسيات منها بعد فكرة النشوة الروحية، من رؤية جميل أو شم جميل أو ذوق جميل أو لمس أو سماع جميل، إلا القليل، ثم لذة البدن قاصرة، فلذة العين في النظر إلى ما تستحسنه، ولذة السمع في الاستماع إلى ما يستطيبه، ولذة المس في لمس ما يستلذه، وهكذا، أي أن لكل جزء لذة تختص به لا يشاركه فيها غيره، لذا تعرض لها الآفات في الدنيا، فتعوقها عن شهوتها، ولكن يحصل التعميم في الآخرة، كما ذكرنا بأن يلتذ بالنظر بكلياته وبالسمع بكلياته، وهكذا، وهذا التعميم كما تعرف في الدنيا قاصر على الروح، بمعنى أن لذة الروح لكبرها وسموها، لا تقبل التخصيص، ولذا لن نتصور

كما قال الأصفهاني – لذة الآخرة على الحقيقة إلا إذا طالعناها، فإذا طالعناها شغلنا الفرح والتلذذ بها عن كل ما دونها، كما قال تعالى " أصحاب الجنة اليوم، في شغل فاكهون "، لا أخذا منا بالنظرية التصويرية، التي يقول بها الأصفهاني كما ذكرنا، بل ميلا منا إلى القول بأنه إذا عرفنا لذة الرضوان ولذة السلام الروحية، فستكون كل اللذات ثانوية، وتقل عنايتنا بها، حتى نسموا بها إلى جعلان تنزع منزعا روحيا، وبذا نترك للحسن القليل من اللذات، ونعني كل العناية باللذة الكبرى لذة الروح!

صور لنفسك هذا العالم، بعد أن تصور لها خلوه من الآلام وخلوه من الشرور، حتى خلوه من كثير مما نعده خيرا في عالمنا، ثم بعد ذلك استفت قلبك، فيريك أن أهله يأكلون ويشربون، ويمزجون أكلهم وشربهم بما هو أسمى من الأكل والشرب، وأنهم ينظرون لما أوتوا من حور وولدان نظرات أسمى من نظراتنا، وأنهم في تنقلهم بين قصورهم وجناتهم، لهم غذاء هو الفضيلة الوحيدة التي ستبقى لهم، وفيها كل معاني الفضائل الأخروية والدنيوية، فضيلة الحب!

مثل لنفسك أنهم سيحيون بالحب، وأنهم سينعمون بحب الله وحب ما آتاهم الله وحب ما أنعم به عليهم، وأنهم سيلهمون التحميد والتسبيح، كما نلهم النفس في دنيانا، واستفت قلبك... يرشدك لخير سبيل!

تصويرنا للذين الحبة والروحية:

فيجب على كل نصير للنظرية الحسية، أن يرى أن أقل ما يمكن تصوره في عالم سيخلو من البؤس والفقر والهرم، ولن تهئ طبيعته المجال لظهور الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة وما يدخل تحت كل منها من فضائل إنسانية، إن ينعم الناس فيه بالاتحاد والمحبة، فتتاح لهم أنواع المحبة من إلهية وصداقة أخوية، وفهم نزوع الأشياء المادية التي ستوجد هناك، إلى التمتع بالنشوة الروحية لوجودها، وأن ليس معنى هذا خلو الجنة من استلذاذا بالحور العين الاستلذاذ الحسى أو بما هنالك من مأكل ومشروب وحلي وحلل، وبذا نضع

الفكرة الحسية في الدرجة الثانوية، بل ونسموا بها إلى فهمها الفهم القريب من الروح، ونحن بذلك نسمو باللذة الممكن تصورها في الجنة، من غير نكران لحسيتها، بجعلنا الحسي تابعا للروحي، إذ أكثر جزئياته روحية!

ولو تدبرت قوله تعالى في سورة السجدة " فلا تعلم نفس، ما أخفى لهم من قرة أعين، جزاء بما كانوا يعلمون "، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي عن ربه تعالى " أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر "، لو صلت إلى أن المذكور في القرآن في سورتي الرحمن والواقعة وغيرهما، وفي الأحاديث الصحيحة، لا يفيد أن المذكور، مذكور على سبيل الحصر، بل على سبيل التمثيل لما سيوجد، ولعرفت أنا وقد ستبعدنا الأخذ بالنظرية التصويرية، لمخالفتها لكثير من النصوص، وما تحتمله قرائنها مثل الطمث للحور، لا نجد أمامنا إلا أحد أمرين: إما أن تأخذ بالنظرية الحسية (أي بتغليب اللذات الحسية على الروحية)، أو أن نأخذ بالنظرية الروحية التي تغلب اللذة الروحية على الحسية، فلو أخذنا بحسيتها تغليبا، لنزلنا بها ولشبهناها بلذة الدنيا المتواضعة، فأخرجناها من سموها الذي يجب أن تكون فيه، لتتلاءم مع نفوس أصحابها، ولذا لم يكن بد من أن نأخذ بروحية اللذات تغليبا!

على أن أسمى لذات الجنة بعد رضوان الله تعالى، دوامها، دوامها وأبدية الجنة، ولقد سمى الله تعالى الجنة بالحيوان في قوله " وإن الدار الآخرة، لهي الحيوان "، والمراد بها الجنة عند أهل التفسير، أي لهي دار الحياة الدائمة التي لا موت فيها ولا تنغيص ولا نفاد لها! ولا ينفي هذه الأبدية الاستثناء الوارد في قوله تعالى " وأما الذين سعدوا، ففي الجنة، خالدين فيها ما دمت السماوات والأرض، إلا ما شاء ربك، عطاء غير مجذوذ (١) "، لأنه سبحانه أكد خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن، وأخبرهم أنهم لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى، فيمكن أن يقال إنه سبحانه أخبر عن خلودهم في الجنة في

---

(١) أي غير مقطوع.

كل وقت، إلا يشاء ألا يكونوا فيه، وذلك يتناول وقت كونهم في الدنيا، وفي البرزخ، وفي موقف القيامة، وعلى الصراط، وكون بعضهم في النار مدة (١)، فهل لذة الأبدية، لذة روحية أو حسية؟

ثم إن أسمى لذات الجنة إطلاقا، لذة رضى الله ورؤيته وتكليمه لأهل الجنة وزيارتهم ربهم تبارك وتعالى، هذا وإن سألت عن يوم المزيد، وزيارة العزيز الحميد، ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه، كما ترى الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر، كما تواتر عن الصادق المصدوق النقل فيه - كما نقل ابن القيم في كتابه حادي الأرواح - " فاستمع يوم ينادي المنادي " يا أهل الجنة! إن ربكم تبارك وتعالى، يستزيركم، فحي على زيارته! "، فيقولون " سمعا وطاعة "، وينهضون إلى الزيارة مبادرين، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم، فيستوون على ظهورها مسرعين، حتى إذا الداعي منهم أحدا، أمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فنصب هناك، ثم نصبت لهم منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من زبرجد ومنابر من ذهب ومنابر من فضة، وجلس أدناهم - وحاشاهم أن يكون فيهم دنيء - على كثبان المسك، ما يرون أن أصحاب الكرسي فوقهم في العطايا، حتى إذا استقرت بهم مجلسهم، واطمأنت بهم أماكنهم، نادي المنادي " يا أهل الجنة! إن لكم عند الله موعدا، يريد أن ينجزكموه " فيقولون " ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار؟ " فبينما هم كذلك،

---

(١) اختلف في هذا الاستثناء، فقيل مدة مكثهم في النار، وقيل إنه استثناء استثناء الرب تعالى ولا يفعله، والفراء يجعل معنى إلا في ذلك ومعنى الواو سواء، أي سوى ما شاء الله من الزيادة على مدة دوام السماوات والأرض، وسيبويه يجعل إلا بمعنى لكن! وقيل: الاستثناء مدة البرزخ، وقيل مدة الدنيا، وقيل إنه إعلام لهم إنهم مع خلودهم، في مشيئة الله! وقال ابن قتيبة إن إلا بمعنى سوى، أي سوى ما شاء الله أن يزيدهم، وقيل ما بمعني من، أي إلا من شاء ربك أن يدخله النار بذنوبه من السعداء، وقيل المراد بالسماء والأرض، سماء الجنة وأرضها، وهما باقيتان أبدا. راجع ص ١٥٥ و ١٦٠ من حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم.

إذ سطع لهم نور، أشرقت له الجنة، فرفعوا رؤسهم، فإذا الجبار جل جلاله وتقدست أسماؤه، قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: " يا أهل الجنة! سلام عليكم "، فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم " اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام "، فيتجلى لهم الرب تبارك وتعالى يضحك إليهم، ويقول: " يا أهل الجنة! "، فيكون أول ما يسمعون منه تعالى " أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب، ولم يروني، فهذا يوم المزيد "، فيجتمعون على كلمة واحدة " أن قد رضينا، فارض عنها "، فيقول " يا أهل الجنة! إني لو لم أرض عنكم، لم أسكنكم جنتي! هذا يوم المزيد، فاسألوني "، فيجتمعون على كلمة واحدة " أرنا وجهك ننظر إليه "، فيكشف لهم الرب جل جلاله الحجب ويتجلى لهم، فيغشاهم من نوره ما لولا أن الله تعالى قضى أن لا يحترقوا، لاحترقوا، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه تعالى محاضرة، حتى أنه ليقول " يا فلان! أتذكر يوم فعلت كذا وكذا... "، يذكره ببعض غدراته في الدنيا، فيقول " يا رب! ألم تغفر لي؟ "، فيقول " بلى! بمغفرتي بلغت منزلتك هذه "، فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة، ويا قرة عين الأبرار بالنظر إلى وجه الكريم في الدار الآخرة، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة " وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة، ووجوه يومئذ باسرة، تظن أن يفعل بها فاقرة "!

وقد قال الشافعي عند تلاوة قوله تعالى " كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون "، أنه لما احتجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا، فالرب تبارك وتعالى يرى ولا يدرك، كما يعلم ولا يحاط به، فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عيانا، ولا تدركه أبصارهم، " لا تدركه الأبصار (١) وهو يدرك الأبصار "!

وقال تعالى " إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم، أي أنه سبحانه يكلم عباده المؤمنين، وقد أخبر الله سبحانه أنه يسلم على أهل

---

(١) أي لا تحيط به.

الجنة، وأن ذلك السلام حقيقة، وهو قول من رب رحيم، وقال عز وجل " يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا "، أي أنهم يزورون ربهم تبارك وتعالى فهل لذة رضى الله سبحانه وتكليمه للمؤمنين ورؤيتهم له وزيارتهم، لذة روحية أو حسية؟

على أن أغلب عنصر في اللذات الأخرى عموما، هو التمكن والتملك وحرية الاستعمال والأمن فيه، وعدم فقده أو تصور فقده أو العجز عن الحصول عليه أو استمرار التمتع به، وكلها مركبات روحية!

* * *

ومع هذا فكيف لذتك، إذا دخلت الجنة، كيف تشاء، فلتغلب الروحية في لذتك كما سيكون، أو فلتغلب الحسية فيها إن استطعت، فليس هذا هو المهم، إنما المهم أنه ليس للجنة إلا طريق واحد بينه تعالى في قوله " وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل، فتفرق بكم عن سبيله "، وقوله " وعلى الله قصد السبيل، ومنها جائز (١) " وقوله " هذا صراط علي مستقيم "! وأما السبل في قوله تعالى " فقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام "، فهي شعب الإيمان بإجابة داعي الله، فلتجب داعي الله تكن سعيد الدارين، ولتعمل الخير ما استطعت، لتفوز فوزا عظيما!

ذكر البخاري في صحيحه عن وهب بن منبه أنه قيل له " أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ " قال " بلى! ولكن ليس من مفتاح إلا وله أسنان! فإن أتيت بمفتاح له أسنان، فتح لك، وإلا لم يفتح "! وعن العلاء بن زياد أنه كان يذكر بالنار، فقال رجل " لم تقنط الناس؟، فقال وأنا أقدر أن أقنط الناس! والله تعالى يقول " يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا "، ويقول: " وإن المسرفين هم أصحاب النار "، ولكنكم تحبون أن تبشروا بالجنة على مساوي أعمالكم، وإنما بعث الله محمدا مبشرا بالجنة لمن أطاعه، ومنذرا بالنار لمن عصاه (٢)! "

---

(١) أي ومن السبيل جائر عن القصد، وهي سبيل الغي.

(٢) راجع ص ١٦١ من تيسير الوصول ج ١ للشيباني.

على أن لنا في الرجوع إلى الله، جنتين، جنة في الدنيا، وجنة في الأخرى!
ويقول ابن القيم رضي الله تعالى عنه " حياة هذه الروح بهذه الكلمة " لا إله إلا الله "، فكما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها، فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشها أطيب عيش، قال تعالى " وأما من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى "، فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله ولا شوق إلى لقائه والفرح به والرضا عنه، وبه مأوى روحه في هذه الدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا، كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد، ومن حرم هذه الجنة، فهو لتلك الجنة أشد حرمانا! والأبرار في تعليم وإن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا، والفجار في جحيم، وإن اتسعت عليهم الدنيا (١) "!

* * *

فحي على جنة الدنيا، بمعرفة الله وطاعته والشوق إلى لقائه والرضا عنه!
وحي على جنة الأخرى، بتحقيق هذه المعرفة! " لا إله إلا الله " أفنى بها عمري، " لا إله إلا الله " ألقى بها ربي، " لا إله إلا الله " أدخل بها قبري، " لا إله إلا الله " أخلو بها وحدي، " لا إله إلا الله " أحبه وأخشاه، " لا إله إلا الله " عز وجل، " لا إله إلا الله " تبارك وتعالى، " لا إله إلا الله " الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين "، حي على الفلاح! حي على الفلاح (٢)!

---

(١) راجع ص ٣٦٦ من الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية.
(٢) راجع ص ١٣٢ - ١٧٥ من نعيم الجنة لمحمود علي قراعة.

الفصل السابع

موازنة بين روحانية إحياء علوم الدين للغزالي وروحانية إنجيل برنابا

إنجيل برنابا، محاورة بين المسيح النبي عليه السلام وبين تلاميذه، سؤال من التلاميذ، وجواب من المعلم كما كانوا يسمونه، بما علمه به ربه، وإحياء علوم الدين للغزالي، كتاب متصوف مسلم، قسمه إلى أربعة أجزاء: قسم العبادات وقسم المعاملات وقسم المنجيات وقسم المهلكات، وكتبه بعد قراءته للقرآن الكريم وسنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، واطلاعه على ذخيرة الفقه والفلسفة الإسلامية وأحوال الناس في عصره، وعلى كتب النصارى واليهود، فإذا استبعدنا نسخ بعض ما جاء في شريعة عيسى، كسنة الله في أن تنسخ الشريعة اللاحقة بعض ما جاء في الشريعة السباقة، لحكمة أرادها الله في ترقي الكون، وإذا استبعدنا معنى أن إحياء علوم الدين للغزالي إنما هو كتاب باحث عالم صالح متصوف مجتهد، وأن إنجيل برنابا هو كتاب نبي رواه عن لسانه أحد حوارييه، فإننا نجد تشابها عجيبا في روحانيتهما، الأول كحجة للإسلام، والثاني كنبي من أنبياء الله جاء قبل الإسلام ومهد له وبشر به، ولأن الله تعالى قد وفقني للكتابة عن الثقافة الروحية في كل من إنجيل برنابا وكتاب إحياء علوم الدين للغزالي، فسأحاول أن أتحدث بإيجاز في هذا الفصل عن هذه الروحانية.

(١) التعليم:

فالغزالي يرى أن نتعلم العلم، وأن يأخذ كل منا منه بالقدر الذي ينفعه في دينه ودنياه، وأن يبتعد عن العلوم التي لا خير فيها، لأنها مضيعة للوقت، أو لأنها مزعزعة لليقين، عابثة بإيمان القلوب، وأن يقدر كل منا نفسه في العالم

وحده مع الله، وبين يديه الموت والعرض والحساب، والجنة والنار، ويتأمل فيما يعنيه مما بين يديه، ويترك ما سواه. وهو لهذا يرى العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى، ويقول " إن نور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصورة "، فيجب على المتعلم تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف، لأن " الصور في هذا العالم غالبة على المعاني، والمعاني باطنة فيها، وفي الآخر تتبع الصور المعاني، وتغلب العماني، فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية "، ويجب أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي إكمال القرب من الله سبحانه وتعالى والترقي إلى جوار الملأ الأعلى والملائكة المقربين، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء (١) "!

* * *

وجاء في إنجيل برنابا " الحق أقول لكم إن الخبز لا يفيد الحياة الزمنية. كما يفيد العلم الحياة الأبدية "، " ليكن ما يتعلم الإنسان للعمل، لا لمجرد العلم به "، " كما يجب على الإنسان أن يصرف أمواله في خدمة الله، هكذا يجب عليه أن يصرف التعليم، بل يكون هذا أشد وجوبا عليه، لأن للكلمة قوة على أن تحمل نفسا على التوبة، على حين أن الأموال لا تقدر أن ترد الحياة للميت (٢)! " فمتى أهمل المعلمون التبشير بكلمة الله، لانشغالهم بتشاغل العالم، زرع الشيطان ضلالا في قلب البشر، تنشأ عنه شيع لا تحصى من التعليم الشرى "، " إنه يجب أن يصغي إلى من يبشر متى بشر بتعليم صالح، كان المتكلم هو الله، لكنه يتكلم بفمه "، " على من يريدون تعليم الآخرين، أن يعيشوا أفضل من الآخرين، لأنه لا يستفاد شئ ممن يعرف أقل منا نحن، فكيف إذا يصلح الخاطئ حياته، وهو يسمع من شر نمه يعلمه "، " لا يوجد هنا على الأرض شر من أن يستر

---

(١) راجع ص ١١ و ١٢ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.
(٢) راجع ص ١٢١ و ١٢٢ و ٢٣٢ و ٢٩١ من إنجيل برنابا.

الإنسان نفسه بالعلم ووشاح الدين، ليخفي خبثه "، " إن من يحب أن يتعلم كثيرا " يخاف الله قليلا، لأن من يخاف الله، يقنع بأن يعرف ما يريده الله فقط (١) "!
" لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن كل تعليم يحول الإنسان عن غايته التي هي الله، لشر تعليم!
" ما الفائدة من أن يتعلم المرء كثيرا جدا ولا يحفظه؟ إن الله لا يطلب أن تكون بصيرتنا جيدة، بل قلبنا، وهكذا لا يسألنا في يوم الدينونة عما تعلمنا، بل عما عملنا (٢) "!
" إنه لما كان الله واحدا، كان الحق واحدا، فينتج من ذلك أن التعليم واحد، وأن معنى التعليم واحد، فالإيمان إذا واحد... لأن الرب إلهنا غير متغير، ولقد نطق رسالة واحدة، لكل البشر (٣) "!
(٢) معرفة الله:
يقول الغزالي إن " خاصية الإنسان العلم والحكمة، وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله، فيه كمال الإنسان، وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال "، ويقول " إن جملة عالم الملكوت والملك إذا أخذت دفعة واحدة، تسمى الحضرة الربوبية، لأنها محيطة بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شئ سوى الله تعالى وأفعاله، ومملكته وعبيده من أفعاله فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة، وهو سبب استحقاق الجنة بحسب سعة معرفته، وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله "!
ويقول " إن الركن الأول من أركان الإيمان هو في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأنه واحد، وأن مدار الركن على عشرة أصول: معرفة وجوده تعالى، والعلم بأنه قديم لم يزل، أزلي ليس لوجوده أول وليس لوجوده آخر، والعلم

---

(١) راجع ص ٢٠٥ و ٢٠٧ و ٢٢٤ و ٢٢٨ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١٩٠ و ١٩١ و ٢٣١ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ١٩٠ من إنجيل برنابا.

بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز، بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز، والعلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر، وليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل، والعلم بأنه تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات، والعلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذي أراده، والعلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار، مقدسا عن الجهات والأقطار، مرئي بالأعين والأبصار في الآخرة، والعلم بأنه عز وجل لا شريك له.

وأما الركن الثاني من أركان الإيمان، فهو العلم بصفات الله تعالى، بأنه " على كل شئ قدير " و " بكل شئ عليم "، وأنه حي وأنه هو المبدئ والعبد والفعال لما يريد، سميع بلا أذن، بصير بلا حدقة، لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير، وأنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام هو وصف قائم بذاته، ليس بصوت ولا حرف، بل لا يشبه كلامه كلام غيره، وأن الكلام القائم بنفسه قديم، وكذا جميع صفاته، وأن علمه قديم، وأن إرادته وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها، على وفق سبق العلم الأزلي.

والركن الثالث من أركان الإيمان هو العلم بأفعال الله تعالى، وأن كل حادث في العالم هو فعله وخلقه واختراعه، وأن انفراد الله سبحانه وتعالى باختراع حركات العباد، لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الإكتساب، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا، وخلق الاختيار والمختار جميعا، ون فعل العبد وإن كان كسبا للعبد، فلا يخرج عن كونه مراد الله سبحانه وتعالى، وأن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتكليف العباد، ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه، إذ هو الموجب والآمر والناهي، وأنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه، وأن لله عز وجل إيلام. الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق لأنه متصرف في ملكه، وأنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء، في فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده (إذ القبيح ما لا يوافق الغرض، فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الباري سبحانه، فهو محال، إذ لا غرض له، فلا يتصور منه قبيح، كما لا يتصور منه ظلم، وإن أريد القبيح ما لا يوافق غرض الغير، فهذا مجرد تشبه، ثم معنى

الحكيم، العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته)، وأن معرفة الله سبحانه وتعالى وطاعته، واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل (لأن العقل وإن أوجب الطاعة، فإما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض، والغرض محال في حق المعبود تعالى) وأنه لا يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين (١) ".

* * *

وجاء في إنجيل برنابا " لما بلغ إبراهيم بيت أبيه، خاف أن يدخل البيت..
وجلس تحت شجرة نخل، حيث لبث منفردا وقال: " لا بد من وجود إله ذي حياة وقوة أكثر من الإنسان، لأنه يصنع الإنسان "، حينئذ التفت حوله وأجال نظره في النجوم والقمر والشمس، فظن أنها هي الله، ولكن بعد التبصر في تغيراتها وتحركاتها، قال " يجب أن لا تطرأ على الله حركة ولا تحجبه الغيوم..
فتكلم الله قائلا " أنا الله أحد، ولا إله غيري، أضرب وأشفى، أميت وأحيي، أنزل إلى الجحيم وأخرج منه، ولا يقدر أحد أن ينقذ نفسه من يدي (٢) ".
" ليس لله شبه بشري، ولذلك لا يلد "، " إن الله لا يدركه قياس، إلى حد أني أرتجف من وصفه "، " إن الله قدير "، " إن الله صلاح، بدون لا صلاح إن الله موجود، بدون لا وجود، إن الله حياة بدونها لا أحياء، هو عظيم حتى أنه يملأ الجميع، وهو في كل مكان، هو وحده لا ند له، لا بداية ولا نهاية له، ولكنه جعل لكل شئ بداية، وسيجعل لكل شئ نهاية، لا أب ولا أم له، لا أبناء ولا إخوة ولا عشراء، ولما كان ليس لله جسم، فهو لا يأكل ولا ينام ولا يموت ولا يمشي ولا يتحرك، ولكنه يدوم إلى الأبد، بدون شبيه بشري لأنه غير ذي جسد، وغير مركب، وغير مادي، وأبسط البسائط، وهو جواد

---

(١) راجع ص ٢٧ - ٣٤ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.
(٢) راجع ص ٤٣ و ٤٤ من إنجيل برنابا.

لا يحب إلا الجود، وهو مقسط، حتى إذا قاص أو صفح، فلا مرد له ".
" إن الله لما كان بالحقيقة كاملا، لم يكن له حاجة إلى غناء، لأنه الغناء عنده نفسه (١) "، " لا صالح إلا الله وحده (٢) ".
" كتب في عهد الله الحي وميثاقه، أن ليس لإلهنا بداية، ولا يكون له نهاية.. إنه كتب هناك أن إلهنا قد برأ كل شئ بكلمته فقط.. إنه مكتوب هناك أنه لا يرى وأنه محجوب عن عقل الإنسان، لأنه غير متجسد وغير مركب وغير متغير.. إنه مكتوب هناك أن ليس لله حاجة، لأنه لا يأكل ولا ينام ولا يعتريه نقص.. إنه مكتوب هناك أن إلهنا في كل مكان وأن لا إله سوه الذي يضرب ويشفي ويفعل ما يريد.. أيها الرب إلهنا! هذا هو إيماني الذي آتي به إلى دينونتك شاهدا على كل من يؤمن بخلاف ذلك (٣) ".
" إن الله خالقنا أحد "، " فليتمجد اسم الله القدوس "، " تبارك اسم الله القدوس الذي من جوده ورحمته، أراد فخلق خلائقه ليمجدوه "، " إنه لا يمكنك أن تراه وتعرفه على الأرض تمام المعرفة، ولكنك ستراه في مملكته إلى الأبد حيث يكون قوام سعادتنا ومجدنا (٤) ".
" أعترف بك إلهنا الأحد، الذي ليس لك من بداية، ولا يكون لك من نهاية، لأنك برحمتك أعطيت كل الأشياء بدايتها وستعطي بعدلك الكل نهاية، لا شبه لك بين البشر، لأنك بجودك غير المتناهي، لست عرضة للحركة ولا لعارض، ارحمنا لأنك خلقتنا ونحن عمل يديك "، " أنت وحدك إلهنا الذي جيب له المجد والإكرام إلى الأبد "، " لتنفذ مشيئتك أيها الإله القدير الرحيم "، " إنك لعادل أيها الرب إلهنا، لأن لك وحدك الإكرام والمجد بدون نهاية "، "
أيها الرب إلهنا إله إبراهيم وإله إسماعيل وإسحق وإله آبائنا... أيها الرب

---

(١) راجع ص ٣ و ٢١ و ٤٩ و ٦٨ و ٧٧ و ١٤١ و ١٦١ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١٠٣ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ١٤٦ و ١٤٧ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ٣٠٣ و ١١ و ٦٠ و ٨٨ و ٣١١ و ٢١ من إنجيل برنابا.

القدير الغيور.. أيها الرب الإله الرحيم المخلص.. أيها الرب الجواد الغني في الرحمة، امنح خادمك أن يكون بين أمة رسولك يوم الدين.. لكن هكذا أيها الرب العظيم الرحيم "، " أيها الرب القدير الرحيم، ارحم وأصخ السمع إلى كلمات عبدك (١) "!

(٣) توحيد الله والتوكل عليه:

يرى الغزالي أنه يجب على الإنسان أن يفهم التوحيد بأن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب، ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يرى الوسائط مسخرة لا حكم لها، وأن يوقن بالثواب والعقاب، بأن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، موقنا بأن الله تعالى مطلع عليه في كل حال، مشاهد لهواجس ضميره وخفايا خواطره وفكره، ويظهر أثرا الخشية عليه، لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكرا بالله تعالى، وكانت صورته دليلا على عمله فيكون أكثر بحثه عن علم الأعمال (فإن أصل الدين التوقي من الشر)، ويكون اعتماده في علوم على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه.

ويقول إن التوحيد يترجمه قولك " لا إله إلا الله وحده لا شريك له "

وإن هذا التوحيد له أربع مراتب:

(١) أن يقول الإنسان بلسانه " لا إله إلا الله " وقلبه غافل عنه أو منكر، وهذا يسمى توحيدا، مناقضا للتثليث الذي صرح به النصارى، ولكنه قد يصدر من المنافق، الذي يخالف سره جهره.

(٢) أن يصدق بمعنى اللفظ، كما صدق به عموم المسلمين، وهو اعتقاد العوام.

(٣) أن يشاهد ذلك بطريق الكشف، بواسطة نور الحق، وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

---

(١) راجع ص ١٣٠ و ٥٨ و ٧٦ و ٢٣٣ و ٣٠٩ و ٣١٠ و ٢٦ من إنجيل برنابا.

(٤) أن لا يرى في الوجود إلا واحدا، وهي مشاهدة الصديقين، وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد، لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا، فلا يرى نفسه.
ويوضح الغزالي المرتبة الثالثة، بأن ينكشف لك ألا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق ورزق، وعطاء ومنع، وحياة وموت، وغنى وفقر، إلى غير ذلك مما ينطق عليه اسم، فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الهل عز وجل، لا شريك له فيه، وإذا انكشف لك هذا، لم تنظر إلى غيره، بل كان منه خوفك، وإليه رجاؤك، وبه ثقتك، وعليه اتكالك، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخرون، لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السماوات والأرض.
فالله هو الأول، بالإضافة إلى الموجودات، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد، وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه فإنهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل، إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة، فيكون ذلك آخر السفر، فهو آخر في المشاهدة أول في الوجود، وهو الباطل بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة، الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس، وهو الظاهر بالإضافة إلى ما بطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة، الباطنة النافذة في عالم الملكوت.
ولكن كيف الجمع بين التوحيد والشرع؟ ومعنى التوحيد " أن لا فاعل إلا الله تعالى "، ومعنى الشرع " إثبات الأفعال للعباد "؟
يقول الغزال إن الله فاعل، بمعنى أنه المخترع الموجد، ومعنى كون العبد فاعلا، أنه العمل الذي خلق فيه الإرادة، بعد أن خلق فيه العلم، فارتبطت القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط، وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة، وارتباط المخترع بالمخترع " وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى "، فاسم الفاعل في الحقيقة لله، ولغيره بالمجاز.
ويقول إن لمقام التوكل على الله اعتقادا قاطعا، لا يستريب فيه، وهو أن يصدق تصديقا يقينا لا ضعف فيه ولا ريب، أن كل ما قسم الله تعالى بين عباده

من رزق وأجل، وسرور وحزن، وعجز وقدرة، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على التريب الواجب الحق على ما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل، بل كل فقر وضر في الدنيا، فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة، وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص، فهو نعيم بالإضافة إلى غيره، إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار!

فالغزال يقول إن الخير والشر مقضي به، وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة، فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره، بل كل صغير وكبير مستطر، وحصوله بقدر معلوم منتظر، وما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك!

ويقول " إن التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده، فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم، أن لا فاعل إلا الله، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العطف والعناية والحرمة بحمله العباد والآحاد، وأن ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه، علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك، عناية ورحمة، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، ولا إلى نفسه وحوله وقوته، فإنه لا حول (أي حركة) ولا قوة (أي قدرة ة إلا بالله "! ويقول إن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك، فهذا إما لضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإذا لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته!

وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وهذا ظن الجهال، فالمقطوع به (وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف)، أن لا شبع، بلا أكل، والمقطوع به أن الثمر لا يأتي من غير

زرع، وأنه لن يكون لك نسل من غير زواج، وهكذا.. فليس التوكل في هذا المقام بالعمل، بل بالعلم (بأنه تعالى خلق الطعام واليد والأسنان الخ.. وأنه الذي يطعمك ويسقيك)، والحال (بأن يسكن قلبك وتعتمد على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام، لأن اليد قد تفلج)، والمقصود إصلاح القلب ليتحرك لذكر الله، والمحذور ما يشغل عن الله عز وجل، وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها، فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب، مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى، واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة (١).

* * *

وجاء في إنجيل برنابا " كان إبراهيم ابن سبع سنين، لما ابتدأ أن يطلب الله فقال يوما لأبيه " يا أبتاه من صنع الإنسان؟ " أجاب الوالد الغبي " الإنسان "... فأجاب إبراهيم " يا أبي ليس الأمر كذلك، لأني سمعت شيخنا ينتحب ويقول " يا إلهي! لماذا لم تعطني أولادا؟... "!

واستمر إبراهيم يستنكر بأسئلته الاستنكارية، كقوله: " كم إلهنا هنالك يا أبي؟ " و " إذا قتل الإله الذي يريد بي شرا، إلهي، فماذا أفعل؟ " " وأي شبه تشبه الآلهة؟ "، " وإذا يا أبى ليس للآلهة نفس، فكيف يهبون الأنفاس ولما لم تكن لهم حياة، فكيف يعطون إذا الحياة؟، ثم يقرر " من المؤكد يا أبي أن هؤلاء ليسوا هم الله "، " ولما انصرف كل أحد من الهيكل... أخذ إبراهيم إذ ذاك الفأس، وقطع قوائم الأصنام إلا الإله الكبير بعلا، فوضع الفأس عند قوائمه بين جذاذ التماثيل (٢) "، " وسألوا إبراهيم عن السبب الذي لأجله حطم آلهتهم، فأجاب إبراهيم " إنكم لأغبياء، أيقتل الإنسان الله، إن

---

(١) راجع ص ٢٩ - ٤٣ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

(٢) راجع ص ٣٩ و ٤٠ من إنجيل برنابا.

الذي قتلها، إنما هو الإله الكبير، ألا ترون الفأس التي له عند قدميه "، ثم تهكم قائلا " إنه لا يبتغي له أندادا (١) "!

" أعلم جيدا أنه لا يوجد اليوم تماثيل من خشب في إسرائيل ولكن توجد تماثيل من جسد... الحق أقول لكم، لا تقول الشريعة اعبد بل أحب الرب إلهك بكل نفسك وبكل قلبك وبكل عقلك... حقا إن كل ما يحبه الإنسان، ويترك لأجله كل شئ سواه، فهو إلهه، وهكذا فإن صنم الزاني هو الزانية، وصنم النهم والسكير جسده، وصنم الطماع الفضة والذهب، وقس عليه كل خاطئ آخر... أقول لكم إن عبادة الأصنام هي أعظم خطيئة، لأنها تجرد الإنسان بالمرة من الإيمان، فتجرده من الله، بحيث لا تكون له محبة روحية، ولكن كل خطيئة أخرى، تترك للإنسان أمل نيل الرحمة.. تذكروا ما تكلم الله به.. مخاطبا إسرائيل " لا تصنع لك تمثالا في السماء، ولا مما تحت السماء، ولا تصنعه مما فوق الأرض ولا مما تحت الأرض، ولا مما فوق الماء، ولا مما تحت الماء، إني أنا إلهك قوي وغيور، ينتقم لهذه الخطيئة (٢) "!

" فلما جاء يسوع إلى أورشليم.. اقترب الجنود ليجربوه.. أجابوا " إذا كان لا يعلم أين إلهك، فكيف خلقنا؟ أرنا إلهك.. فقال حينئذ يسوع " لو كان لكم عيون لأريتكم إياه، ولكن لما كنتم عميانا، فلست بقادر على أن أريكم إياه.. إن العيون الجسدية لا تبصر إلا الكثيف والخارجي، فلا تقدرون من ثم إلا على رؤية آلهتكم الخشبية والفضية والذهبية، التي لا تقدر أن تفعل شيئا، أما نحن.. فلنا عيون روحية وهي خوف إلهنا ودينه، ولذلك لا يمكن لنا رؤية إلهنا في كل مكان.. لا حاجة بنا إلى الكلام، بل إلى الأعمال، فاطلبوا لذلك من آلهتكم أن تخلق ذبابة واحدة، فأعبدها.. إذا كانت لا تقدر أن تصنع ذبابة واحدة جديدة، فإني لا أترك لأجلها، ذلك الإله الذي خلق كل شئ بكلمة واحدة (٣) "!

---

(١) راجع ص ٤١ و ٤٢ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٥٠ و ٥٢ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٢٣٥ و ٢٣٦ من إنجيل برنابا.

أجاب يسوع " كل كلمة من كلماتي صادقة، لأنها ليست مني، بل من الله الذي أرسلني إلى بيت إسرائيل (١) ".
" إني لا أقول أنا وحدي في إسرائيل أعرف الحق، لأن هذه اللفظة وحدك تختص بالله وحده لا بغيره، لأنه هو الحق الذي وحده يعرف الحق، فإذا قلت هكذا، صرت لصا أعظم، لأني أكون قد سرقت مجد الله، وإن قلت إني وحدي عرفت الله، وقعت في جهل أعظم من الجميع، وعليه فإنكم قد ارتكبتم خطيئة فظيعة بقولكم إني وحدي أعرف الحق (٢) "!
" إنك أيها الرجل تدعوني صالحا، ولكنك تخطئ، لأن الله وحده هو الصالح (٣) ".
" لو وهب الله كل شئ، لما عرف الإنسان نفسه أنه عبد الله، ولكان حسب نفسه سيد الفردوس (٤) "، " الله الذي لا يحتاج إلى شئ، عمل بحسب مشيئته، لذلك لما خلق الإنسان، خلقه حرا... ليكون أشد حبا لخالقه وليعرف جوده، لأن الله وهو قادر على كل شئ، غير محتاج إلى الإنسان، فإنه إذ خلقه بقدرته على كل شئ، تركه حرا بجوده، على طريقة يمكنه معها مقاومة الشر وفعل الخير "، " إن الخطيئة لا يمكن أن تنشأ في إنسان إلا مضادة لله، إذ ليست الخطيئة إلا ما لا يريده الله، فإن كل ما يريده، أجنبي عن الخطيئة (٥) "، " لما كان الله غير مركب وغير متغير، فهو أيضا لا يريد ويريد الشئ الواحد (٦) "، " ولما انتصب آدم على قدميه، رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصها " لا إله إلا الله، محمد رسول الله (٧) ".

---

(١) راجع ص ٣٧ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٢٣٨ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ١٠٣ و ٢٤٠ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ٢٤٠ من إنجيل برنابا.
(٥) راجع ص ٢٤١ من إنجيل برنابا.
(٦) راجع ص ٢٥٢ من إنجيل برنابا.
(٧) راجع ص ٦١ من إنجيل برنابا.

" لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، لا يمكن أن يكون مرضيا لله من يخالف أقل وصاياه، ولكنه يكون الأصغر في ملكوت الله، بل لا يكون له نصيب هناك (١) "، " لعله يحضر في بالكم أن الله أعطى الشريعة حبا بالشريعة، حقا إن هذا الباطل، بل منح الله شريعته، ليفعل الإنسان حسنا، حبا في الله (٢) "، " إنكم لا تعلمون أن الطعام الحقيقي هو عمل مشيئة الله، لأنه ليس الخبز الذي يقيت الإنسان ويعطيه حياة، بل بالحري كلمة الله بإرادته، فلهذا السبب لا تأكل الملائكة الأطهار، بل يعيشون ويتغذون بإرادة الله (٣) "، " إن الله لغني برحمته، حتى أن دمعة واحدة ممن ينوح لاغضا به الله، تطفئ الجحيم كله بالرحمة العظيمة التي يمده الله بها، على أن مياه ألف بحر - لو وجدت - لا تكفي لإطفاء شرارة من لهب الجحيم، فلذلك يريد الله، خذلا للشيطان، وإظهارا لجوده هو أن يحسب في حضرة رحمته كل عمل صالح، أجرا لعبده المخلص، ويحب منه أن يعامل غيره هكذا، أما الإنسان في خاصة نفسه فعليه أن يحذر من قول " لي أجر "، لأنه يدان (٤) ".

" لو قال عاموس ليس في المدينة من خير إلا كان الله صانعه، لكان لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، قد ارتكب خطأ فاحشا، لأن العالم لا يرى خيرا سوى الظلم والخطايا التي تصنع في سبيل الباطل، وعليه يكون الناس أشد توغلا في الإثم، لأنهم يعتقدون أنه لا يوجد خطيئة أو شر لم يصنعه الله، وهو أمر تتزلزل لسماعه الأرض... إذا أنه لما قال عاموس " إن الله صنع شرا في المدينة " مكلما العالم، فهو إنما تكلم عن البلايا، التي لا يسميها شرا إلا الخطاة (٥) "!

____

(١) راجع ص ٥٩ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١٢٣ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ١٢٩ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ٢٩٥ من إنجيل برنابا.
(٥) راجع ص ٢٥٣ من إنجيل برنابا.

" إذا قال فريسيونا إن المنبوذ لا يقدر أن يصير مختارا فهل يقولون سوى أن الله يستهزئ بالبشر، كما لو استهزأ بأعمى يريه شيئا أبيض، وكما لو استهزأ بأصم يكلمه في أذنيه (١) "!
" يقول إلهنا على لسان حزقيال النبي، يقول الله لعمري إذا رجع البار عن بره وارتكب الفواحش، فإنه يهلك، ولا أذكر فيما بعد شيئا من بره، فإنه سيخذله أمامي، فلا ينجيه وهو متوكل عليه (٢) "، " أجاب أندراوس "، ولكن كيف يجب أن يفهم ما قاله الله لموسى من أنه يرحم من يرحم ويقسى من يقسى؟ أجاب يسوع " إنما يقول الله هذا، لكيلا يعتقد الإنسان أنه خلص بفضيلته، بل ليدرك أن الحياة ورحمة الله، منحهما له الله من جوده، ويقوله ليتجنب البشر الذهاب إلى أنه يوجد آلهة أخرى سواه (٣) "!
" حقا إن كل عمل صالح يصدر عن الإنسان لا يفعله الإنسان، بل إنما يفعله الله فيه، لأن وجوده من الله الذي خلقه، أما ما يفعله الإنسان، فهو أن يخالف خالقه ويرتكب الخطيئة التي لا يستحق عليها جزاء، بل عذابا (٤) "!
" من خلق الإنسان من لا شئ؟ من المؤكد أنه هو الله، الذي وهبه العالم برمته لمنفعته... وليس للإنسان في شقائه شئ يعطيه لله سوى أعمال أفسدتها الخطيئة، لأنه بارتكابه الخطيئة كل يوم يفسد عمله، لذلك يقول أشعيا النبي " إن برنا كخرقة حائض "، فكيف يكون للإنسان استحقاق وهو غير قادر على الترضية (٥)؟ "، " لما كان الله غير محدود والإنسان محدودا، لم يستحق الإنسان الله (٦) ".

---

(١) راجع ص ٢٥٦ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٢٥٧ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٢٥٧ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ٢٧٢ من إنجيل برنابا.
(٥) راجع ص ٢٧١ من إنجيل برنابا.
(٦) راجع ص ٢٧٠ من إنجيل برنابا.

" الحق أقول لكم إن إلهنا لما خلق الإنسان، لم يخلقه بارا فقط، بل وضع في قلبه نورا، يريه أنه خليق به خدمة الله (١) ".
" أضرع إلى الله الذي خلقك وهو يعطيك صحة (٢) "، " لعمر الله إني لست بقادر على غفران الخطايا ولا أحد آخر، ولكن الله وحده يغفر، ولكن كخادم لله أقدر أن أتوسل إليه لأجل خطايا الآخرين (٣) "، " لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا، لأني لست أنا الذي خلقكم، بل الله الذي خلقكم يحميكم (٤) "!
(٤) عبادة الله تعالى:
قال تعالى: " ما يريد الله، ليجعل عليكم في الدين من حرج، ولكن يريد ليطهركم "، ويقول الغزالي إن لهذه الطهارة أربع مراتب:
(١) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات (بالاستنجاء، فإذا فرغ منه اشتغل بالغسل (٥)، فإذا فرغ اشتغل بالوضوء أو التيمم بالتراب الخالص اللين، إن تعذر عليه استعمال الماء)!
(٢) تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام!
(٣) تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة!
(٤) تطهير السر عما سوى الله تعالى.
والصلاة ذكر لله عز وجل، إذ قال الله تبارك وتعالى " وأقم الصلاة

---

(١) راجع ص ١٢٢ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١١ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ١١١ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ١٠٢ من إنجيل برنابا.
(٥) أخبرني صديق ثقة، أنه كان يغتسل متثاقلا إذا استحلم (أي خرج المني منه، وهو نائم)، ويتساءل عن حكمة الغسل هنا مع إيمانه بفائدته الصحية؟! وحدث أن مرض له قريب عزيز مرض الموت، ودخل عليه وهو لم يغتسل، فأنكره وطلب إخراجه (لأنه عند الموت، تحضر الملائكة)، وشيع جنازة أخرى وهو جنب، وكان يشعر بتحية روح الميت عند التشييع، ولكنها لم تشيعه هذه المرة، فازداد إيمانا بفائدة الغسل الروحية!

لذكري "، وحضور القلب هو روح الصلاة، إذ الذكر فيها هو مناجاة مع الله عز وجل (حمد وثناء وتضرع ودعاء)، والمقصود به وبالركوع والسجود هو التعظيم قطعا، ولا يكون معظما لله عز وجل الغافل عنه!

وعلاج إحضار القلب في الصلاة التفهم بصرف الذهن إلى إدراك المعنى، بالإقبال على الفكر ودفع الخواطر الشاغلة، بالنزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب إليها، وهجوم حب الله ومعرفة جلاله وعظمته وهيبته (والهيبة خوف مصدره الإجلال)، ورجاء ثواب الله عز وجل بالصلاة، واستشعار حقارة النفس والتقصير، والعجز عن القيام بحقه تعالى، لتصفو صلاتك عن الخواطر!

ويقول الغزالي إن سبب موارد الخواطر، إما أن يكون أمرا خارجا، أو أمرا في ذاته باطنا، أما الخارج، فما يقرع السمع أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه، ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل، وعلاجه قطع هذه الأسباب (بأن يغض بصره، أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه، ويقرب من حائط عند صلاته، حتى لا تتسع مسافة بصره)!

وأما الأسباب الباطنة فهي أشد، فإن من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا، لا ينحصر فكره في فن واحد، فهذا طريقه أن يرد النفس قهرا إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة وشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم، بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة، فإن كان لا يسكن هائج أفكاره، بهذا فلا ينجيه إلا أن يعاقب نفسه، بقطع تلك العلائق، أما الشهوة القوية المرهقة، فلا يزال يجاذبها وتجاذبه، ثم تغلبه، وتنقضي جميع صلاته في شغل المجاذبة.

وقد قال تعالى " وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة "، وهو ربع العشر، ويقول الغزالي إن على مريد الآخرة بزكاته أو بصدقة التطوع: فهم وجوب الزكاة ومعناها، ووجه الامتحان فيها، وشكر النعمة، وتطهير النفس من صفة البخل بأن تتعود بذل المال، وامتحان حبنا لله بمفارقتنا لجزء من أموالنا، فيعجل عن وقت الوجوب إظهارا، للرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء،

ويتبع الإسرار، فإن الإسرار، فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة، وأن يظهر حيث يعلم أن في الإظهار ترغيبا للناس في الاقتداء، وأن لا يفسد صدقته بالمن (بذكرها) والأذى (بإظهار والتكبر على الأخذ وتعييره بالفقر وانتهاره وتوبيخه)، وأن يستصغر العطية ولا يعجب بها، وأن ينتقي من ماله أجوده وأحبه إليه وأطيبه، وأن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة، فيطلب الأتقياء والمعيلين والأقارب والأصدقاء!

أما الصوم، فيقول الغزالي فيه إنه ثلاث درجات: ثوم العموم (بكف البطن والفرج عن قضاء الشهوة)، وصوم الخصوص (بكف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام، وكل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله عز وجل)، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار (بالكف عن الطعام الحرام)، وأن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار، إذ مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى، لتقوى النفس على التقوى، وأن يكون قلبه بعد الإفطار مضطربا بين خوف رد صومه، ورجاء قبوله)، وصوم خصوص الخصوص (بصوم القلب عن الأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية)!

أما الحج، فيقول الغزالي فيه إن أوله فهم موقعه من الدين، ويوضح ذلك بقوله إنه لا وصول إلى الله تعالى إلا بالتنزه عن الشهوات، والتجرد لله سبحانه وتعالى في جميع الحركات والسكنات، فيجب أن يجعل مريد الحج عزمه خالصا لوجه الله تعالى، بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة، فإذا عزم فيجب عليه قطع العلائق برد المظالم، والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي، وطلب الزاد من موضع حلال، وإذا اشترى ثوبي الإحرام ليتزر بهما عند القرب من بيت الله عز وجل، فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه عند لقاء الله عز وجل (إذ هذا الثوب قريب من ذلك الثوب، إذ ليس فيه مخيط كما في الكفن)، وهكذا...

ومن العبادة تلاوة القرآن، ويرى الغزالي أنه ينبغي أن يحضر القارئ في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أنه " لا يمسه إلا المطهرون " (في ظاهر الجسم

وباطن القلب)، وتلاوة القرآن حق تلاوته، هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فاللسان يرتل (بتصحيح الحروف بتؤدة من غير استعجال) والعقل يترجم (بتفسير المعاني) والقلب يتعظ (بالتأثر بالانزجار والائتمار)، فيترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل، لا من نفسه!

ومن العبادة ذكر الله ودعاؤه، والمؤثر النافع هو الذكر على الدوام (أوفى أكثر الأوقات) مع حضور القلب، وهو المقدم على سائر العبادات، وهو غاية ثمرتها العملية، وأول الذكر يوجب الأنس والحب، وآخره يوجبه الأنس والحب، ويصدر عنه (١)!

* * *

وجاء في إنجيل برنابا " إن الله خلق الحس لأجل اللذة، ولا يعيش إلا بها، كما أن الجسد يعيش بالطعام، والنفس تعيش بالعلم والحب، فهذا الحس يخالف النفس بسبب الغيظ الذي يلم به، لحرمانه من الجنة بسبب الخطيئة، لذلك وجب أشد الوجوب وآكده على من لا يريده تغذيته باللذة الجسدية، أن يغذيه باللذة الروحية...

وهكذا فإن أول شئ يتبع الحزن على الخطيئة، الصوم.. فمتى رأى أن اللذة جعلته يخطئ إلى الله خالقه، باتباعه الحس في طيبات العالم هذه، فليحزن لأنه فعل هكذا، لأن هذا يحرمه من الله حياته، ويعطيه موت الجحيم الأبدي.. ومتى رأى أن الحس يمقت الصوم، فليضع قبالته حال الجحيم... وليضع قبالته مسرات الجنة "!

"... ليكن التائب متيقظا، لأن الشيطان... يحاول أن يحمله على عدم الصوم في حال من الأحوال بشبهة المرض، فإذا لم يكن هذا، أغراه بالغلو في الصوم، حتى ينتابه مرض، فيعيش بعد ذلك متنعما، فإذا لم يفلح في هذا، حاول

----

(١) راجع ص ٤٥ – ٥٥ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

أن يجعله يقصر صومه على ترك الطعام الجسدي، حتى يكون مثله لا يأكل شيئا، ولكنه يرتكب الخطيئة على الدوام.. إنني أقول لكم إنه لا يجب على التائب أن يفاخر بصومه ويحتقر الذين لا يصومون، بل يجب عليه أن يحزن للخطيئة التي يصوم لأجلها.. فإني أقول لكم حقا إن من يسهر بالجسد وينام بالنفس، لمصاب بالجنون... إن نوم النفس هو نسيان الله ودينونته الرهيبة، فالنفس التي تسهر، إنما هي التي ترى الله في كل شئ، وفي كل مكان، وتشكر جلالته في كل شئ، وعلى كل شئ " (١)

"... يجب على المرء هنا على الأرض أن يبكي دواما، وأن البكاء يجب أن يكون من القلب! " (٢)

" الإنسان لا يقدر هنا على الأرض، أن يذكر الله خالقه على الدوام، إلا الأطهار، فإنهم يذكرون الله علي الدوام، لأن فيهم نور نعمة الله، حتى لا يقدرون أن ينسوا الله... ارغبوا أن تكونوا أطهارا إذ أحببتم أن تتغلبوا دائما على شقاء الغفلة (٣) "!

" أما ما يجب على التائب عمله بعد ذلك من تحويل الثرثرة إلى صلاة، فهو ما يقول به العقل، حتى لو لم يكن وصية من الله، لأن الإنسان يخطئ في كل كلمة قبيحة، ويمحو الهنا خطيئته بالصلاة "، " أما ثمر الباطل، فهو هذا، أنه يوهن البصيرة إلى حد لا يمكنها معه أن تكون مستعدة لقبول الحق.. ولكن شر من ذلك الرجل الذي يصرف وقته في المزاح، فمتى أراد أن يصلي ذكره الشيطان بنفس تلك الفكاهات المزحية (٤) ".

" والحق أقول لكم إن من لا يصلي فهو شر من الشيطان، وسيحل به عذاب أعظم، لأنه لم يكن للشيطان قبل سقوطه عبرة في الخوف، ولم يرسل

---

(١) راجع ص ١٦٣ - ١٦٦ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١٧١ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ١٦٨ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ١٨٢ - ١٨٤ من إنجيل برنابا.

الله له رسولا يدعوه إلى التوبة "، " صلوا بدون انقطاع يا تلاميذي، لتعطوا
لأن من يطلب يجد ومن يقرع يفتح له، ومن يسأل يعط، ولا تنظروا في
صلواتكم إلى كثرة الكلام، لأن الله ينظر إلى القلب "، " الحق أقول لكم
إن المرائين يصلون كثيرا في كل أنحاء المدينة. لينظرهم الجمهور ويعدهم قديسين،
ولكن قلوبهم ممتلئة شرا، فهم ليسوا على جد فيما يطلبون، فمن الضروري
أن تكون مخلصا في صلاتك، إذا أحببت أن يقبلها الله "، " الحق أقول لكم
إن الذي يذهب ليصلي بدون تدبر، يستهزئ بالله "، " الحق أقول لكم إن
ماء البحر كله لا يغسل من يحب الآثام بقلبه، وأقول لكم أيضا إنه لا يقدم أحد صلاة
مرضية لله، إن لم يغتسل، ولكنه يحمل نفسه خطيئة شبيهة بعبادة
الأوثان "، " صدقوني بالحق أنه إذا صلى إنسان لله كما يجب، ينال كل ما يطلب (١)
"

اتركوا الخطيئة واعبدوا الله بخوف، فبهذا تخلصون (٢) "، " الحق أقول لك
إن الله روح وحق، ويجب أن يسجد له بالروح والحق (٣) "!
" إن كثيرين من الذين يعيشون بلا لوم، قد خدعوا من الشيطان، وبينا هم
يصلون، مزجوا بصلاتهم المشاغل العالمية، فأصبحوا في ذلك الوقت ممقوتين
في نظر الله "، " الحق أقول لكم إن كل من يصلي إنما يكلم الله، أفيصح
أن تتركوا التكلم مع الله لتكلموا الناس؟ "، " لعمر الله إنه يجب على كل من
يخالف الله، أن ينفصل في كل عمل صالح عن أعمال العالم، لكيلا يفسد العمل
الصالح (٤) "، " الحق أقول لكم إن المرائين والأمم يصلون ويتصدقون أكثر
من أخلاء الله، ولكن لما لم يكن لهم إيمان، لم يتمكنوا من التوبة، ولهذا كانوا
ملعونين (٥) "!
" الإيمان خاتم يختم الله به مختاريه، وهو خاتم أعطاه لرسوله، الذي أخذ

---

(١) راجع ص ٥٦ - ٥٩ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٨١ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ١٣٧ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ١٣١ و ١٣٢ من إنجيل برنابا.
(٥) راجع ص ١٣٩ من إنجيل برنابا.

كل مختار الإيمان على يديه، فالإيمان واحد، كما أن الله واحد، لذلك لما خلق الله قبل كل شئ رسوله، وهبه قبل كل شئ الإيمان الذي هو بمثابة صورة الله وكل ما صنع الله وما قال، فيرى المؤمن بإيمانه كل شئ، أجلى من رؤيته إياه بعينه "، " صدقني أنه بالإيمان يخلص كل مختاري الله، ومن المؤكد أنه بدون إيمان لا يمكن لأحد أن يرضي الله، ولذلك لا يحاول الشيطان إن يبطل الصوم والصلاة والصدقات والحج، بل هو يحرض الكافرين عليها، لأنه يسر أن يرى الإنسان يشتغل بدون الحصول على أجرة، لن يحاول جهده بجد أن يبطل الإيمان، لذلك وجب بوجه أخص أن يحرص على الإيمان بجد، وآمن طريقه لذلك أن تترك لفظه لماذا، لأن لماذا أخرجت البشر من الفردوس (١) ".

(٥) حب الله تعالى:

يقول الغزالي: " إن البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشد إدراكا من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل، أعظم من جمال الصور الظاهرة لأبصار، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس، أتم وأبلغ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى "، ولكي يبين الغزالي تحقيق معنى محبة العبد لله تعالى بين لنا أسباب المحبة عموما، ثم ذكر أدلة وجودها، بل قوة هذه الأدلة في الله فيقول إن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته، ومن عرف نفسه وعرف ربه، عرف قطعا أن لا وجود له من ذاته، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده، من الله تعالى وإلى الله وبالله، ومن خلا عن هذا الحب، فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته، وذهل عن ربه، وخالقه، فلم يعرفه حق معرفته! وثاني أسباب الحب هو الإحسان، ولو عرف الإنسان حق المعرفة، لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط، وهو المستحق لهذه المحبة وحده، وأن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز (فالله المحسن هو الذي اضطر المحسن إليك وسخره،

---

(١) راجع ص ١٣٩ - ١٤١ من إنجيل برنابا.

إما لغرض آجل وهو الثواب، أو عاجل وهو الثناء، ثم إن الله أنعم على العالمين، إحسانا إليهم ولأجلهم، بإيجادهم وتكميلهم وترفيههم وتنعيمهم (لا لحظ وغرض يرجع إليه، فإنه يتعالى عن الأعراض)! وثالث أسباب الحب، أن يحب الشئ لذاته، لا لحظ ينال منه وراء ذاته (وذلك كحب الجمال)، فإذا ثبت أن الله جميل، كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله جميل يحب الجمال "، فالحسن ليس مقصورا على مدركات البصر، وإن كل شئ جماله أن يحضر كماله اللائق به والممكن له، ومن أمثلة جمال الصور الباطنة جمال العلم والقدرة والكمال، والله هو أجل المعلومات، فأحسن العلوم وأشرفها معرفته، ويختص به، ولا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق، فالكمال لله وحده، وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله، فهو المنفرد بالكمال، المنزه عن النقص، المقدس عن العيوب، فالجميل المطلق هو الله!

ورابع أسباب الحب هو لذة جمال المعاني والصور، وحب المعاني الباطنة أكثر من حب المعاني الظاهرة، عند ذوي البصائر.!

وخامس أسباب الحب هو المناسبة الخفية (تناسب الأرواح) بين المحب والمحبوب، والتعارض والتناسب أيضا يقتضي حب الله تعالى، لمناسبة باطنة هي قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء، والتخلق بأخلاق الربوبية، وذلك في اكتساب محامد الصفات، على أن الروح أمر رباني " قل الروح من أمر ربي "، " فإذا سويته ونفخت فيه من روحي "!

ويقول الغزالي إنه لو اجتمعت أسباب الحب في شخص واحد، تضاعف الحب لا محالة، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه، لأنها مجتمعة في حقه تعالى بجملتها في أقصى درجات الكمال، ولا يوجد في غيره إلا آحادها، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل، ومجاز محض لا حقيقة له!

ويقول الغزالي إن مقتضى سنة الله تعالى أن النفس تحجب بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية، عن مشاهدة المعلومات

الخارجة عن الخيال، فإذا ارتفع الحجاب بالموت، بقيت ملوثة بكدورات الدنيا وإن كانت متفاوتة، فمنها ما تراكم عليه الخبث وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم ومنها ما لم يخرج عن قبول التزكية، فيعرض على النار عرضا، يقمع منه الخبث الذي هو متدنس به، فإذا أكمل الله تطهيرها، يتجلى له الحق سبحانه وتعالى تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى علمه كانكشاف تجلى المرآة بالإضافة إلى ما تخيله، وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية (من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة)، ولا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا، والتجلي على درجات كالمعرفة، فإذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته، فأصل السعادات هي المعرفة " والذين آمنوا. أشد حبا الله "!

وأصل حب الله لا ينفك عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة،

ولكن يرى الغزالي أن العبد يكتسب حب الله تعالى في الدنيا، حتى ينتهي إلى العشق بسببين: قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب " وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه "، وأظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول، ولكنا نرى الأمر غير ظاهر لانبهار العقول ودهشتها عن إدراكه، إذ عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في غاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول، فصار ظهوره سبب خفائه، ومن قويت بصيرته، لا يرى إلا الله تعالى، ولا يعرف غيره، فيعلم أن ليس في الوجود إلا الله، وأفعاله أثر من آثار قدرته، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها، ومن هذا حاله فلا ينظر إلى شئ من الأفعال إلا ويرى الفاعل، ويذهل عن الفعل!

وقال الله تعالى " يحبهم ويحبونه "، وقد اشترط للمحبة غفران الذنب، فقال: " قل إن كنتم تحبون الله، فاتبعوني، يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم "، ويقول الغزالي إن الموجود التابع لا يكون مساويا للموجد المتبوع، فكان استعمال لفظ الحب في حق الخالق بطريق الاستعارة والمحبة في وضع اللسان

عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم، وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة، فإن ما يوافقها تستفيد بنيله كمالا، فتلتذ بنيله، وهذا محال على الله تعالى، فإن كل جمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله فهو إذا لا يحب إلا نفسه، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى الكشف الحجاب عن قلب العبد حتى يراه بقلبه، وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل، وقرب كل واحد من الله بقدر كماله، وسلوك العبد في درجات الكمال متناه، ولا ينتهي إلا لحد محدود، ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لا نهاية له أيضا، لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال!

وثمار المحبة تظهر في القلب واللسان والجوارح، وهي كثيرة، منها: حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام، وأن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى، على ما يحبه في ظاهره وباطنه، وأن لا يكون له تنعم بغيره، وأن يجتنب اتباع الهوى (والمعصية لا تخرجه عن الحب، ولكن تخرجه عن كماله)، وأن لا يفتر لسانه عن ذكر الله، ولا يخلو عنه قلبه، وذكر ما يتعلق به من كلام ورسل، وما ينسب إليه، وحب جميع الخلق، لأنهم خلقه، وأن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه، وأن لا يطمئن إلا بالله " ألا بذكر الله تطمئن القلوب "، وأن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالتوبة، وأن يستقبل كل شئ بالرضا، ويذكر قوله تعالى " وعسى أن تكرهوا شيئا، وهو خير لكم "، وأن يتنعم بالطاعة (ولا يستثقلها) ويسقط عنه تعبها، وأن يكتم الحب ويجتنب الدعوى ويتوقى من إظهار الوجد والمحبة، تعظيما للمحبوب وهيبة منه وغيره على سره، لذا يذم الشطح بدعاوى طويلة عريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، كدعوى الاتحاد)، وأن يأنس بالله، ويرضى بكل حكم نازل (١).

----

(١) راجع ص ٥٩ - ٦٨ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

وجاء في إنجيل برنابا " أحب الرب إلهك، وقريبك، أحب إلهك فوق كل شئ بقلبك وعقلك، وقريبك كنفسك (١) "!

" إنما كل ما ينال الإنسان، إنما يناله من الله، لذلك يجب على الإنسان أن يتصرف بأعظم ضعة، عارفا حقارته وعظمة الله، مع كرمه العظيم الذي يغنينا به، لذلك لا يجوز للمرء أن يقول لماذا فعل هذا أو قيل هذا في العالم على مائدة الله، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إنه مهما كان الشئ الذي يناله الإنسان من الله في العالم صغيرا، فإنه يجب عليه في مقابلته أن يصرف حياته، حبا في الله (٢)... "!

" إنكم تكونون مجانين، إذا كنتم لا تعطون حواسكم لله، لتشتروا نفسكم حيث يستقر كنز المحبة، لأن المحبة كنز لا نظير له، لأن من يحب الله، كان الله له، ومن كان الله له، كان له كل شئ... إن من لا يبغض أباه وأمه وحياته وأولاده وامرأته، لأجل محبة الله، فمثل هذا ليس أهلا أن يحبه الله (٣)... "

" يجب عليك أن لا تحترم الشعب ولا العالم كله ولا الأطهار كلهم ولا الملائكة كلهم، إذا أغضبوا الله (٤) "!

" فهذا العالم يحب الله أيضا، لأنهم بالطبيعة يتوقون إلى الله، قدر ما يستطيع كل أحد أن يتوق بحسب الطبيعة إلى الله، وإن ضلوا في طلب الله، أفتعلمون

---

(١) يريد بالقريب الذي أظهر الرحمة، راجع ص ٤٥ من إنجيل برنابا. وأشرف ما أوصى به المسيح عليه السلام، هو المحبة حتى قال إنها الناموس والأنبياء، وهو مبدأ سام، إذ في حب الإنسان لخالقه سعادته في الدنيا والآخرة، إذ يدعوه إلى أن يأتمر بأوامره، وينتهي عن نواهيه، وفي حب الإنسان لأخيه، دعوة للسلام وانتفاء الخصومات والمنازعات ورفع لمقام الحلم والسماح، وفي حب الإنسان لعدوه الصفاء لمبغضه وموصل الأذى إليه، أسمى فضيلة!

(٢) راجع ص ٢٠١ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ٣٦ و ٣٧ من إنجيل برنابا.

(٤) راجع ص ٢٨٤ من إنجيل برنابا.

لماذا يتوفى الجميع إلى الله؟ لأنهم يتوقون جميعا إلى صلاح غير متناه، بدون أدنى شر، وهذا هو الله وحده، لذلك أرسل الله الرحيم أنبياءه، إلى هذا العالم لخلاصه (١) "!

" الخطاة يظهرون رحمة الله... الخاطئ التائب يحب إلهنا، أكثر من البار، لأنه يعرف رحمة الله العظيمة له، لأنه ليس للبار معرفة برحمة الله، ولذلك يكون الفرح عند ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب، أكثر من تسعة وتسعين بارا (٢) "!

" الحق أقول لكم إنكم مهما أعطيتم وتركتم لأجل محبة الله فستستردونه مائة ضعف، مع الحياة الأبدية (٣) "، " احذروا إذا أن تريدوا أو تحبوا شيئا غير مرض لله "، " لا تأسف يا برنابا، لأن الذين اختارهم الله قبل خلق العالم لا يهلكون (٤) "، " تأملوا هذا، أن كل القديسيين والأنبياء كانوا أعداء جسدهم لخدمة الله، لذلك جروا بطيب خاطر إلى حتفهم، لكيلا يتعدوا شريعة الله المعطاة لموسى عبده، ويخدموا الآلهة الكاذبة (٥) "، " ما أعظم رحمة الله للذين يحبونه (٦) "!

" الحق أقول لكم، إن كثيرين يغتسلون ويذهبون للصلاة، وكثيرون يصومون ويتصدقون، وكثيرون يطالعون ويبشرون الآخرين، وعاقبتهم ممقوتة عند الله، لأنهم يطهرون الجسد لا القلب، ويصرخون بالفم لا بالقلب، يمتنعون من اللحوم، ويملأون أنفسهم بالخطايا، يهبون الآخرين أشياء غير نافعة لهم أنفسهم، ليظهروا بمظهر الصلاح، يطالعون، ليعرفوا كيف يتكلمون لا ليعملوا، ينهون الآخرين عن الأنبياء التي يفعلونها هم أنفسهم، وهكذا يدانون بألسنتهم، لعمر الله إن هؤلاء لا يعرفون الله بقلوبهم، لأنهم لو عرفوه

---

(١) راجع ص ٢٤٦ و ٢٤٧ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٢٩٨ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ٢٠ من إنجيل برنابا.

(٤) راجع ص ٢٤ من إنجيل برنابا.

(٥) راجع ص ٣٣ من إنجيل برنابا.

(٦) راجع ص ٤٣ من إنجيل برنابا.

لأحبوه، ولما كان كل ما للإنسان هبة من الله، كان عليه أن يصرف كل شئ في محبة الله (١)!

" ووعد أيضا إلهنا بمحبة عظيمة على لسان داود، أن يحفظنا، قائلا: إني أمنحك فهما يثقفك، وكيف سلكت في طرقك، أجعل عيني تقع عليك "، " إذا قولوا إلى من يخاف الشيطان، إذا كانت الملائكة حراسه، والله الحي حاميه (٢)!؟ ".

" متى علمت أن الله قال شيئا، فمن أنت أيها الإنسان، حتى تتقعر!؟ لماذا قلت يا الله كذا؟ لماذا فعلت كذا؟... الحق أقول لكم إنه يجب في كل تجربة أن تتقوا بهذه الكلمة، قائلين إنما قال الله كذا، فعل الله كذا، إنما الله يريد كذا لأنك إن فعلت هذا، عشت في أمن (٣) "، " كثيرون من الأنبياء والأطهار وأخلاء الهل، فعلوا بقوة الله أشياء لا تبلغ كنهها عقول الذين لا يعرفون إلهنا القدير الرحيم المبارك إلى الأبد (٤) "، " الحق أقول لكم، إن الله غيور على كرامته... عندما أحب إسرائيل شيئا بسببه نسي الله، أبطل الله ذلك الشئ "، " فاعلم إذا أن التوبة يجب أن تفعل أكثر من كل شئ، لمجرد محبة الله، وإلا كانت عبثا "، " لعمر الله إن إبراهيم أحب الله، بحيث أنه لم يكتف بتحطيم الأصنام الباطلة تحطيما، ولا بهجر أبيه وأمه، ولكنه كان يريد أن يذبح ابنه طاعة لله "، " إن الله يرحم كل إنسان يطلب خالقه بالحق (٥) "!

" لما كان الله سيد الجنة وكل شئ، يقدر أن يكون كل ما يشاء، ويهب كل ما يشاء، لذلك لما قال لإبراهيم " إني أكون جزاءك العظيم "، لم يقدر إبراهيم أن يقول " الله جزائي " بل " الله هبتي وديني "، " لم يخلق الله الإنسان فقط، بل خلقه كاملا، ولقد أعطاه ملاكين ليحرساه، وبعث له الأنبياء ومنحه الشريعة، ومنحه الإيمان، وينقذه كل دقيقة من الشيطان، ويريد أن يهبه الجنة،

---

(١) راجع ص ٩٨ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١١٤ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ١٤٠ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ١٤٦ من إنجيل برنابا.
(٥) راجع ص ١٥٣ و ١٦ و ٣٠٥ و ٢٨٥ من إنجيل برنابا.

بل أكثر من ذلك، فإن الله يريد أن يعطي نفسه للإنسان (١) "، " لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن الله تعالى يعد الخاطئ برحمته، قائلا، " أقسم بنفسي، أن الساعة التي يندب فيها الخاطئ خطيئته، هي التي أنسى فيها أئمة، إلى الأبد (٢) "، " يقول الله هكذا للرجل الذي يعبده بإخلاص " أعرف أعمالك وأنك تعمل لي، لعمري أنا الأبدي، إن حبك لا يزيد على جودي، فإنك تعبدني إلها خالقا لك، عالما أنك صنعي، ولا تطلب مني شيئا، سوى النعمة والرحمة لإخلاصك في عبادتي، لأنك... ترغب أن تعبدني أبدا، هكذا أفعل أنا، فإني أجزيك.. لأني لا أضع في يديك خيرات الجنة فقط، بل أعطيك نفسي هبة، وكما أنك تريد أن تكون عبدي دائما، أجعل أجرتك إلى الأبد (٣) "، " ليكن الفكر والكلام والعمل جميعا، لمحبة الله (٤) "!

(٦) مرقبة الله:

قال تعالى: " ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين "، وقال " فمن يعمل مثقال ذرة، خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة، شرا يره "، ويقول الغزالي إن مطلب العقل، تزكيه النفس " قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها "، وهو يحتاج إلى مشارطتها أولا، فيرشدها إلى طرق الفلاح، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ويحاسبها! والمحاسبة تكون تارة بعد العمل وتارة قبله للتحذير، ومعناه وزن الأمور أولا، والنظر فيها بتدبر، ثم الإقدام عليها، فمباشرتها، ولا يبقى بعد ذلك إلا المراقبة للنفس عند الخوض في الأعمال وملاحظتها، فإنها إن تركت طغت وفسدت، " إن الله كان عليكم رقيبا "!

وحقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه، وهي حالة

---

(١) راجع ص ٢٧٢ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٢٦٥ و ٢٦٦ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ٢٦٢ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ٩٨ من إنجيل برنابا.

للقلب، يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر أعمالا في الجوارح وفي القلب، بمراعاة القلب للرقيب واشتغاله به، والعلم بأن الهل مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون، فمراقبة الصديقين منهم هي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال، فلا يبقى فيه متسع للإلتفات إلى الغير أصلا، وهذه مراقبة مقصورة على القلب، أما الجوارح فإنها تتعطل عن الالتفات إلى المباحات فضلا عن المحظورات، وإذا تحركت بالطاعات، كانت كالمستعملة بها، فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد والاستقامة من غير تكلف!

أما الورعون أصحاب اليمن، فهم قوم غلب يقين اطلاع الله على قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلوا عن المراقبة وقد غلب عليهم الحياء من الله، فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه، فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعا عليهم (على ظاهرهم وباطنهم)، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة، ومن كان في هذه الدرجة، فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته، وبالجملة جميع اختياراته (بأن يسأل نفسه لم؟ وكيف؟ ولمن؟) عند همه بالفعل فيتوقف، حتى ينكشف له بنور العلم، أنه لله تعالى فيمضيه، أو هو لهوى نفس فيتقيه، والعبد لا يخلو، إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح، فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال وحراستها عن الآفات، وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والحياء والاشتغال بالتفكر، وإن كان في مباح، فمراقبته بمراعاة الأدب، ثم بشهود المنعم في النعمة، وبالشكر عليها، والصبر على البلية!

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نية المرء خير من عمله "، ويقول الغزالي إن معناه إن نية المؤمن من جملة طاعته، خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل، والنية من الجملة خيرهما (لأن القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح، والنية ميل القلب إلى الخير وإرادته له)، والأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة، من فعل

وقول وحركة وسكون، وجلب ودفع وفكر وذكر، وغير ذلك، فهي ثلاثة أقسام، طاعات ومعاص ومباحات:

(١) المعاصي: وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام: " إنما الأعمال بالنيات "، فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية (كمن يبني مسجدا بمال حرام)، إذ النية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية، بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع، شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله، فهو عاص بجهله، والقصود الخبيثة تضاعف الوزر!

(٢) الطاعات: وهي مرتبطة بالنيات، في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها، أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير (فإن نوى الرياء، صارت معصية)، وأما تضاعف الفضل، فبكثرة النيات الحسنة، فيكون له بكل نية حسنة للخير ثواب، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها!

(٣) المباحات: وما من شئ من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات، يصير بها من محاسن القربات، فالتطيب مثلا مباح، ولكن هل يقصد به التنعم بلذات الدنيا (فلا يعصى به، ولكن يسأل عنه)، أو يقصد به رياء الخلق، فيذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات (وكل هذا يجعل التطيب معصية)، أما إذا كان ينوي به اتباع السنة يوم الجمعة وتعظيم المسجد، فلا يدخله إلا طيب الرائحة، ويقصد به ترويح جيرانه، ومعالجة دماغه، لتزيد به فطنته (فهذه نيات حسنة)!

ونيات الناس في الطاعات، أقسام: إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف (اتقاء النار) ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء (الرغبة في الجنة) وأما عبادة ذوي الألباب، فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه، حبا لجماله وجلاله!

وثواب الناس بقدر نياتهم. ومن حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولى، لأن الأعمال بالنيات (وذلك مثل العفو، فإنه أفضل من الانتصار

في الظلم، وربما تحضر نية في الانتصار دون العفو، فيكون ذلك أفضل)!
والباعث النفسي، إما أن يكون مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف، والإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها، قليلها وكثيرة، حتى يتجرد فيه قصد التقرب، فلا يكون فيه باعث سواه، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار، حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا، بل تكون رغبة فيه كرغبته في قضاء الحاجة، من حيث أنه ضرورة الجبلة!

وأظهر مشوشات الإخلاص، الريا، والعمل إن لم يكن خالصا لوجه الله تعالى، بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس، كان مشوبا (ويدل ظاهر الأخبار على أنه لا ثواب له)، فإذا كان لم يرد به إلا الرياء، فهو سبب المقت والعقاب، أما الخالص لوجه الله تعالى، فهو سبب الثواب.

ويرى الغزالي أن ينظر إلى قدر قوة الباعث، فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي، صار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى، فهو مضر ومفض للعقاب الأقل من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم تمتزج به شائبة التقرب، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر، فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني، فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير (١)!

* * *

وجاء في إنجيل برنابا " على الإنسان أن يحتذي مثال الصيرفي الذي يتحرى النقود، ممتحنا أفكاره، لكيلا يخطئ إلى خالقه "، " لا يمكن ارتكاب الخطيئة بدون فكر.. الشيطان إذا زرع الخطيئة، لا يقف عند العين أو الأذن بل يتعدى إلى القلب الذي هو مستقر الله.. فبالحري يجب عليكم ألا تبيحوا للشيطان أن يدخل قلوبكم أو يضع أفكاره فيها (٢) "، " سبق الاصطفاء لا يكون

---

(١) راجع ص ٧١ – ٧٧ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.
(٢) راجع ص ١١٥ و ١١٦ من إنجيل برنابا.

شريعة الله بالأولى، إذا استلزم سلب حرية الإرادة التي وهبها الله للإنسان بمحض جوده... أقول لكم حقا إن أساس القدر إنما هو شريعة الله وحرية الإرادة البشرية.. إن إلهنا يريد أن يتبع برحمته حرية إرادة الإنسان، ولا يريد أن يترك بقدرته غير المتناهية المخلوق، وهكذا لا يقدر أحد في يوم الدين أن يعتذر عن خطاياه، لأنه يتضح حينئذ كم فعل الله لتجديده، وكم قد دعاه إلى التوبة.. أقول لكم إن كيفية القدر غير واضحة للإنسان، وإن كان ثبوته حقيقيا كما قلت لكم... حقا إني لم أجد أحدا يرفض الصحة، وإن لم يمكن إدراك كيفيتها (١) "!

الحق أقول لكم إن كل من يفعل حسنا، لكي يراه الناس، فهو مراء،
لأن عمله لا ينفذ إلى القلب الذي لا يراه الناس، فيترك فيه كل فكر نجس وكل شهوة قذرة، أتعلمون من هو المرائي؟ هو الذي يعبد بلسانه الله، ويعبد بقلبه الناس، إنه بغى، لأنه متى مات، خسر كل جزاء.. ويل إذا للمرائين، لأن جزاءهم باطل... إن المرائي لص... لأنه يتذرع بالشريعة ليظهر صالحا ويختلس مجد الله... ثم أقوى لكم أيضا إنه ليس للمرائي إيمان،، لأنه لو آمن بأن الله يرى كل شئ وأنه يقاص الإثم بدينونة مخيفة، لكان ينقى قلبه الذي يبقيه ممتلئا بالإثم (٢) "!

" إن ما فرضه الله طريقا لخلاص الإنسان، هو ما أمر به الأنبياء
بالقول به "، " إن خدمة الله بالحق تمكن في كل زمن، ولكن الناس يصيرون أردياء بالاختلاط بالعلم، أي بالعوائد الرديئة في كل زمن (٣) "!

" ما أتعسك أيها الإنسان، الذي تحترم النور الذي يشترك فيه الذباب
والنمل، وتحتقر النور الذي تشترك فيه الملائكة والأنبياء وأخلا الله الأطهار خاصة (٤) "!

----

(١) راجع ص ٢٥٥ و ٢٥٨ و ٢٥٩ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٦٨ و ٧٢ و ٧٣ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٢٧٦ و ٢٨١ ومن إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ١٨١ من إنجيل برنابا.

(١) مراقبة الله في الدنيا:
الجاه والمال، هما ركنا الدنيا، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه (ولو لم يكن كما لا في نفسه)!
والغزالي لا يرى الكمال الحقيقي إلا العلم (بمعرفة الله) والحرية (بإخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر)، والبعد عن التأثر بالعوارض، ليقرب إلى الله تعالى، وتعظم منزلته عنده، ويتشبه بالملائكة!
ولذا نراه يذم الجاه بمعناه المفهوم، ويقول إن حكم الجاه الأموال، عرض من أعراض الحياة الدنيا، وينقطع بالموت كالمال، ويذم حبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته (ويباح طلب المنزلة بصفة هو متصف بها، أو بإخفاء عيب من عيوبه، حتى لا يعلم، لأنه صادق في الأول، ساتر للقبيح في الثاني، ويرى أن لحب المدح والتذاذ القلب به، ثلاثة أسباب:
(١) شعور النفس بالكمال: ويقول إن طريق العلاج، أن ترجع إلى الصفة التي يمدحك بها، فإن كان من الأعراض الدنيوية (كالثروة والجاه) فمن قلة العقل الفرح بها، لأنها عروض زائلة، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بل بوجودها، وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها (كالورع والعلم)، فإن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك، لا بمدح المادح، وإن كانت الصفة التي مدحت بها، أنت خال عنها، ففرحك بالمدح غاية الجنون، إذ هو إما استهزاء بك أو غاية الجهل!
(٢) أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للمدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه: ومعالجة هذا السبب، بأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك به، يسقط منزلتك عند الله، فكيف تفرح به؟
(٣) أن حشمة الممدوح التي تضطر المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء إما عن طوع وإما عن قهر، ترجع أيضا إلى قدرة عارضة لا ثبات لها

ولا تستحق الفرح، بل ينبغي أن يغمه مدح المادح، ومهما علم أن أمره بيد الخالق، وأن الأزرق والآجال بيد الله تعالى، سقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه! والعلة في كراهة الذم، ضد العلة في حب المدح فعلاجه أيضا يفهم منه، فإن كان من ذمك صادقا وقصده النصح، فلا ينبغي أن تذمه، بل ينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها، وإن كانت قصده الإيذاء والتعنت، فهو قد تضرر به في دينه وأنت قد انتفعت بقوله (إذا ذكرك عيبك أو أرشدك إليه أو قبحه في عينك وإن افترى عليك بما أنت برئ منه عند الله تعالى، فينبغي أن لا تكون ذلك، ولا تشتغل بذمه بل تفكر في أنك في غنى عنه، وأنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو من أشباهه، وما ستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك، وأن ذلك كفارات لبقية مساويك (إذ أهدى إليك حسناته بغيبته)!

ويقول الغزالي إلى الرياء حرام، والمرائي عند الله ممقوت، واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها، وإذا لم يكن للمرائي بالعبادات إلا قصد الرياء المحض دون الأجر، فتبطل عبادته، بل يعصي بذلك، لأن فيه مكرا على الناس، لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله، وليس كذلك (والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضا)، وهو مهما قصد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضرا ولا نفعا، ما ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله، وأنه أولى بالتقريب إليه منه، ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم " الشرك الأصغر "، ولو لم يكن في الرياء إلا أن يسجد ويركع لغير الله، الشرك الأصغر "، ولو لم يكن في الرياء إلا أن يسجد ويركع لغير الله، لكان فيه كفاية، ولعمري لو عظم غير الله بالسجود، لكفر كفرا جليا إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن المرائي عظم في قلبه الناس، فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده، بإظهار من نفسه صورة التعظيم لله، فعند هذا كان شركا خفيا!

وللمرائي مقصود لا محالة، وللمرائي لأجله ثلاث درجات:

(١) أشدها وأعظمها، أن يكون مقصودة التمكن من معصية (كأن يظهر الحكمة على سبيل الوعظ وقصده التحبب إلى امرأة أو غلام)!
(٢) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا (كالذي يشتغل بالوعظ، لتبذل له الأموال)!
(٣) أن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة، ويعتقد أنه من جملة العامة (كالذي يدعى إلى طعام فيمتنع، ليظن أنه صائم)!
وإذا عقد العبد العبادة على الإخلاص، ثم ورد عليه بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار، فهذا لا يفسد العمل.
والأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية، ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه، وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها، لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والأماني، والله مطلع على جميع ذلك، فإرادة العبد لإخفائها ربما يظن أنه رياء محظور، وليس كذلك بل المحظور أن يستر ذلك، ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى، مع أنه ليس كذلك.
ومن الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به، وذلك غلط وموافقة للشيطان (١)!
ولما كان الله تعالى قد قال في كتابه العزيز " كلوا من الطيبات، واعلموا صالحا "، فيجب أن لا يقتصر الإنسان على اجتناب الحرام، بل يتقي مواقع الشبهات، بأن يستفتي قلبه، تبعا للحديث الشريف " استفت قلبك، وإن أفتوك وأفتوك "، ومن لم يثق بقلب نفسه، فليلتمس النور بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الأحوال (٢) "!

---

(١) راجع ص ١١٤ - ١٢٤ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.
(٢) راجع ص ٩٧ - ١٠٤ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

ويقول الغزالي في ذم الدنيا إن كل ما ليس لله، فهو من الدنيا (صورة ومعنى)، وما هو لله، فذلك ليس من الدنيا! والأشياء ثلاثة أقسام:
(١) المعاصي والمحظورات وأنواع التنعمات في المباحات: هي الدنيا المحضة المذمومة (ولا يتصور أن يكون ذلك لله)!
(٢) ما صورته لله، ويمكن أن يجعل لغير الله، وهو الفكر والذكر والكف عن الشهوات: (فإذا جرى ترك الشهوة مثلا، ولم يكن عليه باعث سوى أمر الله واليوم الآخر، فهو لله، وإن كان الغرض منه حفظ المال أو الحمية لصحة البدن أو الاشتهار بالزهد، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى)!
(٣) ما صورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله: وذلك كالأكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه، فإن كان القصد حظ النفس، فهو من الدنيا، وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى، فهو لله بمعناه!
فإذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة، ويعبر عنه بالهوى، ويقول الغزالي: " إن الخير أن لا يترك الإنسان الدنيا بالكلية، ولا يقمع الشهوات بالكلية، أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة، ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل، ولا يترك كل شئ من الدنيا، ولا يطلب كل شئ من الدنيا، بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده "!
وقال الله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا، لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك، فأولئك هم الخاسرون "، ويقول الغزالي: إن المال مثل حية فيها سم وترياق، ففوائده ترياقه، وغوائله سمومه، وأما فوائده الدينية، فهي أن ينفقه على نفسه، إما في عبادة (كالاستعانة على الجهاد) أو في الاستعانة على عبادة (كالمطعم)، وما لا يصرفه إلى إنسان معين، ولكن يحصل به خير عام (كبناء المساجد ودور المرضى)، وما يصرفه إلى الناس من صدقة ومروءة ووقاية عرض وأجرة استخدام، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال والفقر والوصول إلى العز بين الخلق وكثرة الأعوان والكرامة في القلوب!

وأما آفات المال، فدينية ودنيوية، أما الدينية: فإن تجر إلى المعاصي وارتكاب الفجور (فإن الشهوات متفاضلة، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية)، ومن العصمة أن لا يجد، وأنه يجر إلى التنعم في المباحات، وربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال، فيقتحم الشبهات ويخوض في المراءاة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة، لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه، وأنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى، وكل ما شغل العبد عن الله تعالى فهو خسران، فإن أصل العبادات وسرها ذكر الله والتفكر في جلاله، وذلك يستدعي قلبا فارغا.

فإن كان الإنسان فقيرا، فينبغي أن يكون قانعا، منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان، بالتدنس بالمنكرات، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره!

وعلاج هذا، العمل بالاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق، وإذا تيسر له ما يكفيه، فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه، وأن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الحرص والطمع من الذل، وأن يخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بالأنبياء أعز أصناف الخلق عند الله! وإن كان المال موجودا، فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن البخل (١)!

* * *

وجاء في إنجيل برنابا " من المحال أن ينال البخيل خيرا في الجنة.. إن البخيل يصرف كل ماله على ملذته الخاصة، غير ناظر إلى بدايته أو نهايته.. يجعل البخيل نفسه إلها على الثروة التي وهبها إياه الله! البخل هو عطش الحس،

---

(١) راجع ص ٨٠ – ٨٢ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

الذي لما فقد الله بالخطيئة، لأنه يعيش باللذة، ولما لم يعد قادرا على الابتهاج بالله المحتجب عنه، أحاط نفسه بالأشياء العالمية التي يحسبها خيره وكلما رأى نفسه محروما من الله، ازداد قوة، وهكذا، فإن تجدد الخاطئ إنما هو من الله الذي ينعم عليه فيتوب (١) "، " وجب على الإنسان أن يحب ويحفظ ما لا نهاية له! فليتحول بخل الإنسان إذا إلى صدقة، موزعا بالعدل ما قاله بالظلم، وليكن على انتباه حتى لا تعرف اليد اليسرى ما تفعله اليد اليمنى، لأن المرائين إذا تصدقوا يحبون أن ينظرهم ويمدحهم العالم، ولكن الحق أنهم مغرورون لأن من يشتغل بالإنسان، فمنه يأخذ أجره، فإذا نال إنسان شيئا من الله، وجب عليه أن يخدم الله، وتوخوا متى تصدقتم أن تحسبوا أنكم تعطون الله كل شئ وحبا في الله، فلا تبطئوا في العطاء، وأعطوا خير ما عندكم، حبا في الله (٢) "!
" لو كان للعالم عقل سليم، لم يجمع أحد شيئا لنفسه، بل كان كل شئ شركة، ولكن بهذا يعلم جنونه، إنه كلما جمع، زاد رغبة، وإن ما يجمعه، فإنما يجمعه لراحة الآخرين الجسدية، فليكفكم إذا ثوب واحد، ارموا كيسكم، لا تحملوا مزودا ولا حذاء في أرجلكم، لا تفكروا قائلين ماذا يحدث لنا، بل فكروا أن تفعلوا إرادة الله، وهو يقدم لكم حاجتكم، حتى لا تكونوا في حاجة إلى شئ، الحق أقول لكم إن الجمع كثيرا في هذه الحياة، يكون شهادة أكيدة على عدم وجود شئ يؤخذ في الحياة الأخرى (٣) ".
" أحرسوا مشاعركم واحرسوا قلوبكم، لأن الله لا يوجد خارجا عنا في هذا العالم الذي يكرهه! على من يريدون أن يعملوا أعمالا صالحة، أن يلاحظوا

---

(١) راجع ص ١٨٦ و ١٨٧ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١٩١ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٣٥ و ٣٦ من إنجيل برنابا. وهذا من الزهد الذي دعا إليه السيد المسيح، إذ كان قومه الذين بعث إليهم وهم اليهود، منهمكين حتى كهنتهم في جمع المال، ولا يهمهم السبيل الموصل إليه، فندد بالأغنياء والذين يكنزون المال ووعظهم بوجوب توزيع أموالهم على الفقراء، وعزز كلمة الفقراء واختلط بهم، فوضع بذلك أساس الاشتراكية الصحيحة، وأمر بالتعاضد والتعاون، دفعا للأنانية المفرطة فيهم.

أنفسهم، لأنه لا يجدي المرء نفعا، أن يربح كل العالم ويخسر نفسه.. على من يطلبون الله، أن يهربوا من محادثة البشر.. عليه متى مشى أن لا ينظر إلا إلى قدميه! عليه متى تكلم أن لا يقول إلا ما كان ضروريا! عليهم متى أكلوا أن يقوموا عن المائدة وهم دون الشبع مفكرين كل يوم أنهم لا يبلغون اليوم التالي! ليكن ثوب واحد من جلد الحيوانات كافيا! على كتلة التراب أن ينام على الأديم! ليكف كل يوم ساعتان من النوم! وعليه أن لا يبغض أحدا إلا نفسه! عليهم أن يكونوا واقفين أثناء الصلاة بخوف كأنهم أمام الدينونة الآتية!
بهذه الطريقة، تجدون الله! إنكم ستشعرون في كل زمان ومكان أنكم في الله وأن الله فيكم (١) "
" إذا سر العالم فاحزنوا، لأن مسرة العالم تنقلب بكاء، أما حزنكم فسيتحول فرحا، لن ينزع فرحكم منكم أحد، لأن العالم بأسره لا يقدر أن ينزع الفرح الذي يشعر به القلب بالله خالقه (٢) "!
(ب) مراقبة الله في الصبر والشكر:
يقول الغزالي إن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة (والهوى والكسل)، فإن ثبت حتى قهره، واستمر على مخالفة الشهوة،
فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، ويقول إن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة، لا يخلو من نوعين:
(١) ما يوافق هواه: وهو الصحة والمال والجاه وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا.
(٢) ما لا يوافق هواه: وهو ما يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصي،

---

(١) راجع ص ٢٢٤ و ٢٢٥ من إنجيل برنابا: وهذا من الزهد الذي كان يدعو إليه المسيح عليه السلام، وهو يدعو هنا إلى الفناء في الله من شدة حبه وطاعته.
(٢) راجع ص ٣٠٨ من إنجيل برنابا.

وما لا يرتبط باختياره كالمصائب، أو لا يرتبط باختياره، ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بانتقام!

وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما، ومعنى الصبر على العافية، أن لا يركن إليها، ويعلم أن كل ذلك عسى أ يسترجع على القرب، وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها، ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه، وهذا الصبر متصل بالشكر.

والشكر نصف الإيمان، ويقول الغزالي إن الشكر لله لا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله، وهو المنعم، والوسائط مسخرون من جهته، ثم إن الحال المستمدة من أصل المعرفة، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع هو أيضا في نفسه شكر على تجرده، كما أن المعرفة شكر، ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام (فيبعد عن معنى الشكر، إذا كان النظر مقصورا على الفرح بالنعمة من حيث أنها لذيذة وموافقة لغرضه، ويدخل في معنى الشكر، الفرح بالمنعم لا من حيث ذاته، بل من حيث معرفة عنايته)!

ويقول الغزالي إن العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم، يتعلق بالقلب (بقصد الخير وإضماره لكافة الخلق)، وباللسان (بإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه)، وبالجوارح (باستعمال نعم الله تعالى في طاعته)!

ويقول الله تعالى " لئن شكرتم لأزيدنكم "، ومعنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه، ومعنى الكفر نقيض ذلك، إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه!

ويقول الغزالي إنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الغفلة عن معرفة المنعم، ثم إنهم إن عرفوا نعمة، ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في طاعة الله عز وجل، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين، إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان،

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم، لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة، فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، فإن ابتلي واحد منهم ثم نجا، ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالى، والعلاج أن ينظر الإنسان إلى من دونه، وأن يعرف أن النعمة (ظاهرة أو باطنة)، إذا لم تشكر زالت.

ويرجع الصبر في الدنيا، إلى ما ليس ببلاء مطلقا، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه، فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر، والشئ الواحد قد يغتم به من وجه (فيصبر عليه)، ويفرح به من وجه آخر (فيشكر عليه)، وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور، ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها، وهي: أن مصيبته يتصور أن يكون أكبر منها، وأنه كان يمكن أن تكون مصيبة في دينه (بكفر أو معصية أشد أو خاطر سوء)، وأنه ربما عجلت عقوبته في الدنيا (ومن عجلت عقوبته، فلا يعاقب ثانيا، ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخرى تهون المصيبة، فيخف وقعها) وأنها كانت مكتوبة عليه (وقد وصلت واستراح من بعضها أو من جميعها، فهذه نعمة)، وأن ثوابها أكثر، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة الدينية ويشكره عليه، على أن مواتاة النعم وفق المراد من غير امتزاج ببلاء، تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها، وأما التألم فضروري (والدواء النافع مؤلم (١))!

* * *

---

(١) راجع ص ٨٣ – ٩٠ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

وجاء في إنجيل برنابا " حقا إن الإنسان يخطئ في البكاء على أي شئ إلا على خطيئته فقط، لأن كل شقاء يحل بالإنسان، إنما يحل به من الله لخلاصه، حتى أنه يجب أن يهلل له، ولكن الخطيئة إنما تأتي من الشيطان للعنة الإنسان (١) "!

" قل لي أيها الإنسان، من هو عدوك؟ إنما هو جسدك وكل من يمدحك، فكذلك لو كنت صحيح العقل، لقبلت يد الذين يعيرونك، وقدمت هدايا للذين يضطهدونك ويوسعونك ضربا، ذلك أيها الإنسان، لأنك كلما عيرت واضطهدت في هذه الحياة لأجل خطاياك، قل ذلك عليك في يوم الدين (٢) "!

" كل البلايا حسنة، إما حسنة لأنها تطهر الشر الذي فعلناه، وإما حسنة لأنها تمنعنا من ارتكاب الشر، وإما حسنة لأنها تعرف الإنسان حال هذه الحياة لكي نحب ونتوق إلى الحياة الأبدية (٣) "!

" إن كل المخلوقات خاصة بالخالق، حتى أنه لا يحق لشئ أن يدعى شيئا، وعليه فإن النفس والحس والجسد والوقت والمال والمجد جميعها ملك الله، فإذا لم يقبلها الإنسان كما يريد الله، أصبح لصا، وكذلك إذا صرفها مخالفا لما يريده الله.. إنكم عندما تسوفون قائلين سأفعل غدا كذا... دون أن تقولوا إن شاء الله، فأنتم لصوص، وتكونون أعظم لصوصية، إذا صرفتم أعظم وقتكم في مرضاة أنفسكم، دون مرضاة الله (٤) "!

" أليس الفقراء الصابرون مباركين، الذين يشتهون ما هو ضروري فقط، كارهين الجسد، ما أشقى الذين يحملون الآخرين للدفن، ليعطوا أجسادهم طعاما للدود، ولا يتعلمون الحق، بل هم بعيدون عن ذلك بعدا عظيما، حتى أنهم يعيشون هنا كأنهم خالدون، لأنهم يبنون بيوتا كبيرة ويشترون أملاكا كثيرة، ويعيشون في الكبرياء (٥) "، " المساكين الذين كانوا قد خدموا الله

----

(١) راجع ص ١٥٩ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١١١ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٢٥٢ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ٢٣٨ من إنجيل برنابا.
(٥) راجع ص ٣٤ من إنجيل برنابا.

بمسكنة حقيقية من القلب، لمباركون ثلاثة أضعاف وأربعة أضعاف، لأنهم يكونون خالين في هذا العالم من المشاغل العالمية، فتمحى عنهم لذلك خطايا كثيرة، ولا يضطرون في ذلك اليوم (أي يوم الدينونة) أن يقدموا حسابا، كيف صرفوا الغنى العالمي، بل يجزون لصبرهم ومسكنتهم (١) "!

" طوبى للمساكين الذين يعرضون حقا عن ملاذ العالم، لأنهم سيتنعمون بملاذ ملكوت الله! طوبى للذين يأكلون على مائدة الله، لأن الملائكة ستقوم على خدمتهم! أنتم مسافرون كسياح، أيتخذ السائح لنفسه على الطريق قصورا وحقولا وغيرها من حطام العالم؟ كلا ثم كلا! ولكنه يحمل أشياء خفيفة ذات فائدة وجدوى في الطريق "، " لا تثقلوا قلوبكم بالرغائب العالمية، قائلين من يكسونا أو من يطعمنا، بل انظروا الزهور والأشجار مع الطيور التي كساها وغذاها الله ربنا بمجد أعظم من مجد سليمان، والله الذي خلقكم ودعاكم إلى خدمته، هو قادر أن يغذيكم "، " عظيمة هي النعم التي أنعم بها الله علينا، فترتب علينا من ثم أن نعبده بإخلاص قلب "، " اعبدوا الله، واحتقروا العالم " " كما أنه لا يتأتى للإنسان أن ينظر بعينه إلى السماء والأرض معا، فذلك يستحيل عليه، أن يحب الله والعالم (٢) "!

" فإذا كان الله يحتمل العالم بصبر، فلماذا تحزنون أنتم يا تراب وطين الأرض، فبصبركم تملكون أنفسكم، فإذا لطمكم أحد على خد، فحولوا له الآخر ليلطمه، لا تجازوا شرا بشر، لأن ذلك ما تفعله شر الحيوانات كلها، ولكن جازوا الشر بالخير، وصلوا لله لأجل الذين يبغضونكم، النار لا تطفأ بالنار بل بالماء، لذلك أقول لكم، لا تغلبوا الشر بالشر بل بالخير، انظروا الله الذي جعل شمسه تطلع على الصالحين والطالحين، وكذلك المطر، فكذلك يجب عليكم أن تفعلوا خيرا مع الجميع، لأنه مكتوب في الناموس: كونوا قديسين، لأني أنا إلهكم قدوس، كونوا أنقياء، لأني أنا نقي، وكونوا كاملين، لأني أنا كامل (٣) "!

---

(١) راجع ص ٩١ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١٨ و ١٩ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٢٤ من إنجيل برنابا.

(ج) مراقبة الله في اللسان:
وقد ذكر الغزالي في آفات اللسان، وجوب أن يتجنب الإنسان الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، ويرتبط بأمور الدين. وكذلك يجب على الإنسان أن يتجنب الكلام فيما لا يعنيه وفضول الكلام (الخوض فيما لا يعني، والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة)، والخوض في الباطل (وهو الكلام في المعاصي، كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للوصول إليها، من غير حاجة دينية إلى ذكرها).
وكذلك يجب مراقبة الله في آفات اللسان الأخرى، كالمراء بالطعن في كلام الغير (لتحقيره وإظهار الكياسة، وتركه يكون بترك الإنكار، والتصديق بكل كلام سمعته إن كان حقا، والسكوت عنه إن كان كذبا، ولم يكن متعلقا بأمور الدين)!
والخصومة لجاج مذموم في الكلام (ولكن لا يحرم على المظلوم أن ينصر حجته بطريق الشرع، من غير لدد وإسراف، ومن غير قصد عناد وإيذاء، والأولى تركه)!
ويذم الفحش (وهو التعبير عن الأمور المستقبحة، لا سيما في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به بالعبارات الصريحة)، والشتم والتعيير، وهو ذكر عبارات يستقبح ذكرها، واللعن هو الطرد والإبعاد من الله تعالى (وهو لا يجوز إلا مع الظالمين والكافرين والفاسقين، دون الأشخاص المعينين)، ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان (حتى الظالم بالشر).
وينهى عن الإفراط في المزاح، لأنه يورث كثرة الضحك التي تميت القلب وتورث الضغينة وتسقط المهابة، أما الاستهزاء وهي الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه (بالمحاكاة في الفعل والقول، أو بالإشارة والإيماء)، فحرام مهما كانت مؤذية.
ويحرم إفشاء السر إن كان فيه إضرار، وكذا الوعد على عزم الخلف،

والكذب في القول واليمين، إذ به يعتقد المخبر الشئ على خلاف ما هو عليه، فيكون جاهلا، وقد يتعلق به ضرر غيره، ويرى الغزالي " أن الكلام وسيلة للمقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا، وواجب إن كان المقصود واجبا "!
وتذم الغيبة، وهي أن تذكر أخاك بما يكرهه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو خلقه أو فعله أو قوله أو دينه أو دنياه، وهي حرام، لأن فيها تفهيم الغير نقصان شخص معين - حي أو ميت - فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول والإشارة والإيماء والغمز والكتابة والحركة.
وكذلك يحرم سوء الظن، أي عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء، أما الخواطر والشك وحديث النفس، فيعفى عنها، لأن أسرار القلوب لا يعلمها إلا الله.
والمرخص في ذكر مساوئ الغير، أغراض صحيحة في الشرع لا يمكن التوصل إليها إلا به، وهي ستة أمور: التظلم، والاستعانة على تغيير المنكر، ورد المعاصي إلى منهج الصلاح، والاستفتاء، وتحذير مسلم من الشر، وأن يكون الإنسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه، وأن يكون مجاهرا بالفسق.
ويجب على المغتاب أن يتوب، ويندم على ما فعله، ليخرج به من حق الله، ثم يستحل المغتاب (وهو متأسف على ما فعله)، ليحله فيخرج من مظلمته، وسبيله أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه، ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه، وإلا كان اعتذاره حسنة، محسوبة له.
وتذم النميمة وهي إفشاء ستر الغير عما يكره كشفه، سواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، فإن كان إلى من يخاف جانبه فهي سعاية. ومذموم كلام ذي اللسانين الذي يتردد (نفاقا) بين المتعاديين، ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه فينقل كلام كل منهما إلى الآخر، أو يحسن لكل منهما ما هو عليه من المعاداة

أو يعد كلا منهما أن ينصره، أو يثني على كل منهما في معاداته، فإذا خرج من عنده يذمه!

وينهى عن المدح في بعض المواضع، فالمادح قد يفرط، فينتهي به إلى الكذب، وقد يكون منافقا، لأنه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع ما يقوله، وقد يقول ما لا يتحققه، وقد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق (١)!

* * *

وجاء في إنجيل برنابا: " إنكم عندما تسوفون قائلين سأفعل غدا كذا.. دون أن تقولوا إن شاء الله، فأنتم لصوص (٢) "، " أقول لك يا برنابا إنه متى تكلم إنسان عما سيهب الله لقريبه، فليقل إن قريبه يستأهله، ولكن لينظر متى تكلم عما سيعطيه الله إياه أن يقول: " إن الله سيهب لي "، ولينظر جيدا أن لا يقول: " إني أستأهله "، لأن الله يسر أن يمنح رحمته لعبيده، متى اعترفوا أنهم يستأهلون الجحيم (٣) "!

" إن الكذب خطيئة (٤) "، " إذا كنتم قد أخطأتم وتنكرون خطيئتكم، داعين أنفسكم أبرارا، فأنتم غير أبرار، وإذا كنتم تحسبون أنفسكم في قلوبكم أبرارا، وتقولون بلسانكم إنكم خطاة، فتكونون إذا أبرارا غير أبرار مرتين (٥)!

" الحق الحق أقول لكم، إنه يجب على قلبكم، أن يقول كلما تنفس جسدكم " الحمد لله (٦) "، " احذروا من أن تضحكوا من أحد، لأنكم تبكون بسببه (٧) "،

---

(١) راجع ص ٩٠ و ١٤٩ - ١٤٣ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

(٢) راجع ص ٢٣٨ من إنجيل برنابا

(٣) راجع ص ٢٩٤ من إنجيل برنابا.

(٤) راجع ص ٢٥٢ من إنجيل برنابا.

(٥) راجع ص ٢٩٩ من إنجيل برنابا.

(٦) راجع ص ٢٦٩ من إنجيل برنابا.

(٧) راجع ص ٤٠ من إنجيل برنابا.

" لا أقول إن على التائب أن يبيع كلامه، بل أقول إنه متى تكلم، وجب عليه أن يحسب أنه يلفظ ذهبا، حقا إنه إذا فعل ذلك، فإنه يتكلم متى كان الكلام ضروريا فقط، كما يصرف الذهب على الأشياء الضرورية، فكما لا يصرف أحد ذهبا على شئ يكون من ورائه ضرر بجسده، كذلك لا ينبغي له أن يتكلم عن شئ قد يضر نفسه (١) "!

" أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر، وأعطوا ما لله لله (٢) ".

" ويل لكم، ويل لكم أنتم الذين تمدحون الشر وتدعون الشر خيرا (٣) ".

" في كل عمل صالح، قولوا: " الرب صنع "، وفي كل عمل ردئ، قولوا: " أخطأت (٤) "!

" قولوا لي يا تلاميذي، ألا تعلمون أن شمعاي لعن عبد الله داود النبي ورماه بالحجارة، فماذا قال داود للذين ودوا أن يقتلوا شمعاي؟.. دعه يلعنني لأن هذا بإرادة الله، الذي سيحول هذه اللعنة إلى بركة "، وهكذا كان، لأن الله رأى صبر داود، وأنقذه من اضطهاد ابنه أبشالوم (٥) "!

" الحق أقول لكم، لا شئ أشد خطرا من الكلام، لأنه هكذا قال سليمان الحياة والموت هما تحت سلطة اللسان "، " احذروا الذين يباركونكم، لأنهم يخدعونكم (٦) "، " ليحذر كل أحد من يحاول بدون سبب، أن يقيم لك دلائل الحب (٧) "، " كل من لا يصغي إلى غيره، فهو يخطئ كلما تكلم، لأنه يجب أن نعامل الآخرين بما نرغب فيه لأنفسنا، وأن لا نعمل للآخرين ما لو نود وصوله إلينا (٨) "!

---

(١) راجع ص ١٨٥ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٤٧ من إنجيل برنابا. ولقد رأى المسيح عليه السلام قومه اليهود على ضعفهم، شديدي التعصب ضد الرومانيين الأقوياء، ففرق بين الدين والسياسة في الأقوال والأعمال، لراحة اليهودية.

(٣) رجع ص ٧٨ من إنجيل برنابا.

(٤) راجع ص ١٩٣ من إنجيل برنابا.

(٥) راجع ص ١٠١ من إنجيل برنابا.

(٦) راجع ص ١٠٣ من إنجيل برنابا.

(٧) راجع ص ٢٢١ من إنجيل برنابا.

(٨) راجع ص ٢٩٢ من إنجيل برنابا.

" من له قدرة على مساعدة فقير، ثم لم يساعده، حتى مات الفقير جوعا، فهو قاتل، ولكن القاتل الأكبر، هو من يقدر بكلمة الله على تحويل الخاطئ للتوبة ولم يحوله، بل يقف كما يقول الله " ككلب أبكم "، ففي مثل هؤلاء يقول الله " أيها العبد الخائن! منك أطلب نفس الخاطئ الذي يهلك، لأنك كتمت كلمتي عنه (١) "!

" إن من يشهد بالله بإخلاص قلب، أن الله منشئ كل صلاح، وأنه هو نفسه منشئ الخطيئة، يكون متضعا "، " الإتضاع الحقيقي، هو مسكنة النفس التي يعرف بها الإنسان نفسه بالحقيقة، ولكن الضعة الكاذبة إنما هي ضبابة من الجحيم تجعل بصيرة النفس مظلمة، بحيث ينسب الإنسان إلى الله، ما يجب عليه أن ينسبه إلى نفسه، وعليه فإن الرجل ذا الإتضاع الكاذب يقول إنه متوغل في الخطيئة، ولكن إذا قال له أحد إنه خاطئ، ثار حنقه عليه واضطهده (٢) "!

(د) مراقبة الله في الأكل والشرب:

يقول الغزالي: إنه يجب أن لا يأكل إلا حلالا في نفسه، طيبا في جهة مكسبه " كلوا من الطيبات "، موافقا للسنة والورع، لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع ولا بحكم هوى ومداهنة في دين، أو ينوي بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى، ليكون مطيعا بالأكل (ولا يقصد التلذذ والتنعم بالأكل)، وأن يرضى بالحاضر من الطعام ولا يجتهد في التنعم وطلب الزيادة وانتظار الأدم وفي هذا وفضيلة الأكل للعيش، أو كما يسميها الغزالي فضيلة الجوع، فهم لمعنى الحياة الإنسانية الحق وتجريد لها من خسة شهوة البطن المادية المشاركة لها البهائم فيها، إذ يرى أن في مجاهدة الجوع والعطش صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة (لأن الشبع يورث البلاد ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ،

----

(١) راجع ص ٢٩١ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٢٧٥ و ٢٧٦ من إنجيل برنابا.

فيثقل القلب عن الجريان في الأفكار وسرعة الإدراك)، وبالجوع يرق القلب ويصفو، ويزول البطر " فلا تذل النفس بشئ كما تذل بالجوع، فعنده تسكن لربها، وتقف على عجزها، إذ ضعفت منتها وضاقت حيلتها، بلقيمة طعام فاتتها، وأظلمت عليها الدنيا بشربة ماء تأخرت عنها "، وبه لا ينسى بلاء الله، ولا ينسى أهل البلاء، وبه الاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء " فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى، ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة، إنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه، وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام "، وبه يندفع النوم ويدوم السهر (لأن من شبع، شرب كثيرا، ومن كثر شربه، كثر نومه)، " وفي كثرة النوم ضياع العمر، وفوت التهجد، وبلادة الطبع، وقساوة القلب " وبه تتيسر المواظبة على العبادة (لأن الأكل يمنع من كثرة العبادات، لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل وشراء الطعام وطبخه وغسل اليد وكثرة التردد إلى بيت الماء، لكثرة شربه)!

ويستفيد من قلة الأكل صحة البدن، وبالجوع وقلة الأكل، تخف المؤنة وبقلة الأكل يتمكن من الإيثار والصدقة بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين، فيكون في يوم القيامة في ظل صدقته.

ويجعل الغزالي للأكل صفة اجتماعية منظمة، فيرى أن من آدابه أن يجتهد الإنسان في تكثير الأيدي على الطعام، ولو من أهله وولده، ويدل على احترام الغزالي للأكل ورفعه له عن خسة المادية، ذكره أن من الآداب التي تتقدم على الأكل " غسل اليد، لأن اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال، فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة، ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة "، وذكره أن من آداب حالة الأكل أن يبدأ ببسم الله في أوله، وبحمد الله في آخره، ويأكل باليمنى، احتراما له (١).

---

(١) راجع ٩١ - ٩٣ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

ويقول الغزالي في واجبات الأكل في اجتماع أو مشاركة، إنه يجب على الآكل في مجتمع أو مع شركائه أن لا يبتدئ بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل، وأن يراعي آداب تقديم الطعام إلى الزائرين وإحضاره والانصراف!

وأما آداب الضيافة فيرى الغزالي أن مظان الآداب فيها، أن يعمد الداعي بدعوته الأتقياء دون الفساق، ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص، وأن لا يميز المدعو الغني بالإجابة من الفقير، ولا ينبغي أن يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة، وأما الحضور فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر، فيأخذ أحسن الأماكن، بل يتواضع، ولا يطول الانتظار عليهم ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد، ولا يضيق المكان على الحاضرين، بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة، وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراما فليتواضع (١)!

* * *

وجاء في إنجيل برنابا " الحق أقول لكم، إن أكل الخبز بأيد غير نظيفة، لا ينجس إنسانا، لأن ما يدخل الإنسان، لا ينجس الإنسان، بل الذي يخرج من الإنسان، ينجس الإنسان "، " إن العصيان لا يدخل الإنسان، بل يخرج من الإنسان من قلبه، ولذلك يكون نجسا متى أكل طعاما محرما (٢) "، " متى دعيت، فاذكر أن لا تضع نفسك في الموضع الأعلا، حتى إذا جاء صديق لصاحب البيت أعظم منك، لا يقول لك صاحب البيت " قم واجلس أسفل "، فيكون باعثا لك على الخجل واجلس في أحقر موضع، ليجئ الذي دعاك ويقول " قم يا صديق واجلس هنا في الأعلا "، فيكون لك حينئذ فخر عظيم لأن من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع (٣) "!

---

(١) راجع ص ٩٣ و ٩٤ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

(٢) راجع ص ٤٨ – ٥٠ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ٥٣ من إنجيل برنابا.

" مجد الجنة هو طعام الجسد، أما النفس والحس فلهما الله ومحادثة الملائكة والأرواح المباركة "، " أي شئ يأكل أطعمة الجنة إذا كان الجسد لا يذهب إلى هناك؟ هل النفس؟ لا البتة، لأنها روح.. أي بركة ينالها الجسم إذا لم يأكل ويشرب، من المؤكد أنه من اللائق أن يكون التمجيد بالنسبة إلى الشئ الممجد... ولكن الجسم يكون في الجنة غير قابل للفساد وغير قابل للألم، وخالدا وخاليا من كل شقاء، والأطعمة التي لا عيب فيها لا تحدث أدنى فساد "، " صدقوني أن جسدنا هذا يتطهر على كيفية لا يكون له معها خاصة واحدة من خصائصه الحاضرة، لأنه سيتطهر من كل شهوة شريرة وسيعيده الله إلى الحال التي كان عليها آدم قبل أن أخطأ (١) "!

(٥) مراقبة الله في العجب:

يقول الغزالي إن العجب هو الفرح بكل خير ورفعة وعلم وعمل ورأى وعقل وجمال وقوة، وكل وصف كمال، والاطمئنان إليه من حيث أنه صفته، لا من حيث أنه عطية من الله تعالى ونعمة منه، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه إن له عند الله حقا وأنه منه بمكان، حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا، كأن يتوقع إجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه، واستبعد أنه يجري عليه مكروه، سمي هذا دلالا بالعمل (٢) "!

* * *

وجاء في إنجيل برنابا " إن كثيرين من العشارين والزواني والخطاة، سيمضون إلى ملكوت الله، وسيمضي الذين يحسبون أنفسهم أبرارا، إلى اللهب الأبدية (٣) ".

---

(١) راجع ص ٢٦٤ - ٢٦٦ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ١٠٤ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

(٣) راجع ص ٢٢٦ من إنجيل برنابا.

" يجب أن يمهل الخاطئ ليتوب، ما دام له نفس تتنفس وراء أسنانه، لأنه هكذا يمهل إلهنا القدير الرحيم، إن الله لم يقل إني أغفر للخاطئ في الساعة التي يصوم ويتصدق ويصلي ويحج فيها، وهو ما قام به كثيرون، وهم ملعونون لعنة أبدية، ولكنه قال في الساعة التي يندب فيها الخاطئ خطاياه، أنسى إثمه، فلا أذكره بعد (١).. ".

" جاهدوا أنفسكم، واعرفوا خطاياكم "، " أنت أيها الإنسان! أتفتخر أنك فعلت شيئا حسنا؟! وأنت قد خلقك إلهنا من طين، ويعمل فيك كل ما تأتيه من صلاح، ولماذا تحتقر قريبك ألا تعلم أنه لولا حفظ الله إياك من الشيطان، لكنت شرا من الشيطان (٢)؟ "

" قل لي أيها الإنسان الذي تدين غيرك، ألا تعلم أن منشأ كل البشر من طينة واحدة؟ ألا تعلم أنه لا يوجد أحد صالح إلا الله وحده، ولذلك كان كل إنسان كاذبا وخاطئا، صدقني أيها الإنسان، أنك إذا كنت تدين غيرك على ذنب، فإن في قلبك ما تدان عليه (٣) ".!

(و) مراقبة الله في الكبرياء:

قال تعالى " سأصرف عن آياتي، الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق "، ويقول الغزالي إن الكبر ينقسم إلى خلق باطن في النفس (يسمى كبرا) وإلى أعمال ظاهرة تصدر عن الجوارح (تسمى تكبرا)، فالأصل هو الخلق الذي في النفس، وهو الركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه (فيستعظم نفسه)، فهذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه، فيحصل في قلبه اعتداد وفرح بما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك، ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن، وهي ثمرات، ويسمى ذلك تكبرا.

---

(١) راجع ص ١٣٩ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١٩٧ و ١٩٨ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٧٩ من إنجيل برنابا.

والكبر صار حجابا دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها فيدعوه إلى كل الأخلاق الذميمة، (فلا يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، ولا يقبل الحق وينقاد له، ويزدري بالناس)، وإذا قيل له اتق الله، أخذته العزة بالإثم "!

والتكبر باعتبار المتكبر عليه، ثلاثة أقسام:

(١) أفحشها التكبر على الله (كفرعون، إذ قال لتكبره أنا ربكم الأعلى، إذ استنكف أن يكون عبدا لله)، ولا مثار إلا الجهل المحض.

(٢) ثانيها التكبر على الرسل، من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار، فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد، وهو ظان أنه محق فيه، وتارة يمتنع مع المعرفة، ولكن لا تطاوعه نفسه للإنقياد الحق والتواضع للرسل " وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة، أو نرى ربنا، لقد استكبروا في أنفسهم، وعتوا عتوا كبيرا ".

(٣) ثالثها التكبر على العباد (وهذه رذيلة عظيمة، لأن الكبر والعز والعظمة، لا يليق إلا بالله الملك القادر (١))!

* * *

وجاء في إنجيل برنابا " الحق أقول لكم، إن الشيطان لم يخذل إلا بخطيئة الكبرياء (٢) "!

" أخطأ الشيطان وآدم بسبب الكبرياء، أما أحدهما، فلأنه احتقر الإنسان، وأما الآخر فلأنه أراد أن يجعل نفسه ندا لله (٣) "، " لنخش الله، لكي لا يطرحنا في الهاوية لكبريائنا (٤) "!

---

(١) راجع ص ١٠٥ و ١٠٦ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

(٢) راجع ص ٥٣ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ٦٥ من إنجيل برنابا.

(٤) راجع ص ٢٠٠ من إنجيل برنابا.

(ز) مراقبة الله في المعاشرة والألفة والصحبة:
إن من المقاصد الدينية والدنيوية، ما يستفاد بالاستعانة بالغير، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة، وذكر الغزالي لذلك سبع فوائد نجمعها فيما يلي:
التعليم
والتعلم، والنفع، والانتفاع، والتجارب والممارسة، والتأديب والتأدب، ونيل الثواب وإنالته، والتواضع، والاستئناس والإيناس!
ولكن مع ذلك يرى للعزلة ست فوائد خلاصتها: التفرغ للعبادة، إذ قال الله تعالى: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "، (ويدخل فيها الفكر والاستئناس بمناجاته، والاشتغال باكتشاف أسراره في أمر الدنيا والآخرة) والتخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالبا، والخلاص من شر الناس، وأن ينقطع طمعهم عنك، وينقطع طمعك عنهم، والخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى وأخلاقهم!
ولكن الغزالي مع هذا، يقول إن " الحكم على العزلة مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائت بسبب مخالطته، ويقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل، ولذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة (١) "!
وكذلك يسئ المعاشرة مع الناس، الكبر والغضب والحقد والحسد، وقد خلق الله طبيعة الغضب من النار، وغرزها في الإنسان، إذا صد عن غرض من أغراضه!
ويقسم الغزالي الناس في قوة الغضب على درجات ثلاث: التفريط بفقد هذه القوة أو ضعفها (وذلك مذموم)، والإفراط في الغضب (وهو أن يغلب حتى يخرج عن طاعة العقل والدين)، وغضب محمود ينبعث حيث تجب الحمية، وينطفئ حيث يحسن الحلم.
وأسباب الكبر الظاهر هي: العجب والحقد والحسد.

---

(١) راجع ص ١٤٨ و ١٤٩ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

والغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه، وأن يدوم ذلك ويبقى! وإذا أنعم الله على أخيك بنعمة (كدار حسنة أو امرأة جميلة، أو ولاية نافذة، أو سعة)، فلك فيها حالتان، إحداهما أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسدا، وهو حرام (إلا نعمة أصابها فاجر، وهو يستعين بها على الفساد)، والثانية أن لا تحب زوالها، ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذه تسمى غبطة وقد تختص باسم المنافسة، وهي محمودة (١)!

ويقول الغزالي: إن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل، قال تعالى: " إن تمسسكم حسنة تسؤهم "، أما الفعل فهو غيبة وكذب، وهو عمل صادر عن الحسد، وهذا الحسد معصية بينك وبين الله تعالى، ويجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح (بقول أو فعل)، والمستغرق بحب الله تعالى لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة، ويرى الكل عبادا لله وأفعالهم أفعالا لله ويراهم مسخرين، وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه، والظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة حب زوال النعمة وضعفه (٢)!

ويقتضي الكلام عن الألفة مع الناس، الكلام عن معاملة عمومهم وتواده لمعارفه منهم وحقوق صحبه وزوجه.

ويقول الغزالي " إن حقوق المسلم، هي: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات وتبر قسمه إذا أقسم عليك، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك "!

---

(١) راجع ص ١٥٣ - ١٥٨ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

(٢) راجع ص ١٠٥ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

والأخوة عقد ينزل منزل القرابة، فإذا انعقدت (هذه الرابطة الروحية بين شخصين)، تأكد الحق، ولذا يرى الغزالي للأخ الصاحب حقوقا عدة نجملها في أن يساهم أخاه في السراء والضراء، وأن يقيد بحقوقه جميع جوارحه، وأن يترك التكلف والتكليف (١)!

والصحبة تنقسم إلى ما يقع بالاتفاق (كالصحبة بسبب الجوار) وإلى ما ينشأ اختيارا أو بقصد! وهي عبارة عن المجالسة والمخالطة والمجاورة، وهذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه، فإن غير المحبوب يجتنب، والذي يحب، فإما أن يحب لذاته، وإما أن يحب للتوصل إلى مقصود مقصور على الدنيا وحظوظها (وهو مذموم إن كان القصد مذموما، ومباح إن كان القصد التوصل إلى مباح كنيل جاه أو مال أو علم)!

وإما بأن يكون متعلقا بالآخرة (كمن يحب أستاذه، لأنه يتوصل به إلى تحسين العلم والعمل)، وإما أن يكون متعلقا بالله تعالى، بأن يحب لله وفي الله، وهذا أعلى الدرجات وأدقها وأغمضها!

ويقول الغزالي إن " كل من يحب في الله، لا بد أن يبغض في الله، فإنك إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله، فإن عصاه فلا بد أن تبغضه، فإذا اجتمع في شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها، فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه، وإظهار البغض إما بالقول، فبكف اللسان عن محادثته مرة، وبالاستخفاف والتغليظ في القول أخرى، وإما في الفعل، فبقطع السعي في إعانته مرة، وبالسعي في إفساد مآربه أخرى، وبعض هذا أشد من بعض، وهو بحسب درجات الفسق الصادرة منه! أما ما يجري مجرى الهفوة التي يعلم أنه متندم عليها ولا يصر عليها، فالأولى فيه الستر (٢)!

---

(١) راجع ص ١٥٩ – ١٦٨ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

(٢) راجع ص ١٠٦ – ١٠٨ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

وجاء في إنجيل برنابا " إذا أخطأ أخوك إليك فاذهب وأصلحه، فإذا هو اصطلح فتهلل، لأنك قد ربحت أخاك.. إنك كل مرة تصلح أخاك بالرحمة، تنال رحمة من الله، وتثمر كلماتك بعض الثمر، ولكن إذا فعلت ذلك بقسوة، يقاصك عدل الله بقسوة، ولا تأتي بثمر (١).. "!

" اعلموا ما المراد بالصديق، لا يراد بالصديق إلا طيب النفس، وهكذا كما أنه يندر أن يجد الإنسان طبيبا ماهرا يعرف الأمراض ويفقه استعمال الأدوية فيها، هكذا يندر وجود أصدقاء يعرفون الهفوات، ويفقهون كيف يرشدون للصلاح، ولكن هناك شرا، وهو أن لكثيرين أصدقاء يغضون الطرف عن هفوات صديقهم، وآخرين يعذرونهم، وآخرين يحامون عنهم بوسيلة عالمية، ويوجد أصدقاء – وذلك شر مما تقدم – يدعون أصدقاءهم ويعضدونهم بارتكاب الخطأ، وستكون آخرتهم نظير لؤمهم، احذروا من أن تتخذوا أمثال هؤلاء القوم أصدقاء.. ليكن صديقك يقبل الإصلاح، كما يريد هو أن يصلحك، وكما أنه يريد أن تترك كل شئ، حبا في الله فعليه أن يرضى بأن تتركه لأجل خدمة الله.. فمتى اخترت لك صديقا.. فانظر أولا، لا إلى نسبه الحسن ولا إلى أسرته الحسنة، ولا إلى بيته الحسن، ولا إلى ثيابه الحسنة، ولا إلى شخصه الحسن، ولا إلى كلامه الحسن أيضا، ولأنك حينئذ تغش بسهولة، بل انظر كيف يخاف الله، وكيف يحتقر الأشياء الأرضية، وكيف يحب الأعمال الصالحة، وعلى نوع أخص كيف يبغض جسده.. ولا يجب عليك أيضا أن تحب صديقا كهذا بحيث أن حبك ينحصر فيه، لأنك تكون عابد صنم، بل أحبه كهبة وهبك الله إياها.. هكذا يجب أن تفعل بصديق شر منك، فاتركه في الأشياء التي يكون فيها عزة لك، إذا كنت لا تود أن تتركك رحمة الله (٢) "، " لا يجب على الأصدقاء أن يبكوا متى مات صديق، لأن إلهنا أراد ذلك، بل ليبك بدون انقطاع متى أخطأ، لأن النفس تموت (٣) "!

---

(١) راجع ص ١٣٦ و ١٣٧ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٥ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٢٩٠ من إنجيل برنابا.

(ح) مراقبة الله في السماع والوجد:
يقول الغزالي إن الغناء سماع صوت طيب موزون، مفهوم المعنى، محرك للقلب، وهو حلال بالقياس (إذ يرجع إلى تلذذ حاسة، بإدراك ما هو مخصوص به) وبالنص (إذ امتن الله تعالى على عباده به بقوله " يزيد في الخلق ما يشاء "، ومنه الصوت الحسن، ويدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن قوله " إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " والوزن وراء الحسن).
ويقول إنه يحرم السماع بخمسة عوارض: أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها، وتخشى الفتنة من سماعها (وفي معناها الصبي الأمرد الذي تخشى فتنته)، وأن تكون الآلة من شعار أهل الشرب أو المخنثين (وهي المزامير والأوتار وطبل الكوبة)، وأن يكون في نظم الصوت وهو الشعر، شئ من الخنا والفحش، وهجو غير الكفار وأهل البدع، أو الكذب على الله ورسوله (وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها)، وأن تكون الشهوة غالبة على المستمع، وكان في غرة الشباب، وأن يتخذه دينه، ويقصر عليه أكثر أوقاته (١) "!

* * *

وجاء في إنجيل برنابا " إنه يجب على الإنسان أن يبكي على الخطيئة فقط، لأنه بالخطيئة يترك الإنسان خالقه، ولكن كيف يبكي من يحضر مجالس الطرب والولائم؟ إنه يبكي كما يعطي الثلج نارا! فعليكم أن تحولوا مجالس الطرب إلى صوم، إذا أحببتم أن يكون لكم سلطة على حواسكم (٢) "!
(ط) مراقبة الله في التوبة:
ويقول الغزالي إن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم، من ثلاثة أمور مرتبة:
(١) أولها العلم، وهو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب!

---

(١) راجع ص ١١١ - ١١٤ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي محمود علي قراعة.
(٢) راجع ص ١٦٢ من إنجيل برنابا.

(٢) فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه، ثار من هذه المعرفة تألم للقلب وتأسف، بسبب فوات المحبوب بفعله، (يسمى ندما)! وتتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها، فيستبدل بالميل كراهية، وبالرغبة نفرة دائمة!
(٣) فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى، انبعثت منه في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال (بالترك لكل محظور هو ملابس له، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال) وبالماضي (بتلافي ما فات بالجبر والقضاء، إن كان قابلا للجبر) وبالمستقبل (بالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، بأن يعقد مع الله عقدا مؤكدا، ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها) - وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، ويجعل العلم كالمقدمة، والترك كالثمرة!
والتوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة: العلم والندم والترك، وهي واجبة على الفور.
وظاهر الكتاب قد دل على هذا، إذ قال تعالى: " وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون، لعلكم تفلحون "، ونور البصيرة أيضا يرشد إليه، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله، المقرب إلى الشيطان.
والغزالي يرى أن كل بشر لا يخلو عن معصية، إما بجوارحه، وإما بالهم بالذنوب بقلبه، وإما بوساوس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، وإما بغفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، ويقول إنه " لا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير فإذا بلغ كافرا فعليه التوبة من جهله وكفره، وإذا بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه، فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام، فإن فهم ذلك، فعليه الرجوع عن عادته، بالرجوع إلى قلب حدود الله في المنع والإطلاق والانفكاك والاسترسال "!
" ليست التوبة للذين يعملون السيئات، حتى إذا حضر أحدهم الموت، قال إني تبت الآن، إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة، ثم يتوبون من

قريب "، أي عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها، ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها، قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو!

والتوبة إذا استجمعت شرائطها (بأن كانت صحيحة نصوحا، خالية من الشوائب) فهي مقبولة لا محالة، لأن كل قلب سليم مقبول عند الله، والقلب خلق سليما في الأصل، ونار الندم تحرق غبرة الذنوب، ونور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، والله خلق الطاعة مكفرة للمعصية، والحسنة ماحية للسيئة!

والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل، وتنقسم الذنوب إلى صغائر وكبائر، ويرى الغزالي أن الكبائر على ثلاث مراتب:

(١) ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله، وهو الكفر (ومنه الشرك بالله، وكفر الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمته)، ويليه الإصرار على معصية الله، وتناول الدين بالإغواء، والدعاء إلى البدعة، والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجرأة على الله، وبعضها أشد من بعض، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه.

(٢) ما يسد باب حياة النفوس، إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة (كقتل النفس والزنا واللواط)، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر، لأن ذلك يصدم عين المقصود – التوصل بالدنيا للآخرة بمعرفة الله تعالى – وهذا يصدم وسيلة المقصود، والزنا دون القتل لأنه يفوت تمييز الأنساب، وأشد من اللواط، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين، فيكثر وقوعه، ويعظم أثر الضرر بكثرته، واللواط شديد، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات، انقطع النسل.

ويقول الغزالي إن للنكاح فوائد وآفات، على العبد أن يوازن بينهما، ويرجح الأصلح له منهما (١).

---

(١) فآفاته ثلاث: العجز عن طلب الحلال، والقصور عن القيام بحق الزوجة، وأن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله تعالى، وجاذبا إلى طلب الدنيا بكثرة جمع المال وادخاره للأولاد. وأما فوائده فخمسة: الولد (وهو الأصل وله وضع النكاح، وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة)، والتحصن عن الشيطان وكسر التوقان، وتفريغ القلب عن تدبير المنزل وتهيئة أسباب المعيشة، ومجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، وإرشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربيته لأولاده.

ويقول الغزالي: " إن الصبي أمانة عند والديه، وهو قابل لكل نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه، نشأ عليه وسعد في الدنيا

والآخرة، ويشاركه في ثوابه أبواه ". راجع ص ٩٥ و ٩٧ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

ويقول الغزالي إن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل قلبه ونفسه بالتزويج، فإن ذلك يستجره إلى الأنس بالزوجة، ومن أنس بغير الله تعالى، شغل عنه، فشرط المريد العزوبة في الابتداء، إلى أن يقوى في المعرفة، هذا إذا لم تغلبه الشهوة، فإن غلبته، فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم، فإن لم تنقمع الشهوة بذلك، وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلا، وإن قدر على حفظ الفرج، فالنكاح أولى له لتسكن الشهوة، إذ زنا العين من كبار الصغائر وإن قدر على حفظ عينه عن النساء، ولم يقدر حفظها عن الصبيان، فالنكاح أولى به!

(٣) ما يتعلق بالأموال، فإنها معايش الخلق، فينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس، ولذا إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له، فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر (كالسرقة وأكل مال اليتيم، وتفويتها بشهادة الزور، وأخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس، التي يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا، وأن يأكل الربا وهو يعلم)!

أما الشرب لما يزيل العقل، فهو جدير بأن يكون من الكبائر، ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر (فلو شرب ماء فيه قطرة من الخمر، لم يكن ذلك كبيرة، وإنما شرب ماء نجس)، والقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا، يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع، وأما السحر، فإن كان فيه كفر

فكبيرة، وإلا فعظيمة، حسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره! وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين، فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف (وجملة عقوق الوالدين، أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما، وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما، أو يسباه فيضربهما، ويجوعان فلا يطعمهما)!

ويقول الغزالي إن الكبير والصغير من المضافات، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه (فالمضاجعة مع الأجنبية مثلا أي إصابتها بكل شئ إلا المسيس، كبيرة بالإضافة إلى النظرة، صغيرة بالإضافة إلى الزنا)، ويرى مع هذا، أن الصغيرة تكبر بأسباب، منها:

(١) الإصرار والمواظبة، إذ تؤدي إلى الكبيرة (كالمراودة والمقدمات في الزنا، والمشاحنة السابقة والمعاداة في القتل).

(٢) استصغار الذنب: لأنه كلما استعظمه من نفسه، صغر عند الله تعالى وكلما استصغره، كبر عند الله، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه، وذلك يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الإلف به.

(٣) والسرور بالصغيرة والتبجح بها، واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة.

(٤) والتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه.

(٥) وإتيانه الذنب وإظهاره، بأن يذكره بعد إتيانه، أو يأتيه في مشهد غيره، لأن ذلك تحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه وأشهده فعله، ويتفاحش الأمر إذا رغب الغير فيه، وحمله عليه وهيأ أسبابه له.

(٦) وكذلك يكبر الذنب، فلا تكفره الصلوات الخمس، إذا كان عالما يقتدى به، وفعله بحيث يرى ذلك منه.

وشروط صحة التوبة فيما يتعلق بالماضي، أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام، ويفتش فيه عما مضى من عمره يوما يوما، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها فيؤديها، وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها، فينظر فيها، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى، من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد،

فالتوبة عنها بالندم، بأن يحسب مقدارها من حيث المدة، فيأتي من الحسنات بقدر تلك السيئات (فيكفر شرب الخمر مثلا بالتصدق بشراب حلال)!
وعد جميع المعاصي غير ممكن، وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة، فإن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلوب بمعصية، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو، فالرجاء فيه أصدق من أن يواظب على نوع واحد من العبادات، وإن كان ذلك أيضا مؤثر في المحو!
وأما مظالم العباد، ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى، فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا، فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل، والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها (فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين الخ..)، ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ما لم يخرج عن مظالم العباد، فليستحلهم أو ليؤد حقوقهم إن قدر، وإلا فليكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة، فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم!
والإصرار على الذنوب لا يكون لفقد الإيمان (إلا إذا كان كافرا)، بل يكون لضعفه، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة، ولكن يرى الغزالي أن سبب وقوعه في الذنب أمور، نرى ذكرها مع علاجها الذي رآه لها:
(١) أن العقاب الموعود غيب: وعلاج هذا السبب هو الفكر، بأن يقرر على نفسه أن غدا لناظره قريب!
(٢) أن الشهوات الباعثة على الذنوب ناجزة، وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد: وعلاج هذا السبب هو معالجة اللذة الغالبة عليه، وتكليف نفسه تركها، لينعم بنعيم الآخرة الدائم الخالي من الشوائب.
(٣) أن طول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوف التوبة: والعلاج

هو بالفكر، فلعله لا يبقى، وإن بقي فلا يقدر على الترك غدا، كما لا يقدر عليه اليوم، وإن الشهوة تتضاعف إذ تتأكد بالاعتياد!
(٤) أنه يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى: وعلاج هذا السبب بأن يعلم أن انتظار العفو انتظار أمر ممكن، ولكنه قد لا يمكن وقد لا يكون!
أما إذا كان المذنب كافرا، فيرى الغزالي أن يعالج الكفر والشك بالأسباب التي تعرف صدق الرسل وبعلم قريب يليق بحد عقله، إذ ليس في العقلاء إلا من صدق بالله واليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا، وإن اختلفوا في كيفيته، فإن صدقوا، فقد أشرف على عذاب يبقى أبد الآباد (من نار للبدن وألم في القلب)، وإن كذبوا، فلا يفوته إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة، فلا يبقى له توقف إذا كان عاقلا، مع هذا الفكر (١)!
* * *

وجاء في إنجيل برنابا " إن الفضة الجيدة في الفكر، إنما هي التقوى... والصورة الصحيحة إنما هي قدوة الأطهار والأنبياء، التي يجب علينا اتباعها، وزنة الفكر إنما هي محبة الله، التي يجب أن يعمل بموجبها كل شئ "، " يلزمكم شيئان: الأول أن تتمرنوا كثيرا، والثاني أن تتكلموا قليلا.. يجب أن تكون النفس أيضا مشتغلة بالصلاة.. ولا يكفي للهرب من الشر أن يعرف الإنسان لينجو منه، بل يجب فعل الصالحات، للتغلب عليه (٣) "!
" لما كان الحس الذي لا يطمئن في العمل، بل يطلب المسرة غير مكبوحة الجماح بالعقل، اتبع النور الذي تظهره له العينان، ولما كانت العينان لا تبصران شيئا غير الباطل، خدع نفسه واختار الأشياء الأرضية، فأخطأ، لذلك وجب برحمة الله أن ينور عقل الإنسان من جديد، ليعرف الخير من الشر، والمسرة

---

(١) راجع ص ١١٥ - ١٣٣ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.
(٢) راجع ص ١١٧ من إنجيل برنابا.

الحقيقية، فمتى عرف الخاطئ ذلك، تحول إلى التوبة "، " الإنسان من حيث هو إنسان، لا يفلح في تحويل إنسان إلى التوبة، أما الإنسان من حيث هو وسيلة يستعملها الله، فهو يجدد الإنسان "، " يجب على الإنسان في حال الخطيئة أن يتوب ويجاهد نفسه، فكما أن الحياة البشرية تخطئ على الدوام، وجب عليها أن تقوم بجهاد النفس على الدوام (١) "!

" إن الله يمهل الإنسان ليتوب "، " إن الله يرسل أنبياءه وخدامه إلى العالم ليتوب الخطاة، ولا يرسلهم لأجل الأبرار، لأنه ليس لهم حاجة إلى التوبة، كما أنه لا حاجة ممن كان نظيفا إلى الحمام (٢) "، " إن النفس التي تخطئ تموت، ولكن إذا تاب الخاطئ، لا يموت بل يحيا (٣) "!

" إن الكذب خطيئة، ولكن القتل خطيئة أعظم، لأن الكذب خطيئة تختص بالذي يتكلم، ولكن القتل على كونه يختص بالذي يرتكبه هو، يهلك أيضا أعز شئ لله هنا على الأرض أي الإنسان، ويمكن مداواة الكذب بقول ضد ما قيل، على حين لا دواء للقتل "، " لقد أمر إلهنا أن لا نسرق.. وهذه خطيئة من نوع لا يمكن غفرانه إلا إذا رد ما أخذ ظلما.. "، " إن من يسرق الشرف، يستحق عقوبة أعظم ممن يسرق رجلا ماله وحياته، ومن يصغي إلى المتذمر، فهو مذنب أيضا (٤) "!

" إن من كان نور عينيه جليا، يرى كل شئ جليا ويستخرج من الطاعة نفسها نورا، ولكن الأعمى لا يفعل هذا، لذلك أقول لو لم يخطئ الإنسان، لما علمت أنا ولا أنت رحمة الله وبره، ولو خلق الله الإنسان غير قادر على الخطيئة، لكان ندا لله في ذلك الأمر، لذلك خلق الله المبارك الإنسان صالحا وبارا، ولكنه حر أن يفعل ما يريد من حيث حياته وخلاصه لنفسه أو لعنته (٥) "

----

(١) راجع ص ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٢ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٢٢٢ و ٢٢٨ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٢٨٩ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ٢٣٧ و ٢٣٩ و ٢٥١ من إنجيل برنابا.
(٥) راجع ص ٢٤٠ من إنجيل برنابا.

" ليس كل أحد قاضيا يا برنابا، لأن للقاضي وحده أن يدين الآخرين، وعلى القاضي أن يقتص من المجرم، كما يأمر الأب بقطع عضو فاسد من ابنه لكيلا يفسد الجسم كله "، " أيها الإنسان المنصوب قاضيا! لا تنظر إلى شئ آخر، لا إلى الأقرباء ولا إلى الأصدقاء، ولا إلى الشرف، ولا إلى الربح، بل انظر فقط بخوف إلى الله الحق الذي يجب أن تطلبه باجتهاد عظيم "، " ما أشد القضاء خطرا، وما أكثر الذين هلكوا بقضائهم الجائر (١) "، " إن من يطلب الله يجب أن يحكم على نفسه فقط (٢) "، " إن الوقوع في دينونة الله مخوف، وسيحل حينئذ على أولئك الذين يبررون الأثيم لأجل النقود، ولا يقضون في دعوى اليتامى والأرامل، " إني أقول لكم حقا إن كثيرين يقضون فيخطئون، وإنما يقضون فيما لا يوافق أهواءهم، وأما ما يوافقها فيقضون به قبل وقته (٣) "!

" متى أحب الإنسان شيئا، لا من حيث أن الله أعطاه هذا الشئ، فهو زان، لأنه جعل النفس متحدة بالمخلوق، وهي التي يجب أن تبقى متحدة بالله خالقها "، " يجب على الإنسان أن يعيش في المدينة كما يعيش الجندي إذا كان حوله أعداء يحيطون الحصن، دافعا عن نفسه كل هجوم.. أقول هكذا يجب عليه أن يدفع كل إغراء خارجي من الخطيئة، وأن يخشى الحس، لأن له شغفا مفرطا بالأشياء الدنسة "، " إن كل من يجد لذة في المخلوق أيا كان، ولا يطلب أن يجد لذة في الله، فقد صنع صنما في قلبه، وترك الله! فإذا لم تحفظ العين.. فإني أقول لك إن عدم الانغماس في الشهوة حينئذ من المحال على الإنسان (أن يفعل هكذا)، لأنه يجب عليه ببصر عينه الخارجي وبصر عقله الداخلي، أن يطلب خالقه ومرضاة مشيئته، وأن لا يجعل غرضه المخلوق الذي يجعله يخسر الخالق (٤) "!

" احفظ جسدك كفرس، تعش في أمان، لأن القوت يعطى للفرس

----

(١) راجع ص ٧٩ و ١٣٨ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٢٣١ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ٧٨ من إنجيل برنابا.

(٤) راجع ص ١٧٨ و ١٨١ و ١٨٢ من إنجيل برنابا.

بالمكيال، والشغل بلا قياس، ويوضع اللجام في فمه ليسير بحسب إرادتك، ويربط لكيلا يزعج أحدا، ويحبس في مكان حقير، ويضرب إذا عصى، فهكذا أفعل أنت.... تعش " دواما مع الله "!

" فليقنع الرجل إذا بالمرأة التي أعطاه إياها خالقه، ولينس كل امرأة أخرى (١) "!

" إن التوبة عكس الحياة الشريرة، لأنه يجب أن تنقلب كل حاسة إلى عكس ما صنعت وهي ترتكب الخطيئة، فيجب النوح عوضا عن المسرة، والبكاء عوضا عن الضحك، والصوم عوضا عن البطر، والسهر عوضا عن النوم، والعمل عوضا عن البطالة، والعفة عوضا عن الشهوة، وليتحول الفضول إلى صلاة، والجشع إلى تصدق "، " إن أساس خلاصنا هو الله الذي لا خلاص بدونه، فلما أخطأ الإنسان، خسر أساس خلاصه، ولذلك وجب الابتداء بالأساس! وجب على الخاطئ النادم ندامة صادقة، أن يرغب كل الرغبة في أن يقتص من نفسه لما صنع، عاصيا لخالقه "، " إن الله يحكم بالموت الأبدي على الخاطئ الذي يضحك لخطاياه ولا يبكي عليها "، " إن بكاء الخاطئ هو احتراق هواه العالمي بشدة الأسى، وكما أن نور الشمس يقي ما هو موضوع في الأعلى من التعفن، هكذا يقي هذا الاحتراق النفس من الخطيئة ففي البكاء يزن الله الحزن أكثر مما يزن العبرات (٢) "، " إن الله خالقنا لا ينظر إلى الوقت، بل ينظر إلى القلب (٣) "!

---

(١) راجع ص ٣٥ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ١٥٥ و ١٥٦ و ١٥٨ و ١٥٩ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ٢٣٣ من إنجيل برنابا.

(ي) مراقبة الله في الرجاء والخوف:
يقول الغزالي: إن الرجاء هو ارتياح القلب (ولذته) لانتظار محبوب (متردد فيه غير مقطوع به)، تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف المفسدات! والرجاء باعث بطريق الرغبة يضاده اليأس (الذي يمنع من التعهد ويصرف عن العمل)، فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطاعات، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته، فإن كان لا يظهر، فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء، والنزول في حضيض الغرور - إن كان انتظارا مع انخرام أسبابه - والتمني - إن كان انتظارا من غير سبب).
والخوف هو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، والمحمود منه هو الاعتدال، فأما القاصر منه، فهو الذي يجري مجرى رقة النساء وهو يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن، فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قليل النفع!
وأما المفرط، فإنه الذي يجاوز حد الاعتدال، حتى يخرج إلى اليأس، وهو مذموم أيضا لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف وإلى زوال العقل والموت، فالمراد من الخوف هو الحمل على العمل، ولولاه لما كان الخوف كمالا، وفائدة الخوف الحذر، والورع، والتقوى، والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر، وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل، فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم، وأفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى!
ويقول الغزالي إن الخوف لا يتصور أن ينفك مؤمن عنه، وإن ضعف ويكون ضعف خوفه بسبب معرفته وإيمانه، والرجاء والخوف مثلا زمان لأن كل من رجا محبوبا، فلا بد وأن يخاف فوته، ويجوز أن يغلب أحدهما

على الآخر وهما مجتمعان، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه، وهذا لأن من شروط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه، إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف، فإذا المحبوب الذي يجوز وجوده، يجوز عدمه لا محالة، فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء، وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف، والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان الأمر المنتظر مشكوكا فيه، وأحد طرفي الشكوك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب، قوي الرجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه، وكذا بالعكس، وعلى كل حال فهما متلازمان، ولذلك قال تعالى " ويدعوننا رغبا ورهبا "! والخوف من الله تعالى على مقامين:

(١) الخوف من عذابه: وهو خوف عموم الخلق، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان!

(٢) الخوف من الله: وهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الخوف، المطلعين على سر قوله " ويحذركم الله نفسه " وقوله " اتقوا الله حق تقاته "، ومن عرف الله تعالى خافه بالضرورة، لأن الله تعالى خلق الجنة وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا، وخلق النار وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا!

ولذا يرى الغزالي أن من يسرت له أسباب الشر، وحيل بينه وبين أسباب الخير، وأحكمت علاقته من الدنيا، فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة، إذ كل ميسر لما خلق له، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة، والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا، وبظاهره وباطنه على الله مقبلا، كان هذا يقتضي تخفيف الخوف، لو كان الدوام على ذلك موثوقا به، ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات، يزيدان نيران الخوف إشعالا!

وسوء الخاتمة على رتبتين (إحداهما) أعظم من الأخرى، فأما الرتبة

الهائلة، فإن يغلب على القلب عند الموت وظهور أهواله، إما الشك وإما الجحود، (الثانية) وهي دونها، أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة، متسع لغيره (١)!

* * *

وجاء في إنجيل برنابا " الحق أقول لكم، إن كلمة الله تثمر في كل حال، متى خاف الإنسان الله (٢) "!

" الحق أقول لكم، إذا خاف الإنسان الله، انتصر على كل شئ (٣) "

" إن الروح في كثيرين نشيط في خدمة الله، أما الجسد فضعيف، فيجب على من يخاف الله، أن يتأمل ما هو الجسد، وأين كان أصله، وأين مصيره؟! من طين الله خلق الله الجسد، وفيه نفخ نسمة الحياة بنفخة فيه، فمتى اعترض الجسد خدمة الله، يجب أن يمتهن ويداس كالطين، لأن من يبغض نفسه في هذا العالم، يجدها في الحياة الأبدية (٤) "، " أيها القوم! إذا نظرتم إلى القبور، تعلمون ما هو الجسد! الويل للذين هم خدمة أجسادهم، لأنهم حقا لا ينالون خيرا في الحياة الأخرى، بل عذابا لخطاياهم (٥) "!

" إن الله أعطى لكل إنسان ملاكين مسجلين، أحدهما لتدوين الخير والآخر لتدوين الشر، فإذا أحب الإنسان أن ينال رحمة، فليزن كلامه بأدق مما يزن الذهب (٦)، " إنك لأنت أشد جنونا من كل المجانين أيها الإنسان، الذي تعرف السماء بإدراكك، وتختار الأرض بيديك، الذي تعرف الله بإدراكك وتشتهي العالم بهواك، الذي تعرف ملذات الجنة بإدراكك، وتختار بأعمالك شقاء الجحيم (٧) "!

---

(١) راجع ص ١٣٣ - ١٣٨ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.
(٢) راجع ص ٢٠٤ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ١١٤ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ٣٢ من إنجيل برنابا.
(٥) راجع ص ٣٣ من إنجيل برنابا.
(٦) راجع ص ١٨٦ من إنجيل برنابا.
(٧) راجع ص ١٢٠ من إنجيل برنابا.

" في البقعة الملعونة... يقيم الكافرون إلى الأبد.. إذ ليس لعذابهم من نهاية، لأنهم لم يريدوا أن يضعوا حدا لخطيئتهم، حبا في الله، أما المؤمنون، فسيكون لهم تعزية، لأن لعذابهم نهاية.. يتحتم على كل أحد أيا كان، أن يذهب إلى الجحيم، بيد أن ما لا مشاحة فيه، أن الأطهار وأنبياء الله إنما يذهبون إلى هنالك ليشاهدوا عدل الله، لا ليكابدوا عقابا، أما الأبرار فإنهم لا يكابدون إلا الخوف.. إنه حتى رسول الله يذهب إلى هناك ليشاهد عدل الله، فترتعد ثمة الجحيم لحضوره (١) "!

" الجنة هي البيت الذي يخزن الله فيه مسراته، التي هي عظيمة جدا..
رأى هذه المسرات أبونا داود نبي الله، فإن الله أراه إياها إذ يسر له أن يبصر مجد الجنة، ولذلك لما عاد إلى نفسه، غطى عينيه بكلتا يديه، وقال باكيا " لا تنظري فيما بعد إلى هذا العالم يا عيني، لأن كل شئ فيه باطل، وليس فيه شئ جيد "!

(٧) التفكر في خلق الله:

يقول الغزالي إن معنى الفكر، هو إحضار معرفتين في القلب (مثل أن الأبقى أولى بالإيثار، وأن الآخرة أبقى من الدنيا)، ليستثمر منهما معرفة ثالثة (وهي في مثالنا أن الآخرة أولى بالإيثار)، وأما ثمرة الفكر، فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة، العلم لا غير، فإذا حصل العلم في القلب، وإذا تغير حال القلب، تغيرت أعمال الجوارح! وذكر القلب خير من عمل الجوارح، بل شرف العمل لما فيه من الذكر، ولذا قيل " تفكر ساعة خير من عبادة سنة "!

والفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين (المعاملة بين العبد وبين الرب)، وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين، وجميع أفكار العبد (الدينية)، إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله، ومحب الله تعالى

---

(١) راجع ص ٢١١ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٢٦٠ و ٢٦١ من إنجيل برنابا.

ينبغي أن لا يعدو نظره وتفكيره محبوبه، وتفكره محصور، في أقسام:
(١) تفكر في صفات نفسه، لتمييز المحبوب منها (من المحبوب)، عن المكروه، وكل ما هو مكروه عند الله، أو محبوب، ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصي (التي تتعلق بالبدن وأعضائه)، وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب، ويجب في كل واحد من المكاره، التفكر في ثلاثة أمور: التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله، أم لا، فإن كان مكروها، فما طريق الاحتراز عنه، وهل هو متصف بهذا المكروه في الحال فيتركه، أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه، أو قارفه فيما مضى من الأحوال، فيحتاج إلى تداركه (وبعكس ذلك يكون التفكير في المحبوبات، ليعمر القلب بالأخلاق المحمودة، وينزه الباطن والظاهر)!
(٢) التفكر في جلال الله، وفيه مقامان: التفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه، وهذا مما منع منه، حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى، ولا تتفكروا في ذات الله (لأن العقول تتحير فيه، فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون، ثم لا يطيقون دوام النظر)، أما النظر الثاني، فهو النظر في أفعاله وبدائع أمره في خلقه!
وكل ما في الوجود مما سوى الله، فهو خلقه، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض، فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمته وقدرته وجلاله وعظمته، وقد ذكر الغزالي من ذلك: خلق الإنسان من نطفة، فقد قال تعالى " وفي أنفسكم أفلا تبصرون "، ومن آياته خلق الأرض فراشا ومهادا، وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات، وأودع المياه تحتها، ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها، ومن آياته الجواهر والمعادن وأصناف الحيوانات والبحار العميقة، والهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض، وملكوت السماء وما فيها من الكواكب!
ويقول الغزالي إن في مشاهدة آيات الله في أرضه فوائد للمستبصر، أنه " ما من ذرة في السماوات والأرض، إلا ولها أنواع شاهدات لله تعالى بالوحدانية، هي توحيدها، وأنواع شاهدات لصانعها بالتقدس، هي تسبيحها

ولكن لا يفقهون تسبيحها، لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر، إلى فضاء سمع الباطن، ومن ركاكة لسان المقال، إلى فصاحة لسان الحال، ومن يسافر ليستقرئ هذه الشهادات، من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجمادات، لم يطل سفره بالبدن، بل يستقر في موضع، ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرات!!...

ويقول الغزالي إن طول الأمل، له سببان أحدهما الجهل (إذ قد يعول الإنسان على شبابه، فيستبعد قرب الموت) والآخر حب الدنيا، لأنه إذا أنس بها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع من الفكر في الموت، فيمني نفسه أبدا بما يوافق مراده، ويقدر توابع البقاء، وما يحتاج إليه من مال وأهل وولد ودار وأصدقاء، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، فلا يقدر قربه، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت، والحاجة إلى الاستعداد له، سوف ووعد نفسه "، فلا يزال يسوف ويؤخر على التدريج، يوما بعد يوم، إلى أن تخطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته!، وتبدو له صفحة ملك الموت – جميلة الصورة للمطيع، قبيحة للعاصي – ولن تخرج روحه، ما لم يسمع نغمة ملك الموت، بإحدى البشريين إما الجنة أو النار! ومعنى الموت تغير حال فقط، إذ الروح باقية، بعد مفارقة الجسد، إما معذبة وإما منعمة، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عنه بخروجه عن طاعتها، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة، فكل ما هو وصف للروح بنفسها، فيبقى معها بعد مفارقة الجسد، وما هو لها بواسطة الأعضاء، فيتعطل، إلى أن تعاد الروح إلى الجسد، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث، والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده! وكل الأعضاء آلات، والروح هي المستعملة لها ومهما بطل تصرفها في الأعضاء، لم تبطل منها العلوم والإدراكات، ولا بطل منها الأفراح والغموم، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات، والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام واللذات، وذلك لا يموت، فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها، وحقيقة

الإنسان نفسه وروحه وهي باقية، وتغير حاله من جهتين، إحداهما أنه سلبت منه جميع أعضائه، وسلب منه ولده وأقاربه وسائر معارفه وماله، إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، والثاني أن ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفا له في الحياة، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفا في النوم، وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته، وينكشف للمؤمن عقيب الموت من سعة جلال الله، ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن (١)!

* * *

وقد جاء في إنجيل برنابا " إن إلهنا، لأجل أن يظهر لخلائقه جوده ورحمته وقدرته على كل شئ، مع كرمه وعدله، صنع مركبا من أربعة أشياء متضاربة ووحدها في شبح واحد نهائي هو الإنسان، وهي التراب والهواء والماء والنار، ليعدل كل منها ضده، وصنع من هذه الأشياء الأربعة إناء، وهو جسد الإنسان من لحم وعظام ودم ونخاع وجلد مع أعصاب وأوردة وسائر أجزائه الباطنية، ووضع الله فيه النفس والحس، بمثابة يدين لهذه الحياة، وجعل مثوى الحس في كل جزء من الجسد، لأنه انتشر هناك كالزيت، وجعل مثوى النفس القلب حيث تتحد مع الحس، فتتسلط على الحياة كلها، فبعد أن خلق الله الإنسان هكذا، وضع فيه نورا يسمى العقل، ليوحد الجسد والحس والنفس، لمقصد واحد، وهو العمل لخدمة الله (٢) "!

" ألا تعلمون أن الله قد خلق بكلمة واحدة، كل شئ من العدم، وأن منشأ البشر جميعهم من كتلة طين؟ فكيف إذا يكون الله شبيها بالإنسان؟! ويل للذين يدعون الشيطان يخدعهم (٣) "

" قولوا لي أيها الإخوة! هل هذا العالم وطننا؟ لا البتة! فإن الإنسان

---

(١) راجع ص ١٣٩ - ١٤٧ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

(٢) راجع ص ١٨٨ و ١٨٩ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ١١٠ من إنجيل برنابا.

الأول طرد إلى العالم منفيا، فهو يكابد فيه عقوبة خطأه، أيمكن أن يوجد منفي لا يبالي بالعودة إلى وطنه الغني، وقد وجد نفسه في الفاقة! حقا إن العقل لينكر ذلك، ولكن الاختبار يثبته بالبرهان، لأن محبي العالم لا يفكرون في الموت، بل عندما يكلمهم أحد، لا يصغون إلى كلامه (١) "!

" يجب أن أذكر لكم قضية، فأقولكم إذا أن.. الأرض.. بالنسبة إلى السماء الأولى كرأس إبرة، ومثلها السماء الأولى بالنسبة إلى الثانية، وعلى هذا النمط كل السماوات، والواحدة منها أسفل مما يليها، ولكن كل حجم الأرض مع حجم كل السماوات بالنسبة إلى الجنة كنقطة بل كحبة رمل، أليست هذه العظمة مما لا يقاس (٢) "؟!

" نفسك هي التي أعظم من الأرض برمتها، ترى بعين واحدة الشمس هي التي أكبر من الأرض بألوف من المرات.. هكذا ترى الله خالقك بواسطة الجنة (٣) "

" لعمر الله، الذي تقف نفسي في حضرته، إن الكون أمام الله، لصغير كحبة رمل، والله أعظم من ذلك، بمقدار ما يلزم من حبوب الرمل، لملء كل السماوات والجنة بل أكثر (٤) "

" فيجب على أن أفكر في طاعة الشمس والسيارات، لأنها تعبد خالقها أفضل مني، ولكني أحكم عليها، إما لأنها لا تعطى نورا كما أرغب، أو لأن حرارتها أكثر مما ينبغي، أو لأنه لا يوجد مطر أقل أو أكثر مما تحتاج الأرض (٥) "!

قولوا لي! لماذا لا يمكن الحجر أن يستقر على سطح الماء، مع أن الأرض برمتها مستقرة على سطح الماء؟ قولوا لي! لماذا كان التراب والهواء والماء والنار

----

(١) راجع ص ٢١٦ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ١٦١ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ٢٦٩ من إنجيل برنابا.

(٤) راجع ص ١٦١ من إنجيل برنابا.

(٥) راجع ص ٢٣٣ من إنجيل برنابا.

متحدة بالإنسان ومحفوظة على وفاق؟ مع أن الماء يطفئ النار، والتراب يهرب من الهواء، حتى أنه لا يقدر أحد أن يؤلف بينها! فإذا كنتم لا تفقهون هذا – بل إن كل البشر من حيث هم بشر لا يقدرون أن يفقهوه – فكيف يفقهون أن الله خلق الكون من لا شئ بكلمة واحدة؟! كيف يفقهون أزلية الله؟!
حقا لا يتاح لهم أبدا أن يفقهوا هذا، لأنه لما كان الإنسان محدودا، ويدخل في تركيبه الجسد، الذي هو كما يقول النبي سليمان قابل للفساد يضغط النفس – ولما كانت أعمال الله مناسبة لله، فكيف يمكن للإنسان إدراكها... لذلك يقول الله للطبيعة البشرية " كما تعلو السماء عن الأرض، هكذا تعلو طرقي عن طرقكم، وأفكاري عن أفكاركم (١) "!
" أرأيتم! كيف تتمرن الجنود في زمن السلم، بعضهم مع بعض، كأنهم يتحاربون! وكيف يتاح لمن لا يتعلم كيف يحسن الموت، أن يموت ميتة صالحة؟ قال النبي داود " ثمين في نظر الرب موت الطاهرين " (٢)!
" ما الموت، سوى عمل تعمله الطبيعة بأمر الله "، " فمتى أراد الله وأمر الطبيعة أن تتفتح، انتهت الحياة، وانفلتت النفس إلى أيدي الملائكة، الذين عينهم الله لقبض النفوس "، " يقول الله: لعمري أنا الأبدي، إني أعطيت فأسا جيدة لكل إنسان، وهي منظر دفن الميت، فمن استعمل هذه الفأس جيدا، وأزالوا غاية الخطيئة من قلوبهم بدون ألم، فهم لذلك ينالون نعمتي وأجزيهم الحياة الأبدية بأعمالهم الصالحة (٣) "!
" متى أراد أن يتبرز في الحكمة على من سواه في خوف الله، فليطالع كتاب القبر، لأنه هناك يجد التعليم الحقيقي لخلاصه، فإنه متى رأى أن جسد الإنسان يحفظ ليكون طعاما للديدان، تعلم أن يحذر العالم والجسد والحس (٤) "

---

(١) راجع ص ٢٥٨ و ٢٥٩ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ٢١٧ من إنجيل برنابا.
(٣) راجع ص ٢٩٠ و ٢٩٣ من إنجيل برنابا.
(٤) راجع ص ٢١٨ من إنجيل برنابا.

" الميت إنما هو من يموت، دون أن يجد رحمة من الله "، " فانظروا إذا الحياة الحاضرة التي هي موت، إذ لا شعور لها بالله (١) "!

(٨) حسن الخلق:

يرى الغزالي أن الخلق عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة، وفي الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها، حتى يتم حسن الخلق، فإذا استوت واعتدلت وتناسبت، حصل حسن الخلق، وهذه الأركان، هي:

(١) قوة العلم: بأن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال الاختيارية!

(٢) قوة الغضب: بأن يصير انقباضها وانبساطها على ما تقتضيه الحكمة!

(٣) قوة الشهوة: بتأدبها بتأديب العقل والشرع!

(٤) قوة العدل: وهو حالة وقوة بها تسوس الغضب والشهوة، وتحملها على مقتضى الحكمة، وتضبطها في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها (وضدها الجور)!

ويقول بعضهم إن الأخلاق (وهي الصورة الباطنة) لا يتصور تغييرها، كما أن الخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها، وأنه محال قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة، ولكن الغزالي يستنكر هذا، ويقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير، لبطلت الوصايا والمواعظ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حسنوا أخلاقكم "، ويعزز استنكاره بإمكان تغيير خلق البهيمة، إذ يمكن نقل الفرس مثلا من الجماح إلى السلاسة والانقياد (فما بالك بالإنسان؟!)، ولكي يوضح لنا رأيه، يقسم الموجودات إلى ما وقع الفراغ من وجوده وكماله (وهذا لا مدخل للآدمي في اختياره، كأعضاء البدن)، وإلى ما وجد ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال، بعد أن وجد له شرط قد يرتبط باختيار العبد

---

(١) راجع ص ٢٨٧ - ٢٨٩ من إنجيل برنابا.

(فالنواة لا تصير نخلا مثلا إلا بالتربية، ولا تصير تفاحا أصلا)، فكذلك الغضب والشهوة، لا نقدر على قمعهما أصلا، ولكن لو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة، قدرنا عليه، ولا يعارضنا في هذا اختلاف الجبلات (إذ بعضها بطئ القبول، وبعضها سريعه، وسبب هذا قوة الغريزة في أصل الجبلة، وامتداده مدة الوجود)، ثم إن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا!

ويرد الغزالي على قولهم إن الآدمي ما دام حيا، فلا ينقطع عنه الغضب والشهوة وحب الدنيا، ولذلك لا يمكن تغيير الأخلاق، فيقول " إن هذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة، قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات، فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام، لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية، لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك، ومهما بقي أصل الشهوة، فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال، وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية، بل المطلوب ردها إلى الاعتدال، الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط "!

ويرى الغزالي أن حسن الخلق، يحصل على وجهين:

(١) جود إلهي وكمال فطري، بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق (كسائر الأنبياء)!

(٢) اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة، بحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب (فقه النفس): ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود جميع العادات الحسنة، وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، وما لم تواظب عليها مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة، ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان، ولا ينال كمال السعادة به، والمواظبة عليها بالمجاهدة خير بالإضافة

إلى تركها، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم " اعبد الله في الرضا، فإن لم تستطع، ففي الصبر على ما تكره خير كثير "!
ويقول الغزالي إن ميل النفس إلى مقتضيات الشهوة، غريب في ذاته وعارض على طبعه (لأن غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل) " فإذا كانت النفس بالعادة تميل إلى القبائح، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه؟! "، " ويستنتج من هذا أن الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة، وهي تكلف الأفعال الصادرة ابتداء، لتصير طبعا انتهاء
ويقول: " إن هذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح (النفس والبدن)، فإن كل صفة تظهر في القلب، يفيض أثرها على الجوارح، حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح، فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب والأمر فيه دور "!
" ولما كان الاعتدال في الأخلاق، وهو صحة النفس، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له، فيقول الغزالي " إن مثال النفس في علاجها بمحو الأخلاق الرديئة عنها، وجلب الأخلاق الجميلة إليها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له، وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة، فبالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل، كما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم، وكما أن البدن إن كان صحيحا، فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة إليه، فكذلك النفس منك، إن كانت زكية طاهرة مهذبة، فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفائها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء، فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها، وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض، لا تعالج إلا بضدها، فإن كانت من حرارة فالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، كذلك الرذيلة التي

هي مرض القلب، علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهي تكلفا، وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر على المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال مرض المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب، وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة، إلا إذا كان على حد مخصوص، ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة، فكذلك النقائص التي تعالج بها الأخلاق، لا بد لها من معيار، وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة، حتى أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت من حرارة، فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية، فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وسنه وسائر أحواله، ثم يعالج بحسبها، فكذلك الذي يطب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين، ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص، ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم، وكما أن طبيب الأجسام لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد، قتل أكثرهم، فكذلك طبيب النفوس لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة، أهلكهم وأمات قلوبهم "!

أي أن الغزالي يرى أن الطريق الكلي سلوك مسلك المضادة لكل ما تهواه النفس " وأما من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى ".

وقد ذكر في عدة مواضع، أمثلة شتى للعلاج بالمضادة، فيقول مثلا إن علة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة، والمعرفة ترينا أنه لا محل للعجب، لأنه كل ما يعجب به من فضل الله، وإنما هو محل لفيضان فضله تعالى وجوده، فالأولى أن يعجب بمن إليه الأمر كله!

وقد ذكر الغزالي أيضا أمثلة كثيرة في عدة مواضع، للعلاج بمعجون العلم والعمل، فيرى مثلا أن علاج حب الجاه مركب من علم وعمل، أما العلم فهو أن يعلم أن كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم، لا ينبغي أن يترك به

الدين الذي هو الحياة الأبدية (لأنه يستهدف للحسد وقصده بالإيذاء، وخوفه على الدوام على جاهه واحترازه من أن تتغير منزلته في القلوب المترددة بين الإقبال والإعراض، فضلا عن أنه إن سلم وصفا، فآخره الموت، ويفوت الكثير في الآخرة)، وأما من حيث العمل فبالاعتزال ومباشرة أفعال يلام عليها، فيفارقه الطمع ويأنس برد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق (وهذا غير جائز لمن يقتدى به، وأما الذي لا يقتدى به، فله أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس)!

ويرى مثلا أن علاج الرياء بالعلم (بقطع الرغبة في الجاه، بأن يعلم ما فيه من المضرة، بما يحبط عليه من ثواب الأعمال والمنزلة عند الله وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم منه في الحال من التوفيق، وما يتعرض له في الآخرة من العقاب العظيم، فيقبل على الله قلبه) وبالعمل (بأن يعود نفسه إخفاء العبادات، حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عباداته، ولا تتنازعه النفس إلى طلب غير الله)، فيشتغل بذكر الله، فإذا خطر الشيطان له - بمعرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم - تنبه له واشتغل بدفعه بما اعتقده، من أن ذم الناس لا يزيده شيئا ما لم يكتبه الله عليه، وأن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء!

ويقول الغزالي إنه يجب على التائب إذا جرى عليه ذنب، إما عن قصد وشهوة غالبة، أو عن إلمام بحكم الاتفاق، أن يتوب ويندم، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة، فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ويمحوها (بأن تكون الحسنة في محل السيئة فيما يتعلق بأسبابها)، إما بالقلب بالتضرع إلى الله في سؤال المغفرة والعفو وإضمار الخيرات والعزم على الطاعات، وإما باللسان بالاعتراف بالظلم والاستغفار، ليمحو الذنب أو يخففه (وخيره ما كان بالقلب لا باللسان فقط)، وإما بالجوارح بالصدقات وأنواع العبادات!

ويرى الغزالي عند كلامه عن الصبر، أنه هو والعلم علاج الإصرار،

ويقول بلزوم تقوية باعث الدين، على باعث الشهوة (بإطماعه في الثمرات الدينية للمجاهدة، وتعويده مصارعة باعث الهوى، وأن يكلف نفسه في أعماله أعمالا تخالف ما اعتاد، مراعيا في ذلك التلطف والتدريج، فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض، ابتدأ بترك البعض إلى أن يقنع بالبقية، وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يقمع تلك الصفات التي (رسخت فيه)، ولتضعيف باعث شهوة الوقاع مثلا، يرى الغزالي قطع مادة قوتها بالصوم الدائم، مع الاقتصار عند الإفطار على طعام قليل في نفسه، ضعيف في جنسه، والاحتراز عن اللحم، ثم يقطع أسبابه المهيجة في الحال بالعزل والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة (إذا النظر يحرك القلب، والقلب يحرك الشهوة) والفرار منها بالكلية، ثم بتسلية نفسه بالمباح من الجنس الذي يشتهيه (وذلك بالنكاح)!

ويقول الغزالي إن مريض الأخلاق يحتاج إلى التصديق بأمور:

(١) أولها الإيمان بأن للسعادة في الآخرة سببا هو الطاعة، وللشقاوة سببا هو المعصية (كما أن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب)!

(٢) وثانيها العلم بصدق الرسول والإيمان بما جاء به (كما أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين، أنه عالم بالطب حاذق فيه)!

(٣) وثالثها الإصغاء إلى آيات التحذير من اتباع الهوى وارتكاب الذنوب، وأنها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر، حتى أنه يضيق على العبد رزقه، وقد تسقط منزلته من القلوب، ويستولي عليه أعداؤه، ويفقد المناجاة، ويسود وجه قلبه بالخوض في الذنوب (إذ لا بد أن يصغي المريض إلى الطبيب فيما يحذره عنه من الأسباب المضرة على الجملة، حتى تكون شدة الخوف باعثة على الاحتماء).

(٤) ورابعها العلم بذنبه المخصوص، وبالذنوب جميعها وآفاتها، وكيفية التوصل إلى الصبر عنها، وتكفير ما سبق منها (إذ يجب على المريض أن يصغي

إلى الطبيب فيما يخص مرضه، وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه، ليعرفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه، وليبين له العلاج الخاص لهذه العلة الخاصة)!

ولذا يرى الغزالي في موضع آخر، أن الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه أربعة طرق: أن يحكم في نفسه أستاذا بصيرا بعيوب النفس ويتبع إشارته في مجاهدته، أو أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه، لينبهه على عيوبه الباطنة والظاهرة، أو أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه (فإن عين السخط تبدي المساويا)، أو أن يخالط الناس، فيرى من عيوب غيره، عيوب نفسه!

ويرى الغزالي أن أخص الآثار الحاصلة في القلب، هي الخواطر (أي إدراكاته علوما إما على سبيل التجدد بالفكر، وإما على سبيل التذكر، إذ تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها)، فتحرك – لأنها مبدأ الأفعال – الإرادات والرغبات، فالعزم فالنية فالأعضاء، وتنقسم هذه الخواطر إلى الهام محمود يدعو للخير، سببه الملك، وإلى وسواس مذموم يدعو للشر سببه الشيطان، فيتجاذب القلب بين التوفيق والإغواء، وهو بأصل الفطرة صالح لقبول آثار كل منها صلاحا متساويا (وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الشهوات أو الإعراض عنها)، ولكن لأنه لا يخلو عن صفات البشرية المتشعبة عن الهوى، لم يخل عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة، ولذا كانت حمايته عنها فرض عين على كل عبد مكلف!

ويقول إن للقلب أربع أحوال قبل العمل بالجارحة: الخاطر فالميل فالاعتقاد، فالهم، فالخاطر كما لو خطر له مثلا صورة امرأة أي حدثته نفسه بها، فإذا هاجت الرغبة إلى النظر تبعا لحركة الشهوة التي في الطبع، كان الميل، وهي أمور اضطرارية لا تدخل تحت الاختيار، تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل، ولذا يرى الغزالي أنه لا يؤاخذ به، فإذا حكم القلب واعتقد أنه ينبغي أن ينظر إليها (ما لم يمنعه حياء أو خوف أو تأمل، من الالتفات)،

فيؤاخذ عنده بالاختياري منه، ولا يؤاخذ بالاضطراري، فإذا هم بالفعل بتصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه، فيرى أنه مؤاخذ به، إلا أنه إن لم يفعل (إذ قد ينعدم بعد الجزم، فيترك العمل)، فإن كان قد تركه خوفا من الله تعالى وندما على همه، كتبت له حسنة، (لأنه رجح جهده في الامتناع وهمه به، على همه بالفعل)، وإن تعوق الفعل بعائق، أو تركه بعذر عارض، لا خوفا من الله تعالى، كتبت عليه سيئة، (لأن همه فعل من القلب اختياري).

وبذا وفق الغزالي، بين ما يدل على المؤاخذة، كقوله تعالى " إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه، يحاسبكم به الله، فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء "، وقوله " إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك، كان عنه مسؤولا "، وما يدل على العفو، كقول النبي الكريم " عفي عن أمتي، ما حدثت به نفوسها، ما لم تتكلم به أو تعمل به ".

ويقول الغزالي: إن فضل الخوف والرجاء، بحسب داء القلب الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى، والاغترار به، وعصيان أمره، فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو القنوط من رحمة الله (فترك العبادة، أو أسرف في المواظبة عليها، حتى أضر بنفسه وأهله)، فالرجاء أفضل!

أما عند الموت، فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن " وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه، ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبا لله تعالى، ليكون محبا للقاء الله " فإن من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه "، وغاية السعادة، أن يموت محبا لله تعالى.

ويقول الغزالي " إن حال الرجاء، يغلب باستقراء الآيات والأخبار والآثار، وبالاعتبار بأن العناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده، حتى لم يرض لهم أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة، كيف يرضى بانسياقهم إلى الهلاك المؤبد، بل إذا نظر الإنسان نظرا شافيا، علم أن أكثر الخلق قد هيئ له أسباب السعادة في الدنيا، حتى أنه ينكر الانتقال من الدنيا بالموت، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدا مثلا ولا يحشر أصلا، فليست كراهتهم

للعدم، إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة، وإنما الذي يتمنى الموت نادر، ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة، فإذا كان حال أكثر الخلق الغالب عليه، الخير والسلامة، فسنة الله لا تجد لها تبديلا، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون، لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد، وهو غفور رحيم، لطيف بعباده متعطف عليهم، ومن الاعتبار أيضا، النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها، وليذكر قوله تعالى " قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم (١) "!

* * *

وجاء في إنجيل برنابا " ويل للذين يطلبون النقمة، لأنها إنما تحل بهم.. قولوا لي! إذا أصيب أخ بجنون، أتقتلونه لأنه تكلم سوءا وضرب من دنا منه؟ حقا إنكم لا تفعلون هكذا، بل بالحري تحاولون أن تسترجعوا صحته بالأدوية الموافقة لمرضه (٢) "!

" كما أن اسم الثوب يختلف باختلاف صاحبه، وهو هو الثوب نفسه، هكذا البشر، يختلفون على كونهم من مادة واحدة، بسبب أعمال الذي يعمل في الإنسان (٣) "!

" إن ديننا يخبرنا أن حياتنا حرب عوان على الأرض (٤) "، " إن من يرى أن نوعا من الطعام أمرضه، حتى خشي الموت، فإنه بعد أن يحزن على أكله، يعرض عنه، حتى لا يمرض، فهكذا يجب على الخاطئ أن يفعل، فمتى رأى أن اللذة جعلته يخطئ إلى الله خالقه، باتباعه الحس في طيبات العالم هذه، فليحزن

---

(١) راجع ص ١٦٩ - ١٨٦ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراعة.

(٢) راجع ص ٩٩ و ١٠٠ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ٣٠٤ من إنجيل برنابا.

(٤) راجع ص ٢٣٥ من إنجيل برنابا.

لأنه فعل هكذا، لأن هذا يحرمه من الله حياته، ويعطيه موت الجحيم الأبدي، ولكن لما كان الإنسان محتاجا وهو عائش إلى مناولة طيبات العالم هذه، وجب عليه هنا الصوم، فليأخذ إذا في إعانة الحس، وأن يعرف الله سيدا له،
ومتى رأى أن الحس يمقت الصوم، فليضع قبالته حال الجحيم، حيث لا لذة على الإطلاق، بل الوقوع في حزن غير متناه، ليضع قبالته مسرات الجنة، التي هي عظيمة، بحيث أن حبة ملاذ الجنة لأعظم من ملاذ العالم بأسرها، فبهذا يسهل تسكينه، لأن القناعة بالقليل لنيل الكثير، لخير من إطلاق العنان
في القليل مع الحرمان من كل شئ، والمقام في العذاب (١) "، " لعمر الله، إنه لممقوت أن يحرم المرء الجسد من الطعام، ويملأ النفس كبرياء، محتقرا الذين لا يصومون، حاسبا نفسه أفضل منهم، قولوا لي! أيفاخر المريض بطعام الحمية؟ الذي فرضه عليه الطبيب، ويدعو الذين لا يقتصرون على طعام الحمية مجانين؟ لا البتة، بل يحزن للمرض الذي اضطر بسببه إلى الاقتصار على طعام الحمية "،
" لا يجب على التائب الذي يصوم، أن يتناول طعاما شهيا، بل يقتصر على الطعام الخشن، أفيعطي الإنسان طعاما شهيا للكلب الذي يعض وللفرس الذي يرفس؟! لا البتة، بل الأمر بالعكس (١) ".
" صحيح كل الصحة أنه يجب تجنب الرقاد الجسدي جهد الطاقة، إلا أن منعه البتة محال، لأن الحس والجسد مثقلان بالطعام، والعقل بالمشاغل، لذلك يجب على من يريد أن يرقد قليلا، أن يتجنب فرط المشاغل وكثرة الطعام، لعمر الله الذي في حضرته تقف نفسي، إنه يجوز الرقاد قليلا كل ليلة إلا أنه لا يجوز أبدا الغفلة عن الله ودينونته الرهيبة، وما رقاد النفس إلا هذه الغفلة (٢) "!
" أرأيتم الذين يشتغلون بالحجارة المستخرجة من المقالع، كيف تعودوا بالتمرن المستمر أن يضربوا، حتى أنهم يتكالمون، وهم طول الوقت يضربون بالآلة الحديدية في الحجر، دون أن ينظروا إليها، ومع ذلك لا يصيبون أيديهم، فافعلوا إذا أنتم كذلك، ارغبوا أن تكونوا أطهارا، إذا أحببتم أن تتغلبوا دائما

---

(١) راجع ص ١٦٥ و ١٦٦ من إنجيل برنابا.
(٢) راجع ص ١٦٨ من إنجيل برنابا.

على شقاء الغفلة، ومن المؤكد أن الماء يشق أقوى الصخور بقطرة واحدة يتكرر وقوعها عليها زمنا طويلا "، " من المؤكد أنه يجب على الإنسان أن يشتهي الصالح، ليهبه الله إياه، قولوا لي! أتأخذون وأنتم على المائدة الأطعمة التي تأنفون من النظر إليها؟ لا! البتة!، كذلك أقول لكم، إنكم لا تنالون ما لا تشتهون، إن الله لقادر إذا اشتهيتم الطهارة أن يجعلكم طاهرين، في أقل من طرفة عين، لكن إلهنا يريد أن ننتظر ونطلب، لكي يشعر الإنسان بالهبة والواهب، أرأيتم الذين يتمرنون على رمي الهدف! حقا إنهم ليرمون مرات متعددة عبثا، وكيفما كانت الحال، فهم لا يرغبون مطلقا أن يرموا عبثا، ولكن يؤملون دوما أن يصيبوا الهدف، فافعلوا هكذا أنتم الذين تشتهون دائما أن تذكروا الله، ومتى غفلتم فنوحوا (١) "، " الحق أقول لكم إنه لا كلمة ولا فكر من الباطل، لا يجازى عليه في ذلك اليوم الرهيب " (يوم الدينونة (٢))!

وبعد: فنخرج من هذه الموازنة، إلى أن " من يغلق عينه دون النور، يضر عينه، ولا يضير النور، ومن يغلق عقله وضميره، دون الحق، يضير عقله وضميره، ولا يضير الحق، فالنور منفعة الرائي لا المصباح، والحق منفعة وإحسان إلى المهتدي به، لا إلى الهادي إليه، وما من آفة تهدر العقول البشرية، كما يهدرها التعصب الذميم الذي يفرض على أذهان أصحابه وسرائرهم ما هو أسوأ من العمى لذي البصر، ومن الصمم لذي السمع (٣) " ولم يزل الناس بحاجة إلى عقيدة، يجتمع إليها العقل والقلب جميعا وتصحح ما ترددوا فيه من الأخطاء في تفهم ما سبق من عقائد ورسالات، وتؤكد وجود الله، وأنه الكامل المنفرد بالكمال.. تتجه إلى الناس كافة.. وتصلح للكافة العامة منهم والخاصة، يشعر كل منهم أن له عقيدة يطمئن إليها... وكان الإسلام هو الذي انبرى للنهوض برسالة هذا الدين (٣) "!

\-------------------

(١) راجع ص ١٦٨ و ١٦٩ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٩١ من إنجيل برنابا.

(٣) راجع ص ٨ و ٣٩ و ٤٠ من محمد الرسالة والرسول للدكتور نظمي لوقا.

الفصل الثامن
هل يمكن توحيد الأديان؟
وإذا لم يمكن، فما هو الدين الحق، دين السلام العام والحب العام الذي بشر به إنجيل برنابا، ليظهر على الدين كله؟

" رأيت فيما يرى النائم، عند الانتهاء من هذا البحث، ملعبا يتقاذف فيه اللاعبون الكرة، وكلما قذفها أحدهم، نادى مناد (للدين join)، ومعنى هذه الكلمة يصل من الصلة، ولما لم يقل (goal)، فسرت الرؤيا بأن الذين يقولون بتوحيد الأديان، إنما يفعلون ذلك، لصلات وأغراض مادية، ولا هدف روحي لهم، إذ لو فكروا قليلا، لتبصروا "!

(١) عند التفكير في كتابة هذا الفصل، لأختم به الكتاب، قابلني في الصباح عند ذهابي لعملي، الأستاذ حبيب....، وهو صديق مسيحي متدين يكثر في حديثه من قول " قال المسيح كذا "، و " فعل المسيح كذا " فكنت لا أعترض على أقواله، لأنها لم تتعرض لأصل العقيدة، ولكنه في هذه المرة قال، إن المسيح قال " أنا والله واحد "، فاستنكرت هذا القول وأنكرت أنه قاله، وقلت له كيف يكون ذلك؟! فأدرك أنه غير معقول في حديثه، وفسر كلامه بأنه يريد " أنه وكل إنسان من روح الله ومع الله "، فقلت له إن هذا التفسير هو الذي أقبله، وأنه يجب أن نفرق بين الحب والتقديس، فالحب يكون للأنبياء والرسل والأولياء والقديسيين وكل البشر – على التفاوت فيه وفي درجاته – ولكن التقديس، وهو بمعناه الخاص السامي، لا يكون إلا لله وحده.

على أن المسيح إنما قال للكهنة حينما كان يحاجهم:

" كما أن اسم الثوب يختلف باختلاف صاحبه، وهو هو الثوب نفسه، هكذا البشر يختلفون على كونهم من مادة واحدة، بسبب أعمال الذي يعمل في الإنسان، إذا كنت قد أخطأت (كما أعلم ذلك) فلماذا لم توبخوني كأخ، بدلا من أن تبغضوني كعدو؟ حقا إن أعضاء الجسد تتعاون، متى كانت متحدة بالرأس، وإن ما انفصل منها عن الرأس فلا يغيثه، لأن يدي الجسد لا تشعران بألم رجلي جسد آخر، بل برجلي الجسد الذي هي متحدة به، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن من يخاف ويحب الله خالقه، يرحم من يرحمه الله الذي هو رأسه، ولما كان الله لا يريد موت الخاطئ، بل يمهل كل أحد للتوبة، فلو كنتم من ذلك الجسد، الذي أنا متحد فيه، لكنتم لعمر الله تساعدونني، لأعمل بحسب (مشيئة) رأسي (١) ".

وهو لا يريد بذلك الحلول كما يدعون، ولا الاتحاد بالمعنى الذي يزعمون، بل يريد الفناء لشدة الحب، بالعمل بما يريد المحبوب ووفق مشيئته، فضرب مثلا - والمسيح كان يحب ضرب الأمثال والقصص للتفهيم - بالجسم، ويريد به الملأ الصالح، والرأس هو المفكر، ولله المثل الأعلا، والمسيحية التي جاء بها المسيح من نصوص كلامه، لا ما الحق بكلامه وسيرته من التأويل " لا تدعو إلى التوحيد والتنزيه فحسب، بل تجعل الله المعشوق الأسمى الذي يتجه إليه وجدان كل إنسان (٢) "!

وقد أفاد هذا الحديث أنه يجب أن يكون المتحدث عن الله، موحدا غير مشرك، إشراكا خفيا أو جليا، وليس في حديثه ولا في فهمه شبهة هذا الإشراك.

وذكرت للأخ الدكتور إبراهيم محمد حسن، الذي يذكر دائما الحديث الشريف القائل " إن الإسلام نور يقذفه الله في القلب، فيشرح به الصدر "، أن قد دلتني على بيته - قبل سفره إلى أمريكا - ابنة جاره، التي تحمل صليبا على

---

(١) راجع ص ٣٠٤ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٣٧ من محمد الرسالة والرسول للدكتور نظمي لوقا.

صدرها، فقال " الدين للديان "، فقلت " إني أؤمن بأن الدين للديان، وأنا مع هذا من دعاة حب الناس جميعا، والعدل معهم في المعاملة والصفاء فيها جميعا، لأنهم جميعا خلق الله، ورياضتي يوم الجمعة، مثل رياضتي يومي السبت والأحد، ولكنني أيضا من دعاة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولذا تحدثت عن إنجيل برنابا، وفيه جمع للمعنيين "!

ثم قرأت في مجلة العربي من يقول لمحررها " دعوا الناس تسلك أي طريق تشاء "، وأعجبني " الدكتور الأديب أحمد زكي في قوله " إن الدين صفاء، لا يلبث الناس أن يضعوا أيديهم فيه، فيتعكر، فإن أردت دينا صافيا، فاطلبه قبل أن تلوثه أيدي الناس، أما " دعوا الناس تسلك أي طريق تشاء "، فأظن أنها دعوة هي من سمة العصر، فاليوم لا يقف مسلم في سبيل مسيحي، ليقول له أنت مسيحي.. وأنت.. وإنك.. ولا يقف بوذي في سبيل مسيحي، ولا مسلم في سبيل بوذي، فإن كانت النصيحة في أمر دين، فلها ظرفها ولها مناسبتها، فما تحرم النصائح في سبيل الخير، أو ما يعتقد صاحبه أنه الخير في الوقت المناسب والمكان المناسب!.. (١) ".

ولقد تساءل الأخ الأستاذ محمود المنجوري في بحثه الوحدة الروحية، عن الشاعر الهندوكي رابندرانات تاجور، وعن كيف يعرف الإنسان ربه، فقال إن تاجور أجاب بقوله " يجب تفهم طبائع الرغبة الحافزة بالإنسان، عندما يحاول معرفة حقيقة الله! ليست هي رغبة الدرس والطموح إلى معلومات جديدة، تضاف إلى تفكيره – وإلا كان هذا البحث عملا شاقا غير مجد – لأن النفس عندما تشتاق إلى معرفة الله، وعندما تبحث عنه، فإنها تبحث عن خلاصها من قيود الفكر والأوضاع المقيدة، لما تألف من منطق وعرف، فكل بحث وكل إدراك للحقائق التي تحيط بالإنسان، إنما في الحق هو فهم لقدرة الخالق المبدع للكائنات – وليس هذا الجهد بعمل يضيف شيئا جديدا إلى معارفنا، أو بطموح إلى مزيد في متاع الدنيا، وإنما هو بذل من النفس يقربها من

---

(١) راجع ص ١٠ من مجلة العربي عدد يناير سنة ١٩٥٩ للدكتور أحمد زكي.

حقيقتها! إن معرفة الله لا يمكن أن تكون محدودة في شئ واحد، وإنما هي حقيقة شائعة وواضحة في النظرة الشاملة إلى الكون جميعه، فليس الله محدودا - فيحد في مكان أو زمان - ولهذا كان على النفس أن تعبد الله، إلى عبادتها الظاهرة عبادة باطنة، بينها وبين الله، بإزالة الحواجز الروحية التي تعترض الروح في سموها وفهمها حقائق الأشياء، وباتحادها بالمعاني الجميلة التي يقبلها الضمير في غير تردد، وبالهداية إلى البر والخير والمحبة (١) "!

ورابندرانات تاجور هذا، هو الذي يقول في " القربان الشعري " مخاطبا العزة الإلهية: " أنت الذي أريده، أنت وحدك، أنت يا رب، أنا مصغ إليك، مأخوذ أبدا بك في صمت، لست أعرف كيف أدرك أسرار إلهامك، إن موسيقاك لتضئ الدنيا وتسري بأنفاسها في أرجاء السماء، بينما يجتاز فيضها المقدس، السدود، ويجرف الأصفاد... إني واثق فيك أيها الحق الكريم الذي أشعلت نور الحكمة في عقلي، سأبذل نفسي لألتمسك في جميع أعمالي، أيا قوي! إن قوتك تهبني الصبر على العمل (٢) "!

وهو الذي يقول:

" رب! إله البشر جميعا، تنزهت عن كل لون وجنس، يا مهيمنا على جميع الأمم، وإن اختلفت ألوانها، وحد بين قلوبنا، وألهمنا تبادل المحبة، وأيدها بروح الحق والعدل (٣) "!

وقد زار تاجور هذا مصر سنة ١٩٢٦، ولقيه أستاذانا المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور طه حسين، فسأله أحدهما " ألم تفكر في توحيد ما بين المسلمين وغيرهم من أهل الهند من الناحية الدينية، بأن يتحد مذهب أولئك وهؤلاء في الدين مثلا؟، فأجاب " ما فكرت في ذلك، وما ينبغي أن يفكر فيه أحد، فذلك في ذاته غير ميسور "، وعلل هذا بقوله: " إن الدين

---

(١) راجع ص ٤٨ من رابند رانات تاجور للأخ الأستاذ محمود المنجوري.
(٢) راجع ص ٦ من رابند رانات تاجور للأخ الأستاذ محمود المنجوري.
(٣) راجع ص ٦٢ من رابند رانات تاجور للأخ الأستاذ محمود المنجوري.

هو لون من ألوان التعبير الإنساني عن العواطف والميول والمثل العليا، يتصل أشد الاتصال بأمزجة الأفراد والأمم، ممثل لها تمثيلا صادقا قويا، فمن الثروة للإنسانية أن تحتفظ بهذه الألوان المختلفة التي عبرت بها الأمم والشعوب عن عواطفها وميولها وطموحها إلى الحق الذي لا حد له "!

فلما استدرجه بقوله: إن الإنسانية في حاجة إلى أن يتحد مثلها الأعلا،

وإذا لم تستطع الديانات أن تمثل هذا المثل الأعلا المشترك، فما السبيل إليها؟! "

قال تاجور: " إن المثل الأعلا للإنسانية يجب أن يكون واحدا، ويجب أن يكون مشتركا، وهو هذه الحقيقة المطلقة التي لا حد لها ولا سبيل إلى استيعابها، ولن يؤثر اختلاف الديانات في هذا المثل الأعلا من حيث هو واحد مشترك تتعاون الإنسانية كلها على طلبه والسعي إليه، ذلك أن هذا المثل سيظل واحدا، وإن اختلفت الطرق إليه، وما الديانات المختلفة إلا طرق متباينة، ولكنها متحدة الغاية، تنتهي كلها إلى هذا المثل الأعلى الواحد المشترك... وما دامت الديانات كلها سبيلا إلى هذه الحقيقة المطلقة، وما دامت في الوقت نفسه متصلة أشد الاتصال بأمزجة الأفراد والجماعات، وتمثلها أقوى تمثيل وأصدقه،

فلا خير مطلقا في محاولة محو بعضها أو إضعافه، أو تقوية بعضها دون بعض، وإنما الخير كل الخير أن تترك للأفراد والأمم الحرية الدينية التي تمكنها من أن تعلن شعورها وعواطفها وطموحها إلى المثل الأعلا، كما تريده وكما تستطيع (١) "!

ولكن يرد على ذلك، أن المعرفة قد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة،

والطريق إليها قد يكون كذلك، فإذا كانت المعرفة أو الطريق إليها منحرفة، فإنها لا تصيب الهدف، ويكون إذ ذاك المثل الأعلا الذي يتحدث تاجور عنه، مثلا منحرفا، ويحضرني في هذا المقام قول الإمام الشيخ محمد عبدة رحمه الله " أقول ولا أخشى في الحق نكيرا، لا يمس الإيمان قلب شخص، إلا ويكون أول أعماله تقديم ما له وروحه في سبيل الإيمان، لا يراعي في ذلك عذرا ولا تعلة! وكل اعتذار في القعود عن نصرة الله، فهو آية النفاق وعلامة البعد

---

(١) راجع ص ٩٩ – ١٠١ من رابندرانات تاجور للأخ الأستاذ محمود المنجوري.

عن الله " فليس من الخير إذا ترك الضال في ضلاله وذي الظلام في ظلامه، ولكن الخير هو إنارة الطريق أمام الجميع، والطموح إلى المثل الأعلا الحق الذي يصل إلى الصراط المستقيم، " فليحذر الذين يخالفون عن أمره، أن تصيبهم فتنة، أو يصيبهم عذاب أليم "!

(٢) ولقد عنى الباحثون في هذا العصر " عصر الذرة "، وعصر " محاولة اجتياز الفضاء وتصوير صور الماضي وتسجيل أصواته "، إلى البحث عن السبيل إلى وحدة الأديان، فخصص الدكتور محمد مصطفى حلمي فصلا من كتابه " ابن الفارض والحب الإلهي " سماه " الحب ووحدة الأديان "، قال في آخره " ليس من شك في أن ما انتهى إليه ابن الفارض وأشباهه من الصوفية من وحدة الأديان، واتخاذه من الحب دينا، واعتبار انحرافه عن هذا الدين، مفارقة لدين الإسلام وارتدادا عنه، قد اشتمل في ثناياه على كثير من المعاني الراقية والمثل العليا، التي إن أخذ الناس أنفسهم بتحقيقها، صفت نفوسهم وخلصت قلوبهم، وسمت مشاعرهم، فإذا هم ينظرون بعضهم إلى بعض، على أنهم إخوة متساوون متآخون، لا فرق بينهم بين إنسان وإنسان، ولا بين معتنق لدين ومعتنق لدين آخر، لأن الأديان كلها من الله، قضى بكل دين منها على فريق من الناس، بحيث لم يختر أحد لنفسه ما يعتنقه من هذا الدين أو ذاك، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى أن تزول الحواجز بين أفراد الإنسان وتحل الوحدة والألفة محل الكثرة والتفرقة، ويمحو نور التسامح والإخاء، ظلمة التعصب والشقاء، فتأتلف القلوب وتتحاب النفوس، ويصبح الناس جميعا إخوانا متحابين، لا أعداء متنابذين.. "!

أي أن الدكتور يرى اعتناق مذهب ابن الفارض في وحدة الأديان، لتزول الحواجز، وتحل الوحدة والتسامح والائتلاف، محل التعصب والعداوة والشقاق!

وخلاصة بحثه في هذا الموضوع، هي أن الحب الإلهي الذي ملك على ابن الفارض حياته الروحية كلها، لم يقف به عند حد شهود الوحدة بين ذاته وبين ذات الله تارة، وبين ذات الله والعالم تارة أخرى، وبين حقيقة القطب القديمة

– بأن للأنبياء جميعا حقيقة واحدة، هي حقيقة القطب أو الروح المحمدي – وأشخاص الأنبياء والأولياء الحادثة طورا، وإنما هو قد انتهى به إلى أقصى ما ينتهى إليه من خضوع لسلطانه واتخاذه منه دينا، وذهب به إلى النظر إلى الأديان المختلفة، على أن تباين هذه واختلاف تلك، ليس إلا من حيث الظاهر، فسوى بين الأديان ووحد جميع العقائد، وجعلها مستغرقة في هذا الحب الذي جعل منه لنفسه مذهبا، في قوله:

وعن مذهبي في الحب، مالي مذهب * وإن ملت يوما عنه، فارقت ملتي
ولو خطرت لي في سواك إرادة * على خاطري سهوا، قضيت بردتي

وقوله:

وما اخترت، حتى اخترت حبيك مذهبا * فواحيرتي، إن لم تكن فيك خيرتي

وقوله:

وحياتكم يا أهل مكة، وهي لي * قسم، لقد كلفت بكم أحشائي
حبيكم في الناس، أضحى مذهبي * وهواكم ديني وعقد ولائي
يا لائمي في حب من من أجله * قد جد بي وجدي، وعز عزائي
هلا نهاك، عن لوم امرئ * لم يلف غير منعم بشقاء
لو تدر فيم عزلتني، لعذرتني * خفض عليك، وخلني وبلائي

ولعل ما عبر عنه ابن الفارض في هذه الأبيات، لا يكاد يختلف عما عبر عنه ابن العربي، في قوله:

لقد صار قلبي، قابلا كل صورة * فمرعى لغزلان، ودير لرهبان
وبيت لأوثان، وكعبة طائف * وألواح توراة، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب، أني توجهت * ركائبه، فالدين ديني وإيماني

فكل من ابن الفارض وابن عربي يجعل من دين الحب، مرادفا لدين الإسلام، أو يجعل من الإسلام دينا دعامته الحب، وما ينطوي عليه الحب

من معاني الخضوع والإذعان والانقياد لإرادة المحبوب، فمن معاني الإسلام ما يدل عليه بعض آيات القرآن، كقوله تعالى: " ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملة إبراهيم حنيفا، واتخذ الله إبراهيم خليلا " (سورة ٤ النساء آية ١٢٥)، وكقوله: " ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم " (سورة ٢ البقرة آية ١٢٨).

ويقول ابن الفارض:

وإني، وإن كنت ابن آدم صورة * فلي فيه معنى، شاهد بأبوتي
ونفسي على حجر التجلي برشدها * تجلت، وفي حجر التجلي تربت
وفي المهد حزبي الأنبياء، وفي * عناصري لوحي المحفوظ، والفتح سورتي
وقبل فصال، دون تكليف ظاهر * ختمت بشرعي، الموضحى كل شرعة
فهم والألى قالوا بقولهم، على * صراطي، ولم يعدوا مواطئ مشيتي
فيمن الدعاة السابقين إلي، في * يميني، ويسر اللاحقين بيسرتي
ولا تحسبن الأمر عني خارجا * فما ساد إلا داخل في عبودتي

* * *

وما منهم، إلا وقد كان داعيا * به قومه للحق، عن تبعية
فعالمنا منهم نبي، ومن دعا * إلى الحق منا، قام بالرسلية
وعارفنا في وقتنا الأحمدي، من * أولي العزم منهم، آخذ بالعزيمة

ثم يورد الدكتور محمد مصطفى حلمي أسس توحيد الأديان عند ابن الفارض نلخصها لك منظما، فيما يلي:

(أولا) أن الأديان مختلفة في الظاهر، متفقة في جوهرها، لأنها تدعو جميعا إلى عبادة إله واحد، وإن اختلفت صور هذه العبادة في كل دين، على ما هي عليه في الأديان الأخرى، إذ كل دين عند ابن الفارض، إنما يكشف عن ناحية معينة من نواحي الحق، ويقصد على وجه ما، إلى عبادة إله واحد أحد، وليس ثمة عنده فرق بين الأديان التي تدعو إلى وحدانية الله، والأديان

الأخرى، فالإيمان والكفر عنده، لا يختلفان اختلافا جوهريا، واليهود والنصارى والمسلمون والمجوس وعباد الأصنام يتفقون عنده، في أنهم يعبدون إلها واحدا، ولا يكادون يختلفون، إلا في الأشكال الخارجية والصور الظاهرية التي تأخذها العبادة عند كل فريق، وإذن فليس ثمة عنده، ما يوجب أن يعتقد المسلم أن القرآن بنزوله قد أبطل حكم التوراة والإنجيل، لأنها كلها صادرة من مصدر واحد، هو الذات الإلهية، ومعبرة عن حقيقة واحدة، هي الحقيقة العلية، وداعية إلى سبيل واحدة، هي سبيل الحق والخير!

يضاف إلى هذا، أن عباد الأصنام ليسوا ملومين في نظر ابن الفارض على عبادتهم هذه، والذين يلومونهم عليها، في حقيقتهم مغرقون في الشرك، لأنهم يجعلون إلى جانب الله معبودا آخر هو الدينار، الأمر الذي يرتب عليه ابن الفارض أن يكون عابد الأصنام أقل شركا وأقرب إلى روح التوحيد، وفوق هذا كله، فله تأويل عجيب، إذا يرى أن المجوس لم يعبدوا النار على الحقيقة وإنما هم قد رأوا نور الذات الإلهية مرة، فتوهموه نارا، فعبدوا، وضلوا في الهدى بنور الهدى!

ويقول:

في مجلس الأذكار، سمع مطالع * ولى حانة الخمار، عين طليعة
وما عقد الزنار حكما، سوى يدي * وإن حل بالإقرار بي، فهي حلت
وإن نار بالتنزيل محراب مسجد * فما بار بالإنجيل هيكل بيعة
وأسفار توراة الكليم لقومه * يناجي بها الأحبار، في كل ليلة
وإن خر للأحجار في البد عاكف * فلا وجه للإنكار، بالعصبية
فقد عبد الدينار معنى منزه * عن العار بالإشراك، بالوثنية
وقد بلغ الإنذار عني من بغى * وقامت بي الأعذار، في كل فرقة
وما زاغت الأبصار من كل ملة * وما زاغت الأفكار في كل نحلة
وما احتار من الشمس، عن غرة صبا * وإشراقها من نور إسفار غرتي
وإن عبد النار المجوس، وما انطفت * كما جاء في الأخبار في ألف حجة

فما قصدوا غيري، وإن كان قصدهم * سواي، وإن لم يظهروا عقد نية
رأوا ضوء نوري مرة، فتوهموه * نارا، فضلوا في الهدى بالأشعة

ويتفق ابن الفارض هنا، مع غيره من الصوفية المتقدمين عليه كالحلاج، والمعاصرين له كابن عربي، فالحلاج يرى الأديان كلها لله، شغل بكل دين طائفة، كما يرى أن الإسلام والمسيحية واليهودية وغير ذلك من الأديان، إن هي إلا ألقاب مختلفة وأسماء متغايرة، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف!
وأما ابن عربي فقد ذهب إلى أن الدين كله لله، لأن الانقياد - كما يقول الفاشاني في شرحه - ليس إلا له، سواء انقدت إلى ما شرعه الله، أو إلى ما وضعه الخلق من النواميس الحكيمة، لأنه لا رب غيره، ناهيك بأن الانقياد إنما هو منك لا منه، إذ أن أصل الفعل منه، لا من المظاهر، والمنقاد إليه سواء كان مأمورا به، من عند الله، أو من عند الخلق، مأمور به في الأصل من الله ولله!
وما يقرره ابن الفارض هنا عن عبادة الأصنام وغيرها من المظاهر الطبيعية، لا يكاد يخرج في مفهومه ومدلوله، عما يعبر عنه ابن عربي، بقوله في فصوص الحكم " إن العارف المكمل، وهو من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه! ولذلك سموه كلهم إلها، مع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملك، فهذا اسم الشخصية فيه، والألوهية مرتبة تخيل العابد له أنها مرتبة معبوده، وهي على الحقيقة مجلى الحق لبصر هذا العابد الخاص المعتكف على هذا المعبود في هذا المجلى المختص... وأما العارفون بالأمر على ما هو عليه، فيظهرون بصور الإنكار لما عبد من الصور، لأن مرتبتهم في العلم تعطيهم أن يكونوا بحكم الوقت، لأنهم علموا أن الوقت مجلى عظيم من مجالي الحق، يتجلى في كل وقت ببعض صفاته: فهم عباد الوقت مع علمهم بأنهم ما عبدوا من تلك الصور أعيانا، وإنما عبدوا الله فيها بحكم سلطان التجلي الذي عرفوه منهم، وجهله المنكر الذي لا علم له بما تجلى، وستره العارف المكمل من نبي ورسول ووارث عنهما!.. "

(ثانيا) أن إرادة الإنسان ليست حرة، ولا اختيار لها فيما يصدر عن الإنسان من أفعال الخير والشر، ولا فيما ينعم به من الإيمان، أو ما يغرق فيه من الكفر، بل إن مشيئة الله وحكمته هما اللتان تقضيان بأن تكون هذه الأفعال الإنسانية أو تلك خيرة أو شريرة، وتقدران على هذا الإنسان أو ذاك، أن يكون من المؤمنين أو من الكافرين، فالله هو الذي يهدي من يشاء، وهدايته لأولئك، وإضلاله لهؤلاء، إنما يسيران على مقتضى قانون إلهي أزلي دائم، وصفه الله، وكتب فيه ما قدر لكل من سعادة أو شقاء، ومن هدى أو ضلال. وهذا القانون الإلهي لكل فعل من الأفعال الإنسانية، هو عند ابن الفارض، اسم من أسماء الذات الإلهية، فالهادي والمضل، والمعز والمذل والمنعم والمنتقم، والقابض والباسط، الخ... كل أولئك أسماء تنطوي على صفات، ولها مقتضياتها، وأحكامها التي تجريها على الخلق، فيما يعتقدون ويفعلون!

وقد أشار ابن الفارض إلى هذا كله في قوله:

ولولا حجاب الكون، قلت، وإنما * قيامي بأحكام المظاهر، مسكتي
فلا عبث والخلق لم يخلقوا سدى * وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة
على سمة الأسماء، تجري أمورهم * وحكمة وصف الذات، للحكم أجرت
يصرفهم في القبضتين، ولا ولا * فقبضة تنعيم، وقبضة شقوة (١)

وكما تشابه ابن الفارض والحلاج وابن عربي في الفكرة الأولى، فقد تشابه هنا معهما، فالحلاج يرى أن الله شغل بكل دين طائفة، لا اختيارا منهم، بل اختيارا عليهم، فمن لام أحدا ببطلان ما هو عليه، فقد حكم بأنه اختار ذلك لنفسه، وهذا مذهب القدرية (والقدرية مجوس هذه الأمة عنده)!

---

(١) يشير إلى ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أنه قال: إن الله تبارك وتعالى خلق آدم، فضرب بيمينه على يساره، فأخرج ذرة بيضاء كالفضة، ومن اليسرى سوداء كالفحمة، ثم قال: هؤلاء في الجنة، ولا أبالي، وهؤلاء في النار، ولا أبالي.

وقد فصل ابن عربي ما أجمله الحلاج، وأشار إليه ابن الفارض، فقال:
إن المؤمن في هذه الدنيا، إنما هو مؤمن على الحقيقة، مذ كانت نفسه فكرة من الأفكار الموجودة في العلم الإلهي، كما أن الكافر إنما هو كافر منذ الأزل، ويزيد ابن عربي الأمر إيضاحا فيميز بين المشيئة الإلهية، وبين الأمر التكليفي:
فالمشيئة الإلهية عنده، هي التي تفيض بكل ما يجري، ولا يمكن مخالفتها، أو الخروج على ما قضت به، في حين أن الأمر التكليفي يمكن مخالفته والخروج على أحكامه، ولهذا كانت الخطيئة في نظره عصيانا للشرع، الذي هو الأمر التكليفي، وليست عصيانا للمشيئة الإلهية!
وإلى مثل هذا، ذهب جلال الدين الرومي، إذ رأى أن الكفر أمر لا مدخل لإرادة الإنسان فيه، بل قضت به المشيئة الإلهية عليه!
ويقول الجيلي " إن الله تعالى، إنما خلق جميع الموجودات لعبادته، فهم مجبولون على ذلك، مفطورون عليه من حيث الأصالة، فما في الوجود شئ إلا وهو يعبد الله، بحاله ومقاله وفعاله، بل بذاته وصفاته، فكل شئ في الوجود مطيع لله تعالى "، أما من أين الاختلاف بين الأديان، فذلك ما يجيب عليه الجيلي " في الإنسان الكامل " بما يطابق مذهب ابن الفارض، فيرى " أن العبادات تختلف لاختلاف مقتضيات الأسماء والصفات، لأن الله متجل باسمه المضل، كما هو متجل باسمه الهادي، فكما يحب ظهور اسمه المنعم، كذلك يحب ظهور اسمه المنتقم، واختلف الناس في أحوالهم، لاختلاف أرباب الأسماء والصفات، قال الله تعالى " كان الناس أمة واحدة " يعني عباد الله مجبولين على طاعته من حيث الفطرة الأصلية، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، ليعبده من اتبع الرسل من حيث اسمه الهادي، وليعبده من خالف الرسل من حيث اسمه المضل، فاختلف الناس وافترقت الملل، وظهرت النحل وذهبت كل طائفة إلى ما علمته أنه جواب، ولو كان هذا العلم عند غيرها خطأ، ولكن حسنه الله، ليعبدوه من تلك الجهة التي تقتضيها تلك الصفة المؤثرة في ذلك الأمر، وهذا معنى قوله " ما من دابة، إلا وهو آخذ بناصيتها " فهو الفاعل بهم

على حسب ما يريد مراده، وهو عين ما اقتضته صفاته، فهو سبحانه وتعالى يجزيهم على حسب مقتضى أسمائه وصفاته.. (١) ".

(ثالثا) أن توحيد الذات الإلهية، على الوجه الذي يجعل منها مصدرا للهدى والخير وما يجري مجراهما فقط، ليس توحيدا بالمعنى الصحيح، وإنما هو أشبه ما يكون بالإلحاد، إذ من شأنه أن يجعل إلى جانب الذات الإلهية الأحدية، التي هي مصدر حقيقي لكل مظاهر الهدى والخير والإيمان والنعيم، ذاتا أخرى تصدر عنها صور الضلال والشر والكفر والشقاء، يعني الانسلاخ من آي الجمع - وإشراك ما هو من صنع الله، بالله - على حد تعبير ابن الفارض نفسه - والتوحيد بهذا المعنى إلحاد.

وقد أشار ابن الفارض إلى هذا، بقوله:

ألا هكذا، فلتعرف النفس، أو فلا * ويتل بها الفرقان، كل صبيحة

وعرفانها من نفسها، وهي التي * على الحس ما أملت، مني أملت

ولو أنني وحدت ألحدت، وانسلخت * من آي جمعي، مشركا بي صنعتي

وكان جميلا من الدكتور محمد مصطفى حلمي، أن أورد في آخر بحثه، نقدا للكلام السابق، جاء فيه:

قد أورد ابن تيمية بيتا، ينسب عادة إلى ابن عربي، الذي يقرر فيه وحدة العقائد، والتسوية بينها، فيقول:

عقد الخلائق، في الإله عقائدا * وأنا اعتقدت، جميع ما اعتقدوه

ونظر ابن تيمية في هذا البيت، وحاول أن يجرحه من الناحية المنطقية، فرأى فيه تناقضا، لأن الجمع بين النقيضين في الاعتقاد، غاية الفساد، ولأن

---

(١) اعتقد الجبرية والجهمية - أتباع جهم بن صفوان - خاصة أن أفعال الإنسان واقعة بقدرة الله تعالى وحدها. وهذا المذهب في الجبر، معارض لمذهب المعتزلة في الاختيار على أن الصوفية لم يأخذوا إلا بمذهب الجبرية، ولم يستندوا إلا على الآيات التي تؤيده، مثل قوله تعالى " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا، وأنكم إلينا لا ترجعون " وقوله " وكذلك يهدي الله من يشاء، ويضل من يشاء "، وقوله " هو الذي خلقكم، فمنكم كافر ومنكم مؤمن، والله بما تعملون بصير ".

القضيتين المتناقضتين في السلب والإيجاب، على وجه يلزم من صدق إحداهما كذب الأخرى، لا يمكن الجمع بينهما، والصوفية يزعمون أنه يثبت عندهم في الكشف ما يناقض صريح العقل، ويقولون بالجمع بين النقيضين وبين الضدين، ومن سلك طريقهم، يخالف المعقول والمنقول:
ولا ريب عند ابن تيمية، في أن هذا من أفسد ما ذهب إليه أهل السفسطة
وقد زاد ابن تيمية الأمر تفصيلا وإيضاحا، فعرض لمذهب ابن عربي في الاعتقاد بكل ما وردت به الأديان المختلفة، كما يدل عليه البيت المثبت آنفا، فإذا هو يقرر أن القائلين بهذا القول مشركون، لأنهم عدلوا بالله كل مخلوق وجوزوا أن يعبد كل شئ، ومع أنهم يعبدون كل شئ، فإنهم يقولون:
" ما عبدنا إلا بالله "، وهذا في نظر ابن تيمية مخالف لدين المرسلين ولدين أهل الكتاب والملل جميعا، بل ولدين المشركين أيضا، ولما فطر الله عليه عباده مما يعقلونه بقلوبهم، ويجدونه في نفوسهم، وهو في غاية الفساد والسفسطة والجحود لرب العالمين.
ويستدل ابن تيمية على ذلك كله، بأن الرسل كانوا يعتبرون ما عبده المشركون شيئا غير الله، وينظرون إلى عابده على أنه عابد لغير الله، مشرك به عادل به، جاعل له ندا! كما يستدل بأن الرسل دعوا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا هو الإسلام العام، الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره.
ويشارك ابن تيمية في مجموعة الرسائل والمسائل في نقده وتجريحه لمذهب الصوفية في الجمع بين العقائد المختلفة، ناقد آخر من الذين نعوا على الصوفية، وهو صالح بن مهدي المقبلي في " العلم الشامخ "، فقال: " إن صح ما دعا إليه ابن الفارض وابن عربي من عدم التفريق بين الأديان ووجوب الاعتقاد بأنها فروع لأصل واحد، فإنه ينبني على ذلك ألا يكون الأنبياء منصفين، حين أنكروا على الكفار عبادة غير الله (١).. "!

----

(١) راجع ص ٢٨٩ - ٣٠٦ من ابن الفارض والحب الإلهي، للدكتور محمد مصطفى حلمي.

هذا وقد جاء في إنجيل برنابا " حيث أرسل الله النبي، ترتب عليك حتما أن تنكر حكمك، وتتبع النبي، لا أن تقول لماذا يقول هذه؟ لماذا يأمر وينهى بل قل هكذا يريد الله، وهكذا يأمر الله (١) "!

" فلما انتصب آدم على قدميه، رأى في الهواء، كتابة تتألق كالشمس نصها " لا إله إلا الله، محمد رسول الله... "، فضرع آدم إلى الله، قائلا: " يا رب هبني هذه الكتابة على أظفار أصابعي "، فمنح الله الإنسان الأول تلك الكتابة على إبهاميه، على ظفر إبهام اليد اليمنى ما نصه " لا إله إلا الله "، وعلى ظفر إبهام اليد اليسرى ما نصه " محمد رسول الله (٢) ".

(٣) ويلاحظ أستاذنا المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق، أن في القرآن الكثير من الآيات الكريمة، الدالة على أن الدين أصله واحد، فمن ذلك:

(١) " والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون " (سورة البقرة آية ٤ و ٥).

فالمتقون هم الذين يؤمنون بما أنزل إلى النبي، وبما أنزل من قبله إلى الرسل

(ب) " إن الذين آمنوا، والذين هادوا، والنصارى، والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحا، فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون " (سورة البقرة آية ٦٢).

فهذه الآية تدل، على أن القرآن إذ يخبر عن أتباع دين محمد بأنهم الذين آمنوا، إنما يسوي في الأجر بينهم وبين اليهود والنصارى والصابئين، ما دام الكل يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويعملون صالحا (٣).

(ج) " قل آمنوا بالله، وما أنزل علينا، وما أنزل على إبراهيم، وإسماعيل

---

(١) راجع ص ١٢٤ من إنجيل برنابا.

(٢) راجع ص ٦١ من إنجيل برنابا.

(٣) لذلك، قلت مرة إن المسلم الحق مسيحي حق ويهودي حق، ذلك أن المسيحية الأولى واليهودية الأولى، كانتا تأمران بعبادة الله وحده، وبشرتا بالنبي الأمي العربي، الذي يجدونه مكتوبا عندهم، في التوراة والإنجيل.

وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى، وعيسى، والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون " (سورة ٣ آل عمران آية ٨٤)، فهذه الآية الكريمة لا تفرق عند المؤمنين، بين أحد وأحد من النبيين، بل إن ما أوتي هؤلاء النبيون واحد!

(د) " وشرع لكم من الدين، ما وصى به نوحا، والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين، ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب، وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى، لقضي بينهم، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم، لفي شك منه مريب " (سورة ٤٢ الشورى آية ١٣، ١٤)، فالدين الذي وصى به الله أنبياءه، لا يختلف في الأولين والآخرين، قال مجاهد في معنى الآية الأولى " أوصيناك يا محمد وإياهم دينا واحدا "، وقال الرازي " شرع لكم من الدين دينا، تطابقت الأنبياء على صحته "، وقال البيضاوي " شرع لكم من الدين، دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء عليهم السلام من أرباب الشرع، وهو الأصل المشترك فيما بينهم، المفسر بقوله " لا تتفرقوا فيه "، أي لا تختلفوا في هذا الأصل، أما فروع الشرع، فنختلف "!

(ه) " يا أيها الرسل، كلوا من الطيبات، واعملوا صالحا، إني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون، فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون " (سورة ٢٣ المؤمنون آية ٥١ – ٥٣)، يعني ملتكم ملة واحدة، أي متحدة في العقائد وأصول الشرائع، أو جماعتكم جماعة واحدة، متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة.

(و) " وأنزلنا إليك الكتاب بالحق، مصدقا لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنا عليه، فاحكم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم، واستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون "

(سورة المائدة آية ٤٨)، قال الطبري " ثم ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأخبره أنه أنزل الكتاب مصدقا لما بين يديه من الكتب، وأمره بالعمل بما فيه، والحكم بما أنزل إليه دون ما في سائر الكتب غيره، وأعلمه أنه قد جعل له ولأمته شريعة غير شريعة الأنبياء والأمم قبله، الذين قص عليه قصصهم،
وإن كان دينه ودينهم في توحيد الله والإقرار بما جاءهم به من عنده، والانتهاء إلى أمره ونهيه، واحدا، فهم مختلفون فيما شرع لكل واحد منهم ولأمته فيما أحل لهم وحرم عليهم "، وروى الطبري عن قتادة " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا سبيلا وسنة، والسنن مختلفة، للتوراة شريعة وللإنجيل شريعة، وللقرآن
شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء، بلاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره، التوحيد والإخلاص لله، الذي
جاءت به الرسل "، وروى الطبري عن قتادة أيضا قوله "... الدين واحد، والشريعة مختلفة "!
(ز) " وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء،
إن ربك حكيم عليم. ووهبنا له إسحاق ويعقوب، كلا هدينا، ونوحا هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس، كل من الصالحين، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، واجتبيناهم، وهديناهم إلى صراط مستقيم، ذلك هدى الله، يهدي به من يشاء من عباده، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون، أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة، فإن يكفر بها هؤلاء، فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين، أولئك الذين هدى الله، فبهداهم اقتده، قل لا أسألكم عليه أجرا، إن هو
إلا ذكرى للعالمين " (سورة ٦ الأنعام آية ٨٣ - ٩٠)، ففي هذه الآيات ذكر للرسل من إبراهيم إلى لوط، وبيان لأن خطتهم في الهداية إلى الصراط المستقيم واحدة، وأنهم أوتوا الكتاب والحكم والنبوة، وأنهم الذين يقتدى بهم
في هداهم، قال الزمخشري " فبهداهم اقتده، اختص هداهم بالاقتداء، ولا تقتدوا إلا بهم... والمراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين،

دون الشرائع، فإنها مختلفة.. وأنها هدى، ما لم تنسخ، فإن نسخت لم تبق هدى، بخلاف أصول الدين، فإنها هدى أبدا (١) "

(٤) هذا، ولقد ذكرت في كتابي " مبادئ الإسلام " أن الشريف منصور سئل عن سبب تعدد الشرائع الربانية، ونسخ بعضها بعضا، مع كونها متفقة في المصدر والتوحيد، فقال إنما جاءت الشرائع الربانية متفقة على توحيد الإله تعالى، وإن اختلفت في أحكام العبادات والمعاملات بمناسبة أحوال الأمم، وإن الدين عند الله في الكل واحد، وهو الإسلام، وهو العمل بما جاءت به الرسل من اعتقاد وفعل وترك.

فمن الأمم، من عرف بأسماء الرسل، كقوم نوح عليه السلام، ومنهم من تسمى بوصف من الدين، كقوم موسى عليه السلام، تسموا باليهود، من قوله " واكتب لنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة، إنا هدنا إليك "، وقوم عيسى عليه السلام تسموا بالنصارى، من قوله " من أنصاري إلى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله، آمنا بالله، واشهد بأنا مسلمون "، ومنهم من تسمى بأصل الدين، وهم أمة محمد عليه السلام صاحب الدعوة العامة للإنس والجن كلهم " ومن يبتغ غير الإسلام دينا، فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين (٢) ".

ولقد ضرب لنا نبينا الكريم، مثلا للمسلمين واليهود والنصارى، فعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا إلى الليل، على أجر معلوم، فعملوا له إلى نصف النهار، فقالوا لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل! فقال لهم: لا تفعلوا! أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملا! فأبوا، وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم، فقال: أكملوا

---

(١) راجع كلمة أستاذنا المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق " الدين في نظر الإسلام " في مجلة الهلال عدد أغسطس سنة ١٩٣٢، وقد ذكرها الدكتور محمد مصطفى حلمي في كتابه " ابن الفارض والحب الإلهي " أيضا.

(٢) راجع ص ٢٢٣ من مبادئ الإسلام لمحمود علي قراعة.

بقية يومكم هذا، ولكم الذي اشترطت لهم من الأجر! فعملوا، حتى إذا كانت صلاة العصر، قالوا لك ما عملنا باطل! ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه!
فقال: أكملوا بقية عملكم، فإنما بقي من النهار شئ يسير! فأبوا! فاستأجر قوما يعملون بقية يومهم، فعملوا فاستكملوا أجر الفريقين، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور (١) "!
وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراة، التوراة فعملوا بها، حتى انتصف النهار، فعجزوا، فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أوتي أهل الإنجيل، الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر فعجزوا، فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أوتينا القرآن، فعملنا إلى غروب الشمس، فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين: أي رب! أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطا قيراطا، ونحن كنا أكثر عملا منهم! قال الله عز وجل: هل ظلمتكم من أجركم شيئا؟! قالوا: لا! قال: فهو فضلي أوتيه من أشاء (٢) ".
(٥) ويقول المرحوم الأستاذ عطا حسني: إن الله سبحانه وتعالى قد خص الدين بالإسلام، إذ ورد في القرآن الشريف " إن الدين عند الله الإسلام " وعرف بعضهم الدين، فقال هو الإيمان بوجود الله عز وجل ورسالة

---

(١) راجع ص ١٠٤ من تيسير الوصول ج ٣ للشيباني.
(٢) أخرجه البخاري والترمذي. وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أضل الله تعالى عن الجمعة، من كان قبلكم، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله تعالى بنا، فهدانا ليوم الجمعة، فجعل لنا الجمعة السبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون في الدنيا الأولون يوم القيامة، المقضي لهم يوم القيامة قبل الخلائق. راجع ص ١٠٥ من تيسير الوصول ج ٣ للشيباني. وراجع ص ٢٤٣ - ٢٤٥ من وحي الأحاديث المحمدية ج ١ لمحمود علي قراعة.

رسوله صلى الله عليه وسلم وبالتزام طاعته، وبالاعتقاد بالثواب والعقاب ويوم الحساب، وقال غيرهم إن الدين لا يكون بمجرد الاعتقاد بصالح الأعمال، كما لا يكون بالأعمال الصالحة بلا اعتقاد، أما النصارى فعندهم أن الدين هو عبارة عن مجموع النواميس الضابطة لنسبة الإنسان إلى الله، أو بين صفات تلك النسبة، وقال باسكال " أرى أديانا كثيرة متناقضة، فكلها باطلة، خلا دينا واحدا! فاختلاف الأديان وتباينها وتضاربها ناشئ عن مطامع الرجال وإثمهم، والدين ثابت في قواعده وجوهره، ولكنه يختلف في صورته الخارجية، فتنشأ عن ذلك الخرافات والبدع "!

نعم إن الدين الحقيقي واحد، لأنه ينتمي إلى الحقيقة الأزلية، وهي الله سبحانه وتعالى، والحقيقة كما تعلم لا تتجزأ ولا تنقسم، وما هؤلاء الأنبياء والرسل عليهم السلام، إلا مرسلون من عند الله هدى للعالمين، ولو سلمت كتبهم من التصحيف والتحريف، وسلمت قلوب الشراح (١) والمجتهدين من الزيغ في فهم الحقائق، لما وجدنا في الناس اختلافا في أديانهم، ولكن كان ذلك بسماح من الله، " ولو شاء ربك، لجعل الناس أمة واحدة "! ولو اقتصر الناس على ما تلقوه من أنبيائهم، لما وجدت الوثنية في الوجود، ولما اختلف عبدة الله عز وجل في فهم حقائق دينهم، وانقسامهم إلى فرق ومذاهب، لأن كل الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، هم من مصدر واحد هو الله سبحانه وتعالى، فمن الضروري أن تكون تعاليمهم الدينية واحدة منطبقة على استعداد الناس، وملائمة لفطرتهم، ومحسنة لأحوالهم في دنياهم، ومهيئة لهم الخلود والسعادة في معادهم، ولكن من أين يكون ذلك للإنسان، وقد خلق حريصا على منافعه مغاليا في أنانيته، وهكذا توسع المجتهدون في الأديان وبعدوا بها عن الحالة التي أوجدها الخالق الديان، وما زال الناس في هذا الاضطراب في أمور دينهم

---

(١) ذكر لنا أحد زملائنا المسيحيين، أنه سمع مرة قسيسا يخطب ويقول إن المسلمين حينما يقولون الله أكبر، يعبدون صنما يسمى أكبر، فنهره وقال له كفاك جهلا وتضليلا!.

إلى أن وفقهم الله بإرسال رسوله النبي العربي الأمي، وأنزل عليه القرآن، وسلمه من التحريف والتخريف، فكان هدى من رب العالمين (١)!

(٦) " فأفق من سكرتك، واستيقظ من غفلتك، واختصر من عجلتك، وأنعم الفكر فيما جاءك على لسان النبي الأمي، صلى الله عليه وآله وسلم، مما لا بد منه ولا محيص عنه، وخالف من خالف ذلك إلى غيره، ودعه وما رضى لنفسه، وضع فخرك واحطط كبرك واذكر قدرك، فإن عليه ممرك، وكما تدين تدان، وكما تزرع تحصد، وكما قدمت اليوم، تقدم عليه غدا، فامهد لقدمك، وقدم ليومك، فالحذر الحذر والجد الجد أيها الغافل، (ولا ينبئك مثل خبير) "!

" إن عزائم الله في الذكر الحكيم، التي عليها يثيب ويعاقب، ولها يرضى ويسخط، أنه لا ينفع عبدا، وإن أجهد نفسه، وأخلص فعله، أن يخرج من الدنيا لاقيا ربه بخصلة من هذه الخصال، لم يتب منها، أن يشرك بالله فيما افترض عليه من عبادته، أو يشفي غيظه بهلاك نفس، أو يقر بأمر فعله غيره، أو يستنجح حاجته إلى الناس بإظهار بدعة في دينه، أو يلقى الناس بوجهين، أو يمشي فيهم بلسانين، اعقل ذلك، فإن المثل دليل على شبهه "!

" إن البهائم همها بطونها، إن السباع همها العدوان على غيرها، وإن النساء همهن زينة الحياة الدنيا والفساد فيها، إن المؤمنين مستكينون (٢)، إن المؤمنين مشفقون، إن المؤمنين خائفون (٢) "!

" فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا، فليصدق رائد أهله، وليحضر عقله، وليكن من أبناء الآخرة، فإنه منها قدم، وإليها ينقلب، فالناظر بالقلب، العامل بالبصر، يكون مبتدأ عمله، أن يعلم أعمله عليه أم له، فإن كان له، مضى فيه، وإن كان عليه، وقف عنه فإن العامل بغير علم، كسائر في غير طريق، فلا يزيده بعده عن الطريق إلا بعدا

---

(١) راجع ص ٣٥ - ٣٩ من خواطر في الإسلام ج ١ للأستاذ المرحوم عطا حسني.
(٢) أي خاضعون لله عز وجل.
(٣) راجع ص ٢٩٦ و ٢٩٧ من نهج البلاغة ج ١.

من حاجته، والعامل بالعلم كسائر على الطريق الواضح، فلينظر ناظر، أسائر هو أم راجع، واعلم أن لكل ظاهر باطنا على مثاله، فما طاب ظاهره، طاب باطنه، وما خبث ظاهره، خبث باطنه، وقد قال الرسول الصادق صلى الله عليه وسلم وآله: " إن الله يحب العبد ويبغض عمله، ويحب العمل ويبغض بدنه "، واعلم أن لكل عمل نبات، وكل نبات لا غنى به عن الماء، والمياه مختلفة، فما طاب سقيه، طاب غرسه، وحلت ثمرته، وما خبث سقيه، خبث غرسه، وأمرت ثمرته (١) "!

" إن الله تعالى خصكم بالإسلام واستخلصكم له، وذلك لأنه اسم سلامة وجماع كرامة، اصطفى الله تعالى منهجه، وبين حججه من ظاهر علم وباطن حكم، لا تفنى غرائبه، ولا تنقضي عجائبه، فيه مرابيع النعم ومصابيح الظلم، قد أحمى حماه، وأرعى مرعاه، فيه شفاء المشتفي وكفاية المكتفي (٢) "!

" إن الله تعالى أنزل كتابا هاديا، بين فيه الخير والشر، فخذوا نهج الخير تهتدوا، واصدفوا عن سمت الشر تقصدوا، الفرائض الفرائض أدوها إلى الله، تؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حراما غير مجهول، وأحل حلالا غير مدخول، وفصل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا الحق، ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو الموت، فإن الناس أمامكم، وإن الساعة تحدوكم من خلفكم! تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بأولكم آخركم، اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، وأطيعوا الله ولا تعصوه، إذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر، فأعرضوا عنه (٣) "!

(٧) هذا ولقد نسب علي بن أبي طالب الإسلام، فقال رضي الله عنه،

---

(١) راجع ص ٢٩٨ من نهج البلاغة ج ١.
(٢) راجع ص ٢٩٤ و ٢٩٥ من نهج البلاغة ج ١.
(٣) راجع ص ٣٣٤ و ٣٣٥ من نهج البلاغة ج ١.

" لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي، الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل (١) "!

ولا نريد أن نحدثك هنا عن الإسلام، فقد فصلنا هذا في كتابنا " مبادئ الإسلام "، ولكنا سنقف معك قليلا عند قوله تعالى: " اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم "، ولن نجول معك في تفسير هذه الآيات الكريمة في كتب التفسير، بل سنقصر جولتنا على السير بك مع باحث واحد، هو الأستاذ أحمد نجيب برادة، إذ عنى بالكتابة عن وحي الآيات الأولى في تنزيل القرآن، ونحن نعنى هنا بإيجاز فضائل الإسلام، بذكر فضائل آياته الأولى، ونلخص لك بحثه فيما يلي:

(أ) بدأ العزيز الحكيم تنزيل القرآن الكريم، بالأمر بالقراءة، فقال في الآية الأولى " اقرأ باسم ربك "، ثم كرر الأمر في الآية الثالثة بقوله: " اقرأ وربك الأكرم " وكرر أيضا كما نرى كلمة " الرب " فيهما، وكلمة الرب تحوي في طياتها معنى التربية، ولم يذكر في الآيتين معمولا ظاهرا للقراءة، إذ لم يقل ماذا تقرأ، واكتفى في كلتيهما بذكر وصف للرب في الأولى بالذي خلق، خلق الإنسان من علق، وفي الأخرى بالأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، بالتنويه في الوصف الأول بالخلق، وفي الوصف الثاني بالعلم، وعلى هذا فإن الآية الأولى تفيد أنك تقرأ في كائنات الوجود، وتفيد الآية الأخرى أنك تدرس العلوم المسطورة وتطلب منها المزيد، ثم إن كلمة " علق " في آية " خلق الإنسان من علق " تتضمن معنى العلاقة، فهو قد خص الإنسان بالذكر بين الكائنات، وأبان أنه تعالى جعل مناط الإنسان العلق، أي الروابط بأنواعها من اجتماعية وطبيعية واقتصادية وغيرها!

وبذا ترى أن المولى عز وجل في القرآن الكريم، قد بدأ الهداية الإسلامية

---

(١) راجع ص ١٧١ من نهج البلاغة ج ١.

بثلاثة من أهم الأمور للحياة الراقية السعيدة: أولها التأمل والتفكير في خلقة الكائنات " اقرأ باسم ربك الذي خلق "، وهذه هي فلسفة التأمل والملاحظة أو التربية التجريبية، وثانيها هو العلم المسطور بالقلم " اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم "، وثالثها مراعاة الروابط الإنسانية " خلق الإنسان من علق "، ولم يبدأ ببيان عقائدها أو بتقرير مراسم عباداتها، وذلك لأن الشخصية الإنسانية لا يتم صلاحها بمجرد تلقين عقائد دينية، ولا القيام بفروض تعبدية (١)!

(ب) فالقرآن من بدايته قرر اعتماد الدين الإسلامي على العقل الإنساني، ووجهه إلى دراسة الكائنات بتأمل وحرية فكر، والإقبال على العلوم وطلب المزيد منها، فلا يكتفي الإسلام أن يضمك إلى صفوفه عن طريق الوراثة، وإن كان قلبك قد تشرب بحب الدين، بينما ذهنك خال من فهم معانيه وأغراضه وإدراك فلسفته الإلهية التي تنساق في كل ثقافته وآدابه وأحكامه، بل يطلب منك أن تعنى بتربية نفسك تربية علمية وعملية، وأن تغذي عقلك وتنميه بالمبادئ الصحيحة، والمشاهدات التجريبية بصفاء ذهن وحرية فكر " اقرأ باسم ربك الذي خلق "، ويريدك أن تكون واسع الاطلاع، ملما بأقصى ما يستطاع " اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم "، وكان لذلك أثره الكبير في تكوين العقل الإسلامي والعقيدة الإسلامية، فجعل في ميدان الحنيفية السمحة متسعا لحرية الأفكار واختلاف الأنظار، بخلاف الأديان الأخرى، فقد حجر أصحابها على حرية التفكير في المعتقدات، وحرموا المناقشة فيها فصدوا أنفسهم والناس عن كل تفكير عقلي حر، واعتبروا أن ما وجدوا عليه آباءهم أسرارا وأمورا لاهوتية وأمور فوق طاقة البشر إدراكها " أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا، ولا يهتدون " ولم يكن يجرؤ عالم أو مفكر على أداء رسالته، حتى لقد جعلوا لرؤساء الكنيسة سلطانا على الحياة الأخرى، فكانوا

---

(١) راجع ص ١٥ – ٢٠ من وحي الآيات الأولى في تنزيل القرآن ج ١ للمرحوم الأستاذ أحمد نجيب برادة.

يبيعون تذاكر للغفران من الذنوب بالنقد، أو تذاكر لدخول الجنة بغير حساب، وانتهى الأمر برؤسائهم إلى تأسيس محاكم التفتيش، فكانوا يحكمون بزندقة كل من يخالفهم رأيا أو لم يصدق لهم قولا، وأعملوا فيهم التقتيل والتعذيب والإحراق (١)!

(ج) يدعو الإسلام للقراءة، والقراءة الصحيحة، سواء في صحائف الكون أو في غيرها، تقتضي النظر وإعمال الفكر للفهم واستبانة الحقيقة، وتعود الفهم الصحيح والقدرة على الاستنباط والاستنتاج لمعرفة الأشياء والعلم بها علما تاما، وهي القراءة المقصودة من هذه الآية " اقرأ باسم ربك الذي خلق "! وهذا الفعل الواحد " اقرأ "، حوى في طياته خمسة أمور دقيقة، أو أن عناصره عند التحليل خمسة: وهي، النظر، والفكر، وإدراك كنه الشئ وفهمه واستطلاع أثره، وتمام معرفته:

أما النظر، فإن كان بالعقل فللمعرفة، وإن كان بالقلب فللإعجاب، وإن كان بالعاطفة فللحب والإشفاق، وهو أول حركة مادية أو التفاتة ذهنية من الحركات التي حواها فعل " اقرأ "، فله فلسفة، وله مباحث تتعلق بالمعرفة، منها ما يخص الناظر، ومنها ما يخص المنظور، وغير ذلك من الأحوال والأمور، فليس نظر العالم للأشياء كنظر الجاهل، فالكون في نظر الجاهل ضيق الرقعة، ولكنه في نظر العالم البصير متسع لا حد له، وكلما والى النظر إليه والتأمل فيه، قرب منه ما بعد عنه، ثم هو يجد الكون مرآة مجلوة للناظرين، فالنظر إليه باب للاستدلال ومدرجة للتفكر، والتدبر يكون الوصول لمعرفة الأشياء على حقيقتها وطريق الاستفادة منها، ثم إنه بإمعان النظر، يتثبت الإنسان ويكون لنفسه الرأي السديد، فيبعد عن التقيد والتقليد! وبالنظر في الكائنات، إنما يوفى الإنسان غريزة الاستطلاع المخلوقة فيه، فالمولى سبحانه لم يطالبه في بداية الهداية بأكثر مما هو في استطاعته، أن يبصر ذات المنظور كلياته وجزئياته،

---

(١) راجع ص ٢١ و ٢٢ من " وحي الآيات الأولى في تنزيل القرآن " للمرحوم الأستاذ أحمد نجيب برادة.

ثم يبدأ بالتفكير في حالته لمعرفة حقيقته وحكمه ونظامه، ثم إنه لإدراك كنه الشئ ومعرفة أحواله، يقتضي رؤيته في موضعه ووضعه الحقيقيين، بالنسبة لسائر الأشياء، وأن لا يقف النظر عند الجزئي مستقلا لمعرفة حقيقته وحده، بل يجب أن يجول النظر فيه وحوله، لأجل الكشف عن النواميس التي تربط هذا الجزئي بباقي ما حوله، وما هو مرتبط به من الكائنات الأخرى!

وأما الفكر، فهو ثاني العناصر لفعل " اقرأ "، وهو على حد قول الإمام الغزالي " مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وقد عرف أكثر الناس فضله ومرتبته، لكن جهلوا حقيقته وثمرته، ومصدره ومورده، ومجراه ومسرحه، وطريقته وكيفيته، ولم يعلم البعض فيما ذا يتفكر، وماذا يطلب، أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه "، وقد كفلت آيات الذكر الحكيم بيان كل أولئك لمن يتدبرها!

والبحث في الفكر من أهم مواضيع علم النفس والأدب، فالفكر زناد المعرفة، ضياء للبصر، وضياء للفؤاد، به أنت ترى ما لم تكن تراه، وبه تميل إلى ما لم تكن جوارحك إليه تميل، قال وهب بن منبه " ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل "، ومن التفكير المخترعات والمكتشفات، والتعبير الذي جاءت به هذه الآية " اقرأ باسم ربك الذي خلق "، يفيد أن الله سبحانه وتعالى جعل مما خلق مجالا للنظر والتفكير والإدراك، وبالتالي إفادة المعرفة، والناس كما يقول ابن القيم " تتفاوت في مراتب الفهم في النصوص، فمنهم من يفهم من الآية حكما أو حكمين، منهم من يفهم عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف أن تضمه إلى آخر متعلق به، فتفهم من اقترانه به قدرا زائدا على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن، لا يتنبه له إلا النادر "!

فالله سبحانه وتعالى بدأ الهداية الإسلامية بهذه الأساليب الفكرية، ليتمكن الناس بها أيضا من المعرفة واستخراج حقائق الأشياء، لأنفسهم بأنفسهم

بطريق التأمل في الكائنات وتفهمها والاستنباط منها، وهي الطريقة العلمية الحديثة، الطريقة التجريبية التي هي وليدة الملاحظة، وإننا إذا لاحظنا معنى التربية الذي تضمنته كلمة الرب في قوله " باسم ربك " وقوله " وربك الأكرم " لفهمنا أن من ضمن ما تحتويه مقاصد هذه الآيات، وضع أساليب للتربية والتعليم وأنها تفيد من هذه الوجهة أمرين:

(أولهما) تربية الإنسان عن طريق الفهم " اقرأ باسم ربك الذي خلق "،

(وثانيهما) عن طريق العلم " اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم ".

ولقد قدم سبحانه وتعالى، وهو المربي الأعظم، طريق الفهم بالتأمل والتدبر في الخلق، على العلم المسطور (Science) لكي يتعود الناس أولا حرية الفكر الضرورية.

فمن يقرأ في الكون، يكون كمن يدرس كتابا هو أجمل الكتب وأعظمها، ولا غرو فالمسطور فيه هو كلمات الله جل جلاله وبديع آياته، فهذا الكون كما يقول المرحوم الشيخ محمد عبدة " هو كتاب الإبداع الإلهي، المفصح عن وجود الله وكماله وجلاله وجماله " وإلى هذا الكتاب الإشارة بقوله تعالى " قل لو كان البحر مداد لكلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا "، وقوله: " ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر، ما نفدت كلمات الله "، وهي تنطق بلسان الحال بما هو أفصح من لسان المقال!

ولذا يقول الإمام محمد عبدة " إن لله كتابين، كتابا مخلوقا وهو الكون، وكتابا منزلا وهو القرآن، وإنما يرشدنا إلى هذا طريق العلم بما أوتينا من العقل، فمن قرأ وأطاع، فهو من الفائزين، ومن أعرض فهو من الخاسرين "،

والقراءة في عالم الطبيعة وسيلة لإدراك المعلومات وطريقة لكشف المجهول من حقائق هذا الكون، وكشف هذه الحقائق يؤدي إلى معرفتنا كيف نسخر موجوداته ونسخر قواها لمصلحة الإنسان، وقد قال تعالى " ألم تروا، أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليكم نعمه، ظاهرة وباطنة "،

والقراءة في كتاب الكون هداية للحواس والعقل معا، فيها تدريب النفوس على النظر والتأمل، وبها تتربى قوة الانتباه والملاحظة، فتفتق الذهن وتوسع العقل وتهدي إلى معرفة الشئ على حقيقته، والانتفاع بكل شئ بما خصص له " وفي الأرض آيات للموقنين "، فقول الله تعالى للإنسان " اقرأ "، وكل به سبحانه معرفة الإنسان للحقائق الكونية ولحقيقة نفسه إلى بحثه وجده، وجعلها من الأمور الكسبية، ليتسع بالبحث فيها فكره، ويكبر عقله، يزداد رقيه " سنريهم آياتنا في الآفاق، وفي أنفسهم "، وإنما تفصح الطبيعة عن مضمونها وتظهر مكنونها كما يقول المرحوم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني: " لمن تعرف القدرة على فهمها "!

وإن للطبيعة فضلا على الإنسان كما يقول الكاتب الإنجليزي " وردث ورث " " إذ لا تزال تسري به من لذة إلى لذة، ومن متعة إلى متعة، وإنها لقديرة أن تملأ بالعلم قلوبنا، وبالروح صدورنا، وبالخواطر العذبة نفوسنا، وتبعث في أرواحنا من أسباب اليقين، وتغرس في أفئدتنا من بذور الإيمان، ما هو جدير أن يرينا مناقم الحياة بعين الرضا، وخليق أن يجعلنا نغض أبصارنا عن مساوئ الدنيا، ونغمض أجفاننا عن أقذائها، فيعذب لنا من مشارب العيش ما ملح، ويحلو لنا من مراتع الحياة ما كان مرا، ولا يدع في صدورنا محض اليقين وخالص الرضا، موضعا للتألم من شتم شاتم أو حسد حاسد أو غدر غادر، وسائر سيئات هذا العالم ومنغصاته "، وحسب السماء والأرض كما يقول كنجزلي " ما إن يزالان يمتعان طرفي ويبهجان صدري بكل طرفة من الجمال وأعجوبة، فحبذا تلك التلاع أطرقها وحيدا، ومع هذا فلا تجد الوحدة إلى نفسي سبيلا، ولا تصيب الوحشة إلى قلبي دليلا، وأين مني الوحدة، وأنا لي في كل ورقة بذلك الأيك صديق، وبكل زهرة في ذلك النبت رفيق، وفي كل نخلة ترشف ثغور الريحان زميل، وكل عصفورة تعتلي متون الأغصان خليل "!

فالعالم كما يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين " مغمور بالجمال في صغيره وكبيره، ورقيقه وجليله، في السماء والأرض، في النجوم بضيائها ولمعانها، في

السحاب المسخر بين السماء والأرض، في عظمة البحار، في جلال الجبال، في شروق الشمس وغروبها، في الطير يطير في السماء، في السمك يغوص في الماء، في الحركة والسكون، في الأشكال والألوان الطبيعية جميلة في كل جزء من أجزائها، وأجمل من أجزائها جمال كلها "!
فمفهوم كلمة " اقرأ " هو الجمع بين النظر والفكر، فهي أحسن لفظ يؤدي أيضا المعنى الاصطلاحي المقصود منه، ولذلك كانت خير كلمة لبداية الآيات، وذلك لما تؤديه من كلا المعنيين في كل من الآيتين، لذا قال العلامة فخر الدين الرازي " إن " اقرأ " الأولى " لذات النبي عليه السلام "، و " اقرأ " الثانية " للتبليغ " أو أن الأولى للتعلم والثانية للتعليم، وعلى هذا فالقراءة التي أوحى بها الله سبحانه وتعالى، تجمع بين النظر الحسي والنظر العقلي، على أن هناك معنى آخر، وهو أنه تعالى أراد أيضا ب " اقرأ " جمع آياته في الخلق، في صحائف الذهن، ليكون لها أثرها من اتساع الفكر وكمال العقل (١)!
(د) قوله تعالى " اقرأ باسم ربك " أمر للإنسان أن يجرد من نفسه نفسا لربها، تقرأ باسمه تعالى، متحلية بالتربية، راغبة في المعرفة، تتأمل في خلقه وتتدبر، وهذه هي هداية القرآن، تجريد النفس مما ورثته من العقائد والآراء، ثم القيام بالملاحظة والتجربة والموازنة والاستنباط بنفسه، ويقول بعض اللغويين إن الاسم مشتق من السمو، فقرائتك باسم ربك، تجعلك تتمثل في نفسك سمو الرب على المربوب، فيكون هذا حافزا لك في تأملك وتدبرك وسعيك في الوقوف على نواميس الكون وخواص الكائنات، وإذا كان معناه الحال، أي اقرأ مفتتحا باسم ربك، فإن الله تعالى أدب به نبيه الكريم بتعليمه بتقديم ذكر اسمه تعالى أمام أفعاله وأقواله، أي قال " باسم الله " ثم اقرأ "، ويقول فخر الدين الرازي إن " اقرأ باسم ربك " أي استعن باسم ربك، واتخذ الاسم آلة لتحصيل هذا الذي عسر عليك، أو معناه اجعل هذا الفعل لله وافعله لأجله، وإنك إذ تقرأ باسم ربك، فإنما تقرأ بروح منه

---

(١) راجع ص ٣١ - ٦٥ من وحي الآيات الأولى في تنزيل القرآن للمرحوم الأستاذ أحمد نجيب برادة.

تعينك على عملك وتكفل لك النجاح فيه، فتنفذ إلى أعماق هذا الكون وأسرار الوجود بفكر يقظ وقلب مؤمن، " اقرأ باسم ربك "، فلا تخضع فكرك لسلطان بشر مثلك ولا تقيد رأيك برأي غيرك، فإن الأمر والرأي لربك وحده الذي تعمل باسمه، فقم بعملك، مراعيا مقاصده ومراميه!

(ه) ولم يقصر أمر القراءة على اسم الرب سبحانه، فحسب، بل ألحقه بذكر أعظم أفعاله وهو الخلق، قال تعالى " اقرأ باسم بك الذي خلق "، وكأنما أمرك أن تقرأ باسم من خلق، فيما قد خلق، ولما أطلق القول في " خلق " بصيغة الماضي دون ذكر معمول لها، يكون المعنى بغير تقدير المعمول أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به، لا خالق سواه، فمس الوحدانية دون ذكرها أو التعمق في أمرها، وإذا قدر لفعل " خلق " معمول، يكون المعنى أنه الذي خلق كل شئ، فيتناول كل مخلوق لجميع المخلوقات، وكلاهما يفيد الوحدانية والإرادة والعلم والمقدرة والحكمة وغيرها من الصفات التي تناسب الخالق جل وعلا، فما أبلغ هذا السكوت عن ذكر المفعول لهذا الفعل " خلق " وهو بدلالته على العموم، يشمل أيضا كل ما هو مخلوق من كبير وصغير وجليل وحقير وحسن وقبيح، وفيه أيضا توكيد لنظام الرابطة بين الناس وعلق بعضهم ببعض، والمؤمن يشاهد التوحيد ماثلا في كل شئ، ينكشف من تأمله إلى الخلق، ومن نور الحق الذي يبهره بتفكيره في خالقه!

وفي كل شئ له آية * تدل على أنه الواحد.

(و) ويلاحظ أيضا أنه تعالى لما أردف لفظ الرب " بالذي خلق " أي الذي قام بفعل الخلق، كأنه أمرك أن تنظر في فعله وتفكر فيه، لا في ذاته تعالى، لأن العقول تتحير في التفكر في الذات، فلا تطيق البصر ولا إشغال البصيرة!

ومعنى " الخلق " لغة التقدير، ولكن الإيجاد من العدم يطلق عليه " الإبداع " قال تعالى: " بديع السماوات والأرض، وإذا قضى أمرا، فإنما يقول له كن، فيكون "، وقد استعملت " خلق " هنا في أداء المعنيين من باب التغليب،

فما هو واقع تحت حواس الإنسان، هو نتيجة الإبداع والخلق معا، ومن الصعب على الإنسان أن يتصور عدم الوجود بعد أن أدرك هذا الإبداع!
إذ هو يرى الوجود ويشعر بفضائه وما هو كائن في فضائه، ولكنه إذا تخيل فناء ما هو كائن في الفضاء - أي الموجود الحسي - فليس يسهل عليه تخيل فناء الفضاء ذاته، وضعف الإنسان حاصل في إدراك هذا الفناء الشامل، أي الرجوع إلى حالة العدم السابق على الإبداع - أي بمحو الموجود غير الحسي أيضا - وأنه بسبب هذا الضعف في الإدراك وعدم التنبه له، ضل كثير من الطبيعيين وغيرهم وبعدوا عن الحقيقة في معرفة الله تعالى وصفاته، ووصفوه بغير ما يليق بما يفيد الشرك به " سبحان ربك، رب العزة، عما يصفون "، " قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد ".
وهذه الآية " اقرأ باسم ربك الذي خلق " توضح الصلة بين الخالق وبين المخلوقات، ببيان أن الكل من خلقه تعالى، كما تفصح عن صلة ما بين الإنسان وبين ربه، صلة مباشرة، لا وساطة فيها بينهما، فيكفر تفكيرا عقليا حرا في الكائنات، أما في الأديان الأخرى فإن رجال الدين يصدون الناس عن التفكير العقلي الحر، بل إنهم يصدون أنفسهم كذلك، ويعتبرون: ما وجدوا عليه آباءهم أسرارا لاهوتية وأمورا فوق طاقة الإنسان إدراكها!
وتفيد الآية كذلك أن العلم لا ينمو ولا يتطور إلا في جو من النظر الحر والاستقلال عن الاعتبارات الاعتقادية، وقد حاطه الإسلام بحوائط تحميه شر الجمود والرجعية، وحث القرآن على النظر في الكون إجمالا ثم تفصيلا، حتى قدح في الذين لم تؤثر فيهم آيات الكون، ولم تبعثهم على التفكير، فقال: " وكأين من آية في السماوات والأرض، يمرون عليها، وهم عنها معرضون "، كما حض الناس على إيقاظ غريزة التأمل، فقال في آيات عدة: " لقوم يفقهون "، " لقوم يعلمون "، " أفلا يعقلون "، " أفلا يتفكرون "، " لعلهم يتفكرون "، لكل آية ما يناسبها في بحثها عن طريق التفقه أو العلم أو التفكير، وهكذا، وسرد من عجائب المخلوقات النباتية والحيوانية والأجرام السماوية ما يصعب

حصره، كما بين مكانة العلماء والباحثين الذين يقومون بدرس آياته الكونية أو غيرها، وفضلهم على غيرهم حتى قال " هل يستوي الذين يعلمون، والذين لا يعلمون "، وقال: " إنما يخشى الله من عباده العلماء "، وهذه إشادة كبيرة بالعلوم، اختص بها الإسلام!

(ز) لعل المقصود من الآيتين معا " اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق "، تنبيه الأذهان إلى ما يثير الإعجاب بخلق الإنسان، والتنويه منه تعالى بإيماء ورفق، إلى وجوب مقارنة عمله في خلق الإنسان بعمله في خلق سائر الكائنات، ولا غرو فإنه ميز الإنسان بخواص كالعقل والنفس وغيرهما ولقد أشار سبحانه إلى هذه الفكرة في آية أخرى بقوله " ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين "، بما لا يوجد مثلها لسائر المخلوقات، ثم إن المخلوقات الأخرى في الكون تختلف عن طبيعة الإنسان، إذ أنها كلها تسير بحركة آلية أو شبه آلية، مدفوعة فيها بقوة عظيمة ولا إرادة لها فيها، بينما قد خلق الإنسان وله إرادة تجعله حرا في حركاته وتصرفاته، ثم إن له علقا أي روابط بغيره تقتضيها إنسانيته، وجعل له العقل لتدبير هذا العلق، ثم إنه جعل المخلوقات الأخرى مسخرات له، وخصه بميزة التمتع بجميع ما في الأرض، ومنحه قدرة على العمل فيها بالتعمير والتجميل والتركيب والتحليل والتسخير والتذليل، وقد بين الله تعالى من أجل ذلك سبيل معرفة الكائنات، وحثه على تعرف حقيقتها بدراسة خواصها وطبيعتها، ليتمكن من الحصول على موادها وتسخير قواها، بقوله تعالى " اقرأ باسم ربك الذي خلق "، والإنسان في تدرجه وارتقائه محتاج للعلوم، لتسهيل سبل هذا التدرج والارتقاء، فكان من كرم الله تعالى أن يسرها له، وأمره أيضا بدراستها دراسة علمية، فقال " اقرأ، وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ".

ويلاحظ أن آية " خلق الإنسان من علق " بجعلها بهذه الصيغة، وفي هذا الموضع بين آية " اقرأ باسم ربك الذي خلق "، وبين " اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم "، قد أوجد تعالى بين الآيات جميعا،

اتصالا متينا، كما تفيد كلها أن الإسلام دين رقي وتوحيد واجتماع! ويقول بعض المفسرين إن تخصيص الإنسان بالذكر في هذه الآية، هو لأن التنزيل إليه، أو لأنه أشرف ما على وجه الأرض، وقال آخر إنه أبهم أولا بقوله " الذي خلق " ثم فسر بقوله " خلق الإنسان من علق " تفخيما لخلق الإنسان، وقال بعضهم: " قد يكون المقصود بيان ناحية الفائدة من القراءة، أي أنه لما خلق الإنسان من علق، كان من الضروري معرفة ما يصون هذا النوع من الخلق ويرقيه "، وأن ذلك يكون بالقراءة المذكورة، أي بدراسة طبيعة الكائنات للانتفاع بها في وجوده ومعرفة أثرها فيه، وتكون هذه القراءة عبارة عن البحث في ذات الحياة الإنسانية وفي علاقة الإنسان بموجودات الكون ومكانته منها وحاجته لمعرفتها ووجوب دراستها وعلاقتها بخالقها!

ولا غرو إذا كانت دراسة خلق الإنسان في مقدمة واجبات الإنسان، قال تعالى: " أو لم يتفكروا في أنفسهم "، ومعنى هذا أو لم يتفكروا في أمر أنفسهم فإنها مرآة يتجلى فيها المستبصر ما يتجلى في الممكنات بأسرها، قال عليه الصلاة والسلام " أعرفكم بربه، أعرفكم بنفسه ".

ومعنى العلق صلات الحب والمودة وعلاقات الألفة والمعاونة وغير ذلك مما فيه معنى التعلق والارتباط والنسب والمقاربة، كما أنها اسم جنس لتلك لجرثومة المستحدثة من النطفة. وعلى هذا المعنى الأخير، تكون الآية قد أشارت إلى خلق الإنسان من تلك الجرثومة التي تخلق منها الحيوانات، وإنما يأتي امتيازه بعد ذلك، وعلى هذا يكون معنى خلق الإنسان من علق أي من علق بويضتي الذكر والأنثى إحداهما بالأخرى. ويحصل تكوين العلقة من هذا العلق!.

وهناك معنى آخر، وهو أن الله جعل في رحم المرأة موضعا خاصا مهيئا لحياة النطفة كمستقر أو قرار مكين لها، وموضعا آخر لحياة العلقة بعده تنتقل إليه كمستودع لها، قال تعالى " هو الذي أنشأكم من نفس واحدة لمستقر، قد فصلت الآيات لقوم يفقهون "، فمتى نشبت العلقة في هذا المستودع الأخير وعلقت به ضمنت حياتها، ثم صارت بعد ذلك مضغة، فاسم علقة جاء لغة من فعلها وهو

هذا العلق بمستودع الرحم، وقد قال تعالى " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين "!

ويقول المفسرون ما يفيد أن الآية بذكرها خلق الإنسان، من علق، هو خلقه من تلك الجرثومة، وأن الآية تلفته إلى ما كان في بدء خلقه، ثم إلى ما صار إليه من كمال خلقته، وأن عقله وإرادته ووجدانه وعواطفه ونزوعه إلى الطموح والتسامي وسائر ميوله التي أوجدها الله فيه بعد تكوين جسمه والتي لم يوجدها في سواه، تجعله مخلوقا وحيدا في نوعه، ويكفي أن الله تعالى في آية بيان خلقه له، قال: " ثم أنشأناه خلقا آخر "، " فتبارك الله أحسن الخالقين "!

(ح) وذكر تعالى مسألة خلق الإنسان في آيات كثيرة غير هذه الآيات، منها قوله في سورة السجدة " الذي أحسن كل شئ خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون "، وقال تعالى في سورة الروم: " من آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون "، وقال تعالى في سورة التغابن: " هو الذي خلق السماوات والأرض بالحق، وصوركم، فأحسن صوركم "، وقال تعالى في سورة النمل: " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم، لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، لعلكم تشكرون "!

ومن هذا يتضح أن آية: " خلق الإنسان من علق "، تعطي حكما بذاتها خاصا بخلق الإنسان، كما تعطي بترتيب وضعها وصلتها بما قبلها معاني أخرى، فآية " خلق الإنسان من علق "، تشمل أمرا مستقلا، وهو أن الإنسان خلق من تلك الجرثومة، أو أنه خلق اجتماعيا بطبيعته، ومع ذلك فورودهما بعد قوله " اقرأ باسم ربك الذي خلق " فيه إتمام لسياق الهداية، وتكميل للمراد بالقراءة!

تجد أنه تعالى أطلق لفظة " علق " غير معرفة وبغير قيد أو وصف، فالآية تفيد أيضا فوق أن الإنسان خلق من جرثومة، أن الله تعالى أوجد الإنسانية من علاقات الإنسان المنوعة، ثم إن العلق والارتباط إذا لم يتحدد، يكون هو ما بين الناس كافة بعضهم لبعض، وهو المعروف بالتضامن الاجتماعي، وما بين الناس وخالقهم وهو الاعتقاد به والعبادة له، وما بين الإنسان وسائر المخلوقات وهو عبارة عن حاجته للأشياء ورغبته فيها لمقتضيات عيشه، وهي العامل الاقتصادي أو الدافع المادي الذي جعل الإنسان علقا بالمادة يحيا بها وتحيا به! فالله تعالى قد بين أن حياة الإنسانية حياة صحيحة سعيدة، إنما تبنى على ترابط اجتماعي وثيق العرى، وقد حقق الإسلام هذا الإخاء الاجتماعي بقوله تعالى: " إنما المؤمنون إخوة ".

وقد كشف الزمان اللثام عما لم يكن ظاهرا، بتقدم العلوم ودراسة الطبيعة والاجتماع والسياسة والاقتصاد والشرائع وغيرها، حتى صار لكل منها علم خاص به كعلوم النفس وعلم الحياة وعلم الاجتماع وعلم الأجناس وغيره، وقد أفادت جميعها أن الإنسانية عبارة عن علاقات وروابط بين كل الناس أفرادا وشعوبا، وبين الإنسان والكائنات الأخرى، وأن الإنسانية ليست إنسانية إلا بهذه العلاقات، وأنه كذلك يوجد ارتباط بين جسم الإنسان وعقله وروحه، وأن علاقة الإنسان بخالقه تعالى مظهرها العقيدة به والعبادة له، وأن آيات العلم قد جاءت لتقويم الشخصية الإنسانية، وأن الله تعالى لم يجعل للعلم حدا ينتهي إليه، وأنه كلما وصل الإنسان إلى علم شئ، علمه الله ما بعده ما لم يعلم " اقرأ وربك الأكرم (١) "!

(٨) وبعد: فقد حدثتك في هذا الكتاب عن إنجيل برنابا وأوقفتك على روحانيته وعنيت عند الحديث عن فصل المسيح عبد الله ورسوله، أن أقدم له بتمجيد الله، وأنهي التقديم بذكر الموت، لأنبه إلى أن الرسل لم يأتوا إلا لتعريف

---

(١) راجع ٦٥ - ١١٨ من وحي الآيات الأولى في تنزيل القرآن للمرحوم الأستاذ أحمد نجيب برادة.

الناس بربهم، وأن حبهم إنما لأنهم عرفونا بالله وعرفونا طريق الوصول إليه، ونهونا عن الطريق المبعد عنه، فيجب أن يكون تفكيرنا في هذا المعنى هو المسيطر على قلوبنا وأرواحنا، وأن نفكر في لقاء ربنا، وأن هذا اللقاء إنما لا يكون إلا بعد الموت، فهل من العقل أن نلقى ربنا وقد نسيناه، أو هل من الحكمة أن نلقاه وقد جحدناه، أو من العقل أن نلقاه وقد كفرنا به، وقد أمرنا رسله بالإيمان به، وأوحت إلينا الحياة بهذا الإيمان؟!

اقرأ أيها القارئ – من أي دين كنت – اقرأ القرآن، فهل تجد فيه غير تمجيد لله، وغير حث على الفضائل في الحياة، وغير وعد لك بالجنة إن قلت ربي الله ثم استقمت، وغير وعيد لك بالنار إن حدت عن الطريق المستقيم، فلماذا لا تقرأه، ولماذا لا تفهمه بعقلك وروحك ولماذا تنأى، وبك مسكة عقل عن الإسلام، و " لا إله إلا الله "، " موسى والمسيح ومحمد عبيد الله ورسله ".

والتقارب بين الأديان، إنما يكون بفهم أن رسل الله في الأديان السماوية – لم يأتوا لأنفسهم، بل أتوا ليعرفونا بالله وليقربونا إليه وليوصلونا إلى مرضاته، فالتفكير السليم يجعلنا نحب موسى ويسوع ومحمد، حب اعتراف بجميلهم إذ أفهمونا الإيمان بالله، لنحظى بسعادة معرفته وتوحيده وقربه ورضوانه، ولكن لا يجوز أن يطغى حب رسل الله، فنعطيهم أكثر مما لهم، وننزلهم غير منازلهم، ونحبهم أكثر من حب هدفهم وهدفنا، قدس الله أما في غير الأديان السماوية، فلا يخرج الأمر كذلك، على أن لا يطغى بنا الحب إلى أن نعطي بشرا أعجبنا به، أكثر مما له!

هذا التقارب الحق بين الأديان، هو الذي نفهمه، أن نوحد الهدف – والهدف واحد هو الله ولقاؤه في الدار الآخرة – فإذا ما وحدنا الهدف، ذهبت الخلافات وزالت، ولقد أردنا ببحثنا " الثقافة الروحية في إنجيل برنابا "، هذا السمو!

إذا رجفت الرجفة، وحقت بجلائلها القيامة، ولحق بكل منسك أهله وبكل معبود عبدته، وبكل مطاع أهل طاعته، فلم يجز في عدله يومئذ، خرق بصر في الهواء، ولا همس قدم في الأرض، إلا بحقه، فكم حجة يوم ذاك داحضة، وعلائق عذر منقطعة، فتحر من أمرك ما يقوم به عذرك، وتثبت به حجتك، وخذ ما يبقى لك مما لا تبقى له، وتيسر لسفرك، وشم برق النجاة وارحل مطايا التشمير (١) "!

الثقافة الروحية في إنجيل برنابا

خلاصة بحث

للأستاذ محمود علي قراعة

يتحدث عن التوحيد عند الحبيبين محمد ويسوع عليهما السلام

ويدل على أن هدى الله واحد في الإنجيل والقرآن

وبه قبس من هدى المسيح رسول الله وتقريب بين المسيحية والإسلام

وفيه موازنة بين روحانية إنجيل برنابا وروحانية إحياء علوم الدين للغزالي

وحديث مستفيض عن نعيم الجنة في الإسلام وعن محمد رسول الله الذي بشر به إنجيل برنابا

يطلب من مكتبة مصر بالفحالة

---

(١) راجع ص ٤٧٨ من نهج البلاغة ج ١.